البرتو مورافيا

ABU ABDO ALBAGL

السأم

مدونة ابو عبدو

دار الآداب

تصميم الغلاف

مها نصر الله

البرتو مورافيا

[illegible] الثقافي
دار الكتب الوطنية
ابو ظبي

السأم...

رواية

دار الكتب الوطنية

الرقم الخاص	رقم القيد
٨٥٣ [illegible]	٢٦٣٨[illegible]

189474

منشورات دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة
١٩٩٤

تمهيد

أذكر جيداً كيف انقطعتُ عن الرسم . فذات مساء ، بعد أن ظللت ثماني ساعات متتالية في مرسمي ، أعمل بين وقت وآخر مدة خمس دقائق أو عشر ، ثم أرتمي على أريكتي وأبقى متمدّداً عليها وعيناي محدّدتان في السقف ، طوال ساعة أو ساعتين ، رأيتني فجأة ، كما لو أن ذلك يحدث بوحي أصبح أخيراً حقيقياً بعد تلك الجهود الكثيرة اللاّمجدية – رأيتني أسحق سيكارتي الأخيرة في المنفضة الممتلئة بالأعقاب المطفأة ، وأقوم بقفزة شبيهة بقفزة الهر خارج أريكتي التي كنت أظلّ غارقاً فيها ، وأتناول مدية كنت أستعملها أحياناً لأحكّ بها لوح الألوان ، فأمزّق بضربات مكرّرة اللوحة التي كنت أرسمها ، ولم تهدأ نفسي وتسرّ إلاّ حين أحلتها إلى مِزَق . ثم سحبت من إحدى الزوايا لوحة بالمساحة نفسها ، ورميت تلك التي مزّقتها ، ووضعت الجديدة على المسند . وإذ فعلت ذلك ، لاحظت مع هذا بسرعة ان كلّ طاقتي (كيف أصفها ؟) الخلاّقة ، قد استنفدت كلياً في هذه الحركة التهديمية الغاضبة ، والتي هي عقلانية ، إذا تعمّقناها . وكنت قد عملت في هذه اللوحة طوال الشهرين الماضيين ، دون ما هدنة ، وفي اندفاع ؛ وكان تمزيقها بضربات سكّين يعادل في آخر الأمر أنني أنجزتها ، وربما بطريقة سلبية إذا نظرنا إلى النتائج الخارجية التي لم أكن في الحقيقة أهتمّ بها كثيراً ، ولكن بطريقة ايجابية فيما يخصّ إلهامي .

والواقع أن إتلاف لوحتي كان يعني اني بلغت خاتمة خطاب طويل كنت أوجّهه لنفسي منذ وقت لا أقدّره . كان هذا يعني اني وضعت أخيراً قدمي على أرض صلبة . وهكذا فان اللوحة الصافية التي كانت الآن على المسند لم تكن مجرّد لوحة ما لم تستعمل بعد ، وانما كانت هذه اللوحة الخاصة التي كنت قد وضعتها على المسند في أعقاب عذاب طويل .

وفكرت ، وأنا التمس العزاء من شعور الكارثة الذي كان يأخذ بخناقي ، بأنني ابتداء من هذه اللوحة التي تشبه في الظاهر كثيراً من اللوحات الأخرى،ولكنها بالنسبة لي محمّلة بالمعاني والنتائج . كنت أستطيع الآن ان أبدأ من جديد ، وبحرّية ؛ كما لو أنّ هذه الأعوام العشرة من الرسم لم تمرّ ، وأني ما زلت أملك خمسة وعشرين عاماً ، هي السنّ التي غادرت فيها بيت أمي ومضيت لأعيش في مرسمي ، في شارع « مارغوتا » ، لأكرّس نفسي للرسم ، على هواي .

على انه كان يمكن ، من جهة أخرى ، بل ربما كان مرجّحاً ان اللوحة العارية التي كانت قائمة الآن على المسند ، إنما كانت هناك لتسجّل تطوراً لا يقلّ صميمية وضرورة ، بالرغم من انه سلبيّ إطلاقاً ، هو الذي قادني ، بصورة تدريجية غير ملحوظة ، إلى العجز الكامل . ويبدو أنّ ما يبرهن على أنّ هذا الاحتمال الثاني هو الاحتمال الحقيقي ، أن السأم كان قد رافق، ببطء ولكن بتوكيد، عملي طوال هذه الأشهر العشرة المنصرمة ، إلى أن أوقفه تماماً وأنهاه بعد ظهر ذلك اليوم الذي مزّقت فيه لوحتي : إن ذلك يشبه قليلاً المستودع الكلسيّ لبعض الينابيع الذي ينتهي إلى سدّ انبوب ، بحيث يوقف تماماً جريان المياه .

واني إذ أبلغ هذا ، أفكر بأنه ربما كان من المستحسن ان أقول بعض كلمات عن السأم، هذا الشعور الذي سيتفق لي أن أتحدث عنه غالباً خلال هذه الصفحات.

فأنا أذكر ، بقدر ما تسعفني ذاكرتي في الارتداد عبر السنين ، انني تألمت دائماً من السأم . ولكن يجب ان نتفاهم على معنى هذه الكلمة . فهي تعني ، بالنسبة لكثير من الناس ، عكس التسلية ، والتسلية هي الشرود ، والنسيان ، ولكن السأم بالنسبة لي ، ليس عكس التسلية ، بل يمكنني القول إنه ، في بعض مظاهره ،

يشبه التسلية بما يخلّفه من شرود ونسيان ينتميان طبعاً إلى فئة خاصة جداً . إن السأم في نظري هو حقاً نوعٌ من النقص أو عدم التلاؤم أو غياب حسّ الواقع . وأعمد هنا إلى تشبيه فأقول : إن حسّ الواقع ، حين يتملّكني السأم ، يحدث لديّ ما يحدثه بالنسبة للنائم غطاء قصير أكثر مما ينبغي ، في ليلة شتوية : فإذا سحبه على قدميه ، أصيب بالبرد في صدره ، وإذا رفعه إلى صدره ، أصيب بالبرد في قدميه ؛ فهو لهذا لا يستطيع أبداً ان ينام قرير العين . أو هذا التشبيه الآخر : إن سأمي يشبه انقطاع المجرى الكهربائي في بيت . فكل شيء منير واضح ، في لحظة من اللحظات ، هنا الكراسي ، وهناك الأرائك ، وهناك الخزائن والمناضد واللوحات والبُسُط والطنافس والنوافذ والأبواب ؛ وفي اللحظة التالية ، لا يكون ثمة بعد إلا ظلام وفراغ . أو هذا التشبيه الثالث : إن بالامكان تعريف سأمي بأنه مرضٌ للأشياء هو عبارة عن ذبول أو فقدان للحيوية مفاجئان تقريباً ؛ فالأمر كأنما هو رؤية زهرة تتحول في بضع لحظات ، من التفتح إلى الذبول إلى التفتّت .

لقد ذكرت ان الإحساس بالسأم يولد فيّ من الشعور بعبثية واقع ناقص ، أي عاجز عن اقناعي بوجوده الفعلي . فقد يتفق لي مثلاً أن انظر الى قدح في شيء من التنبه . فما دمت اقول إن هذا القدح وعاء من البلور او من المعدن مصنوع ليحتوي سائلاً ويُرفع الى الشفتين من غير ان يندلق ، أعني ما دمت قادراً على تمثّل هذا القدح في اقتناع ، فسيبدو لي ان لي معه علاقةً ما ، تكفي لتحملني على الاعتقاد بوجوده ، ومن ثم على الاعتقاد بوجودي أيضاً . ولكن ليتحلّلْ هذا القدح ويفقد كثافته بالطريقة التي أتصوّرها ، او ليمثُل لعينيّ كشيء غريب ليس لي به اية علاقة ، وبكلمة واحدة ، اذا بدا لي حاجة لا معقولة ، فعند ذاك ينبع السأم من هذه اللامعقولية . وهذا السأم ، هو في آخر المطاف ، عدم التواصل والعجز عن الخروج منه . بيد أنّ هذا السأم لن يجعلني بدوره اتألم الى هذا الحدّ لو لم أكن أعرف انني ، على كوني لا علاقة لي بهذا القدح ، ربما كان باستطاعتي ان تكون لي مثل هذه العلاقة ، أعني أن القدح موجود في جنة ما مجهولة لا تكف الحاجات فيها لحظةً واحدة عن ان تكون حاجات . فالسأم إذن ، هو بالاضافة الى

عجز الخروج من نفسي ، الوعي النظري بأني ربما كنت أستطيع الفرار منها ، بفضل معجزة لا أدري ما هي .

وقد قلت اني عانيت السأم أبداً ؛ وأضيف بأني توصلت ، منذ وقت حديث نسبياً ، إلى ادراك ما هو السأم في الحقيقة ادراكاً واضحاً بما فيه الكفاية . لقد عانيت السأم في أثناء طفولتي وحداثتي وشبابي الأول ، من غير ان احلّل السبب ، شأني في ذلك شأن أولئك الذين يشكون الصداع من غير ان يصمموا أبداً على استشارة طبيب .

وحين كنت صبياً خاصة ، كأن السأم يتكلّف أشكالاً غامضة تماماً بالنسبة لي وللآخرين ، أشكالاً كنت غير قادر على شرحها ، وكان الآخرون ، أمي مثلاً ، يعزونها إلى اضطرابات في الصحة او الى أسباب مماثلة ؛ وذلك شبيه بعض الشيء بالمزاج السيء لبعض الأطفال الذي يُعزى الى نموّ أسنانهم . وفي تلك الأعوام ، كان يحدث لي أن أكفّ فجأة عن اللعب وأبقى ساعات كاملة جامداً ، كما لو انني خدر ، وأنا في الواقع مرهق باستياء كان يوحيه لي ما اسميه ذبول الأشياء ، اي الشعور الغامض بأنه لم يكن ثمة بيني وبين الأشياء أية علاقة . فاذا دخلت أمي الغرفة في تلك اللحظات ، فرأتني أبكم جامداً وممتقعاً من الألم ، وسألتني عما أشكوه ، كنت أجيبها جواباً لا يتغيّر : « انني سَئم » شارحاً على هذا النحو ، بكلمةٍ ذات معنى واضح ومحدود ، حالة نفسيةً واسعة وغامضة .

وإذ ذاك كانت أمي تحمل تأكيدي على محمل الجدّ ، فتنحني لتقبّلني ، ثم تعدني بأن تصحبني إلى السينما بعد الظهر ، اي انها كانت تعرض عليّ تسليةً لم تكن عكس السأم ولا علاجه ، وكنت من ذلك على يقين تام . وفيما كنت اتظاهر بتقبّل هذا الاقتراح في فرح، لم اكن أستطيع الامتناع عن الشعور بهذا الاحساس نفسه من السأم الذي كانت أمي تسعى الى طرده اذ تضع شفتيها على جبيني ، وتحيط كتفيّ بذراعيها ، كما تسعى الى طرده بالسينما التي كانت تلوّح بها أمام عيني كالسراب . والواقع أنه لم يكن لي في تلك اللحظة أية علاقة بشفتيها وذراعيها والسينما . ولكن كيف كان لي أن أشرح لأمي أن شعور السأم الذي أعانيه لا

يمكن أن يُخفف بأية طريقة ؟ لقد سبق ان لاحظت أن السأم يثوي بصورة خاصة في عدم التواصل . واذ كنت عاجزاً عن التواصل مع أمي التي كنت مفصولاً عنها كما كنت مفصولاً عن اي شيء آخر ، فقد كنت محمولاً على نحو ما أن أقبل سوء التفاهم هذا ، وأن أكذب عليها .

واني اتجاوز كوارث السأم خلال حداثتي . وفي تلك الفترة ، عُزيت النتائج ، الرديئة جداً التي حصلت عليها في المدرسة الى « ضعف » مزعوم ، اي الى قصور وراثي في هذه المادة او تلك من مواد التعليم ؛ وقد قبلت انا نفسي هذا التفسير لعدم وجود تفسير آخر أصلح منه . اما الآن ، فأنا على العكس أعرف بصورة يقينية ان العلامات السيئة التي كانت تنهال عليّ كالمطر في نهاية كل عام دراسي كانت مردودة الى عامل واحد : السأم . والواقع اني كنت أشعر بدقة ، في الاستياء العميق المألوف ، انه لم تكن لي أية علاقة بهذا الخليط كله من الملوك الأثينيين والأباطرة ألرومان وأنهار اميركا الجنوبية وجبال آسيا وأشعار دانتي وفيرجيل والعمليات الجبرية والصيغ الكيميائية . إن هذه الكمية الهائلة من المعلومات لم تكن تعنيني ، او انها لم تكن إلاّ لأقف على عبثيتها الاساسية . غير اني لم أكن أزهو ، لا في نفسي ولا بالقرب من الآخرين ، بهذا الاحساس السلبي المحض ، كما ذكرت ؛ بل كنت أقول لنفسي إنه ما كان ينبغي لي أن استشعره ، وكنت أتألم من ذلك .

وأذكر أن هذا الألم كان قد بدأ يوحي لي الرغبة في ان احدّده وأفسره . ولكني كنت صبياً ، بكل ادعاء الصبية وطموحهم . وكانت نتيجة ذلك مشروع تاريخ عام قائم على السأم ، لم اكتب منه الا الصفحات الأولى . وكان التاريخ العام القائم على السأم ينطلق من فكرة بسيطة جدا : هي أنّ نشاط التاريخ لم يكن قائماً لا على التقدّم ، ولا على التطور البيولوجي ، ولا على العامل الاقتصادي، ولا على أي عامل آخر يورده عادة مؤرخو مختلف المدارس . وانما هو قائم على السأم . وقد تحمّست جداً لهذا الاكتشاف الرائع ، فتناولت الأشياء من جذورها . واذن ، فان السأم كان في البدء . وكان يدعى بابتذال « الفوضى » . لقد سئم

الرب فخلق الأرض والسماء والماء والحيوان والنبات ، ثم خلق آدم وحواء ؛ وسئم هذان بدورهما في الجنة فأكلا الثمرة المحرّمة . وقد أسأما الرب فطردهما من جنة عدن ؛ وسئم قايين من هابيل فقتله ؛ وسئم نوح أكثر مما ينبغي فاخترع الخمر ؛ وعاد الرب فسئم من الناس فهدم العالم بالطوفان ؛ ولكن هذه الكارثة قد أسأمته ايضاً الى حد أنه أمر الطقس الجميل فعاد . وهكذا دواليك . ومن السأم كانت تنبثق الامبراطوريات الكبرى المصرية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية ، ثم تنهار في السأم ، وكان سأم الجاهلية يخلّف المسيحية ؛ وسأم الكاثوليكية يخلّف البروتستانتينية ، وسأم أوروبا يحمل على اكتشاف اميركا ، وكان سأم الاقطاعية يؤدي إلى الثورة الفرنسية وسأم الثورة الرأسمالية الى الثورة الروسية . وهذه الاكتشافات الجميلة كلها سُجلت على لوح صغير . ثم بدأتُ بحماس كبير اكتب التاريخ بشكل جيد لائق. ولا أظن ، كما اذكر ، اني ذهبت الى أبعد من الوصف المفصّل للسأم القاسي الذي كان يعانيه آدم وحواء في جنة عدن ، والطريقة التي ارتكبا بها الاثم المميت ، بسبب هذا السأم بالذات . ثم انني سئمت انا من مشروعي فتخليت عنه .

والواقع اني عانيت السأم، بين العاشرة والعشرين من عمري ، كما لم أعانيه في أية فترة من فترات حياتي . لقد ولدت عام ١٩٢٠ ، وهذا يعني ان حداثتي مرت تحت علامة الفاشية السوداء ، أي العهد السياسي الذي جعل من عدم التواصل نظاماً ، ليس فقط بين الدكتاتور والجموع ، بل بين المواطنين أنفسهم ، كما بينهم وبين الدكتاتور . والسأم الذي هو غياب العلاقات بين الأشياء قد ملأ ، في عهد الفاشية ، حتى الهواء الذي كنا نتنفّسه ؛ وإلى هذا السأم الاجتماعي يجب أن نضيف سأم الحاجة الجنسية المعتمة التي كانت تحرم عليّ ، كما يتفق للمرء في هذه السن ، جميع الاتصالات مع هاتيك النساء اللواتي كان المفروض ان يفرّجن عنها ، كما كنت أعتقد . ولكن السأم أنقذني من الحرب الأهلية التي اكتسحت بعد ذلك بقليل ايطاليا لمدة عامين ، وبهذه الطريقة بالذات وجدتني تحت السلاح في فرقة متمركزة في روما ؛ وما ان أعلنت الهدنة حتى تحلّلت من ثوبي العسكري ،

وعدت إلى بيتي . ثم صدر مرسوم يأمر جميع العسكريين بأن يعودوا إلى صفوفهم تحت طائلة الموت . ونصحتني أمي ، بما كانت تكنّ من احترام للسلطة التي كانت في تلك الفترة تميّز الفاشيين والألمان ، ان أعود إلى ارتداء ثوبي العسكري وان أمثل أمام قيادة المنطقة . كانت تريد سلامتي ؛ ولكنها في الواقع كانت تدفعني إلى النفي ، وربما إلى الموت ، كما كانت الحالة بالنسبة لكثير من رفاق السلاح . انه السأم ، السأم وحده ، أعني استحالة إقامة علاقة ما بيني وبين هذا المرسوم ، بيني وبين الثوب العسكري ، بيني وبين الفاشيين ، السأم الذي عانيت منه طوال عشرين عاماً هو الذي أنقذني ،هذا السأم الذي كان في ذلك الوقت يجعل امبراطورية « الفاشيو » الكبير والصليب المعقوف في حكم المعدوم تماماً .

وبالرغم من ابتهالات أمي ، التجأت إلى الريف ، ونزلت مقصورة صديق ، وقضيت هناك كل فترة الحرب الأهلية ، منشغلاً بالرسم الذي هو طريقة لقضاء الوقت ، كأية طريقة أخرى . وعندئذ أصبحت رسّاماً ، أقصد اني أمّلت أن أعقد من جديد ، وإلى الأبد ، بواسطة التعبير الفنيّ ، علاقتي مع الواقع . بل لقد اقتنعت ، في العزاء الأول الذي أصبته من حماستي للرسم ، بأن سأمي لم يكن حتى ذلك الحين إلا سأم فنان كان يجهل نفسه . وكنت على خطأ ؛ ولكني توهمت فترةً من الزمن أني قد وجدت العلاج .

وفي نهاية الحرب عدت إلى أمي التي كانت قد اشترت في تلك الأثناء مقصورة كبيرة على جادة « ابيا » . وقد سبق أن ذكرت اني كنت أؤمل ان يقضي الرسم نهائياً على السأم ؛ ولكني لم ألبث طويلاً حتى لاحظت ان ذلك لم يكن صحيحاً . وهكذا عدت أعاني من السأم بالرغم من رسمي . بل لقد استشعرت كثافة دأبي القديم ودوامه ، إذ كأن السأم يقطع آلياً رسمي ، بأوضح مما كنت أشعر به إذ أرسم . وهكذا بدا لي شكل السأم غير متغيّر ، وإذ ذاك أخذت أبحث عما عساها تكون الدوافع ، فانتهيت ، وقد عمدت إلى طريقة الحذف والإسقاط، إلى اني ربما كنت أسأم لأنني كنت غنياً ، واني لو كنت فقيراً ، لكان سأمي أقل . ولم تكن هذه الفكرة في ذهني على مثل هذا الوضوح الآن ، وأنا أسطرها على

الورق . ولقد كانت القضية أكثر من قضية فكرة ، انها شك ووسواس متملّك بأنّ صلةً لا ريب فيها ، على غموضها ، لا بدّ أن تكون قائمة بين السأم والمال .

ولست أريد أن أطيل الحديث أكثر من ذلك عن تلك الفترة المزعجة من حياتي بصورة خاصة . ولما كنت أعاني السأم (ولم أكن أرسم إذ أكون سئماً) فقد أخذت أزدري بكل قواي مقصورة أمي وما كنت أتمتع به من ملذات فيها . وكنت أعزو لهذه المقصورة سأمي واستحالة الرسم المترتبة على ذلك ، وتمنّيت بحرارة أن أهجر المقصورة . ولكن لما كانت القضية ، كما ذكرت ، قضية شك ووسواس ، فلم أكن أستطيع ان أقول لأمي بوضوح الشيء الوحيد الذي كان ينبغي لي أن اقوله لها : وهو اني لا اريد ان اعيش معك لأنك غنية ، وإن الغنى يسئمني ، وان السأم يمنعني من الرسم . بل على العكس ، كنت التمس بالغريزة ما يجعلني شخصاً لا يطاق ، بحيث أوحي على نحوٍ ما بأن أفرض ذهابي من المقصورة .

واني أتمثّل تلك الايام ايام مزاج سيء سرمدي ، وعداوةٍ عنيدة ، ورفض مصر وكراهية تكاد تكون مَرَضية . انه لم يسبق لي ان أسأت معاملة أمي كما أسأتها في تلك الفترة ؛ وهكذا كان ينضاف الى السأم الذي كان يخنقني إشفاقي عليها الذي لم يكن يستطيع ان يفسّر خشونتي . وكنت أعاني على الأخصّ نوعاً من الشلل في كل ملكاتي : فقد كان يخيّل إليّ ، وأنا أبكم ، جامد ، منغلق ، اني كنت مسجوناً ، وأنا حيّ في نفسي ، كما لو كنت في سجن خانق محكم الإغلاق .

وقد كان مقدّراً لمكوثي في المقصورة ولحالتي النفسية المترتبة عليه ان يمتدّا أطول من ذلك لو لم تحسب أمي انها تكتشف في سأمي شعوراً مماثلاً للشعور الذي هدم علاقاتها بأبي . وهذه مناسبة للحديث عنه أيضاً ، ولو بصورة عابرة ، لأنه كان قد سبقني على درب السأم .

أجل ، كان أبي متشرّداً منذ وُلد ، على ما استطعت ان أدرك من حياته ، أعني انه كان أحد هؤلاء الرجال الذين يفقدون الكلام شيئاً فشيئاً ، ويفقدون القابلية ، ويرفضون بالاجمال ان يعيشوا (كما لا يطيق بعض الطيور ان تكون في القفص) ولكنهم ما ان يجدوا أنفسهم ، بالمقابل ، على ظهر سفينة ، أو في قاطرة

من القطار الحديدي ، حتى يستعيدوا كل حيويتهم . وكان طويـــلاً أشقر رياضي الجسم ، ذا عينين زرقاوين مثلي ؛ ولكني لست جميلاً ، بالنظر إلى اني صلعت في وقت مبكر ، وكان لي وجه أقرب إلى ان يكون رمادياً معتماً ؛ اما هو ، فقد كان على العكس جميلاً ، إذا صدّقنا تقديرات أمي التي أرادت أن تتزوجه بالقوة ، بالرغم من انه لم يكفّ عن ان يردّد لها طوال الوقت بأنه لم يكن يحبّها ، وانـه سيهجرها في أقرب فرصة ممكنة .

وقد رأيته نادراً ، بالنظر إلى انه كان دائم السفر ، وكان شعره الأشقر قـد حال ، لدى لقائنا الأخير ، إلى لون رمادي تقريبـــاً ، وأتلفت وجه المراهق تجعّدات دقيقة وعميقة ؛ ولكنه كان ما يزال يرتدي عقدة الرقبة اللامباليـــة والأثواب ذات المربّعات التي كان يرتديها في شبابه .

كان يروح ويجيء ، هارباً من أمي التي كان يسأم معها ، ثم يعود اليها، ليتموّن على الأرجح بالمال بغيةَ القيام بفرار جديد ، لأنه لم يكن يملك فلساً واحداً، بالرغم من انه نظرياً كان يهتمّ بالاستيراد والتصدير . وأخـــيراً لم يعد قطّ . فقد هبّت عاصفة في بحر اليابان الداخلي فقلبت سفينة كان على ظهرهـا مئة راكب غرقوا ، وكان أبي بينهم. ماذا تراه كان يفعل في اليابان ؟ أكان هناك «للاستيراد والتصدير» أم لدافع آخر : هذا ما لم أعرفه قط . وكان أبي مصاباً ، على حدّ تعبير أمي التي كانت مغرمة بالتعريفات العلمية ، « بمرض الحركة » . وكانت تعلّق بتفكّر : أنه كان مديناً لهذا المرض بهوس جمع الطوابع البريدية ، تلك الوثائق الصغيرة الملونة عن تنوع العالم ، التي كان قد جمع منها مجموعة جميلة ما تزال أمي تحتفظ بهـا ، كما كان مديناً له بعلمه في الجغرافيا ، المادة الوحيدة التي درسها حقاً في المدرسة .

وكانت أمي ، على ما فهمت ، تعتبر « مرض الحركة » لدى أبي كخاصة فردية بحت ، لا معنى لها في الحقيقة ؛ اما أنا فلم يكن يسعني ، على العكس ، إلا ان استشعر نوعاً من الشفقة الأخوية إزاء هذا الوجه المؤثـّر الذابل ، الذي كان يزداد امتقاعاً مع الزمن ، والذي كنت أحسب اني أتعرّف فيه على بعض ملامح مشتركة معي ، فيما يخص علاقاته بأمي على الأقل . ولكنها كانت ملامح خارجية ، وكنت

أدرك ذلك وأنا أفكر في الأمر . صحيح ان أبي كان هو أيضاً قد عانى السأم ، ولكن هذه المعاناة لديه كانت قد انحلّت إلى تشرّد سعيد عبر العالم ؛ وبعبارة أخرى ، كان سأمه السأم المبتذل ، كما يفهم عادةً ، الذي لا يطلب شيئاً آخر غير ان يفرّج عنه بأحاسيس جديدة ونادرة . والواقع ان أبي كان قد آمن بالعالم ، على الأقل بعالم الجغرافيا ، بينما لم أكن أنا أنجح في الايمان بقدح .

ومهما يكن من أمر ، فان أمي لم تكن تنظر إلى الأمر عن مثل هذا القرب . وحسبتْ انها ترى في سأمي الضجرَ السطحي الذي كان قد جعل علاقتها بأبي شاقة . وقد قالت لي يوماً ، بصورة مفاجئة :

ـ من سوء الحظ أنك تشبه أباك أكثر مما تشبهني . وأنا أعرف ان العلاج الوحيد ، حين تعاني ذلك ، هو ان أرسلك إلى البعيد . فاذهب إذن إلى حيث يروق لك ، وعُدْ إليّ حين يزاولك هذا .

وما لبثت أن أجبت في سلوى بأني لم أكن أنوي الذهاب ؛ فان السفر لم يكن يهمني على الاطلاق . كل ما كنت أبغيه ان أغادر البيت ، وأن أقيم وحدي لحسابي الخاص . فاعترضت أمي بأنه من غير المعقول ان أذهب لأعيش وحدي ، بينما كان بامكاني ان أتمتع بمقصورة كبيرة كتلك التي كنا نسكن فيها ، والتي كنت أفعل فيها ، بالإضافة إلى ذلك ، كل ما كنت أريد. ولكني كنت قد عزمت على انتهاز الفرصة ،فأجبت في عنف بأني سأغادر البيت في اليوم التالي ، وإني لن أبقى فيه ساعة أخرى . وأدركت أمي آنذاك بأن الأمر كان جداً ، فاكتفت بالترديد ، في مرارة مليئة بالتجربة ، بأنها تجد حتى في جوابي لهجة أبي : فلأفعل إذن ما بدا لي ، ولأذهب فأسكن حيث أشاء .

تبقى قضية المال . لقد كنّا أغنياء ، كما سبق ان ذكرت ، وكنت قد تصرّفت حتى ذلك الحين برصيد غير محدود ، إذا صحّ التعبير ؛ وكنت أغرف من حساب أمي في المصرف كلما كنت بحاجة إلى ذلك. وتنبّأت أمي بأنها ستعيد معي التجربة التي قامت بها مع أبي الذي كانت تعطيه دائماً من المال ما يكفي لذهابه ، ولكن ما لا يكفي أبداً لبقائه بعيداً عنها ، فأبلغتني في خشونة انها بعد الآن

ستدفع لي كذا في الشهر . فأجبت بأني لم أكن أطلب أكثر من ذلك ؛ وحين أبلغتني ، في شيء من الندم الخانق ، المبلغ الذي كانت تنوي ان تدفعه لي، سارعت إلى القول بأني أكتفي بنصفه . وكانت أمي تتوقّع مناقشة من طراز تلك التي كانت تعقدها في السابق مع أبي الذي لم يكن يملك قط مالاً كافياً ، فإذا بها تدهش لزهدي غير المتوقّع ، وإذا بها تصرخ ، كأنما على غير ارادة منها :

– ولكنك لن تستطيع يا دينو ان تعيش بمثل هذا المبلغ الضئيل .

فأجبت بأن الأمر كان يعنيني ، وحتى لا أتظاهر بمظهر التقشّف ، أضفت بأني كنت اؤمّل ان أتوصّل بسرعة إلى كسب معيشتي من الرسم . وخيّل إليّ ان أمي كانت تنظر إليّ غير مصدّقة : وكنت أعرف انها لم تكن تؤمن باستعداداتي الفنيّة . وبعد بضعة أيام ، وجدت مرسماً في شارع « مارغوتا » فأقمت فيه مع كل حوائجي .

وبالطبع لم يحمل تغيير المنزل أي تغيير في حالتي النفسية . وأنا أقصد إلى القول اني بعد ان زال شعور التخفّف الذي يلي كل تغيير ، عدت إلى الشعور بالسأم ، بين الفينة والفينة ، كما في السابق . وقد قلت « بالطبع » لأنه كان لا بدّ لي من ان أتنبأ بأن سأمي ما كان ليستطيع ان يزول لمجرّد انتقال من بيت إلى بيت : فقد كنت ، على كل حال ، غنياً ، لا لأني كنت أسكن شارع « آبيا » ، ولكن لأنه كان تحت تصرفي مبلغ من المال . ولم يكن يغيّر من الأمر شيئاً اني لم أكن أريد ان أستخدم هذا المال ؛ فهناك أغنياء بخلاء لا ينفقون إلا قسماً ضئيلاً من عائداتهم ويعيشون في تقتير ؛ ولكن ليس ثمة من يعتبرهم ، لهذا السبب ، فقراء . وهكذا جاء يحل محلّ فكرتي الأولى أو وسواسي الأول بأن سأمي وعقمي الفني المترتب عليه كانا مردودين إلى اني كنت أسكن مع أمي ، فكرةٌ أو وسواس آخر أشد خطراً : إن المرء لا يستطيع ان يزهد في غناه الخاص؛ فأن يكون غنياً يشبه ان يكون له عينان زرقاوان أو أنف أقنى ؛ لقد كان تميز دقيق يشد الغني إلى المال ويعطي اللون المال إلى حد التصميم بعدم استعماله . وبالاجمال ، لم أكن فقيراً سبق ان كان غنياً ، وانما كنت غنياً يتظاهر أمام نفسه وأمام الآخرين بأنه

فقير .

وقد برهنت على صحة ذلك بالطريقة التالية: «ماذا يفعل فقير حقيقي حين لايملك المال ؟ إنه يموت جوعاً . وما عساني أفعل في مثل هذا الوضع ؟ انني اذهب لأطلب النجدةمن أمي، وحتى لو لم أكن اطلب منها شيئاً ، فان ذلك لن يكفي لاعتباري فقيراً ؛ بل سوف أعتبر ، على العكس ، مجنوناً . . »

ولكني سرعان ما فكرت : « ليست حالتي بالحالة العجيبة . » انها حالة عامّة، ما دام صحيحاً اني كنت أقبل ان تنفق أمي عليّ ، بالرغم منانها تحدّد هذا الإتفاق بالحد الضروري . وهكذا كنت اجد نفسي ، لدى المقارنة بالفقراء الحقيقيين ، في الوضع الممتاز والمزيف الذي يجد فيه نفسه مقامرٌ غنيّ بازاء مقامر فقير : يستطيع الاول ان يخسر الى ما لا نهاية ، اما الثاني فلا . ولكن الاول يستطيع خاصة ان « يقامر » ، اي ان يتسلّى ، في حين ان الثاني لا يستطيع الا ان يلتمس الربح .

ومن الصعب التعبير عما كنت أحسّه وأنا افكر في هذه الأمور . انه إحساس من سحر بائس ، على نحو ما ، لم أكن استطيع ان أفعل شيئاً ضده ، لأني لم اكن استطيع ان اعرف متى وكيف حدث السحر الذي كان يفتّتني . كنت أحياناً افكر في عبارة الانجيل : « إنه لأسهل ان يدخل جمل من ثقب الابرة من ان يدخل غنيّ ملكوت السموات . » وأتساءل : مـــاذا يعني « ان يكون المرء غنياً » ؟ ايكون غنياً لأن تحت تصرفه كثيراً من المال ؟ او لأنه ولد في اسرة غنية ؟ او لأنه عاش ولا يزال يعيش في مجتمع يرفع المال فوق جميع الخيرات الأخرى ؟ او لأنه ، يؤمن بالغنى اذ يتمنى ان يصبح غنياً او يتحسّر على انه كان غنياً ؟ او لأنه، كما هي حالتي ، لا يريد ان يكون غنياً ؟

وبمقدار مـــا كنت أفكر ، كان يخيّل إليّ من الصعب ان اوضّح لنفسي شعور التميز وسبق التهيئة الذي كان يوحيه لي الغنى . إن هذا الشعور بالطبع ما كان ليوجد لو كنت قد نجحت في التحرر من تملّك فكرة أن السأم كان يصدر عن الغنى وان العقم الفني يصدر عن السأم . ولكن جميع افكارنا ، حتى وأكثرها عقلانية ، تولد من معطى غامض للعاطفة . وان يتحرر المرء من العواطف هو أشق

من أن يتحرر من الأفكار : فان هذه تروح وتجيء ، بينما العواطف تبقى .

ستعترضون علي الآن بأني لم أكن ، في نهاية المطاف ، إلا رساماً فاشلاً ، وهو يعي إفلاسه ، وربما كانت هذه حالة شاذة. هذا كل ما في الأمر. إن ذلك صحيح ، ولكن الى حد ما . لقد أخفقت بالتأكيد ، لا لأني لم اكن احسن رسم لوحات تروق الآخرين ، ولكن لأني كنت أشعر بأن لوحاتي لم تكن تتيح لي ان أعبر عن رأيي . اقصد انها لم تكن تعطيني الوهم بأنه كانت لي بالأشياء علاقة ، وبالاجمال ، لم تكن تحول بيني وبين ان أسأم . فالواقع اني لم آخذ نفسي بالرسم إلا لأفلت من السأم . فاذا ظللت على سأمي ، فما جدوى ان ارسم ؟

اذا لم تخني الذاكرة ، تركت مقصورة أمي في شهر آذار ١٩٤٧ ؛ وبعد عشرة اعوام بقليل ، كنت امزق بضربات سكين ، كما سبق ان رويت ، لوحتي الأخيرة ، وأصمّم على ان انقطع عن الرسم . وسرعان ما عاد السأم الذي كانت ممارسة الرسم حتى ذلك الحين قد صرفته قليلاً ، عاد يرهقني من جديد في عنف غني معهود . وقد سبق ان لاحظت ان السأم هو في حقيقته انعدام العلاقات مع الأشياء ؛ وفي تلك الايام خيّل إلي انه لم يكن لي علاقة حتى مع نفسي . وهذه أمورٌ صعبة التفسير وسأكتفي لإيضاحها باستعمال استعارة : فخـــلال الأيام التي تبعت قراري لهجر الرسم ، كنت في نظر نفسي شيئاً شبيهاً بشخص لا يُحتمل لأسباب مختلفة ، يجده مسافرٌ في حافلته عند بدء رحلة طويلة . والحافلة هي من تلك الحافلات المصنوعةعلى الطراز القديم ، من غير اتصال معالحافلات الاخرى ؛ وكان المفروض في القطار ألا يتوقف قبل نهاية الرحلة ؛ وعلى هذا ، فان المسافر مضطرٌ إلى البقاء مع رفيقه الكريه حتى آخر المطاف . والواقع ان السأم كان في هذه السنوات الاخيرة قد نحت حياتي حتى أعماقها ، ولو كان ذلك تحت مظاهر مهنتي كرسّام ، ولم يدع لي شيئاً قائماً ، حتى أحسست فور هجري للرسم ، اني كنت قد تحوّلت من غير ان ألاحظ ، إلى نوع من الحطام المشوّه ، إلى كائن مقطّع الاوصال . وكان المظهر الرئيسي للسأم ، كما أشرت ، هو العجز العملي عن ان أظلّ تجاه نفسي التي هي من جهة أخرى الشخص الوحيد في العالم الذي لم أكن أستطيع بحالٍ من الاحوال ان

أتحلل منه .

وإذن ، فقد كان نفاد صبر عجيب يملك عليّ حياتي في تلك الفترة . لم يكن ثمة شيء ما أفعله يروق لي أو يبدو لي جديراً بأن يُنجز ؛ ومن جهة أخرى لم يكن بوسعي أن أتصوّر شيئاً يمكن ان يروق لي أو يمكن ان يشغلني بشكل دائم. وكل حجة باطلة كنت أعطيها لنفسي كانت صالحة لكي أخرج من مرسمي، لكي لا أبقى فيه : شراء سكاير لم تكن لي بها أدنى حاجة ، شرب فنجان قهوة لم تكن لي أية رغبة فيه ، ابتياع جريدة لم تكن قط لتهمني ، زيارة معرض للرسم لم يكن يدفعني اليه أي فضول ، وهلم جرا . ومن جهة أخرى، كنت أحس بأن هذه الانشغالات لم تكن إلا تحريفات أو تزويرات نافدة الصبر للسأم ، حتى انني لم أكن غالباً أمضي إلى أعماق الاشياء التي كنت أباشرها ، وبدلاً من ان أشتري جريدة أو أحتسي فنجان قهوة أو أزور معرضاً ، كنت أعود بعد بضع خطوات إلى المرسم الذي كنت قد غادرته منذ دقائق في كثير من العجلة . ولكن ما ان أستقر في المرسم ، حتى يكون السأم بانتظاري هناك طبعاً . ويعود كل شيء من جديد .

وقد كان عندي مكتبة صغيرة ؛ وكنت أتناول كتاباً ، وأنا قارىء كبير منذ بدأت أقرأ ، ولكني سرعان ما أترك قراءتي : روايات ، دراسات ، شعر ، مسرح ، كل أدب العالم ، لم تكن صفحة من هذا كله تبلغ ان تلفت انتباهي . وأنّى لها ذلك ؟ إن الكلمات هي رموز الأشياء ، وفي فترات سأمي ، لم يكن لي بالاشياء علاقات. وإذن، فقد كنت أدع كتابي يسقط ، أو انني كنت ، في حركة غضب ، أقذف به إلى ركن وألجأ إلى الموسيقى . وكنت أملك « فونوغرافاً » ممتازاً ، هو هدية من أمي ، مع زهاء مئة اسطوانة . ولكن منذا الذي استطاع يوماً ان يقول ان الموسيقى تؤثّر بأي شكل ، وتجتذب اليها الاذن ، قسراً إذا صح التعبير ، حتى بالنسبة لأشد الناس شروداً ؟ ان من قال هذا ، قال شيئاً غير صحيح . فالواقع أن أذنيّ لم تكونا ترفضان فقط ان تصغيا ، بل ان تسمعا أيضاً . ثم إن هذه الفكرة ، إذ أعمد إلى اختيار اسطوانة، كانت تشلّني: ما هي الموسيقى التي يمكن سماعها في لحظات السأم ؟ وكنت آنذاك أغلق الفونوغراف وأرتمي على

الأريكة وآخذ في التفكير بما يمكنني ان أفعل .

وما كان يثير دهشتي خاصة هو انني فيما أرغب بحرارة ان أفعل شيئاً ما ، لم أكن أستطيع قط ان أفعل شيئاً . إن كل ما كنت أود ان أباشره كان يمثل أمامي ملتصقاً بنقيضه الذي لم أكن أريد ان أفعله في الوقت نفسه – كان يمثل ملتصقاً به كأنهما اخوان سياميان . وإذن ، فقد كنت أحسّ اني لم أكن أريد ان أرى أحداً ، ولكني كذلك لا أريد ان أبقى وحدي ؛ لم أكن أريد ان أبقى في البيت ، ولكني لا أريد كذلك ان أخرج ؛ لم أكن أريد ان أسافر ولكني في الوقت نفسه لا أريد ان أستمر في العيش في روما : لم أكن أريد ان أرسم بعد ، ولكني لا أريد كذلك ان أبقى بدون رسم ؛ لم أكن أريد ان أبقى مستيقظاً ، ولكني لم أكن أريد ان أنام ؛ لم أكن أريد ان أعمل الحب ، ولكني لا أقبل ان لا أعمله وهكذا ... كنت أعاني النفور والاشمئزاز والاستفظاع .

وكنت بين فترة وفترة ، بين حالات سأمي الجنونية ، أتساءل عما إذا لم أكن أتمنى أن أموت ؛ وكان هذا سؤالاً معقولاً ما دامت الحياة تسوءني إلى هذا الحد. ولكني كنت ألاحظ إذ ذاك في ذهول أني لم أكن أريد ان أموت ، على الرغم من ان الحياة لا تروق لي. وهكذا فان هذه الاحتمالات المتلاصقة التي كانت تمرّ في رأسي ، كرقصة باليه مشؤومة ، لم تكن لتتوقف تجاه الاختيار الأقصى بين الحياة والموت . وكان يتفق لي ان أفكر في الواقع باني كنت أقل رغبةً بالموت مني بالاستمرار في الحياة على ذلك النحو .

الفصل الأول

بعد أن أقمت في مرسم شارع « مــــارغوتا » نجحت في التغلب على النفور اللامعقول والموسوس الذي كانت توحيه لي مقصورة جادة « آبيا » ، وفي اقامـة علاقات منتظمة مع أمي بما فيه الكفاية . فقد كنت أذهب لاتناول الغداء عندها مرة في الاسبوع ، لان تلك كانت فترة النهار التي كنت واثقاً أن أجدها فيها وحدها ، وكنت أظل ساعة أو ساعتين وأنا أستمع إلى حديثها المعتــــاد ، الذي كنت أحفظه عن ظهر قلب ، حول الامرين اللذين كانا يهمّانها : علم النبات ، أي الزهور والنباتات التي كانت تزرعها في حديقتها ، وشؤونها التي كانت تكرس لهـا نفسها منذ سن الرشد إذا أمكن القول .

والحق ان أمي كانت تودّ لو أجيء لرؤيتها أكثر من ذلك ، وفي أوقـــات أخرى . مثلاً حين كانت تستقبل أصدقاءها أو أفراد مجتمعها ، ولكن بعد دعوتين رفضتهما بجزم ، بدت قانعة بندرة زياراتي . وبالطبـع اختفت هذه القناعة سريعاً في المناسبة الاولى ، وكان من عادتها أن تكلمني متحدثة عن نفسها بلهجة الغائب ، وكانت هذه دلالة على شعور حي لم تكن تستطيـع إخفاءه ، فتقول لي مثلاً :

– ستدرك فيما بعد ان أمك ليست سيدة عادية تـُزار بدافع من مجـــاملة او لياقة ، وأن بيتك الحقيقي هو هنا لا في شارع مارغوتا .

وذات يوم ، وكان قد مضى وقت قصير على انقطاعي عن الرسم ، قصدت بيت

أمي لاتناول الغداء المعتاد . والحق انه كان غداءً خاصاً بعض الشيء ، فالواقع ان ذلك اليوم كان عيد ميلادي ، وقد ذكّرتني به أمي صباح ذلك اليوم بالتلفون وهي تعبّر لي عن أمنياتها بطريقتها الاحتفالية الإدارية :

ـ لقد بلغت اليوم الخامسة والثلاثين ، وأنا أتمنى لك أصدق أمنيات السعادة والنجاح .

وفي الوقت نفسه أبلغتني أن « مفاجأة » كانت تنتظرني .

وحوالي الظهر ، صعدت إلى سيارتي القديمة المتهدمة ، واجتزت المدينة يغمرني شعور الاستياء والنفور المألوف الذي كان يبدو وكأنه يعمق ويكبر ما اقتربت من هدفي . وانتهى بي الأمر ، وقلبي يختنق بضيق ثقيل ، إلى بلوغ جادة آبيا بين أشجار السرو والصنوبر والخرائب الأثرية القرميدية وهي تتابع على حافتي الطريق المعشبة . وكان الممر يصعد قليلاً حتى المقصورة التي كانت تُرى في نهايته ؛ وفيما كنت أنظر إلى شجرات السرو الصغيرة المجعّدة ، وإلى المقصورة الواطئة الحمراء القابعة تحت سماء مليئة بالغيوم الرمادية الشبيهة بحزم من القطن المندوف المتّسخ ، أحسست في روحي بالاشمئزاز البرم الذي كان يرهقني كلما كنت أزور أمي ، اشمئزاز من يهمّ باقتراف عمل مخالف للطبيعة ، كما لو اني كنت إذ أصعد الممر أعود فأدخل إلى البطن الذي حملني .

وكنت أجهد لإزالة شعور النفور هذا باطلاق زمور سيارتي في جنون لاعلن عن مقدمي . وبعد ان استدرت نصف استدارة على الحصى ، أوقفت سيارتي أمامَ البيت وقفزت إلى الارض . وما لبث الطابق الاسفل ان فتُح وبرزت على عتبته فرّاشة .

ولم يكن قد سبق لي ان رأيتها قبل ذلك اليوم . وكانت أمي تصر على ان تكون للمقصورة خادمة لا تكاد تفي لمنزل من خمس غرف ، وكانت من أجل ذلك مضطرة إلى تغيير الخادمة غالباً . وكانت تلك الفتاة طويلة ذات كشحين عريضين وصدر صلب واسع ، وشعر قصير بصورة غريبة وسيء القص ، فهو يشبه شعر المساجين أو الناقهين ، وكان على وجهها الممتقع المرقّش تعبيرُ مداورة ربما

كانت تعكسه نظارتها المؤطرة باطار أسود يخفي عينيها . ولاحظت خصوصاً فمها الشبيه بزهرة مسحوقة . أو وردة غرنوقية دقيقة . وسألتها أين أمي ، وبدورها ـ ألتني بصوت رقيق جداً :

– أنت السنيور دينو ؟

– نعم .

– إن السنيورة في الحديقة ، من جهة المدافيء .

فسرت في هـذا الاتجاه وانا القي نظرة اندهاش الى سيارة كانت بالقرب من سيارتي . سيارة « سبور » واطئة وصلبة ، بلا سقف ، ذات لون معدني أزرق . وإذن ، فان أمي قد دعت أحداً للغداء . وفيما أنا أقلب في ذهني هـذا الاتفاق السيء ، استدرت حول المقصورة ، على طول الرصيف القرميدي ، في ظل الحور والسنديان الأخضر ، وخرجت من الجهة المقابلة . وهناك تنبسط حديقة واسعة على الطراز الايطالي مزينـة بمصاطب في شكل مثلثات ومربعات ودوائر ، بأشجار مقصوصة كروياً او هرمياً او على شكل خبز السكر ، مع ممرات عديدة ، كبيرة وصغيرة ، يغطيها الحصى ويحفها البقس . وكان ممر مستقيم عريض تحميه خيمة حديدية مطلية بالأبيض وتنبسط حولها أغصان الكرمة ، يقطع الحديقة الى قسمين ، ويمتد من المقصورة حتى داخل الاملاك حيث كان يُرى زجاج عدة مدافيء للنباتات ذات الزهور ، مستندة الى جدار الحاجز . وفي منتصف الطريق ، بين المقصورة والمدافيء ، لمحت امي تمشي وحدها تحت الظلة وهي توليني ظهرها . وعدلت لحظة عن مناداتها ورحت أنظر اليها .

كانت تمشي ، ببطء شديد ، كما يفعل المرء حين ينظر حوله في التذاذ ويطيل تأمله اطول مدة ممكنة . وكانت امي ترتدي نوعاً من « التايور » الأزرق الفاتح كانت سترته ضيقة جداً لدى الخاصرتين وعريضة جـداً لدى الكتفين ، وكانت تنورته ضيقة جداً على شكل مشد . وكانت تلبس دائماً هـذا النوع من الثياب المحكمة التي كانت تجعل شخصها القصير الخرع اكثر هزالاً وضيقاً ، وتجعله صلباً كالدمية . وكان لهـا رأس ضخم فوق عنق طويلة عصبية ، وشعر مجعد ذو

شقرة لا التماع لهـــا . ولكنه ابـداً مموّج ومثنّى . وكان بوسعي ان أرى على عنقها ، من بعيد ، لآلئ عقدها ، من فرط ضخامتها . كانت امي تحبّ ان تتزيّن بجوهرات فاقعة : خواتم ثقيلة مفرطـة الكثافة بالنسبة لأصابعها الهزيلة ، وأساور كبيرة مزيّنة بتمائم وجواهر كانت تبدو في كل لحظة وكأنها ستنزلق من معصميها المعظمين ودبابيس مُرصّعة مفرطة الغنى بالنسبة لصدرهـــا الضيّق وحلق مفرط الضخامـة بالنسبة لأذنيها القبيحتين الغضروفيتين . بل لقد لاحظت مرة اخرى ، في مزيج من الألفة والانزعاج ، بأن الحذاء الذي كان في قدميها والمحفظة التي كانت تشدّها تحت ذراعها يبدوان اكبر مما ينبغي . ثم عزمت اخيراً على مناداتهـــا : « ماما ! »

وبحذر متميّز توقفت فجأة ، كما لو ان احداً وضع يده على كتفها ، ثم أدارت قامتها ببساطة من غير ان تحرّك ساقيها . ورأيت اذ ذاك وجهها المروّس ذا الخدين المجوّفين ، والفم المنكمش ، والأنف الطويـــل الدقيق ، والعينين الزرقـاوين المزججتين اللتين كانتا تنظران إلي نظرة مواربة .

وابتسمت ، واستدارت تماماً ، ثم أقبلت للقائي ،منخفضة الرأس محددة العينين في الأرض ، وقالت لي في عبارة تأدب :

– مرحبا ومئة يوم آخر كهذا !

وبالرغم من ان نيتها كانت نيـة ودّ وشغف ، فانه لم يسعني الا ان الاحظ أن جرس صوتها كان هو نفسه ، جافاً وثاقباً كأنه صراخ طير الزاغ . وكررت حين وصلت الى قربي :

– مئة يوم كهذا ! هيّا قبّلني !

فانحنيت إذ ذاك ورميت قبلة سريعة على خدها . وتوجهنا جنباً الى جنب نحو آخر الممر . وقالت لي امي وهي تشير الى العريشة التي تغطي الظلّة :

– اتدري ما الذي كنت أتأمله ؟ عناقيد عنبي ، انظر ...

ورفعت عيني فرأيت أن العنـاقيد كانت تبدو شبه متآكلة وفارغة . وقالت امي بتلك اللهجة الغريبة الحميمة ، الرقيقة والعلمية في وقت واحد ، تلك اللهجة التي

تتخذها وهي تتحدث عن زهورها ونباتها :

ـ الحراذين ... هذه الحيوانات القذرة تتسلق على أعمدة الظلة وتأكل العنب . إنها تفسد هذه الظلة، لأن هذه العناقيد السود تترك اثراً جميلاً جـــداً مع الاوراق والأغصان الخضر ؛ ولكن إذا تأكلت العناقيد ذهب الاثر .

وقلت ما لا ادريه حول سقف رسمه « زوكاري » في قصر روماني يمثل ظـــلة مذهبة مع عناقيد سود واوراق خضر ، وتابعت أمي :

ـ حدث منذ ايام أن دخلت دجاجة تخص الفلاحين المجاورين الى الحديقة ، لا أدري كيف . وكان حرذون على الظلة يمص طبعاً عني . واتفق ان فقد التوازن وسقط . تصوّر انه لم يبلغ الارض : فلقـــد التقطته الدجاجة بمنقارها والتهمته . التهمته كلياً ...

فقلت :

ـ يجب إذن ان تربي دجاجـــاً فيأكل الحراذين .. وبطبيعة الاشياء ، حين تُؤكل الحراذين ، لا تستطيع ان تأكل العنب .

ـ رحماك ! إن الدجـاج الى جانب كونه يأكل الحراذين ، يتلف كل شيء حيث يذهب . فأنا أفضّل أن أحتفظ بالحراذين .

وأتممنا زيارة الحديقة ، عابرين الممر تحت الظلة حتى جدار الحاجز ، ثم سائرين بمحاذاة المدافيء . وكانت امي تارة تنحني لتأخذ في قبضة يدها بين إصبعين ، برعم زهرة تفتـّح في الليل ، وتارة تظل مسحورة ـ وهذه هي الكلمة الملائمة ـ أمـــام وعاء من الطين تخرج منه نبتةٌ كثيفة شبيهة بافعى خضراء مشعرة ، فتتدلى حتى الارض وهي توهم بانها تكاد أن تفحّ وتنفث سمّها ؛ وطوراً كانت تقـدم لي بلهجة تعليمية خشنة ، كمية من المعلومات النباتية ، مستمدة من قراءة دقيقة لكتب علم زراعة البساتين ، وكذلك من أحاديثها الطويلة مع البستانيين ، الشديـدي الصبر لارتفاع المبلغ الذي يتقاضيانه ، واللذين كانت تجشمها صحبتها طوال الوقت الذي كانا يعملان فيه في الحديقة .

وكما قلت سابقاً ، فان حبّ الزهور والنبات كان الشيء الشعري الوحيـد في

الوجود ، في رأي أمي . صحيح أنها كانت تحبني ، على طريقتها ، وأنها كانت تولي ادارة ملكنا وتنميته حماسة واخلاصاً لا يصدّقان . ولكنّ شخصيتها ازائي وازاء الاعمال، كانت تفرض نفسها بسلطة نفعية وحذر، من غير وساوس . وعلى العكس من ذلك ، كانت تحبّ الزهور والاشجار حباً موضوعياً ، في استسلام كليّ ، وبلا افكار مسبقة . وعلى مألوف عادتي ، جاءتني الفكرة باني كنت أشابه ابي في هذه النقطة على الاقل : اننا لم نكن نريد أن نسكن مع امي . وسألتها فجأة :

– بالمناسبة ، هل يمكنني ان أعرف لماذا كان أبي يذهب دائماً بعيداً عنك ؟

ورأيتها تقطّب أنفها كالعادة حين تحدثني عن أبي وتقول :

– بمناسبة أيّ شيء ؟

– ليس لذلك أهمية ، بل أجيبي على سؤالي .

فاجابت بعد لحظة ، في رصانة باردة :

– لم يكن أبوك يسعى الى الانفصال عني ، كل ما هنالك انه كان يحب السفر . ولكن انظر الى هذه الورود ، أليست جميلة ؟

فقلت بلهجة قاطعة :

– أود ان تكلميني عن أبي . فإذا كان صحيحاً انه لم يكن يسعى إلى تركك، فلماذا لم تكوني تسافرين معه ؟

– قبل كل شيء ، كان ينبغي ان يظلّ أحدٌ في روما ليهتم بشؤوننا .

– تقصدين بشؤونك ..

– بشؤون الاسرة . ثم اني لم أكن أحبُ طريقته في السفر . اني أحب ان أسافر بطريقة مريحة ، وان أقصد الاماكن التي فيها فنادق جيدة وأشخاص أعرفهم . مثلاً باريس ، لندن ، فيينا ، اما هو ، فلو ذهبت معه لقادني على العكس لا أدري إلى أين ، الافغانستان مثلاً أو بوليفيا ... انني لا أستطيع ان أحتمل الازعاجات ، ولا أطيق البلدان الاجنبية الغريبة .

وألححت :

– ولكن لماذا كان بالاجمال يفرّ من البيت ، أو كما تقولين ، لماذا كان يسافر؟

.لماذا لم يكن يبقى معك ؟
ــ لانه لم يكن يحب ان يبقى في بيته .
ــ ولماذا لم يكن يحب ان يبقى في بيته ؟ أكان يسأم ؟
ــ لم أهتمّ قط بمعرفة ذلك . كل ما كنت أعرفه انه كان يصبح حزيناً ، ولا يقول شيئاً ، ولا يخرج أبداً . وفي النهاية ، كنت أنا التي أعطيه مالاً وأقول له : خذ ، واذهب ، فمن الافضل ان تذهب .
ــ ألا تعتقدين انه لو كان يحبك لبقي ؟
فأجابت في هدوء ، بصوتها المستاء الذي كان يبدو ملتذاً بقول الحقيقة :
ــ بكل تأكيد ، ولكنه لم يكن يحبني .
ــ ولماذا إذن تزوّجك ؟
ــ أنا التي أردت ان أتزوجه . اما هو فقد كان يفضّل ان يستغني عن ذلك ..
ــ كان فقيراً ، أليس كذلك ؟ وأنت ، غنية ؟
ــ نعم . نعم . لم يكن معه شيء تقريباً . كان من أسرة طيبة ، ولكن هذا كل شيء .
ــ ألا تظنّين انه كان ربما يريد ان يتزوج زواج مصلحة ؟
ــ اوه ! كلا . إن أباك لم يكن رجل مصلحة . وقد كان في هـــذا مثلك . صحيح انه كان دائماً بحاجة إلى المال ، ولكنه لم يكن يعطي المال أهمية
ــ أتعلمين لماذا أطرح عليك جميع هذه الاسئلة عن أبي ؟
ــ الحق اني لا أفهم السبب ..
ــ لانه خطر لي أني أشبهه ، من زاوية واحدة على الاقل . فأنا أيضاً أهرب باستمرار بعيداً عنك ..
فرأيتها تنحني ثم تقص بمقص صغير لم ألاحظه أول الامر ، وردةً حمراء في عناية ، ثم انتصبت وسألتني :
ــ كيف حال عملك ؟
ولدى هذا السؤال شعرت فجأة بحنجرتي تنقبض ، وينتشر حولي شعور أسى

رمادي مثلج و صادراً عني في تموّجات متتالية تزداد اتساعاً ، كما يحدث في الطبيعة حين تقف سحابة بين الشمس والارض . وأجبت بصوت مختنق ، بالرغم مني :

ــ لقد انقطعت عن الرسم ..

ــ ماذا تعني ؟

ــ لقد عزمت على ان أكفّ عن الرسم .

ولم يكن سبق لامي أن أكنّت أيّ ودّ لرسمي ، لانها قبل كل شيء ، لم تكن لتفهم منه شيئاً،من غير ان تريد مع ذلك ان تقرّ الامر او تسمع من يتحدث عنه ؛ ثم إنها كانت تعتقد ، على غير خطأ ، أن الرسم هو الذي أبعدني عنها . ولكن كان لا بدّ من ان أقدّر ، مرة أخرى ، قدرتها على مراقبة نفسها . وقد كانت امرأة أخرى ، في مكانها ، جديرة على الاقل باظهار بعض الرضى . اما هي ، فقد تلقت النبأ ، على العكس ، في عدم اكتراث .

وسألت بعد لحظة بلهجة فضول خالص ، لامبالٍ ومحايد :

ــ ولماذا تراك قد عزمت على ترك الرسم ؟

وكنّا قد بلغنا المقصورة ، وكانت رائحة طبخ، طبخ ممتاز ، تطفو في الجوّ. وكنت أشعر في الوقت نفسه بان يأسي كان يتفاقم ، بدلاً من ان يخفّ ؛ ومع ذلك ، فلم أكن أني أردّد في غضب: « .. سيزول هذا .. انه يزول » وإذ ذاك عاودت ذهني ذكرى : لقد تمثلتني طفلاً في الخامسة من عمري ، وركبتي دامية ، وأنا أصعد باكياً في يأس حديقة أخرى ، أعدو لملاقاة أمي وارتمي في اندفاع بين ذراعيها ؛ وتذكرت أمي منحنيةً عليّ تقول بصوتها القبيح :

ــ كفى ، لا تبكِ ، وأرني ركبتك ، لا تبك ، ألا تدري ان من يبلغ سن الرجولة لا يبكي ؟

ونظرت إلى أمي ، وللمرة الاولى منذ وقت طويل ، خيّل إليّ أني كنت استشعر نحوها بعض الحبّ . وقلت مجيباً على سؤالها :

ــ هكذا ...

وكان ذلك أوجز جواب يمكنني ان أقدّمه ، لأني كنت خجلاً من يأسي ولم

أكن أريد ان تلاحظ أمي ذلك .

ولكني ما لبثت ان أدركت انه كان من العبث ان أقول « هكذا ... » لأن شعور الأسى لم يزاولني بسبب ذلك ؛ وقد قفّ شعري وانتابني تململ في جلدة رأسي ؛ وكان العالم كله حولي يبدو ذابلاً حائل الالوان . ثم أقبلت نسمة خفيفة تحمل إلى منخريّ رائحة الطبخ الطيبة تلك ، فشعرت بما يشبه الرغبة بأن أرتمي بين ذراعي أمي وأنا أبكي كما حدث إذ كنت في الخامسة ، يراودني الأمل نفسه بأن تعزّيني من ركبتي المجروحة . وقلت فجأة ، بطريقة غير متوقعة إطلاقاً :

– بالمناسبة ، لقد نسيت ان أخبرك أني سأترك ذلك المرسم الذي لست بعد بحاجة اليه ، واني سأعود لأسكن معك .

وصمتّ لحظة ، مندهشاً لهذه الكلمات التي لم يكن في نيتي ان أفوه بها والتي انبثقت لا أدري من أية نقطة مني. ثم أدركت انني لن أستطيع الآن ان أتراجع، فأضفت في جهد :

– شرط ان تكوني راغبةً بعدُ فيّ .

وبالرغم من الدهشة التي أغرقتني فيها عبارتي ذاتها ، لم أستطع إلا ان أقدّر للمرة الثانية قدرة أمي على مداراة عواطفها ، هذه القدرة التي كانت تسمّيها، بلغتها الصالونية ، « الشكل » . لقد نطقت أمامها بالشيء الذي كانت تنتظره منذ سنوات ، الشيء الوحيد الذي ربما كان يستطيع ان يسرّها حقاً . ومع ذلك، فانه لم يبد شيء على وجهها الجاف ، وعينيها الزجاجيتين .

وقالت ببطء ، في صوت مستاء جداً ، يشبه اللهجة التي تُستعمل في صالون لتبادل تهنئة غير ذات أهمية على الاطلاق :

– طبعاً ، ما زلت راغبةً فيك ! فانك في هذا البيت ستُستقبل دائماً بذراعين مفتوحتين ... متى تأتي ؟

– هذا المساء أو غداً صباحاً .

– غداً صباحاً سيكون أفضل ، فبذلك يُتاح لي الوقت أن أعمل على تهيئة غرفتك .

– إذن غداً صباحاً .

وبعد هذه الكلمات ، كففنا لحظة عن تبادل اية كلمة . وكنت أتساءل عمّا حدث لي ، وعما إذا لم يكن قدَري بعد الآن ان أظل في البيت مع أمي ، وان أقبل السأم ، وان أشرف على ادارة ثروتنا وأكون غنياً . وكانت أمي ، من جهتها ، تبدو الآن وقد تجاوزت مرحلة الدهشة والسرور بالنصر الذي لم يكن مؤملاً ، وأخذت تُعدّ نفسها (كما يستنتج من التعبير المتأمل في وجهها القاسي الجامد) لتنظيم هذا النصر ، أي لوضع خططٍ لمستقبلي ومستقبلها . وأخيراً قالت ملاحظةً بلهجة غير اعتيادية :

– لا ادري ان كنت قد فعلتَ ذلك عن قصد. وعلى اي حال، فان الامر ذو فأل حسن . إن اليوم هو عيد ميلادك وهو في الوقت نفسه اليوم الذي صمّمت فيه على العودة الى البيت . ولقد قلت لك هذا الصباح اني أعددت لك مفاجأة . فهي إذن ستكون صالحة للمناسبتين معاً .

فسألتها بلا اهتمام : – اية مفاجأة ؟

– تعال معي ، فأريك إياها .

فقلت بخبث : – اننا على اي حال نحتفل اليوم بإحدى هاتين المناسبتين : عودتي الى البيت . إنه العيد الحقيقي اليوم .

هل لاحظت اميّ سخريتي ؟ أم لم تلاحظها ؟ الواضح انها لم تقل شيئاً . وكانت تتقدمني وهي تدور حول المقصورة لتصل امام المدخل . ورأيتها تتقدم بتصميم من سيارة السبور الجميلة التي كانت بالقرب من سيارتي ، ثم تقف واحدى يديها على الغطاء ، في وضع مشابه لوضع الشبان الذين يُصوّرون في إعلانات مصانع السيارات ، وتقول :

– لقد سبق ان قلت لي يوماً انك تودّ لو تملك سيارة سريعة جداً . وقد فكرت اولاً ان اشتري سيارة سبق حقيقية ، ولكن هذا شيء خطر ، ولذلك عدلت عنها الى هذه السيارة القابل غطاؤها للطيّ . وقد قال لي الوكيل انها آخر طراز ، وقد خرج منذ بضعة أشهر فقط : وهي تسير بسرعة مئتي كيلومتر

في الساعة .

واقتربت ببطء ، متسائلاً عما عساه يكون ثمن السيارة التي كانت امي تريد اهدائي إياها . ثلاثة ملايين ليرِ ام اربعة ؟ كانت السيارة أجنبية الصنع ذات هيكل مترف : وكنت أعرف ان هذا النوع يكلّف غالياً جداً . وكانت امي قد بدأت تتكلم عن السيارة باللهجة العلمية المهتمة نفسها التي كانت تتخذها لتتكلم في شيء من الحنان ، عن زهوربستانها . وقالت لي وهي تشير الى اللوحة التي كانت الأزرار المنكّلة تلمع عليها كما تلمع الجواهر فوق لوحة جواهر سوداء :

– إن هذا هو ما يروق لي خصوصاً . وقد كنت على استعداد لشرائها من أجل هذا وحده . ثم إن هذه السيارة تعجبني لأن لها صلابة زوج جميل من الاحذية المتينة المصنوعة باليد ، خصيصاً للرحلات التي تقضى سيراً على الأقدام . صلابة تبعث على الاطمئنان . فهل تريد ان تجربها ؟ ان امامنا وقتاً كافياً لنقوم بدورة صغيرة قبل الغداء ، لبضع دقائق فقط ، لأن لدينا صنفاً من الطعام لا يستطيع أن ينتظر ، وتحرص الطباخة على ان تقدره ، فقد فعلته خصيصاً لك .

فتمتمت وانا انظر نظرة حالمة الى السيارة :

– كما تشائين ..

– نعم ، جرّبها ، لا سيما وأن عليّ ان اؤكد للوكيل شرائي لها .

فلم أقل شيئاً ، وفتحت باب السيارة وصعدت . وصعدت أمي فجلست الى جانبي ، وبينما كنت أدير المحرك واخفض رافعة النقل ، أخبرتني بلهجتها الحميمة الآمرة :

– انها قابلة الغطاء للطيّ . وقد اكد لي الوكيل ان راكبها لا يشعر في الشتاء باي نسمة ريح . ثم ان فيها تدفئة . وفي الصيف تستطيع ان تنزل الغطاء ، والجري في الهواء الطلق ألذ .

– أجل ، إنه ألذّ .

– هل تحب هذا اللون ؟ لقد بدا لي جميل جداً حتى أني لم أرد ان ارى لوناً آخر . وقد قال الوكيل إن تعدين الدهان اللمّاع طريقة شديدة الكلفة ، ولكنها

توحي بشعور الأناقة .

فقلت بشرود :

ـ أجل ، هذا أجمل جداً .

ـ وحين يفسد دهانها تستطيع ان تجدده .

وهدرت السيارة هديراً قوياً ، كما تهدر محركات سيارات السباق ، فاستدرت بها ثم دلفت بسرعـــة الى جادة الخروج . كانت سيارة قويـــة وعذبة في الوقت نفسه ، كما اتيح لي ان الاحظ اذ احسست بها تقفز تحت قدمي لدى ادنى ضغط على آلة السرعة . واجتزنا الحاجز ، ولم أستطع ان أمتنـــع عن تذكّر شعوري الأخير اذ خُيّل إلي ، وانا متجه الى المقصورة ، اني عائدٌ لأدخل مرة ثانيـــة على البطن الذي حملني ..

وما كدت اجتاز الحاجز حتى استدرت إلى اليمين وعدت أصعد جادة آبيا في اتجاه « القصور » . وكان نهار السموم هذا الباهت قد كثّف فوق جبل كافو نوعاً من حلقة سوداء محوّة قلقةً . ومصنوعةً من سحب تنذر بالعاصفة ؛ وعلى طول جادة آبيا ، كان السرو والشربين والخرائب والسياجات والحقول وكل شيء يبدو كثيفاً بسبب الغبار وقيظ الصيف . وظلت أمي تثني على السيارة بطريقة لاشخصية وصالونية ، كما لو أنها كانت تكتشف شيئاً فشيئاً حسناتها .

وصعّدت في جادة آبيا من غير أن أقول كلمة حتى بلغت المفترق ، فسلكت طريق الشمال ، ومضيت بأقصى سرعتي حتى « جادة آبيا الجديدة » ، واستدرت حول التلغراف الب سلكت الطريق باتجاه معاكس . وسألتني أمي إذ عدنا من جديد إلى جادة آبيا :

ـ ما رأيك فيها ؟

ـ انها تبدو لي سيارة ممتازة من جميع النواحي . والواقع اني كنت أعرفها .

ـ ولكنه طراز جديد ، لم يكد يمضي على خروجه شهر .

ـ أقصد اني كنت أعرف سيارات من هذا الطراز .

ثم بلغنا الحاجز ،ومرّ الشربين الذي ينتهي بالمقصورة. وقمت بنصف استدارة،

وأوقفت السيارة ، ثم شددت على فرملة اليد ، وبعد ان بقيت جــامداً ساكناً لحظة ، التفتّ فجأة إلى أمي وأنا أقول :

– شكراً .

– لقد اشتريتها خصوصاً لأنها راقت لي كثيراً . ولو لم أشترها لك لاشتريتها لي .

وخيّل إليّ مع ذلك أنها كانت ما تزال تنتظر شيئاً ، إذا لاحظنا على الأقل ملامحها ذات التعبير المستاء والمتطلّب . ورددّت :

– انها حقاً تعجبني كثيراً . فشكراً .

وانحنيت فلامست بشفتي خدّها الملطّخ النحيل ، الجاف والخشن . وقالت ، وربما لتخفي السرور الذي خلفتّه حركتي الودية :

– لقد أوصاني الوكيل بأن تقرأ ، قبل ان تستعملها ، الارشادات التي تخصّ القيادة والعناية بها في هذا الكراس (وفتحت صندوقاً صغيراً في اللوحة واومأت الى كتيب أصفر) فالواقع انها آلات دقيقة وأنّ إفسادها لا يحتاج الى شي قليل.

– سأقرأه .

– تستطيع بهذه السيارة ان تقوم برحلات سياحة كبيرة . فحين يأتي الخريف مثلاً ، اذهب الى اسبانيا او فرنسا .

– سوف أذهب في الربيع . أما في الخريف ، فيستحيل عليّ ذلك .

– أجل ، طبعاً في الربيع . إن للسيارة حامل امتعة ممتازاً ، تدخل فيه ثلاث حقائب بسهولة .

وكانت امي تبدو الآن راضية جداً ، الى حدّ أن قليلاً من « شكلها » قــد تطامن ، وانه كان بوسع المرء ان يرى بتمييز أنها كانت مسرورة ؟ وعبرنا الساحة فأرتني امي الى اليسار ممراً طويلاً ضيقاً تكتنفه أشجار غارٍ طويلة ، وكان يُلمح في جوفه بناء صغير أحمر بطابق واحد ، وقالت :

مرسمك . لقد بقي كما هو . ولم يُمسّ فيه شيء . اذا شئت ، فباستطاعتك ان تذهب غداً بالذات لترسم فيه .

ـ ولكني قلت لك اني قررت ألا أرسم بعد .

فلم تجب ؛ وربما كانت لم تُتِرني مرسمي الا لتحملني على الترديد باني قد عدلت حقاً عن الرسم . وكنا آنذاك قد وصلنا باب البيت . وتقدمتني أمي في المدخل وقالت لي في صوت آمر :

ـ اذهب فاغسل يديك ، سيكون الطعام جاهزاً بعد لحظة .

وفتحت باباً صغيراً كنت أعلم انه كان يفضي الى ممر ينتهي بالمطبخ . ودفعت باباً آخر لأذهب الى الحمام . وبين الجدران الأربعة الزرقاء، نظرت بآلية إلى المرآة التي كانت تعلو المغسلة ، بينما كنت أغسل يدي بالصابون تحت صنبور ماء فاتر . وفي تلك اللحظة بالذات ، شُقّ الباب خلفي ورأيت في المرآة بين فتحة الباب والعارض، رأس الفرّاشة ذا الشعر القصير المبعثر التي كانت قد استقبلتني لدى وصولي منذ حين .

وسألت من غير ان التفت ، وانا انظر اليها في المرآة :

ـ ما اسمك ؟

ـ ريتا .

لم يسبق لي ان رأيتك قط .

ـ انا هنا منذ اسبوع .

وانحنيت ودلكت وجهي بالصابون في قوة ، بالرغم من اني لم تكن بي حاجة الى ذلك قط ، ولكن كان لديّ شعور بأني قدر من فرط الافكار التي كانت تضيق عليّ الخناق . وبينما كنت اغسل وجهي ، سمعت صوت ريتا العذب :

ـ لقد وضعت المنشفة هنا .

فهززت رأسي وأنا أقصد ان ابلغها بأني سمعت . وحين رفعت عيني لاحظت أن الفتاة قد ذهبت . وخرجت من غرفة الحمّام ، واجتزت الممر متجهاً نحو غرفة الاستقبال ، او بالاحرى نحو غرف الاستقبال الأربع او الخمس التي كانت تحتل الطابق الأول من المقصورة .

وكانت حجر الاستقبال والجلوس هذه تتواصل فيما بينها بواسطة فتحات عريضة

ذات عقود او أبواب بلا مصاريع بحيث لم تكن تشكل الا قاعة كبيرة واسعة ؛ وكانت مؤثثة بطريقة لا شخصية تماماً ، على طراز تلك اللاشخصية الكثيفة المضجرة التي يتميز بها الأثاث الذي يُختار فحسب لارتفاع قيمته . والواقع انه كان يمكن للمرء ان يتأكد من انه لن يجد هناك حاجة واحـــدة لا يكون ثمنها أرفع ثمن في حاجات الفئة التي تنتمي اليها . ولم يكن لأمي لا تذوق الجمال ، ولا ثقافته ، ولا فضوله ، ولا الكلف بـــه . وكان المقياس الوحيد لاختيارها ، بالنسبة لأي شيء تشتريه ، هو الثمن الذي كان ، بمقدار ما يرتفع ، يبعث على الأفتراض بأن الحاجة المعروضة للبيع كانت تملك هذه المزايا من الجمال والدقة والابتكار التي مـا كانت لولا ذلك جديرة بأن تميزها . بالطبع لم تكن امي تلقي مالها من النافذة ؛ بل هي على العكس كانت حكيمة جداً ، وكنت قـــد سمعتها اكثر من مرة تصيح في حانوت : « اوه كلا ! انه اغلى مما ينبغي . فلا تحدثني عنه بعد ! » ولكنني كنت اعلم ان مثل هذه الصيحة كانت ترتدّ بالاحرى إلى امكانياتها المادية الخاصة ، لا الى قيمة الحاجـة الحقيقية التي لم تكن تفهم شيئاً فيهـا ، والتي كانت تظلّ ، بالرغم من امتناعها على ثروتها ، مرغوباً فيها لارتفاع ثمنها بالذات .

وكانت نتيجة هذا المقياس الاختياري ، كما سبق ان ذكرت ، تجميعاً لأثاث لا شخصية له ولا صميمية ، وان كان صلباً وبارزاً لأن امي كانت ، خـارج القيمة المالية ، تعلق كبير أهميـة على المتانة والحجم ، وهما خصيصتان كانت قادرة على ان تحكم عليهـــما وتقيّمهما . وهكذا فان الأرائك العميقة ، والكراسي الضخمة ، والمصابيح الهـائلة ، والطاولات الكثيفة ، والبسط الثقيلة ، والزينات العظيمة ، كانت كلها في صالوناتها تلك توحي بفكرة بـــذخ مـادي وجنس ممتاز . وكانت انعكاسات البلاط الملمّع تلمع في الظلّ هنـــا وهناك ، وكذلك ظاهر الأخشاب المنفوضة الغبار والنحاسيات والفضيات المجلوّة : لقد كانت النظافة خصيصة اخرى من خصائص البيت .

وأخيراً لمحت كالعـــادة ، هنـــا وهناك كميّة من الأصص الكبيرة الملأى بباقات زهور جنائزية بعض الشيء ، كانت أمي صباح كل يوم تلتقطها كما أعلم من

المدافىء النباتية. وقد لاحظت اني كنت أنظر إلى هذه الأشياء جميعاً بعين تختلف عن العادة ، عين أقل شروداً وتحرراً ، كما لو كان القصد ان أدرك تأثيرها عليّ ، الآن وقد صممت على العودة لأسكن مع أمي . واكتشفت اني كنت أحسّ شعوراً من الانشراح الذي يبعث على الاشمئزاز ، كما لو كنت تجاه اغراء قديم انتصر الآن ، ولكنه ما زال منفراً . واتجهت إلى المرآة القديمة ، المؤطّرة باطار كثيف التي كانت تعلو في خزانة في جوف الصالون ، فنظرت إلى نفسي فيها ، وأحسست فجأة بحاجة إلى ان أشتم نفسي بصوتٍ عالٍ ، من غير ان أعرف إن كان ذلك عن كره أو عن فرح : « أبله ! » وفي اللحظة نفسها تقريباً سمعت حفيف ثوب .

والتفتُ فرأيت ريتا الفرّاشة واقفة على بعض خطى قرب بار متنقل على عجلات، تنظر إليّ نظرة مستفهمة عبر نظارتها السميكة المؤطرة بالأسود. وتساءلت عما إذا كانت قد رأتني بينما كنت أشتم نفسي ، ونظرت إلى وجهها المتقع المداور فلم أرَ عليه أيّ تعبير . وقالت بعد لحظة صمت :

– إن السنيورة ستهبط عما قليل . وقد قالت لي بأن أقدم لك شراباً في انتظارها . فأي نوع ترغبه ؟

ومرة أخرى تساءلت عما إذا كان صوتها ينمّ عن السخرية التي لم يكن وجهها يكشف عنها . ولكن لا ، كان صوتاً رصيناً ، أو على الأقل ، رصيناً بنفاق . وقلت اني أريد كأس ويسكي ؛ فتناولت زجاجة الويسكي في كثير من الدقة ، وصبّت منها قليلاً في قدح ، وأضافت اليه قطعة ثلج مكعّبة وماء ، ومدّته لي وهي تسأل :

– هل تريد شيئاً آخر ؟

فأجبتها بأني لم أكن أريد شيئاً ، ورأيتها تبتعد بلا ضجة بحذائها ذي النعل اللبدي . ومضيت أجلس في إحدى تلك الأرائك الواسعة ، ومعي قدح الويسكي. وأشعلت سيكارة وأخذت أفكر .

لماذا تُراني قد شتمت نفسي ، على ذلك النحو ، أمام المرآة ؟ وفكرت بأن خطر هذا النوع من تمثيليات الإبن الاعجوبة الذي كنت أمثله مع نفسي ، كان

بالطبع ان استسلم لاغراءات مفاجئة ، مدنسة ومثيرة للفضيحة ، في حين لم أكن أتوقع ذلك إطلاقاً . وبعبارة أخرى ، كنت ابناً مبذّراً من نوع خاص يشعر ، إذ يتلقّى عناق أبيه الشيخ ، بما يغريه لأن يركله في مؤخرته ، ويذهب بعد ان يكون قد التهم طعامه الفاخر ، فيقيئه في ركن من الحديقة . ولم يتح لي ان أعمّق هذا التأمّل الهامّ ، إذ ان أمي قد دخلت فجأة :

– هل أعطتك ريتا ما تشربه ؟

– نعم ، شكراً ... ولكن من هي ريتا هذه ؟

– الفرّاشة الجديدة ؛ لقد حصلت عن معلومات ممتازة عنها ؛ وقد كانت تخدم لدى أميركيين غادروا البلد . والواقع انها كانت مربّية ، ولكن لما لم يكن هنا أولاد ، فقد قلت لها : اسمعي يا ابنتي ، انني مضطرة إلى تحويل مهنتك لفرّاشة . وأنت حرّة بأن تقبلي أو لا . وقد قبلت بالطبع ؛ وأعتقد ان البطالة التي تنتشر في هذه الأيام ...

واستمرت أمي تتحدث عن ريتا ، حتى بعد ان دخلت إلى غرفة الطعام حيث كانت ريتا نفسها واقفة قرب « البوفيه » ، وفي يدها قفازات من خيوط ، وعلى شعرها قبعة دانتيل ، وحول قامتها وزرة بيضاوية صغيرة ، وقد كان بودي ان أقول لأمي : « حذار ، فأنت تتحدثين عن ريتا ، وهي هنا » ثم نظرت إلى الوجه المداور ذي النظارة ، فتأكدت فجأة انها قد رأتني بينما كنت منحنياً عند المرآة أصف نفسي بأني أبله . وخيّل إليّ ان هذه الفكرة لم تكن في حقيقتها لتسوءني ، كما لو انه كان قد انعقد بين ريتا وبيني ، ابتداء من تلك اللحظة ، نوع من الضلوع في ذنب . وجلست وقالت أمي وهي تجلس بدورها :

– ريتا ، إن السنيور دينو هو ابني ، وابتداء من صباح الغد ، سيأتي فيسكن هنا . لا تنسي : إذا طلبوا على التلفون شخصاً اسمه دينو ، فدينو هذا هو ابني .

وكنا الآن جالسين وجهاً لوجه حول طاولة صغيرة مستديرة ، في غرفة طعام متوسطة الابعاد ، ولكنها شديدة ارتفاع السقف ، وأيدينا على خوان الدانتيل الفلورنسي ، أمام صحون من البورسلين الالماني ، ولوازم من الفضة الانكليزية

وكؤوس من البلور الفرنسي . وخلف كرسي أمي ، كانت تلتمع نقوش وأغطية ذهبية للوح هولندي ؛ وخلف ظهري كنت أعلم انه كان يقوم « بوفيه فينيسي . وكان الباب ــ النافذة المطلّ على الحديقة ، مفتوحاً على سعته ، ولكن الستائر مسدلة ، لأن أمي لم تكن تريد على حد قولها ، ان يتمكن بستانيّ ما من عدّ لقماتها بينما هي تأكل . وتناولت أمي ابريقاً من البلور والفضة فصبّت لي بنفسها الخمر ، ثم قالت لريتا انه كان بامكانها ان تقدم لنا الطعام . فأخذت الفرّاشة من على البوفيه إناء من البورسلين موضوعاً على صينية واقتربت من أمي التي قالت لها بجفاء :

ــ قدّمي أولاً للسنيور دينو .

ــ لماذا ؟ أنت أولاً ..

ــ لا ، انني ...

ــ ريتا ، اخدمي السنيورة أولاً

فقالت أمي :

ــ ولكني لا أكاد آكل شيئاً .

وبطرف شوكتها تناولت شيئاً يسيراً فوضعته في صحنها . واقتربت ريتا مني ، فأدركت آنذاك ما كانت رائحة الطبخ تلك اللذيذة التي كانت تطفو في هواء البستان : معجون المعكرونة . وقالت أمي :

ــ كنت أعرف انك تحبّ هذا ، فطلبت صنعه خصيصاً لك .

فقلت في ملاطفة ماسوشية :

ــ حسناً ... حسناً ...

ووضعت قطعة ضخمة في صحني . وأنا في العادة قليل الأكل ، ولا سيما إذا كان الطعام على هذه الشاكلة . ولم يسعني إلا ان أفكر بأني كنت بذلك أتابع تمثيلية الابن الأعجوبة . وانفجرت فجأة بالضحك ، فسألتني أمي بحذر :

ــ لماذا تضحك ؟

فأجبت : ــ تذكّرت اني قرأت في مكان ما تحريفاً ساخراً لقصة الابن

الأعجوبة الموجودة في الانجيل ، كما تعلمين .

وما هو ؟

– في القصة الأصلية ان الابن الأعجوبة يعود إلى البيت فيستقبله الأب بألوان مختلفة من التكريم ويقتل من أجله العجل السمين ، اما في التحريف ، فان العجل على العكس يفرّ مذعوراً ، فور عودة الابن الأعجوبة ، وهو يعرف تماماً ما يخبئه له القدر . وينتظرونه ، ويدّعهم العجل ينتظرونه طويلاً ، ثم يعزم على العودة . فيستخفّ الفرح الشديد بالأب ، ويريد ان يحتفل بعودة العجل السمين ، فيقتل الابن الأعجوبة ويقدّمه له طعاماً ..

وكنت أعلم ان أمي لم تكن تؤمن بشيء ، ما عدا المال . على انها كانت تؤمن ، وقد سبقت الاشارة إلى ذلك ، بما كانت تدعوه « الشكل » الذي كان يفرض ، مما يفرضه ، ان يكون المرء ممارساً ، وبالتالي ان يحترم أمور الدين . ولهذا كشفت عن سحنة خشبية وقالت بصوتها المزعج :

– أنت تعلم اني لا أحب ان تهزأ بالأشياء المقدسة .

– اني لا أهزأ بها ، على العكس . فما الذي تعنيه عودتي ، في الحقيقة ، إذا لم تكن تعني تضحية الابن الأعجوبة ، الذي هو أنا ، لحساب العجل السمين الذي هو كل هذا ؟

وهنا قمت بحركة دائرية مشيراً الى جميع أثاث الغرفة الثري .

– اني لا أفهمك .

لم تكن امي تفتقر ، على طريقتها ، الى حسّ للنكتة يثير الفضول ، حسّ مظلم بعض الشيء وآلي ؛ ولهذا أضافت من غير ان تبتسم :

– على كل حال ، اعتقد أن بعد هذه المعكرونة عجلاً سميناً او لا ، لست أدري.

ولم أقل شيئاً ، وأخذت ألتهم حصتي في مزيج من الفرح والندم ، لأني كنت جائعاً حقاً ، وكان المعجون لذيذاً ، وكنت في الوقت نفسه غاضباً لأن أجده لذيذاً. ثم رأيت أمي ، اذ رفعت نحوها عينيّ ، وهي تنظر إليّ في انكار :

– يجب ان تمضغ اكثر من ذلك . إنّ الهضم الاول يتمّ في الفم .

ـ هذا يثير الاشمئزاز تماماً . فمن قاله لك ؟

جميع الاطباء يقولون ذلك .

وكانت عيناها الزرقاوان ، الزجاجيتان الخاليتان تماماً من التعبير ، تحضنانني بطريقة غير قابلة للتعرف ، فوق يديها المتشابكتين ، المحمّلتين بالخواتم ، اللتين كانت تسند اليهما ذقنها .

وأفرغت صحني على عجل ، فقالت امي بصوتها البارد ، الفاقد الانسجام :

ـ اخدمي السنيور دينو مرةً أخرى .

فتناولت ريتا الأناء ، وكانت حتى ذلك الحين مستندة الى اللوح ، خلف امي ، وقدّمته لي . وأخذتُ الملعقة بيد واحدة ، تاركاً الاخرى حيث كانت ، على طرف الطاولة . واذ ذاك شعرت بيد ريتا التي كانت تسند بها الصينية تضغط على يدي ضغطاً خفيفاً ، بطريقة يمكن ان تكون مقصودة. والحق اني لم اتوقف لدى هذا الاحتمال ، فعدت الى الأكل . وأخيراً سألت بلهجة شاردة :

ـ وأنت ، ماذا تفعلين عادة ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد تماماً ما قلت : ماذا تفعلين عادة ؟

ـ اوه ! انت تعرف ، الحياة نفسها دائماً ..

ـ نعم ، ولكن خلال هذه السنوات كلها التي عشتها خارج البيت لم أسألك قط ما كنت تفعلين ، اما الآن وقد قررت ان أعود الى البيت ، فانالفضول يأخذني لمعرفة ذلك . من يدري ، فمن الممكن ان يكون كل شيء قد تغيّر .

ـ انني لا احبّ التغيير في شيء . ويروق لي ان أفكر بأني أعيش اليوم كما كنت أعيش منذ عشر سنوات ، وكما سأعيش بعد عشر سنوات .

ـ لست أعرف كيف تعيشين ؛ لنرَ إذن : في أية ساعة تستيقظين صباحاً ؟

ـ في الساعة الثامنة .

ـ باكراً الى هذا الحد ؟ ولكني كثيراً ما تلفنت في الساعة التاسعة ، فكان الجواب يأتيني : السنيورة نائمة .

ــ نعم ، يتفق لي أحياناً أن أنام اكثر من العادة اذ اكون قد نمت في ساعة متأخرة ، بالليلة السابقة .

ــ وبعد ان تستيقظي ، ماذا تفعلين ؟ تتناولين الفطور ؟

ــ طبعاً .

ــ في غرفتك ام في غرفة الطعام ؟

ــ في غرفتي .

ــ في السرير ، ام على طاولة صغيرة ؟

ــ على طاولة صغيرة .

ــ وماذا تأكلين في فطور الصباح ؟

ــ شاي ، وخبز محمّص كالعادة ، وعصير برتقال .

ــ وبعد ذلك ، ماذا تصنعين ؟

ــ آخذ حمّامي .

وكانت أمي تجيب على أسئلتي بلهجة غاضبة بعض الشيء ، وفي الوقت نفسه رصينة ومدهوشة ، كما لو اني كنت أشك ان باستطاعتها ان تأكل أو تغتسل .

ــ حمّام أم دوش ؟

ــ حمّام .

ــ أتغتسلين بنفسك ، أم تستعينين بالفرّاشة ؟

ــ الفرّاشة تراقب حرارة الماء ، وتضع فيه الأملاح ، وإذ يصبح الحمام جاهزاً تساعدني في الاغتسال في الأمكنة التي لا تبلغها يدي .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ وبعد ذلك أخرج من الماء ، فأتنشّف وأرتدي ثيابي .

ــ وهل تساعدك الفرّاشة أيضاً في ارتداء ثيابك ؟

ــ تساعدني في لبس الجوربين . اما الثياب ، فلا . اني أؤثر ان أرتدي ثيابي بنفسي .

ــ وهل تتحدثين مع الفراشة بينما تأخذين حمّامك وترتدين ثيابك ؟

فأخذت أمي فجأة تضحك ، بالرغم عنها تقريباً ، في نوع من الحنق العصبي :

– ولكن أتعلم انك غريب بأسئلتك ؟ إن بوسعي الا أريد الردّ عليك . فان حياتي الحميمة أمرٌ لا يعني سواي .

– أنا لم أسألك عمّ تفكرين به ، بل عما تفعلين . فحاولي ان تفهميني . انني عائدٌ إلى البيت بعد غياب عشرة أعوام تقريباً . فمن العدل ان أريد الانسجام معه من جديد . وإذن ، فهل تتحدثين مع الفراشة ؟

– طبعاً أتحدث معها ؛ انها ليست آلة ، بل هي مخلوق بشري .

– متى تلبسين مجوهراتك ، قبل ان ترتدي ثيابك أم بعد ذلك .

– بعد ان أنتهي .

– وبأي ترتيب ؟ أقصد أيّها تلبسينها أولاً ، وأيّها بعد ذلك ؟

– هل تعلم بمَ تجعلني أفكر ؟ بشرطة الكتب الصفراء ، حين يتوجب عليهم ان يكتشفوا جريمة ..

– الواقع أن عليّ أن أكتشف شيئاً .

– وما هو ؟

– لا أدري ، شيء ما ... إذن ، بأي ترتيب تلبسين مجوهراتك ؟

– أولاً خواتمي وأساوري، وبعد ذلك عقدي ، ثم أقراطي. هل أنت راضٍ؟

– وبعد ان تلبسي ثيابك ، ماذا تفعلين ؟

– أهبط وأذهب فأعطي أوامري للطبّاخة ، لذلك النهار .

– تقصدين انك تكتبين قائمة الطعام للغداء والعشاء ؟

– بكل تأكيد .

– وبعد ذلك ؟

– أذهب إلى الحديقة ، فأقطف الزهور وأعود بها إلى البيت وأرتب باقاتي في الأصص . أو أتنزه وأتحدث مع البستانيين . اني بالاجمال أهتمّ بالحديقة .

– وبعد الحديقة ؟ ماذا تفعلين ؟

فرأيتها تنظر إلي لحظة ثم أجابتني في أبّهة تقريباً :

– أقصد مكتبي وأهتمّ بشؤوني .

– كل يوم ؟
– نعم : كل يوم ... هناك دائماً ما يُفعل .
– وماذا تفعلين ؟
– أكتب ، أو أستقبل الناس .
– تعنين ان محامين ووكلاء خزانة الدولة وسماسرة البورصة ورجال ثقاة وأمثالهم يأتون لمقابلتك ؟

وفجأة أخذت تضحك من جديد ، ولكن هذه المرة بطريقة مسحورة وشبه شهوانية ، وفي هذا دلالة أني لمست نقطة حسّاسة :

– لعلّك تظنّ ان ما أفعله هو عمل تافه جداً ؟ صحيح انه ليس الرسم ، ولكنه مع ذلك عملٌ مرهق يجعلني مشغولة طوال قبل الظهر ، وأحياناً بعد الظهر .

– ولكن لا بد من الاهتمام بهذه الشؤون ، أليس كذلك ؟
– أصاب بعض الأيام بألم ثابت ، هنا ، في رقبتي .
– إن عليك ان تراعي صحتك أكثر من ذلك ..

فتأملتني أمي لحظة ، وربما في حنان ، ثم قالت بصوتها القبيح الناعق :

– إنني أفعل ذلك من أجلك ، حتى يُحفظ مالك وينمو .
– مالي ؟ لا ، بل هي ثروتك .
– حين أموت ، ستكون لك .
– انك ما تزالين صبية ، ولا شك في اني سأموت قبلك . سأماً وعلى أي حال ، كنا نقول : ثروتنا . وبالمناسبة كيف حال ثروتنا ؟ كيف حالها ؟ كيف حالها ؟

– ولكنك ، لو تعلم ، غريب حقاً ! إنها بخير ، بفضل جهودي ، ولا شك في اني لو لم أكن هنا ، لما كان لنا بعد في هذه الساعة لير واحد .

– نحن إذن أغنياء جداً ، أليس كذلك ؟

وعلى هذا السؤال لم تجب أمي ، واكتفت بأن تنظر إلي بوجه خشي وعينين

زجاجيتين . ثم قالت :

– ريتا ، ماذا تفعلين هنا ، وأنت مزروعة كالوتد ؟ لماذا لا تذهبين لترى إذا كان الصنف الثاني قد جهز ؟

ورأيت ريتا تنتفض كما لو انها كانت تخرج من حلم . وخرجت وسرعان ما استطردت أمي :

– أرجوك ، لقد قلت لك دائماً إن هذه امور لا يُتحدث بها أمام الخدم ...

لِمَ لا ؟ كنت أفهم ذلك لو اني تكلمت عن بذاءات . امـا عن المصالح ؟ أتكون المصالح شيئاً بذيئاً ؟

ونفضت أمي رأسها ، وعيناها خافضتان ، كما لو انها تنحّي حجّتي جانباً ، من غير ان تناقشها . ثم قالت :

– انهم فقراء ، ولا يحسن بالمرء ان يبسط ثرواته أمام من هم فقراء .

– ولكنك لا تريدين أبداً ان أتحدّث عن ثروتنا ، حتى حين نكون وحدنا . إن لك سحنة غريبة ، فكأنني أثير دهشتك بصورة فاضحة ، كما لو انني أحدثك عن شؤون جنسية ، لا عن المال .

ومن جديد نفضت رأسها :

– لا ، أحب ان أتحدث عنه في الوقت المناسب ، بل ونظراً إلى انك عائدٌ تسكن هنا ، فيجب ان نتحدث عن ذلك . فبعد الغداء نقصد مكتبي فأعطيك جميع المعلومات التي ترغب فيها .

وفي تلك اللحظة عادت ريتا حاملة صينية طويلة بيضاوية صفّت عليها ، بين أكوام صغيرة من خضار الموسم المختلفة ، عدة شرائح من لحم العجل الذي أعلنته أمي . وقلت بخفّة ، مدفوعاً بشيطان أنكد لا أدري كيف طلع لي :

– ولكنك لم تجيبي بعد على سؤالي : هل نحن أثرياء جداً ، أم لا ؟

ولم تكتف هذه المرة باجابتي بالصمت ؛ بل شعرتُ فجأة بقدمها ، تحت الطاولة ، تبحث عن قدمي ، ثم تسحقها بقوة . وقالت لريتا :

– قدّمي للسنيور دينو . اما أنا ، فلا آخذ لحماً ..

وأوحت لي قدم أمي تلك فوق قدمي بشعور ارهاق حقيقي . لقد كانت إذن تضغط على قدمي كما يفعل المحبّون فيما بينهم : ولكننا لم نكن إلا أمـــاً وابناً ، والرابطة التي كانت تشدّ أحدنا إلى الآخر لم تكن الحب ، وإنما المال . ومن جهة أخرى ، ما كنت أستطيع ان أرفض هذه الرابطة ، لأن رفضها يعني رفض صلة الدم التي كانت تتوقف عليها . وهكذا لم يكن ثمة ما يُفعل : فسواء شئت أم لم أشأ ، كنت غنياً ؛ ورفض ذلك يعادل قبوله .

على انّ إرهاقي قد اتخذ وجهة غير منتظرة . فقـــد كانت ريتا تقدّم لي طبق العجل ، حانيـةً نحوي صدرهـا المزدهر ووجهها المداور المليء بلطخات النمش ذا الفم المتقع الغرنوقي اللون ؛ واذ ذاك قلبت يدي التي كانت مرتاحة على الطاولة ، وفي ظلّ الطبق ، قبضت على معصمها ، وصعدت بيدي نحو ذراعها . وانتهيت من اخذ شرائح اللحم باليد الأخرى ، ثم وضعت الشوكة من جديد على الطبق ، وألححت مرة أخرى ، في برودة :

– وإذن ، هل نحن اغنياء ام لا ؟

وللمرة الثانية شعرت بقدم امي تصدم قدمي ، وقلت :

– لحظة ، يا ريتا .

فعادت ريتا وادعة تقدم لى الطبق مرة اخرى . ومن جديد اخذت الشوكة بيد واحدة وجمعت في الطبق بعض اللحم والخضار . وفي هـذه الأثناء ، صعدت بيدي الاخرى التي كنت تركتها متدليـــة من كرسي ، على ساق ريتا حتى الخاصرة . وتحت يدي شعرت عبر التنورة الواسعة بعضلات ساقها ترتعش كعضلات حصان يلامسه معلّمه . ومع ذلك ، فلم يشفّ وجهها عن شيء ، سوى انـه أصبح مرائياً بصراحة ، لا بغموض ، وابتعدت أخيراً ، وحسبتني ألمح خلف نظـــارتها نظرة تفاهم خفية ، فلم أتمالك من التفكير بأني ، حتى قبل ان أعود الى بيت امي ، كنت أجدني في موقف اسوأ من الذي كنت فيه منذ عشر سنوات . ففي ذلـك العهد ، ما كنت لأفكر قط بأن أضع يدي على فرّاشة ، اياً كانت الاسباب التي تبرر لي فعل ذلك. على ان امي كفّت عن صدم قدمي في اللحظة نفسها التي تركت فيهـــا

خاصرة ريتا ، كما لو انهـــا كانت تعمل معي في تواقت غريب . وقلت مستعيداً الحديث المقطوع :

ـ انت بالاجمال تعملين كل يوم حتى الواحدة واكثر .

ـ كل يوم ما عدا الأحد .

ـ ويوم الأحد ، ماذا تفعلين ؟

ـ اذهب الى القداس .

ـ في اية كنيسة ؟

ـ سان سيباستيانو .

ـ ماذا تفعلين في الكنيسة ؟

ـ ما يفعله الآخرون : أصغي الى القداس .

ـ وتعترفين أحياناً ؟

ـ بكل تأكيد أعترف ، وهذا طبيعي . وأتناول أيضاً .

ـ وبعد ان تعترفي ، يبرئك الكاهن ؟

فقالت امي في شيء من الغنج :

ـ ليست عندي ابداً آثام خطيرة أعترف بها .. تصور أن دون لويجي يقول لي احياناً : إنك يا سنيورة تنتهين حيث يبدأ الآخرون . فأي اثم تريد ان يرتكبه بعد من كان في سنّي ؟

ونظرت إلي كما لو انها ستقول : « لقد تخليّت منذ وقت طويل عن الشيء الذي يمكنه أن يجعلني ارتكب الآثام » .

وصمتُ لحظة ، ثم استطردت :

ـ لنعد الى نهارك : انك في ايام العطلة تشتغلين في الصباح . ولكن بعد ذلك ، ماذا تفعلين ؟

ـ أتناول الغداء .

ـ وحدك ؟

ـ أجل ، في الصباح وحدي دائماً ، وأحياناً ، ولكن نادراً أستبقي محـــاميّ

للغداء ، وهذا يحدث فقط حين لا نكون قـد أنهينا عملنا ، ويتوجب علينا أن نستأنف بعد الظهر .

– أي محام ؟ دوسانتيس ؟

– نعم ، إنه لا يزال محاميّ .

– وبعد الغداء ؟

– بعد الغداء ، أقوم بنزهة في الحديقة .

– وبعد ذلك ؟

– أذهب للراحة .

– تقصدين للنوم ؟

– لا ، انني لا أنام ، بل أنزع حذائي وأتمدّد على سريري وأنا في ثيابي . غير اني لا أنام ، وإنما أترك أفكاري تشرد .

– وبمَ تفكرين ؟

فأخذت تضحك من جديد بطريقة عصبية وهاربة ، كفتاة تُغرى بان تتكلم عن حبّها :

– إن هذا يتوقّف ... أتعرف بمَ أفكر في هذه الأيام ؟

– لا ، بمَ تفكرين ؟

– أفكر في بيت صغير على محطة فلامينيا معروض للبيـع . وهي صفقة ممتازة، ولو كان المقصود الارض فقط . ولكني لسوء الحظ لا أستطيع الآن أن أفعل ذلك ، غير أن هذا لا يمنعني من التفكير به وأحياناً أخرى أفكر في بعض الاشياء التي أستطيـع على العكس أن أحصل عليها ، مثلاً هذا (وبسطت يدهـــا وأرتني خاتماً مزداناً بزمردة كبيرة تحيط بها لألىء) لقد فكرت فيه طويلاً جداً ، حاسبةً الحسنات والسيئات ، وأخيراً صممت واشتريته .

– وبعد أن تكوني قد ارتحت ، ماذا تفعلين ؟

– ولكن لماذا بالله عليك هذا التحقيق ؟

– لقد سبق ان قلت لك السبب : لأنسجم من جديد مع البيت .

فقالت على مضض :

ـ أقوم بأشياء كثيرة ، بزيارات مثلاً .

ـ ومن تزورين ؟

ـ أوه ! هذا يتوقف : هناك دائماً حفلات استقبال ، وكوكتيلات ، ثم إن لي صديقات .

ـ وهل هن كثيرات ؟

ـ لقد احتفظت تقريباً بجميع الصديقات اللواتي كنت أعرفهن وأنا في المدرسة الداخلية (وأضافت امي بلهجة متفكرة) وفيما بعد ، لا أدري لماذا لم أعقد صداقة مع أي انسان .

ـ وماذا تفعلين مع صديقاتك ؟

ـ ماذا تريدنا أن نفعل ؟ ما تفعله النساء إذ يجتمعن ، نثرثر ونتناول شاياً أو قدح مارتيني أو نلعب .

ـ بمَ تلعبين ؟

ـ كم أنت مضجر ! نلعب البريدج أو الكاناستا أو حتى البوكر ، وأحياناً في المساء ، أنظّم هنا دورات بريدج أو كاناستا .

ـ آه ! نعم ، أذكر ، دورات إحسان ، أليس كذلك ؟

ـ كانت الأخيرة لصالح عميان الحرب .

ـ عميان الحرب ... اننا جميعاً ، بصورة ما ، عميان حرب ، أليس كذلك ؟

ـ إنني الآن بصراحة ، لا أفهمك . ولكن إذا كانت القضية قضية مزاح ، فيبدو لي انه مزاح ثقيل .

ـ ما يهمّ ... وهل تقصدين الخياطات ؟

ـ ما دمت لا أتنزه عـارية ، فلا بد لي من أن أقصدهن . بل لقد أحسنتَ صنعاً إذ ذكّرتني ذلك ، لأني كنت سأنساه ، فغداً يقـام معرض أزياء في دار « فانتي » .

ـ آه ! دار فانتي ! انها هي دائماً ! اتراها لن تموت ابداً !

– المسكينة ! لماذا تريد ان تميتها ؟ إنها ليست فقط لم تمت ، بل تتذكرك حين كنت صغيراً وكنت تصحبني الى بيتها . وهي تسألني دائمــاً عمّا تفعله ، وكيف حالك ، وترجو ان تتزوج وان ترسل لها زوجتك .

– وفي المساء ماذا تفعلين ؟

– أتعشى غالباً مع احد . وأحياناً يجتمع حول مائدتي ستة أشخاص او ثمانية ، وآخرون يأتون بعد العشاء . او انني أقصد المسرح او السينما مع أصدقاء هم دائماً أنفسهم . ولكني غالباً أشاهد التلفزيون .

– آه ، لقد اشتريت جهاز تلفزيون ؟ لم أكن اعرف ذلك .

– عجباً ، ألم أقل لك ؟ نعم ، لقـد ركبته فوق ، في صالون صغير . وتقصد البيت اسرة من الجيران فننظر معـاً الى البرامج . او انني اشاهـده وحدي . وانا احب التلفزيون وافضله على السينما : فليست بنا حاجة للخروج من البيت ، وبوسعنا ان نشاهده ونحن في أريكة مريحة ونفعل شيئاً آخر معه . تصوّر اني قد عدت الى شغل الصوف، بعد ان انقضت سنوات على تركي اياه . وانا الآن اخيط صدارة صغـــيرة .

– وبعد التلفزيون ، ماذا تصنعين ؟

– اذهب للنوم . ماذا تريدني ان أصنع ؟

– آه ، تستطيعين ان تقرأي ، مثلاً .

– نعم ، اقرأ التماساً للنوم ، وانا الآن اقرأ رواية جذابة .

– من هو مؤلفها ؟

– نسيت المؤلف ، انها رواية اميركية ، حول حياة مدينة صغيرة في الريف .

– وما هو عنوانها ؟

فرأيت على وجهها تعبيراً حائراً ، فسارعت أضيف :

– لقد نسيت انك لم تكوني طوال حيــاتك تتذكرين لا اسم المؤلف ولا عنوان الكتاب الذي تقرأين . أليس هذا صحيحاً ؟

ونطقت بهذه العبارة في لهجة ودية تقريباً ، وعلى أي حال ، فقد بدت مسرورة

ان أتذكّر شيئاً يخصّها . وضحكت ضحكة متواضعة :

ـ ليس هذا صحيحاً . ولكن كيف يمكننا أن نتذكر جميع هذه الاسماء ؟ ثم إن ما يهمني خصوصاً هو أن أمضي الوقت . فهذا المؤلف أو ذاك ، سيّان عندي .

ـ صحيح ! أما زلت تأخذين البابونج قبل أن تنامي ؟

ـ كيف تراك تتذكر ذلك ؟ نعم ، ما زلت آخذه .

ـ انهم يأتونك به إلى غرفتك ، ويضعونه على طاولة السرير ؟

وفجأة صمتُ في إحساس من الشبع والزهوق . وفكرت انه كان بوسعي أن استمرّ في سؤال امي طوال ساعات من غير أن أتقدم شبراً واحداً : إنها هي وحياتها كانتا قد بلغتا ذلك الغياب الكامل من المعنى الذي كان يعادل ، في آخر المطاف ، نوعاً من السرّ البليد والمغلق في الوقت نفسه . ثم سألتني امي :

ـ لقد انتهى إذن ، هذا الاستجواب ؟ أم انك تريد أيضاً أن تعرف ما هي الاحلام التي تراودني في نومي ؟

ـ لقد اكتفيت .

وساد صمت . ثم قالت أمي بصورة غير متوقعة :

ـ إن امك امرأة تعيش وحدها ، وليس لها سواك ، وهي سعيدة بان تعود فتعيش معها .

وفهمت انها كانت متأثرة إذ كانت تتحدث عن نفسها بلهجة الغائب . وأردت أن أقول لها ، بدوري ، شيئاً ودّياً ، ولكني لم أجد شيئاً. ولحسن الحظ ، قدّمت لي ريتا في تلك اللحظة طبقاً يحتوي حلوى متقنة الصنع تظاهرت بالاعجاب بها :

ـ ما أجملها من حلوى !

ـ كانت هذه حلواك المفضلة .

وأخذت قطعة ، ولاحظت ان ريتا كانت واقفة بعيدة بعض الشيء عن المائدة . ولم أفهم جيداً إذا كانت تفعل ذلك كرهاً ، أم بدافع غنج خاص يتظاهر بالكره . ونظرت إليّ أمي التي لم تمسّ الحلوى ، وظلت تحدق فيّ طوال

الوقت وأنا ألتهم قطعتي . وأخيراً ، أومأت بحركة لريتا لم أفهم مغزاها. وخرجت الفرّاشة ثم ما لبثت ان ظهرت وهي تحمل زجاجة شمبانيا في دلو .

ــ والآن ، لنشرب قدح شمبانيا في صحتك .

ورأيت ريتا تخرج الزجاجة من الدلو وتنزع الورقة الفضية ثم تـُطلق السدادة الكبيرة من غير صوت تقريباً ولا زبد ، كل ذلك بحركات تنمّ عن إلفة طويلة . وصبّت الشمبانيا في قدحينا ، ثم خرجت بسرعة ، كما لو انها لم تكن تريد أن تعكـّر بحضورها الطقس الاحتفالي .

وهكذا وجدتني وقدح شمبانيا في يدي واقفاً تجاه أمي التي كانت هي أيضاً واقفة تمدّ لي قدحها . وقلت ، من غير أن أفقه ما أقول :

ــ مئة يوم آخر كهذا !

فأخذت أمي تضحك :

ــ ولكن عليّ أنا أن أقول لك ذلك . انك تنسى انه عيدك ، لا عيدي .

فلم أستطع إلا أن أجيب :

ــ إن العيد الحقيقي هو عيدك . إني أكفّ عن الرسم وأعود لأسكن معك ، وإذن : فمئة يوم آخر كهذا اليوم .

ثم حملت قدحي أدقّ به قدح أمي التي تظاهرت هذه المرة بأنها لم تسمع. وبعد ان شربت ، قالت وهي تضع القدح على المائدة :

ــ انه ليس مثلجاً بما فيه الكفاية .

ــ تظنّين ؟ أما أنا فأجده لذيذاً .

ــ نعم ، ولكنه لم يبقَ وقتاً كافياً في الثلج .

وتناولت قدحها وأفرغته كله ثم ضغطت زراً موضوعاً على المائدة . ظهور ريتا من جديد . فأبدت لها أمي الملاحظة نفسها حول الشمبانيا الذي لم يثلج بما فيه الكفاية ، من غير أن تلقي ، ولا أن تنتظر في الظاهر جواباً . وأضافت أخيراً بأننا سنأخذ القهوة في المكتب . وانتهى الغداء .

وخرجنا من غرفة الطعام لنقصد المكتب ، وهو حجرة غير كبيرة تحتل

ركناً برمته من الطابق الأرضي . ولم أكن أقصد هذا المكتب برضى . بل كنت أتحاشى دخوله ، لأني كنت أفكر غالباً بأنه كان شبيهاً بمعبد دين لم يكن ديني بالتأكيد . والواقع ان أمي إنما كانت تجلس في هذا المكتب على أريكة جلدية عميقة ذات مسامير مذهبة ، أمام طاولة كبيرة غريبة من سنديان منقوش تصطفّ عليها بعض كتب وعدة إضبارات وسجلات ، تجلس هناك لتكرس نفسها، وحدها أو بصحبة رجالها الثقات ، لطقوس ادارة أعمالها ، وهي طقوس مؤثرة بالنسبة لها . وفي ذلك اليوم أيضاً تبعتها على مضض : وإذ دخلنا المكتب لم أمتنع عن سؤالها :

ـ لماذا نأتي إلى هنا ، أليس بوسعنا أن نذهب إلى الصالون ؟

فلم يبد على أمي انها سمعتني . ورأيتها تجلس وراء الطاولة وهي تشير إليّ أن أجلس قبالتها في الأريكة المخصصة عادة لمحدّثيها في اثنـــاء مشاورات الأعمـال . وفتّشت في محفظتها ، فأخرجت منها مفتاحاً وابتعدت قليلًا عن الطـاولة وفتحت درجاً فتناولت منه دفتراً أسود ، طويلًا وضيّقاً ، أثار انتباهي بمظهره ، مظهر حاجة كنسية ، إنه على أي حال يذكّر بالدين على نحو ما . ولكني سرعان ما تذكرت أن هذا الدفتر هو الذي كان يحوي قائمة أملاكنا . وأقفلت أمي الدرج من جديد، ووضعت الدفتر أمامها على الطاولة ، ونظرت إليّ لحظة بعينيها اللتين بدتا زجاجيتين أكثر من أي وقت آخر ، ثم قالت أمي لي :

ـ لقد سألتني عما إذا كنا أغنيـــاء ، ففضّلت ألاّ أجيب على سؤالك بسبب حضور الفرّاشة . ولكني مسرورة مع ذلك أنك قد طرحت عليّ هذا السؤال . فسأقدّم لك الآن جميع المعلومات التي تريدها (وأضافت آنذاك بلهجة رصينة) لا سيما وان أمنيتي الكبيرة هي أن تساعدني في تصريف الأعمـال ، وأن تكسب بعض التجربة العملية وتحلّ محلي في أمور كثيرة . ومـــا دمت قد انقطعت عن الرسم ، فان أمامك سعة من الوقت للقيام بها .

وهذه الكلمات الأخيرة جعلتني أرتعش ، فبأي هدوء وبأي رضى نطقت أمي بهذه العبارة : « ما دمت قد انقطعت عن الرسم » من غير أن تدرك ان ذلك كان يعادل بالنسبة لي أن اسمعني أقول « ما دمت لا تعيش بعد . » وسألت في جهد ،

من غير تنكيد هذه المرة :

– وإذن ، هل نحن أغنياء أم لا ؟

وصمتت لحظة وهي تنظر إليّ بأبّهة غريبة . ثم انحنت نحوي وقالت بصوت منخفض :

– لسنا فقط أغنياء يا دينو ، بل نحن أغنياء جداً . أنت اليوم ، بفضل أمك ، رجل غني جداً .

– أغنياء جداً : ماذا يعني ذلك ؟

– الغنيّ جداً يعني شيئاً أكثر من غنيّ فقط .

– ولكنه يعني أقل من غنيّ إلى أبعد حدّ ؟

– نعم ، أقل من غنيّ إلى أبعد حدّ .

كانت أمي تجيبني الآن ببعض السرور . وكانت قد لبست زوج نظارات راهبة ، لا إطار له ، ذا يدين من ذهب ، وكانت تقلّب صفحات دفترها الأسود :

– والحق انه ليس أفضل من الأرقام لتستطيع أن تفهم ، إذن ، إذن ، أين هو ... آه ! هوذا ، لتستطيع أن تفهم ماذا يعني أن يكون المرء غنياً جداً .

وفهمت انها ستقدّم لي جميع العناصر التي وعدتني بها ، فشعرت فجأة باشمئزاز لا يمكن حبسه ، وصحت بحيوية :

– لا ، أرجوك ، لا اريد اطلاقاً أن أعرف ماذا يعني أن يكون المرء غنياً جداً . فأنا أصدّقك كل التصديق .

فرفعت أمي عينيها عن دفترها ، ونزعت نظارتيها وتأملتني :

– ولكن يجب أن تعرف ، لا لشيء إلاّ لتساعدني ، كما قلت لك ، في تصريف شؤون ثروتنا .

وكنت أوشك أن أصيح بها « ولكني لا أريد مساعدتك في تصريف شؤون ثروتنا » وإذا بريتا لحسن الحظ ، تظهر حاملة صينية القهوة وبدت أمي ، إذ رأت ريتا ، تدخل في ذاتها من جديد ، كراهب يرى كافراً يقترب منه . فاذا بها تغلق الدفتر بحركة خشنة وتقول :

ـ قدّمي القهوة ، يا ريتا .

وبينما كانت ريتا واقفة بقربي تصبّ القهوة في الفنـــاجين الصغيرة ، تساءلت كيف يمكنني أن أفلت من هذا الشيء الذي لا يُطاق : شرح معنى هذه الكلمات: أن يكون المرء غنياً جداً . وكانت ريتا بقربي مرة أخرى ، وكانت ساقها تلامس ركبتي ، من غير أن أفهم إذا كانت تفعل ذلك عن قصد أم لا . وبصورة غريزية تقريباً ، قمت بحركة مفاجئة من ذراعي . فانقلب الفنجـــان على الصحن واندلقت القهوة على بنطلوني الفاتح الذي أحسسته حاراً ورطباً على بشرتي . وصحت متظاهراً بالتبرم :

ـ يا للمصيبة ! بنطلوني !

وقالت أمي موبّخة ، من غير أن تكون قد رأت أو فهمت شيئاً :

ـ ولكن كيف لا تتنبّهين بعد ، يا ريتا ؟

فسارعت أقول :

ـ ليس هو ذنب ريتا ، وإنما هو ذنبي . غير ان بنطلوني الآن قد تلطّخ .

قالت ريتا :

ـ لا بأس إن القهوة لم يوضع لها سكـّر بعد . سآتي بقليل من المـاء لمسح اللطخة .

فلم يرق هذا الحلّ لأمي التي سارعت الى الاحتجاج بصوتها المزعج ، وبلهجـــة آمرة :

ـ على الاطلاق . إن اللطخات لا تُمسح على الشخص نفسه . إن السنيور دينو سينزع بنطلونه ، فتنظفينه وتكوينه بعد ذلك .

ونظرتُ الى ريتا التي كانت واقفه بالقرب من الطاولة ، وعلى وجهها تعبير صبرٍ ذليل ؛ وسألت في رصانة :

ـ هل ينزع السنيور دينو بنطلونه على الفور ، ام عليّ ان أنتظر ؟

فقالت أمي :

ـ ان القهوة تلطّخ ، فالافضل ان تنزعه على الفور ، يا دينو .

– ولكني لا استطيع ان انزعه هنا ، في الصالون .

ورأيت ريتا تصرف رأسها ، وربما لتخفي بسمة . وقالت لي امي :

– اصعد الى غرفتك ، فانزع بنطلونك وأعطه لريتـــا . ثم ضع الروبديشامبر الذي هو في الخزانة . وفي هـــذه الأثناء سأهيء بعض الاوراق التي اريد اطلاعك عليهـــا .

وخرجنا انا وريتا ، وهي تتقدمني وتكاد تركض ، قائلة :

– انني اسبقك لأن هذه الغرفة كانت مغلقة دائمـاً ، فسوف افتح النوافذ على الاقـــل .

وكنت اتبعها وانا افكر في بعض الدهشة بان كل شيء كان يجري وفق قواعد ليست مكتوبة ولكنها لا تخطيء ازاء جميع المواقف المشابهة المتعلقة بالخدم : الأم التي تقدم لابنها حجة الابتعاد مع الفرّاشة ؛ وتتظاهر هذه وذاك بأنهما يحملان الحجة المتاحة على محمل الجدّ فيتجهان معاً إلى السرير الذي سيقعان عليـــه معاً ! وتكون الخـادمة في وقت واحد مهتاجةً وطموحاً ، بينما يكون الابن مهتاجاً هو أيضاً ولكنه يشعر بالذل بصفته سيد البيت .

وكنت مستغرقاً في هذه الأفكار حين وصلت الى الطابق الثاني واتجهت الى غرفتي التي كانت ريتا قد سبقتني اليها . وقد رأيتها تنحني على النافذة لتفتح مصاريعها على سعتها ، وإذ كانت تلتفت وقد احمرّ وجهها قليلاً بالجهد والركض والاضطراب ، قلت لها بجفاء :

– انتظري لحظة في الممر ، وسأناديك .

وما ان خرجت حتى اتجهت ببطء الى النافذة ، وظللت لحظة واقفاً ، وكتفاي بلصق المصراع ، أتأمل ، كما لو اني في حلم ، الحديقة الايطالية الطراز التي كانت تنبسط تحتي . وانا لست ميـالاً الى اجترار المـاضي ؛ ولكني كنت في ذلك اليوم قد قررت ان أعود فأعيش مع أمي ، بعد عشرة اعوام من الغياب ؛ ولهـــذا لم اتمالك من ان اقـارن حالتي الذهنية الراهنة بحالتي لعشر سنوات خلت . واذ كنت أتفحّص اولاً اثاث الغرفـــة « الامبير » الجميل ، ثم الرسم الهندسي للحديقـــة

الايطالية الطراز ، فأجد أنّ كل شيء قد ظلّ على حـــاله ، لاحظت اني احسّ بنوع من العزاء الكئيب اذ فكرت بأني انا ايضاً ، في حقيقة الامر ، لم أتغـيّر . أجل ، لم أتغير ؛ وهأنذا الآن عائدٌ لأعيش مع امي وأستعيد عادات يرجع عهدها الى عشرة اعوام : بل ربما عدت شيئاً فشيئاً الى الرسم ، هناك ، في المرسم القائم في نهاية الحديقة والذي لم يتغيّر هو كذلك . ومن يدري حقاً اذا لم تكن عودتي الآن الى مقصورة امي لن تلهمني في شارع مارغوتا ، فترة محدودة ، وهمّ الرسم ، كما ساعدت اقامتي في شارع مارغوتا ، فترة من الزمن ، على ردّ الثقة إليّ بعملي ؟

إن الحياة لم تكن في الحقيقة الا هذا التغير الدائم للوضع ، كما يحدث للمرء وهو في سرير غير مريح ، فلا يستطيع ان ينام طويلاً على الجانب نفسه . ولكن حين وقعت عيناي على السرير ، رأيت انـه كان خالياً من الشرشف والغطاء ، وان فراشه كان مطوياً كما في الغرف غير المسكونة ، وادركت فجأة أن ثبات الاشياء هذا وثباتي انا لم يكونا على تلك الدرجة من الايجابية التي فكرت فيها ذات لحظة . صحيح أن شيئاً لم يكن قد تغيّر ، ولكني سوف اجد نفسي من جديد تجاه هـذا اليأس الثابت هو ايضاً ، الذي دفعني، في الماضي ، الى الفرار من البيت . إن شيئاً لم يكن قد تغيّر ، ولكن بمـــا ان الزمن لا يمضي عبثاً ، فان كل شيء قد ساء قليلاً فيما ظلّ جامداً بمادته . وهكذا ، بينما كانت امي تنتظرني في صالون الطابق الأرضي لتشرح لي ، والاوراق في يدها ، ما يعني ان يكون المرء غنياً ، كانت ريتا تنتظر خارج الباب ان اطلب منها ان تدخل وأن اقفز عليها ؛ صحيحٌ انهما شيئان متباعدان ظاهراً فيما بينهما كل التباعد ، ولكنهما في الحقيقة مرتبطان فيما بينهما بآلية تركيبية خفيّة ودقيقة ، ولم أكن أجهل هذه الآلية ، فقد كنت دائماً أحسّ بوجودها؛ ولكني لم أرها في مثل الوضوح الذي أراها فيه الآن ، كما يستطيع أحدنا ان يرى ، في واجهات شركات الطيران ، نموذج محرّك طائرة بكل دواليبه العديدة المعقـّدة . إنهـــا آلية اليأس التي سوف تنقلني ، اذا عدت اعيش بقرب امي ، من المـــال الى العجز ، ومن العجز الى السأم ، ومن السأم الى ريتا او الى ذلّ آخر من الطراز نفسه . فالافضل إذن ان اعود الى مرسمي ، شارع مارغوتا .

حيث يعبّر اليأس عن نفسه ، على الاقل ، باللوحة البيضاء التي لن أرسمها أبداً .

وسمعت في تلك اللحظة خربشة ً على الباب ، خفية ً ولكنها صميمة نافـذة الصبر ، وقبـل ان اتمكن من ادراك ما كنت افعـله ، كنت قد فككت ازرار نطاقي وتركت بنطلوني يسقط ، ورميت الفراش تحت السرير ، وتمدّدت بطولي على السرير . ثم ناديت ريتا ان بوسعها ان تدخل .

وسرعان ما دخلت ، وبنظرة سريعـة تأكدت من اني كنت متمدداً على السرير ، واستدارت لتغلق الباب . وظللت جـامداً ، إلا في ذلك الموضع من جسمي الذي كانت الشهوة تدفق فيه دمي المهتـاج ، ونظرت إلى بطني ، محدّد العينين ، وذقني على صدري ، كجثة متمدّدة في تابوتها تبدو وكأنهـا تنظر إلى جسمها نفسه المعدّ لأن يُحمل إلى المقبرة . وفي تلك الأثناء ، كانت ريتـا قد اقتربت من السرير وبدت وهي واقفة تتأملني عبر نظارتيها المرائيتين ، كما يتأمل المرء شيئاً لم يره قط وهو جدير ٌ بأن يُفحص . ومددت إذ ذاك يدي فالتقطت يداً لها كانت قد تركتها متدلية بجانبها وجذبتها إليّ بالطريقة التي يُجذب فيها زمـام دابةٍ هي أكثر خجلاً منها جموحاً ، وشعرت بكل شخصها يأتي مع هذه اليد التي كنت أوجهها نحو وسط جسمي . وحين تأكدت من انها قد انغلقت ، تركتها . وأصبحت ريتا الآن جامدة ، منحنية ً قليلاً إلى الأمام ، وذراعها متمدّدة عليّ ، وتحت دائرتي نظارتيها السوداوين احمرار ٌ مشتعل . ثم قـالت بصورة غريبة ، بصوت بطيء ملاطف

ـ يا للفظاعة !

فلبثت مدهوشاً لذلك ، إذ كانت تلك هي الكلمة نفسها التي كنت سأقولها لو كنت أريد أن أعبّر عن مزيج الاشمئزاز والاهتيـاج الذي كنت أشعر به في تلك اللحظة .

وأطلقت تنهدة عميقة وسألتها أخيراً ، بصوت منخفض، من غير أن أنظر اليها:

ـ لماذا جئت إلى هنا ؟

فهزت كتفيها ولم تجب ، وكانت تبدو عاجزة عن الكلام .

– لكي تزيلي تلك اللطخة ؟ إذن ، إذهبي فأزيليها ، ماذا تنتظرين ؟

ورأيتها ترتعد كما لو اني قد صفعتها ملء وجهها ، ثم تفتح أصابعها الواحد تلو الآخر في تردّد ، ثم اختفت عن ناظري

ولا بد انها قد خرجت من الغرفة ، لأنني بعد لحظة سمعت صوت الباب يُفتح ثم يُغلق . وما أن تأكدت من ذهابها ، حتى قفزت خارج السرير وفتحت الخزانة، وكما رجوت ، فاني وجدت إلى جانب الروبديشامبر الذي كان عليّ أن أرتديه ، بناء على نصيحة أمي، الثوبَ الوحيد الذي لم أحمله معي حين ذهبت أسكن المرسم: ثوب السموكنغ . وكان معلقاً في غطائه المصنوع من « السيلفون » . وأخذت البنطلون فلبسته . وكان يناسبني بما فيه الكفاية ، ولكن ربما كان عريضاً بعض الشيء ، لأنني منذ عشر سنوات كنت أسمن مني الآن ، بالنظر إلى ان مطبخ أمي كان أغنى وأكثر غذاء من المطاعم المتواضعة التي كنت أتردد اليها .

ونظرت إلى نفسي في المرآة : فإذا أنا ، بسترتي القنّبية الكستنائية فوق هذا البنطلون الأسود ، أشبه خادماً عاطلاً عن العمل . وشققت الباب بهدوء ، فرأيت ان ليس ثمة أحد ، وهبطت السلم على عجل ، ثم تحاشيت الصالونات ، وأنا في الممر ، واجتزت المدخل وخرجت إلى ساحة البيت .

وكانت السيارتان ، القديمة والجديدة، مصطفّتين جنباً إلى جنب أمام المقصورة. وكانت السماء الغائمة والأشجار والبيت تنعكس صورها في غموض عبر حديد السيارة الجديدة الملتمع ، أما السيارة القديمة ، فقد كانت على العكس كثيفة ، ولم أتمالك نفسي من التفكير بأنها كانت من تلك الكثافة التي كان سأمي المألوف يغطي بها العالم حولي .

وانتزعت صفحة من دفتري الصغير ، وكتبت عليها :

« شكراً ، ولكني أفضّل الاحتفاظ بسيارتي القديمة » .

ثم أدخلتها تحت ذراع الممسحة ، هناك حيث يضع رجال شرطة السير عادة أوراق المخالفة .

وأخيراً ، صعدت إلى سيارتي ، فأدرت محرّكها ومضيت .

الفصل الثاني

في البناية نفسها التي أسكنها بشارع مارغوتا ، كان يسكن رسّام كبير السنّ يُدعى باليستياري ، على بعد ثلاثة ابواب من بابي ، في ممر الطابق الأرضي .

وكنت ألتقي به كثيراً ، وقد تبادلت معه بضع كلمات ، ولكني لم اكن أعاشره . لقد كان باليستياري كجميع الرجال المهووسين بالنساء ذا برودة كبيرة وشبه مهينة ازاء الذين كانوا من جنسه ، مهما كانت احوالهم وأعمارهم ، ولا شك في انه كان يرى فيهم منافسين ممكنين .

وكان باليستياري رجلاً قصيراً ذا كتفين عريضتين وقدمين كبيرتين وهما عيبان لم يكن يهتمّ قط باخفائهما ، بل كان يبالغ في إظهارهما بان يرتدي سترات رياضية هائلة ذات مربّعات كبيرة ، وأحذية قديمة الطراز ، لامعة ومروّسة . وكان وجه باليستياري يشبه كثيراً قناع كرنفال او ابطال هجاء بومبيي : شعر فضي ابيض ، سحنة ذات حمرة فاقعة ، حاجبان اسودان كالفحم ، أنف ناتيء ، فم كبير ، وذقن مروّسة . وكان تعبير هذا الوجه ناعساً ، على ما ينمّ عنه من قلق . وقد سمعت عن باليستياري من بعض الرسامين للشيوخ الذين كانوا يعرفونه بأنه كان زير نساء ، وانه انما أخذ في شبابه يرسم ليجتذب الى مرسمه النساء بحجة الرسم . وقد بقيت له فيما بعد عادة الرسم الذي كان يعني خصوصاً في نظره نساء عاريات .

وكان باليستياري يعيش على هواه ، ولا يكسب حياته من عمله ، ولا يقيم معارض قط ، وكان يرسم ، على نحو ما ، لأجله وحده . وكان اصدقاؤه يدّعون انه كان من شدّة تعلّقه بلوحاته بحيث انه اذا صمّم يوماً ، وهذا نادر جداً ، على ان يهدي احداها ، كان يرسم منها نسخة يعطيها بدلاً من الاصلية . اما بشأن قيمة اللوحات ، فقد كانوا مجمعين على التصريح بانه من الرسم الرديء جداً . وقد أخذني الفضول مرة او مرتين ، فحاولت ، وانا اعبر الباحة ، ان القي نظرة على اعمال باليستياري عبر زجاج النافذة ، فلمحت بضع لوحات كبيرة ذات أرضية مظلمة كانت تُرى عليها صور نساء عاريات هائلات ذات اشكال متطرفة واوضاع قليلة الطبعيّة .

وكان مرسم باليستياري يتلقّى باستمرار زيارة نساء عديدات . وكان بوسعي ان أراهنّ ، عبر فتحة الباب الزجاجي ، يعبرن الباحة ويختفين وراء الباب الذي يؤدي الى ممر الطابق الارضي . وكنت اعلم انهن كن يذهبن الى بيت باليستياري ، اذ كان يسكن في المرسمين الآخرين رسّامان كانا يعيشان مع عائلتيهما ولا يستعملان ، من جهة اخرى ، النماذج النسوية لانصرافهما الى الرسم التجريدي .

وكانت نساء باليستياري هؤلاء يشهدن بذوق متنوّع جداً صبيّات وناضجات ، سيدات ونساء من الشعب ، هزيلات وسمينات ، قصيرات وطويلات ، فكان من الواضح ان باليستياري ، كجميع امثال دون جوان الذين يعوزهم الذوق المرهف ، لم يكن يختار بدقة ، وانما كان جامع مغامرات يهتم بالكم اكثر من اهتمامه بالكيف .

وقد كان نادراً جداً ان يعقد باليستياري علاقة مستمرة مع امرأة واحدة ، وحين تكون له واحدة ، لم يكن ليقطع من اجلها مغامراته الاخرى الأقل أهمية . وخلال السنوات الاولى التي سكنت فيها شارع مارغوتا ، أثار شخص باليستياري وحياته فضولي الى حد اني تجسست عليه قليلاً . بل لقد بلغت من ذلك ان نظمت احصائية النساء اللواتي يقصدنه : حتى خمس نساء مختلفات في الشهر ، يعني امرأة جديدة كل ستة ايام ، بمعدل زيارتين كل يوم . وكان باليستياري في الخامسة والخمسين

حين رأيته للمرة الاولى ؛ وفي الوقت الذي جرت فيه الاحداث التي ارويها ، كان قد بلغ الخامسة والستين ؛ ومع ذلك ، فلم الاحظ خلال هذه السنوات العشر أيّ تغير في عاداته : فقد كان ما يزال يرى عدد النساء نفسه ، كما لو ان الزمن لم يكن، بالنسبة له ، يجري .

بلى ، لقد حدث تغير ، ولكنه لم يكن نقصاً في الزيارات النسوية ، كما يمكن ان يتوقع المرء ، وإنما كان زيادة . والواقع ان عشق باليستياري الذي كنت أشبّهه غالباً ببركان ذي نشاط هادىء ولكنه مستمر ، قد عرف في حوالي الثالثة والستين من عمره ، مرحلة اشتداد وتفاقم . فان النساء اللواتي كن يتهادين في الباحة ويذهبن ليطرقن باب الرسام الشيخ بدَوْنَ لي أكثر عدداً؛ ثم انني لاحظت ان القضية أصبحت دائماً بعد الآن قضية فتيات صبيات جداً : لقد كان باليستياري، شأنه في ذلك شأن جميع الفاسدين ، يميل مع السن إلى المراهقات . وقد تحدثت بصدد عشقه عن مرحلة تفاقم ، وربما كان من الأصح التحدث عن هوس ، لا واعٍ على الأرجح ، بنموذج واحد من المرأة باستثناء جميع النماذج الأخرى . وبالاجمال كان باليستياري ، على غير إدراك منه ،يكف في تلك الفترة عن ان يكون دون جوان الجامع الذي كانه حتى ذلك الحين ، وللمرة الأولى يكرس نفسه أو يريد ان يكرس نفسه لامرأة واحدة. وتلك الفتيات العديدات المتقاربات السن جميعاً، لم يكنّ غير رسوم موجزة تتفاوت في النجاح لنموذج يتميز رويداً رويداً بصورة خفية ؛ كن تخطيطاً لوجه مثالي سوف يتجسد ذات يوم .

وفي الواقع انقطع دفعة واحدة ذلك الفيض من المراهقات الذي كان يتدفق على مرسم باليستياري ليترك المجال لزائرة واحدة لا شك في أنهن هيأن ظهورها ، وكانت تختصرهن جميعاً .

وقد أتيح لي ان أراقبها في شيء من التنبه لسبب وجيه هو اني لاحظت بسرعة انها هي نفسها كانت تراقبني . فقد كانت بثوبها الذي يجعلها أشبه براقصة صغيرة والذي كان يتبع الموضة الشائعة ، مع قميص صغير منتفخ وتنورة واسعة وقصيرة كانت تبدو مستندة إلى تنورة داخلية من الشعر – كانت بذلك كله تشبه زهرة

مقلوبة ذات تويج منعطف مهتز ، تتنزه وهي تسير على مدفاتها . وكان لها وجه مستدير لفتاة صغيرة ، ولكن لفتاة صغيرة قد كبرت بأسرع مما ينبغي ولُقّنت التجارب النسائية أبكر مما ينبغي .

كانت ممتقعة الوجه ، وتحت وجنتيها ظلّ خفيف يُبرز خدّيها شاحبين ، وكان حول وجهها شعر كستنائي كثيف متجعد . وكان فمها الصغير ذو الشكل والتعبير الطفوليين يحمل على التفكير ببرعم وردة ظهر مبكراً على غصن ، من غير ان يتفتح : ولكن كان يطبع زاويتيه ثنيتان رقيقتان جذبتا انتباهي بصورة خاصة بسبب شعور الجفاف الكثيف الذي كان ينبعث منها . وأخيراً كان أجمل ما لديها عيناها الكبيرتان المعتمتان بشكلهما الطفولي أيضاً ، تحت جبين محدب بعض الشيء ، وكانت لهما نظرة لا براءة فيها تشعر ببعد لا يمكن تحديده ، وبالفرار والتردّد . وبعكس نساء باليستياري الأخريات اللواتي كن يمضين باستقامة ، خافضات الرأس ، نحو مرسم الرسام العجوز ، كانت هذه تجتاز الباحة في بطء يبدو مدروساً ، كما لو انها كانت تدع لحركة خاصرتيها الكسلى ان تقودها . ولم يكن يبدو انها تقصد باليستياري على مضض ، بل تبحث في الوقت نفسه ، فيما هي ذاهبة اليه ، عن شيء آخر لا تعرف هي نفسها أن تحدده . وإذن ، فقد كانت دائماً تقريباً ترفع عينيها إلى مرسمي ، فيما هي تعبر الباحة ، فإذا رأتني خلف الزجاج ، كما يحدث ذلك غالباً ، إذ كنت أنصب مسندي بالقرب من النافذة ، فانها كانت دائماً ترفق نظرتها بابتسامة . ولمدة من الزمن ؛ لم أدر كيف أفسر تلك البسمة التي كانت خفيفة إلى حد انه كان بالامكان الشك في ان لا تكون مقصودة . ولكن بعد ان اتفق لي مراراً ، فيما بعد ، ان التقيت بها في الممر ، اقتنعت بأن هذه البسمة كانت لي حقاً ، وانها كانت تضفي عليها معنى واضحاً جداً .

وكانت تلك الدعوة الصامتة تبعث فيّ شعوراً غامضاً من النفور سأجهد في تعليله . فأنا قبل كل شيء لست ميّالاً للمغامرات . ولا سيما حين تكون المغامرة ، كما كانت الحال هنا ، موحاة ومفروضة تقريباً من امرأة . بل أذهب إلى القول إن إلحاح تلك البسمة كان يوحي لي رغبةً منكّدة بألا أستجيب لها وأتظاهر بأني لم

ألاحظها . ثم ان الفتاة ، في الدرجة الثانية ، لم تكن تروق لي ؛ انني لم أحب قط إلا النساء الناضجات ، وهذه التي لم تكن على ما يبدو لي تتجاوز السابعة عشرة ، كانت تظهر بمظهر ذات الخمسة عشرة ، بسبب جسمها الدقيق ووجهها الطفولي . وكان ثمة أخيراً عامل ثالث ، أوفر قيمة وان كان أقل وضوحاً وتفسيراً، هو شعور الغثيان الذي كان يرهقني كلما كنت أتمثلني وأنا أقترب منها ، وأحدثها ، وأنتهي إلى نتيجة لا مفر منها : هي القيام بفعل الحب معها . وشعور الغثيان هذا لم يكن يوحيه لي نفور مباشر أو جسدي : صحيح ان الفتاة لم تكن تروق لي ، ولكنها لم تكن تثير اشمئزازي قط ؛ كان حسبي ان أتخيّل التجربة التي سأمضي اليها حين أقبل دعوتها . وكنت أفكر بأنه شعور الغثيان الخائف نفسه الذي يُحسه جميع الذين يجدون أنفسهم على عتبة واقع مجهول وغامض ، أو ربما ، بكل بساطة ، على عتبة الواقع لا أكثر ، الواقع الذي ألفوا منذ وقت طويل ألا يجابهوه . أقول انه شعور اشمئزاز ممزوج بخوف مبهم ، وهو شعور كان يدهشني ، لأن هذه الفتاة الطفولية التافهة إلى أبعد حد لم تكن تبدو وهي تبرره في أية حال .

لكن ليس يسيراً ، حين يسأم الإنسان ، ان يفكر تفكيراً مستمراً في شيء ما . ولقد كان السأم بالنسبة لي شبيهاً بنوع من الضباب كان تفكيري فيه يتيه باستمرار ، ولا يلمح إلا في تقطّع بعض تفاصيل الواقع ؛ كما يحدث إذ يجد المرء نفسه في ضباب كثيف فيلمح تارةً زاوية بيت ، وتارة أخرى وجه مار ، أو حاجة أخرى ، ولكن للحظة فقط ، ثم تختفي في اللحظة التالية .

وعبر ضباب سأمي ، كنت قد لمحت الفتاة وباليستياري ، ولكن من غير ان أوليهما أدنى اهتمامي ، وعلى كل حال من غير ان أفكر بهما قط . وهكذا كان يحدث ان انسى طوال أسابيع وجود هذين الكائنين اللذين كانا مع ذلك يعيشان ويتحابّان على بعد خطوات مني . وكنت بين فترة وأخرى أتذكرهما في نوع من الذهول فأفكر آنذاك « عجباً ! انهما هنا دائماً ، وهما ماضيان في حبهما . » وكنت أنسى باليستياري إلى درجة اني ، في الصباح الذي أعقب فراري من بيت أمي ، وبعد عودتي إلى المرسم إثر أخذ فنجان قهوة في مقهى قريب ، لاحظت في شارع

مارغوتا ، أمام باب البيت الخارجي ، مركبة جنائزية ، سوداء ومذهّبة ، مزدانة عند أركانها الأربعة بالملائكة المألوفين المذهّبين ، ومشدوداً اليها الأحصنة المألوفة السوداء بين المحملين ، ولكني لم أفكر أن من الممكن ان تكون بانتظار شخص أعرفه . واستدرت حول المركبة التي كانت تسدّ الطريق ، وتقدمت في الممرّ ؛ ولكن لما كنت كعادتي أسير خافض الرأس ، فقد أوشكت ان أصدم بجبيني طرف التابوت الأسفل الذي كان أربعة رجال يحملونه في تلك اللحظة على أكتافهم متجهين به صوب المركبة .

وقمت بقفزة مفاجئة إلى الخلف ، بينما كان القبّارون الأربعة يرمونني بنظرة دهشة واستنكار ؛ ثم مرّ التابوت بإزاء أنفي يتبعه شخصان فقط : شاب ذو وجه قاسٍ مجدور ، يرتدي ثوباً قماشياً أزرق ، وامرأة كانت تعطيه ذراعها ولم يكن يُرى منها شيء ، لأنها كانت مسربلة بغلالات سوداء من الرأس حتى القدمين . وذكّرني الشاب بباليستياري ، ربما لأنه كان هو أيضاً ذا وجه أحمر بعض الشيء وحاجبين شديدي السواد ؛ وفي الوقت نفسه سمعت بوّابة البناية تعلّق بصوت منخفض حول طابع الفجاءة التي تحمله بعض حوادث الموت ، ثم سمعتها تنطق باسم الرسّام العجوز .

وعلى هذا النحو علمت ان باليستياري قد مات ، مساء الأمس على الأرجح ، وأنّ هذه الجنازة كانت جنازته ، وان المرأة المرتدية ثوب الحداد كانت زوجته التي كان قد انفصل عنها منذ سنوات عديدة ، وان الشاب ذا الثوب الازرق كان الابن الذي رُزقه منها .

وكما سبق ان ذكرت ، كان السأم قد استغرقني منذ ايام ، حتى انني لم انس فقط وجود باليستياري ، بل ايضاً وجود الفتاة التي كانت مع ذلك توقظ اهتمامي . ومن اجل هذا لاحظت من غير ما دهشة اني كنت قد قضيت اليومين الأخيرين في مرسمي ، جاهلاً ان باليستياري ، على بعد ثلاثة ابواب مني ، كان يعاني المرض وينازع ، وانه قد سُهر بجانبه ، ثم وضع في التابوت وأخذ . ومن يدري ، فربما كان هناك من حدّثني عن مرض باليستياري ، ولكني لم اسمعه ، بالرغم من اصغائي

له ، لشدة ما كنت غارقاً في سأمي ؛ كما كان يحدث لي احياناً بعد ان اكون قد قرأت عناوين الصحف بعناية ، فاكتشفت بعد لحظة اني لم اكن اعرف قط مـا كان منشوراً فيها . وكان لا بـد من التابوت ، او على الاصح اصطدام جبيني اصطداماً مؤلماً بالتابوت ، ليعود الى ذهني وجود الرسام ، في اللحظة التي كنت أعلم فيها موتـه .

والواقع ان موت باليستياري لم يكن بالسهولة التي يمكن ان يبدو فيها لاول وهلة . ففي اليوم نفسه ، استطعت ان ادرك نهاية الرسام العجوز ، من خـلال إشارات البوابـة التي كانت تحمل طابع الدهشة الفاضحة ، ومن خلال تعليقات اصرح صدرت عن فريق من الاصدقاء التقيت بهم في مقهى .

وكان يبدو ان باليستياري قد مات في لحظة خاصة جداً ، اي بينما كان يقوم بفعل الحب مع الفتاة التي بسمت لي تلك المرات الكثيرة . وبالاضافة الى ذلك ، فان ذلك الحب لم يكن حباً طبيعياً (اذا فهمنا بالطبيعي العمل الذي يؤدي الى الانجاب) وانما كان تشويهاً ، وتفرداً غرامياً ؛ الى حد ان باليستياري قد قُتل ، إذا صح التعبير ، لا بالحب ، بل بالطريقة التي مارسه بها . ولم تشأ البوابـة ان تُفصح ، مكتفية بالإشارة إلى الحادث في لهجة غضب وغيظ ؛ اما رفاقي في المقهى فقد أطالوا في شرح التفاصيل ، كما لو انهم كانوا حاضرين في المرسم في لحظة الموت؛ ولكني تأكدت آخر الأمر من انها مجرد افتراضات .

والواقع ان باليستياري قد أحس بأنه على غير ما يُرام ، ومات تحت عيني الفتاة المذعورتين : هذا كل ما كان يمكن معرفته معرفة أكيدة . أما كون الفتاة عشيقته ، وأنه قد وُجد هو نصف عار تحت سريره ، وان الفتاة قد هرعت تنادي البوابة وهي ترتدي الروبديشامبر ، ولا شيء تحته ، كل ذلك يؤكد ، على مـا يظهر ، ما قيل عن موت مفاجيء حصل في لحظة الشهوة . ولكن الذين لم يكونوا يريدون تصديق هذا النوع من الموت ، كانوا يلاحظون أن الفتاة إذا كانت ترتدي الروبديشامبر فلأنها كانت تعمل كنموذج ، وانها كانت واقفة في الوضع الذي تُرسم به ؛ واما باليستياري فقد كان من عادته في الصيف ، ان يرسم وهو يرتدي

تبّان البحر . ومن جهة أخرى ، وتأييداً للشائعات المتعلقة بالموت بسبب الحب ، كان يُذكر تأكيد الطبيب الذي أسرع إلى سرير المحتضر : « لو أن هذا الرجل قد أدرك بأن هناك بعض الأمور التي لا تفعل في تلك السنّ ، لكان ما يزال حياً . » بينما كان آخرون يذهبون إلى ان الطبيب قد اكتفى على العكس ، بعد ان فحص باليستياري ، بان يقول للفتاة : « يا سنيوره ، لقد قتلتِه » ولكنه ما لبث أن أضاف : « أو انك على الأصح قد ساعدته على ان يقتل نفسه . » غير ان أحداً لم يكن يعرف من هو هذا الطبيب وأين كان موجوداً ؛ ربما كان طبيب الحراسة لإحدى صيدليات الحي الكثيرة ؛ فانني أنا لم أهتمّ بالبحث عنه .

في ذلك اليوم نفسه ، بعد ان تناولت غدائي في مطعم صغير من مطاعم شارع مارغوتا ، عدت إلى مرسمي فوجدت فيه رزمة مع كلمة من أمي . وفي الكلمة ، كانت أمي تقدّم لي درساً في فن معرفة الحياة :

« في المرة القادمة ، بدل ان تهرب ، مُرّ على الأقل لتودّعني . »

وفي الرزمة كانت سترة السموكنغ والبنطلون الفاتح الذي كانت ريتا الفارعة قد نظّفته وكوته . ورميت بهذا كله أرضاً ، وتمدّدت على الأريكة وأشعلت سيكارة . وكنت أعاني كالعادة شعوراً فظيعاً بالسأم ، وكان يبدو لي غريباً ألا يلاحظ الآخرون اني كنت سئماً ، أعني ألا يدركوا انهم هم والعالم كله ، لم يكونوا بالنسبة لي موجودين في الواقع ، وان يتمكنوا على العكس ، شأنهم في ذلك شأن أمي ، من ان يتصرفوا معي كما اني لم أكن لأسأم . وفيما أنا أدخّن ، جعلت أفكر في وضعي الذي كان طبعاً يسوء يوماً بعد يوم . وتساءلت أخيراً عما بقي لي أن أفعله ، الآن وقد تخليت عن الرسم ، ولم أملك الشجاعة على ان أقبل مال أمي .

وكنت أدرك ان ليس ثمة بعد إلا مجال صغير للعمل في اتجاه فعلٍ جدير بان يؤدي إلى تغيّر جذري حقيقي ؛ ولكن كان بوسعي ان أعمل ما يعمله كثير من الأشخاص حين يجدون أنفسهم في وضع غير محتمل : فانهم يقبلونه ويعتادونه . وفكرت بأني ، في الحقيقة ، شبيه بخَلَف أسرة نبيلة . ولكنها منحلّة ، يصر على

ان يعيش عيشة أجداده الباذخة نفسها . فهو حين يقبل الوضع الذي كان يبدو له غير محتمل ، بينما هو في الحقيقة وضع طبيعي لمجموعة كبيرة من الناس ، فانه يكفّ عن العذاب ويلاحظ ان كل ما كان يبدو له غير محتمل ، على مستوى ما ، ليس بعدُ كذلك على الاطلاق ، إذا نُظر اليه من مستوى اكثر انخفاضاً . والواقع ان ما كان يجعلني أتألم لم يكن السأم بقدر ما كان التفكير بانه كان بوسعي أو كان عليّ ألا أسأم . أقصد إلى القول اني كنت أنتمي ، أنا أيضاً ، إلى أسرة نبيلة جداً وعريقة جداً لم يحدث لها في الماضي ان سئمت قط ، لأنها كانت دائماً في علاقات مباشرة ومحسوسة مع الواقع . وكان عليّ ان أنسى أسرتي وان أقبل نهائياً الوضع الذي كنت أجدني فيه . ولكن هل يستطيع المرء ان يعيش في السأم ، أي ان يعيش بلا أية علاقة مع الواقع ، من غير ان يتألم من ذلك ؟ هنا كانت تكمن المشكلة كلها .

وأخذني النعاس بين جميع هذه الأفكار فنمت نوماً ثقيلاً ، وبي إحساسٌ بأني أغرق ، ولست أنام . وحلمت حلماً واضحاً : فقد كان يخيّل إليّ اني كنت واقفاً أمام مسندي ، ولوحة ألواني في يد ، والريشة في اليد الأخرى . وكان موضوعاً على المسند القماشة العادية البيضاء ، وإلى جانب المسند ، كانت تقف امرأة نموذج (وهو حدث غريب إذ اني منذ بضعة أعوام كففت عن ممارسة الرسم التصويري) انها امرأة شابة ذات وجه عاقل ، وعلى عينيها نظارتان وهي تذكّرني كثيراً بريتا . وبصورة جنائزية ، كان يرتسم على بياض جسدها المسطّح المفتقر إلى حجم ، لطختا ثدييها التوأمين اللتان تشبهان درهمين كبيرين مظلمين ، ومثلث العانة الأسود . والمفهوم اني أرسم صورة هذا النموذج ؛ والواقع ان يدي ، المسلّحة بالريشة ، تتحرّك طبعاً بحركات الرسّام على صفحة القماشة غير المرئية . وظللت أرسم في عناية ووثوق ، وكانت اللوحة تبشّر بأنها ناجحة ، ولم يكن النموذج ليتحرك أو ينبس ، حتى يظنّ انه ميت لولا اللمعان خلف العينين والبسمة التي ربما كانت هازئة والتي تقطّب الشفتين . وأخيراً ، وبعد جلسة طويلة جداً ، انتهت الصورة فابتعدت قليلاً لأتأمّلها ملياً . مفاجأة : إن اللوحة فارغة ، بيضاء ، لم

مُمس ، ولا يبدو عليها أية امرأة عارية مرسومة أو مصوّرة ؛ لا شك في اني عملت كي لا أعمل شيئاً . وذُعرت فتناولت انبوباً من أنابيب الألوان ، فسحقت منه معجوناً على لوحي، وغمست فيه ريشتي، وانكببت من جديد على اللوحة. لا شيء فقد ظلت القماشة بيضاء ؛ وفي هذه الأثناء ، ابتسمت الفتاة أمام جهودي التي تذهب عبثاً بسمة كانت تزداد سخرية ، فيما ظلّت تحتفظ بتعبيرها المرائي والعاقل الذي كانت نظارتاها المؤطرتان تضفيانه عليها . وحطّت يدٌ علي : إنه باليستياري بلحمه ودمه ، وعلى وجهه المحمر بسمة أبوية ؛ وقد أخذ من يدي لوح الألوان والريشة ، ثم انزرع أمام المسند مولياً إياي ظهره . وكان باليستياري يلبس تباناً لا أكمام له ويذكرني في هذا ببيكاسو الذي أجد له فجأة بعض الشبه . وها هو باليستياري يرسم الآن ، وأنا أنظر إلى رقبته التي يغطيها شعره الكثيف الفضي ؛ وأفكر بأن باليستاري يرسم بينما لا أستطيع أنا ، بعكسه، ان أرسم . وانتهت لوحة باليستياري ، ومضى باليستياري ، وظللت أمام عمله . ولست أدري إذا كانت اللوحة جميلة أم بشعة ، ولكنها على كل حال مرسومة ، وليست بيضاء فارغة كما كانت حين توقفت عن الرسم ، بل ملأى بالخطوط والألوان . وفجأة هزّني غضب مجنون ، فتناولت المدية التي أستعملها عادة لحكّ لوحي ، وضربت القماشة بعنف ونظام ، من فوق إلى تحت ، بحيث مزقتها على طول ارتفاعها . فظاعة ؟ اني لم أضرب اللوحة، وإنما ضربت جسم النموذج الذي يقطر الآن دماً من جروح عديدة ضيّقة وعمودية ، ابتداء من الصدر وانتهاء بالساقين . إن الدم يسيل من الجروح ، أحمر غزيراً ، وتتشكّل مجارٍ ثانوية وتلتقي ، حتى أصبح جسم الفتاة ، التي ظلت مع ذلك تبتسم ، مغطى كله بشبكة من الدم ، بينما أنا مستمر في الطعن ، في عنف ونظام ، إلى ان استيقظت في صرخة ضيق شديدة .

كان النهار غائماً ، وكان المرسم غارقاً في نور منخفض ، رمادي وحزين .ووثبت خارج اريكتي ، وكما لو اني أعرف ما سأفعله ، هرعت الى الباب ففتحته وخرجت إلى الرواق؛ وكان خالياً،وابوابه الاربعة مقفلة.ولكني اذ نظرت في تنبّه لاحظت ان باب باليستياري كان مشقوقاً . ومن غير ان افكر ، توجهت الى هذا الباب ،

وانا ماضٍ في العمل بطريقة شبه آلية ، فوجدته بالواقع مفتوحاً ، ودفعته ودخلت.

ولم يكن قد سبق لي أن دخلت مرسم الرسام العجوز ، ولهذا وسعني أن أتوهّم ان الفضول وحده كان الذي يدفعني إلى زيارته .

وكانت الستائر مسدلة ، والمرسم في نصف ظلام ، وكان مصباح أحمر قاتم على قدم من خشب مذهّب ومنقوش ، اقرب الى ان يكون حاجة كنسيّة ، مضاءً فوق طاولة يغطيها نسيج ارجواني موشّى بالزهور . وعلى نور هذا المصباح الدامي استطعت ان ادرك ان مرسم باليستياري كان مختلفاً عن مرسمي . فقد كان اولاً اكبر ، مع سلّم يفضي الى ممر خشبي ينفتح عليه بابان . وبالاضافة الى ذلك ، فبينما كان لمرسمي مظهر مرسمٍ حقيقي مؤثث باختصار وقائم في الفوضى ، فان مرسم باليستياري ، كما لاحظت بسرعة في شعور غامض من الاشمئزاز، كان على العكس مؤثثاً بطريقة قديمة كصالون بورجوازي يرجع عهده الى اربعين او خمسين سنة ؛ وما كان لأحد ان يفكّر بأن رسّاماً قد سكن فيه لو لم تكن الجدران مغطّاة بصوره العارية الضخمة المعلقة احداها بجانب الاخرى ، من الارض حتى السقف ، ولو لم يكن ثمة مسند هائل قد أقيم في النور بالقرب من الباب الزجاجي ، وعليه لوحة غير ناجزة .

وما لفت انتباهي خاصة طابع الأثاث المعتم ، وهو أثاث معظمه قديم أو منسوخ عن القديم ، من طراز « رونيسانس »، وتحت اللوحات كانت الجدران مغطّاة بنسيج مزركش أحمر ؛ وكان ملقى على الارض طنافس فارسية صغيرة ذات رسوم معتمة ومتلاصقة ، مبعثرة في كل مكان .

وأغلقت الباب خلفي ، واستعرضت بعيني القاعة ، وشممت بملء أنفي الرائحة الخاصة ، الجنائزية والمنزلية ، التي كانت تطفو في الهواء . واقتربت بهدوء من المسند . لا بدّ ان اللوحة غير الناجزة هي الصورة التي كان باليستياري يرسمها لعشيقته الفتية قبل ان يموت بقليل . وأعترف اني قد استخفّني الفضول في تلك اللحظة لأرى كيف كانت مصنوعة . ولكني حين اصبحت قرب اللوحة استشعرت احساساً بعدم التصديق والخيبة . والواقع ان باليستياري كان قد خطّ عليها بقلم

الفحم ضورة كان يبدو لي صعباً ان اقرّبهـــا من صورة الفتاة ذات الجسم الدقيق والوجه الطفولي التي بسمت لي من قبل مراراً. كانت صورة من تلك الصور العارية المألوفة المرسومة ، بالاضافة الى ذلك ، في وضع مبتسر ، اي جاثية على ساقيهـــا المطويتين ، ولكن اليدين مشتبكتان وراء الرقبة ، بحيث ان المقصود ابراز النهدين والخاصرتين ، هـذين الجزئين اللذين كان باليستياري يؤثرهمـا على سواهما من جسم المرأة ، كما يبدو . وقد دهشت خصوصاً من اتساع الخاصرتين وثقل الثديين . وهذا ما لا اذكر اني لاحظته لدى النموذج . بل على العكس ، لقد كانت اجدر بأن تملك قامة مشدودة وكتفين هزيلتين وذراعين دقيقتين . ولم يكن باليستياري قـد اهتم بتصوير الوجه ، وهذا اسقاط له مغزاه ، وهكذا استحال عليّ على الاقل أن اكتشف هوّية صاحبة الصورة .

ونظرت طويلاً الى اللوحة ، وانا افكر بأن باليستياري كان حقاً رساماً رديئاً جداً ، حتى ولو نظرنا اليه من زاوية الطبيعيين التقليدية القديمة التي كان يدّعي انـه ينتمي اليها . ثم انصرفت الى المرسم وأخذت اتفحص اللوحات المعلّقة بالجدار . ولم يكن ثمة إلاّ صور عارية كما أسلفت ، صور نساء عاريات ، معظمهن في أوضاع غير طبيعية او مبتسرة ؛ واول فكرة خطرت ببالي هي ان باليستياري ، على كونه رساماً رديئاً ، كان مع ذلك رساماً شديد العناية ، بل وافر الدقة ، الى درجـــة الشكلية . وكان واضحاً انه لم يكن يعتمد على إلهـــامه ويعمل على شاكلة المعلمين الأوائل ، بطريقة طبقات الالوان المتعاقبة ، عائـــداً من غير انقطاع الى بعض التفاصيل ، الى ان أصبح متأكداً تماماً من انه قـد استنفذ كل امكانياتها وكانت النتيجة للأسف هـذه النزعة الطبيعية الفوتوغرافية الخاصة المستمدة من اللوحات التي تُرى معروضةً فيما يسمى بمعارض الفن الأوفر تجارة . ولكن كان واضحاً ، من جهة اخرى ، أن جميع هذه اللوحات كانت متقنة ، ولو بهذا الاتقان في القبح الذي تتميز به الخلاعة . وبعبارة اخرى ، كان عالم باليستياري عالماً محسوساً ومنسجماً ، بلا تصدّع ولا عدوى ، ولم يكن مهماً ان يشعر بشعور الهوس . وفي هذا العالم ، كان باليستياري قد وجد نفسه ، على هواه ، حتى موته ، من غير ان يشكّ فيه

او يحاول ان يخرج منه . وربما كان باليستياري نوعاً من المجانين ، ولكن جنونه كان يثوي في ان يتوهم أنه كان ذا علاقةٍ بالواقع ، أي انه كان عاقلاً ، كما تشهد بذلك لوحاته ، بينما كنت انا مضطراً الى القول باني ربما كنت عاقلاً تكمن عقلانيته في الاعتقاد العميق بان مثل هذه الصلة كانت مستحيلة ، اي كنت عاقلاً يعتقد نفسه مجنوناً .

كنت قد طفت بالجدران ، وانا غارق في هذه الافكار ، انظر الى اللوحات واحدة بعد الاخرى ، من غير ان اجد لوحة استطيع ان اتعرّف فيها الى ملامح الفتاة ذات الوجه الطفولي . وقلت لنفسي بان الامور لا بد ان تكون كما يلي :

إن باليستياري لم يسبق له قط ان رسم صورة عشيقته الصغيرة ، بل هو قد اكتفى بأن يحبّها ، بخلاف ما قد يفترضه أحد ؛ بالنظر الى سنّه المتقدمة .

و كنت على وشك ان انصرف ، حين رفعت عيني اذ سمعت حركة صادرة من فوق . وفي تلك اللحظة بالذات ، كان نموذج باليستياري يخرج من احد الابواب المؤدية الى الممر ، ويبدأ في هبوط السلّم ، على غير عجل ، جاهلاً وجودي بالطبع ، خافض العينين ، يدٌ على الدربزين ، والأخرى مرفوعة الى الصدر لتشدّ رزمة كبيرة .

وحين بلغتْ اسفل السلّم ، رفعت أخيراً عينيها وبدت مذعورة لرؤيتي واقفاً امامها ، قرب الطاولة التي كانت في وسط المرسم . ولكن ذلك لم يدم الا لحظة : فسرعان ما امتلأ وجهها المستدير بسكون هادىء كما لو انّ هذا اللقاء لم يكن بالنسبة لها مفاجأة ، بل كما لو انها قد استعدّت له منذ وقت طويل . وقلت في ارتباك :

– أنا أسكن المرسم المجاور ؛ ولعلّك قد رأيتني أحياناً ؛ ولقد دخلت لألقي نظرة على اللوحات ..

فأجابتني وهي تريني رزمتها :

– وأنا قد جئت آخذ حوائجي ، قبل ان يؤجّر المرسم . كنت نموذجه ، وكان قد أعطاني المفتاح ، وبهذه الطريقة دخلت .

ولاحظت انها لم تكن لها أية لهجة يمكن ان تتيح معرفة مسقط رأسها والطبقة الاجتماعية التي كانت تنتسب اليها . صوت محايد لا لون له ، موجز ، شديد الاقتصاد حتى انه يشعر بالزهد والتمنّع . ولم أدر ماذا أضيف ، فسألتها كيفما اتفق :

ـ هل كنت تزورين كثيراً باليستياري ؟

ـ نعم ، كل يوم تقريباً .

ـ ولكن متى مات ؟

ـ مساء أمس الأول .

ـ وهل كنت حاضرة حين مات ؟

فرأيتها تنظر إليّ لحظة بعينيها الكبيرتين المعتمتين اللتين كانتا تبدوان وهما تعكسان الأشياء بدلاً من ان تراها .

ـ لقد أحسّ بالانزعاج بينما كنت ماثلة أمامه للرسم .

ـ وكان يرسم صورتك ؟

ـ نعم .

فلم أتمالك نفسي من الصياح بدهشة :

ـ ولكن أين هي اللوحة التي تمثلك ؟

فأشارت إلى المسند :

ـ تلك هي .

والتفتُ . فنظرت إلى اللوحة ، خلسة ، ثم اليها طويلاً . كانت قامتها في الظل الذي كان يبدو وهو يمتص ثنياتها واستداراتها ، تتجلّى على غاية الدقة والطفولة ، بتلك التنورة العريضة التي تتسع فوق ساقيها الدقيقتين ، وذلك الصدر الصغير ، وهذا الوجه الذي تأكله العينان الكبيرتان المعتمتان . وسألت غير مصدّق .

ـ ولكن هل أنت حقاً من مَثَل أمامه من أجل هذا الرسم ؟

فبدت بدورها مندهشة من ذهولي :

ـ نعم ، لماذا ؟ ألا تحب الطريقة التي رسمني بها ؟

ـ لا أدري ان كانت تروق لي أم لا . ولكن ما هو أكيد ، انها لا تشبهك.

ـ إنه لم يرسم الرأس ، لأن هذا كان آخر ما يرسم دائماً . كيف عرفت انها لا تشبهني ؟

ـ أقصد أن الجسم الذي رسمه باليستياري لا يبدو جسمك .

ـ أتظن ؟ إنه مع ذلك جسمي .

وكنت أحسّ بتفاهة وزيف هذه المناقشة التي تدّعي الفنّ حول رسم كهذا ، وفوق ذلك في موضوع تشابه . ولكن ، على الرغم مما استشعرته من خجل ، ومن تواطؤ صامت كان عليّ أن أرفضه ، فاني لم أتمالك إلا ان أجيب بحيوية :

ـ ليس هذا ممكناً ، وأنا لا أستطيع أن أصدقه .

فردّت قائلة :

ـ أتظن ؟ انني مع ذلك مصنوعةٌ هكذا .

ووضعت رزمتها على الطاولة ، واتجهت إلى المسند ، فتأملت اللوحة لحظة ، ثم أضافت وهي تلتفت نحوي :

ـ ربما كان هناك بعض المبالغة ، ولكني هكذا في حقيقة أمري .

ولست أدري لماذا تذكرت ، وأنا أراها واقفة بالقرب من اللوحة ، حلم بعد الظهر . وسألت بشرود :

ـ ألم يرسم باليستياري الا هذه الصورة عنك ، ام انه رسم صورتك على لوحة أخرى ؟

ـ اوه ! لقد رسمني مرات كثيرة .

ورفعت عينيها نحو الجدران ، وبدأت تعدّ ، وهي تشير إليها بالتتالي :

ـ هذه انا ، وهذه ايضاً ، وتلك فوق ، وتلك الاخرى .

وأضافت بمثابة خاتمة :

ـ انه لم يكن يشبع من رسمي . وكان يجعلني أمثل امامه ساعات طويلة .

ولا ادري اي رغبة أخذتني بان أقول شراً عن باليستياري ، وربما لأنتزع من هذه الفتاة لهجةً ما تتميزّ بمزيد من الطابع الشخصي وتكون أقلّ لامبالاة .

وقلت في قسوة :

– مشقة كبيرة من أجل نتيجة هزيلة كهذه ؟

– لماذا ؟

– لأن باليستياري كان رساماً رديئاً جداً ، بل لم يكن رساماً على الاطلاق .

فلم يبد عليها اي رد فعل ، واكتفت بالقول :

– انني لا أفقه شيئاً في الرسم .

والحت :

– الواقع ان باليستياري لم يكن الا رجلاً يحب النساء كثيراً .

فوافقت في اقتناع :

– آه ! اذا كان الامر يتعلق بذلك ، فهو صحيح .

وفي الوقت نفسه ، كانت قد تناولت رزمتها وهي تنظر إليّ نظرة استفهام ، كما لو انها تقول :

– انني ذاهبة ، فلماذا لا تتدبّر امرك لتستبقيني ؟

واقترحتُ بعذوبة مفاجئة في صوتي دهشت لها شخصياً لأني لم أردها ولم أفكر فيهـا :

– هل تريدين ان تأتي لحظة الى مرسمي ؟

فرأيتها تشرق بأمل سريع وساذج :

– اتريد ان امثل امامك للرسم ؟

فظللت مرتبكاً . ولم يكن قد خطر لي ان اكذب عليها ، ولكن هـا هي تعرض حجة كاذبة كانت تذلني مذلة مزدوجة ، لأنها كانت نفاقاً ، ولأن هـذا كان آخر ما يمكن ان ألجأ اليه : نفاق الرسام وهو يدعو الفتاة الجميلة الى مرسمه بحجة ان يرسم صورتها ، وهذه بالاختصار حجة كان باليستياري هو الجدير بالتذرع بهـا .

وسألتها بلهجة لا تخلو من استياء :

– تُرى ، هل دعاك باليستياري في المرة الاولى الى مرسمه ، بحجة ان يرسم

لك صورة ؟

فأجابت في رصانة :

– كلا . كنت اقصده لآخذ دروساً في الرسم . ثم اراد ان يرسم صورتي ، ولكن فيما بعد ...

وهكذا ، فان حجـــة الصورة لم تكن بالنسبة إليها تصنعاً ، بل كانت شيئاً جدّياً . وهي بالفعل قد أضافت :

– ليس لديّ ألآن مـــا أفعله . فاذا شئت ، كان باستطاعتي ان امثل امامك للرسم حتى ساعة العشاء .

وأتساءل عما اذا كان قـد وجب عليّ ان اوضّح لها اني كنت رساماً قد كفّ عن الرسم ؛ وانني ، من جهة اخرى ، حين كنت ارسم ، فأني لم يسبق لي أن رسمت قط لوحات تصويرية . ولكني فكرت بأنه سيتوجّب عليّ في تلك الحـــالة ان التمس حجة اخرى لأجتذبها الى مرسمي ، لأنه كان يخيّل إليّ اني كنت بحاجة الى ذريعة ، فكان الافضل ان اقبل حجة الصورة . وإذن ، فقد قلت بخفـّة وإبهام:

– طيّب ... لنذهب الى مرسمي .

وأخبرتني وقد هدأت وقرّت ، وهي تأخذ رزمتها عن الطاولة :

– في مثل هذه الساعة كنت دائماً أمثل امام باليستياري للرسم . كان يرسم كل يوم من الرابعة حتى السابعة .

– وفي الصباح ؟

– وفي الصباح ايضاً ، من العاشرة حتى الواحدة .

وفي تلك الاثناء كنا نتجه نحو الباب ، وكنت أفكر بأنها كانت ترى للمرة الأخيرة هذا المرسم الذي قضت فيه شطراً من حياتها ، وكنت أتوقـّع ، ربما بدافع الشفقة على الرسام العجوز الذي كان قـد أحبّها ، ان تقول شيئاً او على الأقل ان تلتفت لتلقي نظرة اخيرة . ولكنها اكتفت بأن سألتني ، وهي تلقي نظرة على الجدران :

– الآن وقد مات ، ماذا يمكن ان يُعمل باللوحات ؟

فأجبتها بالقسوة نفسها :

ـ من الممكن ان يسعوا لبيعها . ثم حين يرون ان ليس ثمة من يرغب فيها ، يلقونها في قبو ما .

ـ في قبو ؟

ـ نعم ، تخلصاً منها .

ـ كانت له امرأة انفصل عنها . فاللوحات ستعود اليها ، هي .

ـ من باب اولى ان ترميها .

فلم تقل شيئاً ، وظلت على عدم اكتراثها وكتمانها . وكانت تتقدمني في الممر ، واذ رأيتها من ظهرها ، وتلك الرزمة الضخمة في ذراعيها ، وهي تمشي تلك المشية التي كانت تبدو لا إرادية ومقتسرة ، بينما كانت في الواقع شديدة التصميم ، كانت تمنح الشعور بأنهـــا انما تغيّر المنزل بكل بساطة . أجل ، انها تنتقل من مرسم باليستياري الى مرسمي : هذا كل ما في الأمر .

ولحقت بها ففتحت لها بابي وانا اقول :

ـ انه كما ترين مرسم يختلف كثيراً عن مرسم باليستياري .

فلم تجب . كما لو انها لم تجـــد اي فرق بين مرسمي ومرسم عشيقها العجوز . واتجهت بتصميم نحو الطاولة ، فوضعت عليها رزمتها ثم انفتلت إليّ وهي تسألني :

ـ اين غرفة الحمام ؟

ـ هناك ، ذلك الباب .

ورأيتها تتجه نحو غرفة الحمام ثم تدخلها . وقصدت الأريكة، فسوّيت الوسائد التي كنت قد رقدت عليها بعد الظهر ؛ ثم التقطت أعقاب السكاير التي رميتها ارضاً بعد ان دخّنتها . وفيما كنت انشغل بهذه الأعمال ، كنت أفكر بالفتاة ، متسائلاً عما اذا كانت تروق لي ، وإذا كانت لدي الرغبة في ان أفعل ما كانت تنتظرة مني ، فأشعر اني لم تكن لي اية رغبة بها. وقلت لنفسي اخيراً إنني سأسألها عن باليستياري وعن علاقتها به ، تلك العلاقة التي كانت تثير فضولي ، ثم أصرفها .

وكنت هادئاً جداً ومستغرقاً في احساسي بهدوئي حتى اني نسيت حجة الرسم التي كانت الفتاة قد قدّمتها لي والتي قبلتها بشرود .

ولهذا اخذتني دهشة تامة حين ُفتح باب غرفة الحمام وبدت الفتاة على عتبته . وكانت عارية ، عارية تماماً ؛ وكانت تشد بكلتا يديها منشفة على صدرها وتمشي على رؤوس أصابعها . واذ رأيتها لم اتمالك من التفكير بان باليستياري لم يكن مبالغاً إذ أظهرها بتلك الأشكال المتفتّحة التي أيقظت عدم تصديقي . فالواقع انه كان لها صدرٌ رائعٌ ، ممتلىء ، صلب وأسمر ، ولم يكن مع ذلك منسجماً ونصفها الاعلى الذي لم يكن يبدو انه يؤلف جزءاً منه ، وإنما كان على العكس نصفاً أعلى هزيلاً لفتاة مراهقة . وكذلك القامة ، كانت قامة طفلة لفرط دقتها ولينها ؛ ولكن ميزة البلوغ والنضج كانت تعود فتبدو في خاصرتيها كما لاحظت في صدرها . وكانت تمشي ونهداها مشرئبّان ، وبطنها منقبض ، وعيناها محدّدتان تقريباً بالمسند القائم إزاء الباب الزجاجي . وحين أصبحت أمام اللوحة ، سألتني من غير ان تلتفت، بصوتها اللامعبر ، الجاف ، الموجز :

– أين إذن ينبغي أن أقف ؟

وتساءلت عما إذا كان لديها ، في تلك اللحظة ، رياءٌ ما ، ولكني سرعان ما أقررت بأنها كانت خالية من ذلك . فلقد اتخذت دورها كنموذج بصورة جدية ، حتى ولو كانت ربما تشكّ بأنه لم يكن إلا ذريعة لنوع آخر من العلاقات . ولكني قلت لنفسي بأنه لا بدّ ان يكون في ذهنها نوعٌ من العجز عن ربط شيء بشيء ، وهذا ما كان يتيح لها ان تكون صادقة . وقلت بهدوء :

– لا تقفي في أيّ مكان .

فالتفت مندهشة :

– لماذا ؟

فأوضحت :

– اني آسف ، لقد قبلت حجة الرسم هذه بشيء من الخفة . فالواقع اني قد انقطعت منذ حين عن الرسم . وحين كنت أرسم ، كنت أفعل ذلك من غير نموذج أو أي شيء آخر . اني آسف .

فقالت بلهجة محايدة ، من غير ان تبدو منزعجة :

– ولكنك قلت لي انك كنت راغباً في ان أجيء فأمثل للرسم .
– صحيح ، ولكن اعتبري كما لو اني لم أقل شيئاً .

وبهدوء ، وبهيئة من لا يعلّق أهمية على الأمور ، أخذت المنشفة التي كانت تشدّها على صدرها ، فألقتها على كتفيها ، ثم أدارتها على جسدها . وبعد ذلك اقتربت من الأريكة بهيئة حييّة حذرة ، كما لو اني كنت قد دعوتها للجلوس ، بينما لم أقل في الواقع شيئاً ؛ ثم جلست على طرف الأريكة الآخر ، بعيدة عني .

وحدثت لحظة صمت ، ثم بدت على شفتيها الطفوليتين تلك البسمة التي كانت توجهها لي عادة حين كانت تلتقي بي في الرواق . وقلت مرتبكاً :

– إنك الآن ستظنّين بي السوء .

فنفضت رأسها علامة النفي ، من غير ان تقول كلمة . وكانت تتأملني بنظرتها اللامعبرة ، كما لو ان عينيها كانتا مرآتين معتمتين تعكسان الواقع من غير ان تفهماه ، بل ربما من غير ان ترياه . وكنت أشعر بارتباك ينمو .

وكان واضحاً انها لم تكن تريد ان تذهب ، وانها كانت تنتظر مني القسم الثاني من البرنامج ، إذا صحّ التعبير . وفيما أنا أبحث عن موضوع للحديث يمكن ان يكون مشتركاً بيننا ، عاودتني طبعاً ذكرى باليستياري ، فسألتها :

– منذ متى تعرفين باليستياري ؟
– منذ عامين .
– ولكن ما هو عمرك ؟
– سبعة عشر عاماً .
– حدّثيني كيف تعرّفت على باليستياري .
– لماذا ؟
– هكذا ...

وفكّرت لحظة ثم أضفت بصدق :

– إن ذلك يهمني .

فقالت في هدوء :

– عرفت باليستياري منذ عامين . في بيت إحدى صديقاتي .
– ومن هي هذه الصديقة ؟
– فتاة صبية تدعى اليزا .
– وما هو عمرها ؟
– أكبر مني بسنتين .
– وماذا كان يفعل باليستياري لدى اليزا ؟
– كان يعطيها دروس رسم ، مثلي أنا .
– وما شكلها ، اليزا هذه ؟
فأجابت باقتضاب :
– انها شقراء .
فحسبتني أتذكر إحدى هاتيك الفتيات العديدات اللواتي رأيتهن يتهادين في الباحة . وسألت :
– شقراء ذات عينين زرقاوين ، وعنق طويلة ، ووجه بيضاوي ، وشفتين ممتلئتين ، شديدتي الالتصاق ؟
– نعم ، انها هي . هل تعرفها ؟
– لا ، ولكني رأيتها تأتي أحياناً إلى مرسم باليستياري ، قبل ان تبدأي أنت بالمجيء . وهل كانت اليزا تأخذ دروس الرسم في بيتها أم في المرسم ؟
– في بيتها وفي المرسم أيضاً ، كان ذلك يتوقف على الأيام .
– لم تقولي لي ما حدث يوم التقيت بباليستياري في بيت اليزا ؟
– لم يحدث شيء .
– حسناً ، لم يحدث شيء . ولكن باليستياري قد أعطاك في نهاية الأمر ، دروساً في الرسم ، أنت أيضاً . فكيف تمّ ذلك ؟
في هذه المرة نظرت إليّ من غير ان تجيب . وألححت :
– هل سمعتني ؟
وصمّمت أخيراً على ان تخرج من صمتها فسألت :

- ولكن لماذا تريد ان تعرف هذا كله ؟
- لنفرض انك تثيرين اهتمامي ...

قلت ذلك مع الشعور لا بأني أكذب وإنما بأني أقول كذبة كانت تصبح ، في اللحظة التي أنطق بها فيها ، حقيقة .

ونظرت هي في الهواء كطالبة تهم بإلقاء درسها أمام معلّم متطلب ، ثم قالت : « عدت فرأيت باليستياري في بيت اليزا لأننا كنا صديقتين، وكنت غالباً ما أقصدها . وذات يوم طلبت اليه ان يعطيني أنا دروساً في الرسم ، ولكنه أجابني بأنه لم يكن يستطيع . »

وكنت قد فكرت دائماً بان باليستياري كان يجري وراء جميع النساء اللواتي يتفق له ان يلتقيهن ، ولكن ها هو بالعكس يرفض الحجة التي قدمتها له الفتاة . وسألتها :

- لماذا رفض باليستياري ، في رأيك ؟
- لا ادري . لم تكن له رغبة في ذلك .
- أربما كان يحب اليزا ؟
- لا أظنّ .
- لماذا إذن لم تكن له الرغبة ؟

فأجابت بلهجة حاسمة :

- لقد فكرت أولاً با اليزا هي التي نصحته بالرفض ، ثم لاحظت انها لم تكن تعرف شيئاً . انه لم يكن يريد ، هذا كل ما في الأمر . وقلت في نفسي انه ربما كان يزعجه ان اذهب الى مرسمه ، فعرضت عليه ان يعطيني دروساً في بيتي ، ولكنه رفض مرة اخرى . انه بالاجمال لم يكن يريد .

- ولكن انت ، لماذا كنت تحرصين الى هذا الحد على ان يعطيك باليستياري دروساً ؟

وتردّدت ثم رأيت وجهها الشاحب يحمرّ بشكل غير متساوٍ ، كما بلطخات خفيفة ومتتالية وقالت :

– كنت قد وقعت في حبه ، او بالاحرى كنت أظنني كذلك .
– وهو ، لماذا لم يكن يعيرك انتباهه ؟
– لا ادري .

وترددت من جديد ، ثم بدت وكأنها قد نجحت في قهر آخر آثار تكتّمها ، فاستجابت لطريقة في الكلام أقل احتراساً وان كانت ما تزال دقيقة ومدروسة :

– اظنّ اني لم اكن اروق له . هـــذا كل ما في الامر . وقد مر شهران او ثلاثة على هـذا المنوال . كان يتحاشاني بصراحة ، وكنت أنا أعاني من ذلك . وفي تلك الفترة ، كنت حقاً مغرمة به . وأخيراً لجأت الى حيلة .

– حيلة ؟

– نعم ، فقد كان المفروض ذات يوم ان تذهب اليزا الى مرسمه ، فدعوتها لتناول الغداء وقلت لها إنه كان قد تلفن ليرجوها ألاّ تقصده لأنه كان مشغولاً ؛ ثم ذهبت انا بدلاً منها ...

– وكيف تلقّى باليستياري حيلتك ؟
– لقد اراد اولاً ان يطردني . ثم اصبح اكثر لطفاً .
– في ذلك اليوم ، قمتما بفعل الحب ، اليس كذلك ؟

فاحمرّت مجدّداً بالطريقـة نفسها ، شيئاً فشيئاً وبشكل غير متساوٍ ، واومأت برأسها إيجاباً ، من غير ان تتكلم .

– واليزا ؟

– لم تعرف اليزا قط انني ذهبت بدلاً منها . ولكن بعد ذلك بقليل ، انفصلت هي وباليستياري .

– الا تزالين صديقةً لاليزا ؟
– لا . إن احدانا لا ترى الأخرى بعد .

وتبع ذلك صمت . وكنت ادرك اني كنت اخضعها لاستجواب بوليسي كانت تستجيب له في الواقع عن طيب خاطر ؛ وتساءلت عما كنت اريد حقاً ان اعرف . وكان واضحاً ان ما كان يهمّني ليس هو الأحداث بقدر ما هو شيءٌ مـــا وراء

الاحداث ، يشكّل أساسها وتبريرها . ولكن ما كان هذا الشيء ؟

وسألت فجأة :

– لماذا وقعت في حب باليستياري ؟

– ماذا تقصد ؟

– أقصد : لماذا باليستياري بالذات ، العجوز الذي كان يمكن ان يكون أباً لأبيك ؟

– ليس هناك سببٌ لكي يقع المرء في حب احد . إنه يحب ، وهذا يكفي .

– إن لكل شيء دوافع ، دائماً .

كانت تنظر إليّ وتبدو ، وهذا أمر غريب ، وقد اقتربت مني على الأريكة التي كنا جالسين عليها . ام تراه لم يكن إلاّ وهماً في النظر مردّه ذلك الاستجواب الذي كان يزيدها تحديـــداً ومعرفة ؟ وقالت اخيراً ، من طرف شفتيها ، وهي تنحني قليلاً الى امام ناظرةً إليّ باحداد :

– كنت اشعر نحوه بجاذبية كبيرة .

– ايّ نوع من الجاذبية ؟

فلم تقل شيئاً واكتفت بأن تنظر إليّ وألححت :

– بمَ تجيبين ؟

– أستطيع ان اقول لك السبب ، لقد كان باليستياري يشبه أبي قليلاً ، وحين كنت اصغر من ذلك سناً كنتُ مأخوذةً بهوسٍ حقيقيٍ لأبي .

– هوس ؟

– نعم . كنت أحلم به ليلاً .

– لقد كنت تحبين باليستياري لأنه بالاجمال كان يشبه اباك قليلاً ؟

– نعم ، من أجل هذا ايضاً .

صمت جديد . ثم استطردت :

– لماذا لم يكن باليستياري ، في البدء ، يريد ان يعرف شيئاً عنك ؟

– لقد قلت لك السبب : إنني لم اكن أروق له .

– إن القول بانك لم تكوني تروقين له لا يوضّح شيئاً . ايكون سبب عـــدم اهتمام باليستياري بك هو انك كنت صغيرة اكثر مما ينبغي ؟

– لا ، ليس هذا هو السبب .

– ام لأنه كان يشعر نحوك بمثل ما كنت تشعرين نحوه ، اى أنه كان يعتبرك قليلاً كأنك ابنته ؟

– لا أظن . لو كان هذا ، لقاله لي .

وصمتّ لحظـــة ، وانا افكـّر بعمق ، وكنت ادرك الآن اني كنت أسأل الفتاة عن باليستيارى لأعرف شيئاً عن نفسي . فالواقـــع اني انا ايضاً كنت حتى ذلك الحين قد رفضت ، وكانت هي ايضاً تبدو واقعةً في حبي .

– أولا تفكرين ان باليستيارى كان يخشى ان يتعرف عليك ؟

– يخشى ؟ لماذا ؟

– يخشى لأنه كان يتنبأ بما قد حدث فيما بعد : اى انه قد اصبح مغرماً بـك . إن الحب يخيف أحياناً .

فأجابت بطريقة عرّافيّة :

– اما انا ، فانه لا يخيفني .

وألحت :

– انك لم تجيبي على سؤالي : هـل كان باليستيارى يتحاشاك لأنه كان خائفاً ؟

– لا ، لم يكن خائفاً . بل انا اتذكر الآن في هذا الصدد ، أنه قال لي يوماً : لو لم تلجئي الى تلك الحيلة لما اهتممت بك قط ، فانك لم تكوني تروقين لي .

وصمتت لحظة ثم أضافت :

– هذا كل شيء . ولا اعرف شيئاً أكثر .

وفهمت اني لن اصل الى شيء إذا مضيت في هذا السبيل ، وغيّرت فجأة :

– ولكن فيما بعد ، كان مغرماً بك ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– كثيراً ؟

ـ نعم ، كثيراً .

ـ لماذا ؟

فرأيتها تنحني الى امام وتنظر إليّ . وكانت قد اصبحت الى جانبي ، ولم يكن ذلك بعدُ وهم نظر ، فان ركبتيها كانتا تمسّان ركبتيّ . وأجابت :

ـ لا أدري .

ـ ولكن ، الم يكن يحدثك قط عن حبه ؟

ـ بلى ، كان يحدثني عنه .

ـ وماذا كان يقول ؟

فبدت وهي تفكر ، وفي الوقت نفسه تترنح الى جانبي ، كما لو انها كانت ستقع عليّ . وربما كان عليّ أن أقول إنها كانت تبدو ، بسبب شكل البوق الذى كانت المنشفة الملتفة تشكّله حولها ، إناءً مملوءاً كان يميل شيئاً فشيئاً نحوى ، كما ليعطيني امكانية النزوح منه . وأجابت أخيراً :

ـ لا اذكر بعد ما كان يقوله . وانما اذكر ما كان يفعله .

ـ وماذا كان يفعل ؟

ـ كان مثلاً يبكي .

ـ كان يبكي ؟

ـ نعم ، كان فجأة يأخذ رأسه بين يديه وينخرط في البكاء .

وتمثّلت باليستيارى كما كنت قد رأيته دائماً : صحيح انه عجوز ، ولكنه صلب ، ذو كتفين عريضتين ، وساقين ثابتتين ووجه أحمر من فرط الحيوية تحت شعر أبيض ؛ ولم أتمالك من أن أحسّني حائراً :

ـ لماذا كان يبكي ؟

ـ لا أدرى .

ـ ألم يكن يقول لك لماذا كان يبكي ؟

ـ لا ، كان يقول فقط إنه كان يبكي بسببي .

ـ ألعلّه كان غيوراً ؟

ـ لا لم يكن غيوراً .

– ولكن ، هل كنت تعطينه اسباباً كانت تجعله غيوراً ؟

فنظرت إلي لحظة في صمت ، كما لو انها لم تكن قد فهمت ، ثم أجابت بايجاز :

– لا .

– كان يبكي هكذا ، من غير ان يتكلم ؟

– لا ، بل كان يقول دائماً شيئاً ما .

– ترين إذن انه كان يتكلم ... وماذا كان يقول ؟

– كان يقول مثلاً إنه لم يكن يستطيع ان يستغني عني .

– آه ! كان لديــــه إذن دافع للبكاء ؛ كان يودّ لو يستغني عنك ، ولم يكن يستطيع .

فصحّحت حرصاً على الدقة :

– لا ، كان يقـول ببساطة إنه لم يكن يستطيـع الاستغناء عني . ولم يقل قط إنه كان يودّ لو يستغني عني ؛ بل على العكس ، لقد اردت مرة ان اتركه فحاول ان يقتل نفسه .

ودهشت لانعدام التنوّع انعداماً كاملاً في لهجة كلماتها ، سواء اقالت شيئاً مختلفاً ، ام أعلمتني أن باليستياري كان قد حاول ان يقتل نفسه بسببها . وسألتها :

– حاول ان يقتل نفسه ؟ بأية طريقة ؟

– بتلك الاقراص التي تؤخذ لمقاومة الأرق . لا اذكر بعد كيف يسمّونها .

– وهل سقط مريضاً ؟

– سقط مريضاً لمدة يومين ، ثم زال عنه ذلك .

– وهل كان باليستياري يعاني الأرق ؟

– نعم ، كان يتناول اقراصاً منوّمة ضد الارق . وكانت تنقضي عليه بعض ليالٍ لا ينام فيها الا ساعة او ساعتين .

– لماذا ؟

– لماذا لم يكن ينام ؟ لا ادري .

– بسببك ؟

– كان يقول إن كل ما كان يحدث له كان بسببي .
– او لم يكن يقول شيئاً آخر ، الم يكن يوضّح لماذا كنت سبب كل شيء ؟
– بلى، اذكر الآن، وانا افكر في الامر ، انه كان يقول إني كنت مخدّرةً.
– شيء مشترك ، ما رأيك فيه ؟
– ماذا يعني شيء مشترك ؟
– شيء قليل الطرافة ، يستطيع الجميع ان يقولوه .
وعاد الصمت . ثم استطردت :
– ولكن كيف كنتِ مخدّراً لباليستياري ؟
وفي هدوء ، سألتني بدورها :
– ولكن بالاجمال ، لماذا تطرح عليّ جميع هذه الاسئلة ؟
فأجبت في صراحة :
– لأن في قصتك كلها مع باليستياري شيئاً يحيّرني .
– وما هو ؟
– لا ادري . ومن اجل هذا اطرح عليك اسئلة . لأعرف لماذا أطرحها .

فلم تبتسم ونظرت إليّ من جديـــد في اهتمام ، ولو بطريقة لا معبّرة ، وهي منحنية نحوي الى درجة أن رائحة جسمها الحارّة البسيطة كانت تبدو وهي تتصاعد الى أنفي . وأوضحتْ أخيراً :

– أتصوّر اني كنت مخدّراً لباليستياري لأن حاجته إليّ كانت تشتد شيئاً فشيئاً . وكان هو نفسه يقول ذلك : إن الكمية التي كانت تكفيني من قبـــل ، لا تكفيني الآن .
– وبأيّ معنى كان دائماً بحاجة اليك ؟
– بجميع المعاني .
– بمعنى انكما كنتما تقومان بفعل الحب ؟

فنظرت إليّ من غير ان تقول كلمة . وكررتُ سؤالي . فبدت إذ ذاك وهي تعزم ، وأجابت في صراحة :

– نعم ، بهذا المعنى .
– وكنتما تقومان به غالباً ؟
– في البدء ، مرة أو مرتين في الأسبوع ، وبعد ذلك كل يومين ، ثم كل يوم ، ثم مرتين في اليوم . وأخيراً كففت عن العدّ .
– لماذا ؟
– كان مستعداً لعمله بلا انقطاع (وبدت الآن أقل حرجاً) كان يجعلني أمثل أمامه للرسم ، ثم يتوقف عن الرسم ويريد ان يقوم بفعل الحب ، وهكذا طوال النهار .
– اما كان يرتوي إذن قط ؟
– كان يرهق نفسه . بل لقد شعر أحياناً بالضيق. ولكنه ما كان ليكتفي قط.
– وكان هذا كله يروق لكِ ، أنت ؟
فترددت ثم لاحظت :
– إنه لا يسوء امرأة قط ان يُظهر لها رجلُ انه يحبّها .
– ولكن ، هل كان يحبك حقاً ؟ ألم يكن بالأحرى محتاجاً اليك بدافع العادة ، أو المجون ، كما يكون المرء بحاجة ، مثلًا ، إلى المخدّر ؟
فأجابت في ما يشبه الحرارة :
– كلا ، بل كان يحبني حقاً .
– كيف كان يُظهر لك حبه ، مثلًا ؟
– هل يمكن التحدث بذلك ؟ إن هذه أمور تُحَسّ ...
– ولا شيء آخر ؟
– إذا أردت مثلًا ، فانه كان يريد ان يتزوجني .
– ولكنه كان قد تزوج ، أليس كذلك ؟
– بلى ، ولكنه كان يقول إنه سوف يتدبر أمره ليحصل على الطلاق.
– وهل كنت مستعدة للقبول ؟
– كلا .

– ولماذا لم تكوني مستعدة للقبول ؟
– لا أدري ، ولكن لم يكن يناسبني ان أتزوجه .
– لقد كنت إذن لا تحبينه ؟
– انني لم أحبه قط
وتوقّفت كما لو ان وسواساً قد أخذها ، ثم أضافت :
– أو على الأصح ، بلى ، لعلني أحببته في الفترة الأولى التي تعرفت عليه فيها .
وساد صمت طويل ، وقد أصبحت الآن ملتصقة بي . وكانت تشعرني بأنها ستفقد توازنها ، مما جعلني أتمثّلها من جديد كوعاء ، كإناء جميل ذي عروتين ، ممشوق ريّان ، ينضح بالشهوة ، ويهمّ بأن ينسكب عليّ ويغمرني .
وقلت أخيراً :
– لقد جشّمتك استجواباً نظامياً ، فلا بد انك قد تعبت قليلًا .
فأسرعت تجيب :
– اوه ! كلا ، إنك لم تتعبني قط ، بل...
– بل ماذا ؟
– بل إن ذلك قد سرني .
وأضافت بعد لحظة :
– لقد جعلني ذلك افكر في اشياء كثيرة لا أفكر بها قط .
– إنك لا تفكرين قط بباليستياري ؟
– كلا .
– حتى ولا اليوم ، بعد ان اخذوه ؟
– كلا ، بل انا اليوم أقل تفكيراً به من الايام الأخرى .
– ولماذا أقل من الايام الاخرى ؟
فنظرت إليّ من غير أن تجيب . وكرّرت :
– لماذا أقل من الايام الاخرى ؟
فأجابت أخيراً في بساطة :
– لأنني اليوم لم افعل الا ان افكر فيك . لقد تبعت الموكب فترة ، من

بعيد ، ثم لم استطع ان اقاوم وهرعت الى المرسم . لقد خشيت ان يكونوا قـــد غـيّروا القفل .

– وإذن ؟

– إذن ، ما كان يبقى لي حجّة لكي اراك .

وتظاهرتُ بأني لا أعلـّق أهمية على هذا التصريح ، وسألتها :

– ومع ذلك ، فإن باليستياري كان شيئاً ما ، بالنسبة لك ؟

– نعم ، بالتأكيد .

ففكرت لحظة :

– لا ادرى . كان شيئاً مـــا بالتأكيد ، ولكن بما أني لم أفكر بذلك قط ، فلا أدرى ماذا كان .

– فكري الآن في هذا .

– لا أستطيع ان أفكر فيه . إن المرء لا يفكر ارادياً بأحد او بشيء مـا : فإما ان يحدث لك ان تفكر فيه ، وإما ألاّ تفكر فيه .

– في هذه اللحظة ، بمَ عساك تفكرين طبيعياً ، كما تقولين ؟

– فيك .

فصمتّ لحظة ، وأشعلت سيكارة وصرّحت بهدوء :

– حسناً ، اطمئني ، فقد انتهيت من استجوابك ، اصل الآن الى عمق القضية: إذن، بينما لم يكن باليستياري يمثّل بالنسبة اليك شيئاً كثيراً ، وحتى لم يكن يمثل شيئاً البتة، انت بالنسبة اليه تمثّلين شيئاً واقعياً جداً ، محسوساً جداً . شيئاً لم يكن يستطيع الاستغناء عنه على حدّ تعبيره بالذات ، شيئاً يشبه مخدراً ، على حد تعبيره ايضاً . الامر كذلك ام لا ؟

– نعم .

– وبعبارة اخرى ، انك لم تكوني فقط ، بالنسبة لباليستياري شيئاً واقعيـاً جداً ، بل في الحقيقة الشيء الوحيد الذي يُعوّل عليه . وبالفعل ، فأنت حـــين قلت له انك تريدين هجره ، حاول ان ينتحر . واذا حـــاول ذلك ، فلأنك اذ

تتركينه تنزعين منه كل ما كان بالنسبة اليه واقعياً .

كانت تنظر إليّ بهيئة ودّ وأدب ، ولكنها لم تكن تبدو مقتنعة قط ؛ تماماً كما ينظر صبيّ الى امه التي تقدم له عظةً قبل ان تعطيه الحلوى ، وينتظر في صبر أن تنتهي العظة ، التي لا أهمية لها في نظره ، والتي لا يفهمها ، ليستطيع ان يستولي على الحلوى . وقالت مع ذلك :

– نعم ، صحيح ، اذكر الآن ، وأنا أفكر في الأمر ، انه كان يردّد غالباً باني كنت كل شيء بالنسبة له .

– أترين ؟ أن باليستياري على كونه عاشقاً ورساماً رديئاً ، كان من وجهة نظر ما شخصاً جديراً بالحسد .

– لماذا ؟

– لأنه كان يستطيع ان يقول لشخص : انت كل شيء بالنسبة لي .

وصمتت من جديد ، كأنها غير واثقة من معنى كلماتي ، وقليلة الرغبة في استقصائه . كانت الحلوى هي التي تهمّها ، لا العظة .

واستطردت :

– والآن ، كفانا حديثاً عن باليستياري ، ولنتكلم عنّا نحن الاثنين .

وبطريقتها المتحفظة ، بصورة غير ملحوظة تقريباً ، بدت مغتبطة ، وندّت عن وجهها حركة خفيفة ، كما لتظهر استعجالاً وتنبّهاً ، وندّ عن جسمها اندفاع خفيف على الأريكة ، كما لتزداد قرباً مني . وقلت :

– هذه ثلاثة أشهر أو أربعة ونحن نلتقي في الرواق أو في الباحة ، وكلما التقينا نظرت إلي وبسمت بسمة لا أتردد بأن أصفها بأنها ذات مغزى . أليس كذلك ؟ إذا لم يكن هذا صحيحاً ، فلا تترددي في ان تعطيني تكذيباً ، وسوف يعني هذا أن انطباعي كان خاطئاً .

فلم تقل شيئاً ، ومضت تنظر إلي كما لو انها كانت تنتظر نهاية كلماتي ، وكما لو أن معناها لم يكن ليهمها . واستطردت :

– انك لا تجيبين ، وأنا أستنتج من ذلك اني لست على خطأ . وإذن ، فان ما

تريدينه مني يبدو لي واضحاً بما فيه الكفاية . اعذريني ، فأنا أعلم اني خشن : منذ أربعة أشهر أو خمسة ، تجهدين لإفهامي انك مستعدة لكي تعملي معي ما كنت تعملينه مع باليستياري . هذا على الأقل ما فهمته . مرة أخرى ، إذا كنت على خطأ فصارحيني .

صمت آخر ؛ وكان وجهها يعبر الآن عن نوع من الرضى الحيي أن تكون قد فُهمت هذا الفهم الجيّد . وتابعت :

– كان باليستياري يقول لك انك كنت كل شيء بالنسبة له . وكلمة كل شيء هذه كانت تعني ، على ما يبدو ، كل شيء حقاً . ومن سوء الحظ انني أجد نفسي في الحالة المناقضة : لقد كنت بالنسبة لباليستياري كل شيء ، اما بالنسبة لي ، فأنتِ لا شيء .

وتوقفت لحظة وأنا أنظر اليها ، ولم أتمالك نفسي من الاعجاب بعدم تأثرها . وقالت بتواضع ، وهي تخفض عينيها :

– اننا نعرف بعضنا منذ نصف ساعة فقط .

فسارعت أوضح :

– انني لا أريد ان يُساء فهمي . فالواقع ان من المستحيل ان تكوني كل شيء ، أو حتى شيئاً ما بالنسبة لي ، بالمعنى الذي يُعطى عادة لهذه العبارة . بالفعل، اننا نعرف بعضنا منذ نصف ساعة فقط ، كما نبّهتني إلى ذلك . ولكن لا ، إن القضية تتعلق بشيء آخر تماماً . فحاولي ، من فضلك ، ان تتبعيني ، حتى ولو كانت هذه الشروح لا تهمك . وإذن : لقد طلبت منك ان تأتي إلى هنا بحجة انني أريد ان أصورك ، أليس كذلك ؟

– نعم .

– إن هذه ليست إلا حجة ، أي كذبة . فبصرف النظر عن انني منذ أعوام قد كففت عن رسم الوجوه البشرية والأشياء التي تدل على هويّة ، كذبت عليك لأنني لست رساماً ، أو بالأصح ، لست بعدُ رساماً منذ حين من الزمن . ولئن لم أكن بعد رساماً ، فلأنه ليس لديّ ما أرسمه ، أقصد إلى القول انه ليس لي من

علاقة بشيء من الواقع .

فأجابت بعناد :

— ولكن لا أهمية لأن ترسم صورتي أو لا ترسمها .

فلم استطع إلا ان أضحك ، وقلت :

— انني أفهم ألا تجدي أية علاقة بين كوني قد انقطعت عن الرسم وبين الشيء الذي يبدو انك تهتمّين به اهتماماً كبيراً . وهناك مع ذلك علاقة . فتفضّلي بالاستماع : لقد قلت انك لم تكوني شيئاً بالنسبة لي ، ولكنني أكرر ان عليك ألا تنسبي إلى هذه العبارة أي معنى عاطفي . وبكلمة أخرى : انك تعرضين نفسك عليّ ، كما تُعرض أية حاجة أخرى . لنأخذ مثلاً ؛ ذلك القدح الموجود على الطاولة هناك ، ليس له عينان جميلتان كعينيك ، ولا هذا الصدر الرائع ، ولا هاتان الخاصرتان المستديرتان، فإذا كنت أقبل عرضه فانه لن يقبّلني ولن يضمّني، ومع ذلك فهو ليس أقل ولا أكثر عرضاً لنفسه منك . أقول انه يعرض نفسه بلا حشمة ، ولا تحفظ ، ولا خبث ، ولا حسابات ، شأنه في ذلك شأنك تماماً . وعليّ أن أرفضه كما أرفضك ، لأن هذا القدح ليس شيئاً بالنسبة لي ، مثلك تماماً . لقد أعطيت القدح كمثال ، ولكن كان بوسعي ان أتكلم عن أية حاجة أخرى ، حتى ولو كانت الحواس لا تدركها .

— ولكن لماذا ليس هو شيئاً ؟

قالت ذلك بصوت منخفض وحيي ، كما لو ان المعنيّ كان القدح ، أكثر مما كانت هي نفسها . وأجبت باختصار :

— إن شرح ذلك سيمضي بي بعيداً بعض الشيء ، ويكون من جهة أخرى غير مجدٍ . لنقل إن هذا القدح ليس شيئاً بالنسبة لي لأنه ليس لي علاقة به ، من أي نوع .

فاعترضت ، متحدّثة هذه المرة لصالحها الخاص :

— ولكن هذه العلاقات، إنما هي تُخلق ، ألا تعتقد ذلك؟ انه يحدث باستمرار ان نخلق علاقات مع أشخاص لم يكن لنا بهم حتى سابق معرفة .

فسألتُ :

– أترين هذه اللوحة ، على المسند ؟

– نعم .

– انها لوحة لم تستخدم ، أقصد اني لم أرسم عليها شيئاً . ولكنها في الحقيقة اللوحة الوحيدة التي أستطيع أن أوقّعها : انظري ! انني أنهض وأتجه إلى المسند فآخذ قلماً وأوقّع إمضائي على زاوية من اللوحة .

وكانت قد تبعتني بنظرها بينما كنت متجهاً إلى المسند ، وتبعتني حين عدت إلى قربها ، ولكن من غير ان تقول كلمة . واستطردت وأنا أجلس من جديد :

– وهكذا فان العلاقة الوحيدة التي يمكن ان تكون بيني وبين امرأة ليست شيئاً ، وهي هذه العلاقة بالذات التي كانت حتى الآن بيني وبينك ، أو التي لم تكن على الأصح . لنتفاهم جيداً ؛ انني لست عاجزاً ؛ ولكن الأمر ، عملياً ، هو كما لو اني كنت عاجزاً ، وعلى كل حال يجب عليك ان تقرّي أني عاجز .

وكنت قد تحدثت بلهجة قاطعة لأجعلها تفهم أنه لم يبق ثمة ما يُقال . ولكني إذ رأيتها ما تزال جالسة ، صامتة وجامدة ، كأنها ما تزال تنتظر شيئاً ، أضفت وأنا حانق بعض الشيء :

– إذا لم أكن أشعر بشيء نحوك ، أي إذا لم يكن بيني وبينك من علاقة ، فكيف يمكنني أن أقوم بعمل الحب ؟ إنه سيكون عملاً آلياً ، خارجياً ، غير مجدٍ على الاطلاق ، ومسئماً إلى أبعد الحدود . وإذن ...

وتركت عبارتي معلّقة ، ونظرت اليها نظرة ذات مغزى، كما لو كنت أقول لها : « وإذن فلم يبق لك إلا ان تنصرفي » . وبدت هذه المرة وقد فهمت، وببطء وأسف تقريباً ، بتردد واستياء ، بل بما يشبه أملاً أخيراً في ان استبقيها بأن آخذها بين ذراعي ، تظاهرت بأنها تنهض عن الأريكة ، فيما ظلّت جالسة ، أي رفعت بهدوء خاصرتيها بينما احتفظت بساقيها مطويتين ونصفها الأعلى مستقيماً . ولكني لم آخذها بين ذراعي ، وانتهى الأمر بها إلى الوقوف أمامي .

وقالت في مذلّة :

– اعذرني . ولكن مع ذلك إذا احتجت إليّ كنموذج ، فبوسعك ان تتلفن لي . سأكتب لك رقم تلفوني .

ورأيتها تذهب إلى الطاولة ، وهي محتفظة بالمنشفة على صدرها ، وتكتب شيئاً ما بيدها الأخرى ، على قصاصة ورق .

– انني لم أقل لك اسمي بعد . انني أدعى سيسيليا رينالدي . وقد كتبته لك هنا ، مع اسم الشارع ورقم التلفون .

واستوت ثم توجهت على رؤوس أصابعهــــا الى غرفة الحمّام . وكانت بتلك المنشفة التي تترك كتفيها وذراعيها عارية ، ولكن تقمّط خاصرتيها وتتدلّى خلفهـا كذيل سابغ – كانت كأنها بثوب المساء .

واختفت وهي تغلق الباب خلفها ، وفي هذه الحركة ، انزلقت المنشفة ؛ ولمدة لحظـة ، رأيت مرة أخرى في فتحة الباب ، هذا الجسم الذي كان باليستياري قـد رسمه والذي لم يكن من المستطاع تصوّره تحت ثيابه .

ومن الغريب أني ، ما ان اختفت ، حتى عدت افكر في باليستياري. وتذكرت كيف أن الرسام العجوز قد صدّها وتحاشاها طوال شهور ، في نوع من الخوف او من الشعور المسبق شبه الحيواني بما كانت مرصودة لأن تكونه بالنسبة اليـــه ؛ وتساءلت عما كان سيحدث لو أنه ، بدلاً من ان يستجيب لها يوم جاءته مكان اليزا ، استمر في مقاومتها . لو حدث ذلك لكان باليستياري ، على الارجح ، مـــا يزال الآن حياً ، اذ كان مما لا شك فيه ان السبب غير المباشر لموته حبّه لهـــذه الفتاة . ولكن لماذا تراه لم يصدها ما دام قد شعر ، منذ البدء ، أن عليه ان يفعل ذلك ، وبعبارة أخرى ، مـا الذي حدا باليستياري الى قبول مصير كان ، على ما يبدو ، شاعراً بـــه ولو شعوراً غامضاً ؟ وبالاجمال ، هل يستطيع المرء ان يتملّص من قدره ؟ ؟ واذا كان الجواب نفياً ، فما جدوى ان نعرف مـــاذا نفعل ؟ هل من الممكن ألا يكون ثمة اي فرق بين قدر يقبله المرء في حالة اللاوعي ، وبين قـدرٍ آخر يحياه في وعي متبصّر ؟

والآن ، اذ افكر بانتحار باليستياري الاول ، ذلك الانتحار الذي سبّبه عزم

سيسيليا على ان تتركه ، يخيّل إلي ان الرسام العجوز ، اذ دفع علاقته مع سيسيليا الى غايتها ، انما كان يرتكب بكامل وعيه انتحاراً آخر ، قد نجح هذه المرة . وهكذا ، فانه يكون ، على نحوٍ ما قد جرّب انتحاره الاول ، لأنه بدا له ، في لحظة ما ، ان سيسيليا اذ تتركه لن تمكنه من ارتكاب الانتحار الثاني .

وفيما أنا افكر بهذه الامور ، دُهشت لتفكيري بها ؛ او على الاصح لكوني مدفوعاً الىالتفكير بها لا بفعل فضول عديم الفائدة ، بل بفعل إحساس من الجاذبية المسحورة ، كما لو ان قصة باليستياري كانت تعنيني ، وأن مصير الرسّام العجوز كان مرتبطاً بمصيري. وكنت ادرك ان الامر لو لم يكن ، لما طرحت على سيسيليا تلك الاسئلة الكثيرة . ربما كنت سأقوم معها بفعل الحب ، مرةً بين الفينة والفينة، ولكن ما كنت لأستجوبها . وانا ، على العكس ، لم أقم بفعل الحب ، وانما أخضعتها لاستجواب طويل ، بفضول لا يرتوي ، وقد ظلّ بالفعل على عطش . وكما قلت لها ، لقد استجوبتها خصوصاً لأعرف لماذا كنت أستجوبها ؛ وكان ذلك يبدو تمثيلاً ، ولكنه لم يكن كذلك . فانني مع هذا الشكل عرفت أشياء كثيرة ، ولكنني كنت أحسبني قد فهمت ، على غير رضى مني ، أن اكثر ما كان يهمّني قد فاتتني معرفته .

وكنت من فرط استغراقي بهذه الافكار أني لم الاحظ ان سيسيليا قد خرجت من غرفة الحمام واقتربت من الاريكة . وارتعدتُ لصوتها الذي كان يقول لي :

– انني إذن اودّعك .

فنهضت بمشقة وشددت على يدها وأنا أتمتم بآلية :

– الى اللقاء .

وأضافت من أطراف شفتيها :

– لا تزعج نفسك لترافقني .

وللمرة الأخيرة شعرت بوطأة تينك العينين الكبيرتين المعتمتين اللتين كانتا تتأملانني وهما جامدتان .

ورأيتها تتناول رزمتها من على الطاولة وتتجه الى الباب في تمهّل لم يكن يبدو مقصوداً ، كما لو انها كانت تشعر بأن رابطة قوية وثابتة كانت تشدّها إليّ ، وانها يشقّ عليها ان تنقل خطواتها في اتجاه معاكس . وقد لفت انتباهي خاصة ذلك التموّج الخفيف في تنّورتها الواسعة القصيرة والترجّح البديع المنتقل الى النصف الاعلى من القامة الذي كان يعلو التنورة كما يعلو فارسٌ فرسه . كان المرء يحسّ في هاتين الحركتين ، حركة التنّورة الدائرية وحركة النصف الأعلى الوثابة ، نداء غنج غير واع ، ولعلّه من أجل هذا بالذات أقدر واشدّ امتناعاً على المقاومة .

وتبعتها بنظري حتى فتحت الباب واختفت .

وإذ ذاك أشعلت سيكارة ، واقتربت من النافذة .

كانت الباحة خالية ، غارقة في ذلك النور الشاحب المنخفض الذي تتميّز به أيام ريح السموم ، وساعة المغيب . وكنت أرى قبالتي الأبواب الزجاجية الأخرى التي كان اثنان منها فقط مضاءين ، وأرى أدغال الأقنثة ذات الخضرة المسودّة تكتنف المصاطب ، وأرى الأرض البلاطية ذات البياض الطبشوري الكثيف . وكالعادة ، كانت قطط عديدة منتثرة على هذا البلاط في نظام عجيب لم يكن مردوداً إلى المصادفة : فقد كان بعضها جاثياً ، طاوياً أرجله تحت الاجسام ، وكان البعض الآخر جالساً ، وذنبه ملتفّ حول أقدامه ، بينما كانت قطط أخرى تتهادى ببطء ، وفي حذر ، خافضة أنوفها إلى الأرض ، رافعة أذنابها ، قطط منقطة بالأبيض والأسود ، وقطط رمادية ، وقطط بيض كلها أو سود كلها ، وقطط متنمّرة وقطط حمر . وكنت أنظر إلى هذه القطط في تنبّه ، وكانت تلك طريقة كسائر الطرائق لقتل الوقت .

ثم ظهرت سيسيليا ، ورزمتها الضخمة تحت ذراعها . وكانت تمشي على مهل ، خافضة الرأس بين القطط التي لم تكن تنزعج لقربها منها . وإذ وصلت إلى ما تحت بابي الزجاجي ، رأيتها ترفع عينيها ، ولكن من غير ان تبتسم هذه المرة . ورفعت يدي لأنزع السيكارة من فمي ، ولكني ، على العكس ، أومأت لها

إيماءة واضحة ان تعود أدراجها ، وأنا أدلّهـــا على الباب الذي كان يفضي إلى الرواق .

فوافقت بعينيها ، ومن غير ان تبدّل خطوتها المتمهّلة المجرورة ؛ ومن غير ان تسرع ، كمن نسي شيئاً ولكنه واثق من انه سيجده ، عادت إلى الوراء .

وأسدلت ستار النافذة ، وذهبت أجلس على الأريكة .

الفصل الثالث

منذ ذلك اليوم ، أخذت سيسيليا تزورني مرة في الاسبوع ، اول الأمر ، ثم مرة كل يومين ؛ وبعد شهر ، جعلت تزورني كل يوم تقريباً .

وكانت زيارات سيسيليا تتمّ دائماً في الساعة نفسها ، وتستمرّ دائماً المدة نفسها ، وتجري دائماً بالطريقة نفسها . ولقد كانت سيسيليا تعلن عن مقدمها بقرعة جرس واحدة ، قصيرة جداً حتى كان يخيّل إليّ غالباً أني لم أسمعها ؛ ولكنّ هذا التشكّك بالذات هو الذي كان يجعلني أدرك أنها هي القادمة . وكنت أذهب فأفتح الباب ، فتلقي سيسيليا ذراعيها حول عنقي ، ونتبادل قبلة . وأودّ بهذا الصدد ان اقول إن سيسيليا لم تكن تحسن التقبيل ، بالرغم من خبرتها في العلاقات الجنسية . ربما كانت القبلة احتكاكاً رمزياً ، اذا صحّ التعبير ، تكون اللذة فيه نفسية اكثر منها شهوانية ، وسوف نرى ان سيسيليا كانت ضعيفة في شؤون النفس . او ربما كانت سيسيليا ، بكل بساطة ، لا تعرف ان تقبلني ، أقصد الى القول إن علاقاتنا لم تكن من العلاقات التي يُعبّر عنها بالقبل . وما هو مؤكد ان شفتي سيسيليا كانتا جامدتين ، باردتين ، مائعتين ، كشفتي صبيّ يعود من الركض ، والريح في وجهه ، فيقبّل أباه في عجلة .

ومن جهة اخرى ، كانت طبيعة سيسيليا المزدوجة التي هي طفلة وامرأة في وقت واحد ، تتكشّف في هذه القبلة . والواقع انها بينما كانت تعطيني ، بلا اندفاع

ولا استسلام ، فمها الذي لم يكن يعرف أن ينفتح لفمي ولا أن يدخل فيه ، كنت أحسّ في الوقت نفسه جسمها يهفو الى جسمي ، بشكل قوسٍ محدّب ، ويوجّه لي ببطنه ضربة قاسيةً وجافّة كانت تبدو معبّرة عن الميزة المتطلبة لحبّها الغامض. وكانت هذه القبلة الاولى تدوم وقتاً قصيراً ، لأني لم اكن أشعر فيها بأية لذة ، وكنت سريعاً ما أقطعها . وكانت سيسيليا تنفصل آنذاك عني ، وتضع محفظتها وقفازيها على الطاولة ، ثم تتجه الى النافذة فتشدّ حبال الستائر ، وأخيراً تخلع ثيابها ، بالطريقة نفسها دائماً ، وفي المكان نفسه ، أي بين الأريكة وكرسي كانت تضع عليه ثيابها وهي تنزعها قطعة قطعة .

وكنت قد عرفت سَيسيليا في تموز ، حين كانت ترتدي اللباس الصيفي الذي وصفته : القميص الصغير المنفخ، والتنورة الواسعة القصيرة الشبيهة بتنانير الراقصات المحترفات ؛ وفيما بعد ، في الخريف ، اذ بدأت الحرارة تخفّ ، ارتدت كنزة طويلة من الصوف الاخضر ، وتنّورة سوداء ، ضيّقة جداً ، كانت تبلغ ركبتيها. وإذن ، فان سيسيليا كانت تنزع ، باديء ذي بدء ، هذه الكنزة عن طريق رأسها، فتظل لحظة مرفوعة الذراعين ، ورأسها مختفٍ ومغطّى ، ثم كانت بحركة قوية ، لم تكن لتختلف قط ، تتخلّص تدريجياً من هذه الكنزة التي كانت ترميها مقلوبةعلى الكرسي . وها هي الآن في تنورتها ، عارية حتى وسطها ، لأنها لم تكن ترتدي شيئاً تحت الكنزة ، كأنها لا تتأثر باحتكاك الصوف الخشن على بشرتها . وكانت تقول ، من غير غرور تقريباً ، كما لو انها كانت تقرر واقعاً غير قابل للنقاش ، إن صدرها كان يتماسك من تلقاء نفسه ،من غير رافعة: ولكني اعتقدت دائماً انه كان من جانبها حساب تغنّج يودّ ان يظهر ، او بالاصحّ ان ينفجر ، مع نهديها الرائعين ، فيما هي تنزع كنزتها تماماً ، والحق ان ظهور نهديها لم يكن ليهدم انطباع عدم النضج الذي كان ينبثق منها . فهما بامتلائهما وازدهارهما لم يكونا يبدوان وهما ينتميان الى الجسم الواهي الذي كانا ينتصبان عليه . وهذا الانطباع كان أشد قوة حين كانت سيسيليا تستدير ؛ ولم اكن ارى ساعتئذ إلا صلب مراهقة ، رقيقاً أبيض بارز العظام ؛ وهكذا كان الصدر الذي يُلمح بين الذراعين والجانبين ،تحت

الإبط ، يبدو منفصلاً ، مصنوعاً من لحمٍ أشد حرارة وأكثر سمرة ، وأوفر نضجاً من بقية الجسم .

وكانت سيسيليا ، بعد أن تنزع كنزتها ، تستدير قليلاً إلى جانب ، وتشد قامتها بيديها فتحل نطاقها وتزلق السحاب . وكانت التنورة تسقط فتتركها بقدميها ركلتين صغيرتين تشبهان الحركة النافذة الصبر التي نزعت بها كنزتها عن رأسها ، ثم تلتقطها وتضعها على الكرسي . وكانت تصبح اذ ذاك عارية تماماً ، او انها على الاصح تكون ما تزال مرتدية ما يمكن أن اسميه جهازها الأكثر صميمية : النطاق الذي يحمل روافع الجوربين على خاصرتيها ، وغلالة « السليب » الشفّافة على بطنها ، وجوربيها على ساقيها . والواقع أن هذا الجهاز كان يبدو الآن في فوضى وعدم انسجام ، كما لو ان سيسيليا قد نزعت منه كل مهمّته حين خلعت ثيابها : فقد كانت غلالة « السليب » تبدو مدعوكة مجعّدة ، وكانت رافعتان من روافع الجوربين الأربع مفصولتين ومتدليتين من جانب ؛ اما الجوربان ، فأحدهما كان مرفوعاً ، بينما كان الآخر ساقطاً في ثنياتٍ تحت الركبة . كانت تلك فوضى نسائية ومعركية تتناقض بطريقة تثير الفضول مع براءة الوجه الطفولية اللامعبرة . إن سيسيليا كانت تبدو حقاً مزدوجة ، اي امرأة وصبية في وقت واحد ، ليس فقط في جسمها ، بل في تعبيرها وحركاتها أيضاً .

وهذه الثنائية كانت تجد تعبيرها خصوصاً في المفارقة بين الجزء الأعلى من جسمها والجزء الاسفل . إن هناك اختلافات في الوزن تبدو للنظر ، حتى قبل ان تُوازَ باليدين . فان حاجة رصاصية مثلاً تبدو بلا شك في عيون من يراقبها اثقل من حاجة اخرى ذات ابعاد مماثلة ولكنها مصنوعة من مادّة أخفّ . وهكذا ، فان جسم سيسيليا ، حين يهبط ابتداء من النطاق ، يبدو مزوّداً بصلابة الاشياء المصنوعة من مادة كثيفة جداً وثقيلة جداً . فلكم كان قوياً مثلاً رباط الساقين بالأربية ، بالنسبة لرباط الذراعين بالإبطين ، وأي فرق بين هزال النصف الاعلى من الجسم وتقوّر الكليتين الصلب وسخاء الحقاء العضِل ، وكتلة الفخذين الكثيفة ! كانت سيسيليا ، المراهقة اذا صعدت قامتها ، والمرأة اذا هبطت ، تذكر قليلاً بمشهد اولئك المسوخ

الذين يزينون الصور الجدارية القديمة : مسوخ ذوو نصفٍ أعلى غير بالغ ، ملتصقٍ في شكل غريب ببطنٍ عريض وساقين صلبتين .

وكذلك كانت الطريقة التي تنجأ اليها سيسيليا في عمل الحب تعكس المفارقة بين هاتين الطبيعتين : الطفولية والنسائية . ولقد فكّرت طويلاً في تصرّفها ، فانتهيت الى ان سيسيليا لم يكن لديها عاطفة.. وربما لم يكن لديها شهوانية ، بل كانت لها قابليةٌ جنسية لم تكن هي نفسها تعيها كل الوعي ، فيما كانت تتلقى لزومها تلقيّاً سلبياً . لقد كانت ، وهي بين ذراعيّ ، تتخذ وضع الطفل الذي يفتح فمه بوداعة للملعقة التي تمدّها اليه امه ، مع فرق أن الفم كان لديها الفرج ، وأن عشيقها هو الذي كان يعطيها اللقمة ، وكانت الرخاصة الشاعرية الطفولية لوجهها الشاحب المستدير في تعارض دائم مع الصلابة والتطلب والشراهة التي كانت تظهرها وهي تثيرني وتثير نفسها بغية ابلاغي غاية النشوة واستمتاعها بها ، هي ايضاً ، حتى آخر تشنّج . وكانت حركات بطنها التي كانت تغزر وتزداد ، بمقدار ما تكتسب الضمّة ايقاعاً وقوة ، تتميّز بقدرة وانتظام يتميّز بهما نظام آلي حُلّ قيده ، ولا يتعلق بي ولا بها ان نوقفه . وتلك الحركات المسترخية الكسلى ، والتي تكاد تُحسّ في البدء ، تبدو وقد غدت في آخر الأمر وكأنها حركات مضغط يرتفع وينخفض في قوة آلية لا تكلّ . ومع ذلك ، فان وجهها في هذه الاثناء ، كان يرقد جامداً هادئاً مسترخياً ، بلا فضول ولا حماسة ، اكثر طفولة من اي وقت آخر بجفونه الكبيرة المسدلة وفمه الصغير المفترّ ، وكان احمرارٌ خفيف على قمة الخدين يشير وحده الى أن سيسيليا لم تكن نائمة ، بل كانت حاضرة ومستيقظة ، تتابع أحاسيسها الخاصة .

وهذا النوع من انقسام روح سيسيليا خلال الحب ، كان يُلاحظ خصوصاً في اللحظات التي تنتفض فيها فجأة ، ومن غير دافع ظاهري ، فتخرج من سلبيتها النهمة والآلية ، لتبادلني ملامساتي . إن الحب الذي ندعوه مولّداً ، هو دائماً طاهر ؛ وعلى العكس فان الأساليب الغرامية التي يتبادل بها العشّاق الإثارة ، ليست أبداً طاهرة . وبالمقابل ، فان الطريقة التي كانت سيسيليا تنشُط بها على

جسمي كانت طاهرة تماماً ، بسبب انها آلية ولاواعية بطريقة غريبة . وفجأة ، في إبّان ضمّة من الضمات ، كانت سيسيليا تجلس على قِعْدتها وتنحني لتطبق بفمها على جسمي ، كما لو انها تريد أن تقضم . ولكن هذه الاندفاعة المفاجئة كان فيها شيء من الروبصة ، كما لو ان سيسيليا كانت تغرق في حلم ، أي في وضع لاواعٍ على الاطلاق . وبعد ان تروي سيسيليا غليلها ، أو على الأصح بعد ان تستنفد بدقة كل امكانيات الملامسة ، ترتمي من جديد بين ذراعي ، مغمضة العينين ، مفترّة الفم ، وإذ ذاك يعاودني الشعور مرة أخرى بأني أرى امرأة نائمة تقوم في الحلم بحركات خالية من المعنى ، ثم ، من غير ان تستيقظ ، تتابع نومها .

وبعد النشوة التي كانت تهزّ جسم سيسيليا عدة مرات ، كما لو انها في أزمة صَرْعٍ صغيرة، من غير ان يتأثر بذلك جمود وجهها المخدّر ، كانت تتمدّد منهكة، وإحدى ذراعيها مطوية تحت رأسها ، والأخرى متروكة على الأريكة ، ووجهها مائلٌ على كتفها ، والساقان منفرجتان كما كانتا منذ اعتناقنا . وبعد لحظة من خروجي منها ، كانت تبتسم لي ، ولعل تلك هي أجمل لحظات حبنا . على أن هذه البسمة البالغة العذوبة التي كانت تنعكس فيها وتنطفىء رقة الشهوة المشبعة ، لم تكن تتناقض مع الغموض الطفولي الذي أشرت اليه ؛ كانت سيسيليا فيما هي تبتسم لي ، لا تنظر إلي بل لا تبدو انها تراني . وهكذا كانت تعترف لنفسها بالجميل لنفسها أكثر مما تبتسم لي؛ كما لو انها كانت تعترف لنفسها بالجميل بأنها تمتّعت أكثر مما تعترف لي بالجميل بأني متّعتها . على أن هذه البسمة ، بالرغم من توحدها ولاشخصيتها ، كانت المرحلة القصوى لضمّتنا ، أي للتواصل ولشبه الامتزاج بين جسدينا . وبعد ذلك على الفور ، كنا شخصين على الأريكة ، أحدنا مفصول عن الآخر ، وكان يجب بدء الحديث .

وكنت في تلك الهنيهة ألاحظ ان اللامبالاة تحل محل الشهية الغرامية التي كانت تستخدمني لتروي نفسها ، وان كان يبدو أنها لا تعنيني مباشرة . وحين أقول اللامبالاة، لا أريد ان أشير إلى موقف برودة أو تجرّد. كلا، إن لامبالاة سيسيليا بإزائي ، بعد الحب مباشرة ، كانت ببساطة غياباً تاماً للعلاقات . شبيهاً جداً

بالغياب الذي كنت أعاني منه كثيراً وأسميه سأماً ، غير ان سيسيليا بعكسي ، كانت لا تعانيه اطلاقاً ، بل لم يكن يبدو انها تعيه قط . وبالإجمال كانت كما لو انها وُلدت بهذا التجرّد إزاء الأشياء التي كانت تبدو لي ، أنا ، التغيّر اللامحتمل لحالة أولى مختلفة تماماً ؛ كما لو أن ما كان في نظري مرضاً ، كان في نظرها شيئاً طبيعياً وسليماً .

ومع ذلك ، كان لا بدّ من ان نتكلم ، كما ذكرت ؛ ولكن لما كانت سيسيليا لا تقود الحديث قط ، وإنما تكتفي بالإجابة على أسئلتي ، فقد كنت أسألها عن نفسها وعن حياتها . وهكذا عرفت انها كانت فتاة وحيدة ، وانها كانت تسكن مع ذويها شقة في « براتي » وأن أباها كان تاجراً . وانها رُبيّت لدى الراهبات ، وكانت لها بعض صديقات ، وأنها لم تكن مخطوبة ، وأشياء أخرى من هذا القبيل. وربما ظنّ المرء ، إذا سمع هذه التفصيلات مرويّة بهذا مشكل ، أنها معلومات موجزة تشبه تلك التي يمكن اعطاؤها عن أية فتاة في مثل سن سيسيليا وظروفها ؛ ولكنها كانت المعلومات الوحيدة التي تمكنت من الحصول عليها ، وقد تمّ ذلك بعد جهد شديد . ولم يكن يبدو عليها بالتأكيد انها كانت تريـــد أن تخفي عني شيئاً : وجلّ ما هناك انها كانت تبدو وهي تجهل معظم الأشياء التي كنت أسألها عنها ، أو هي عاجزة عن وصفها وتحديدها في تفصيلاتها .

كان يبدو انها لم تتوقف قطّ لتنظر فيما حولها ، لتراقب نفسها وعالمها، حتى اني كنت ، وأنا اطرح عليها هذه الاسئلة ، أضعها في وضع من يُسأل عن أشياء وأشخاص لم يلفتوا قط انتباهه . إن هناك لعبة تتلخص في اطلاع احدٍ ما ، لمدة دقيقة ، على صورة من الصور ، ثم في سؤاله أن يسمّي جميع الاشياء المائلة في تلك الصورة . وفي هذه اللعبة التي تضع ملكة المراقبة موضع الاختبار، كان يمكن لسيسيليا أن تحصل على اردأ علامة ، لأنها كانت تبدو وكأنها لم ترَ شيئاً ولم تراقب شيئاً ، حتى ولو عاشت لا دقيقة واحدة بل اعواماً برمّتها امام صورة حياتها نفسها . ومن جهة اخرى ، فان معلوماتها لم تكن قط موجزة ، بل كانت ايضاً غير دقيقة ، كما لو ان مثل هذه الوقائع : حالة الفتاة الوحيدة ، الاهل ، الأب التاجر ،

التوبية لدى الراهبات ، الصديقات لم تكن في نظرها يقينية مئة بالمئة ؛ كشأننا حين لا نكون واثقين بما لم يوقظ قط فضولنا ، فيما يكون بمتناول يدنا ، ويكون سهل المراقبة . حتى ولو كان يتفق لها أن تعطي جواباً صحيحاً، فان لغتها الباردة المجرّدة الخالية من الفروق والدقائق والتي كانت تبدو ثمرة شرود لا يقهر ، كانت تتركني كذلك في الشك .

ولما لم تكن اسرة سيسيليا ووسطها يهمانني اكثر مما ينبغي ، فقد كنت في آخر المطاف ارتدّ بالضرورة الى باليستياري الذي كنت احسّ بطريقة غامضة أنه مرتبط بي ، كما سبق ان ذكرت ، وبعلاقتي مع سيسيليا . ولكن حتى وهي تتحدث عن باليستياري كانت الفجوات في حديثها تظل هي هي . بيد أن ذلك لم يكن يثنيني او يثبط همتي ، بل على العكس ، فان تكتّمها حول الرسام العجوز كان يوحي لي برغبة متحمّسة في معرفة المزيد عنه . والواقع اني كنت أشعر ، وأنا اسألها عن ماضيها وعن باليستياري ، بأني اسألها ، عن مستقبلها وعني ، وقد ادركت ذلك سريعاً .

في هذه الاثناء كان شهران قد مضيا على اليوم الأول الذي دخلت فيه سيسيليا للمرة الاولى الى مرسمي ، وكنت قد بدأت أدهش بأن يكون باليستياري قد استطاع ان يغذّي تجاهها مثل تلك العاطفة العنيفة ؛ وبالاجمال ان تكون سيسيليا قد استطاعت أن تمثل معه دور المرأة المقدورة ، اذ منحنا هاتين الكلمتين كل معنى الرصدالمسبق الذي ينبغي ان تأخذاه، ولا تأخذانه عادة . لقد شقّ عليّ أن أصدّق ذلك ، لأن سيسيليا ، بصرف النظر عن كفاءاتها الغرامية الملحوظة التي كانت مع ذلك تشارك فيها كثيراً من الفتيات بمثل سنّها ، كانت تبدو لي تافهة الى ابعد حد، وبالتالي ، غير جديرة بابعاث عاطفة مهووسة في مثل عاطفة باليستياري التهديمية . وقد ذكرت ان ما كان يكشف عن شخصيتها التي لا أهمية لها والتي لم تكن تجد اي حجة للاهتمام بأي شيء ، انما هو حديثها الموجز الخالي من اي مفارقة او تمييز .

وقد فكرت طويلاً في الميزة الروحية التي كانت تتخلّل هذا الحديث، فانتهيت الى التقرير بأنه ينمّ عن بساطة كبيرة . لا أقصد البساطة المعروفة التي لها دائماً معنى

النقاء والطهارة ، بل البساطة الكدرة اللغزية لذلك النوع من البتر البسيكولوجي الذي هو التكتم ، حتى ولو كان لاواعياً ولا إرادياً .

لقد كانت سيسيليا توحي دائماً بالشعور بأنها غير قادرة على ان تقول الحقيقة ، اكثر مما توحي بأنها تكذب ؛ وليس مردّ ذلك انها كانت كاذبة ، وانما مردّه أن قول الحقيقة معناه انعقاد علاقة مع شيء ما ، بينما كانت تبدو هي ولا علاقة لها مع شيء . حتى ان سيسيليا حين كانت تكذب حقاً (وسنرى انها كانت قادرة على ذلك كل القدرة) فقد كانت تشعر بأنها انما كانت تقول شيئاً حقيقياً ، ولو بطريقة سلبية ، بسبب هذا الجزء اليسير من المشاركة ، اي من الحقيقة ، التي يحتملها كل كذب .

فكيف فعل باليستياري ، يا ترى ، ليقع في غرامها إلى هذا الحدّ الجنوني ؟ أو ماذا حدث بينهما لتصبح شخصية سيسيليا التافهة ، وربما بسبب تفاهتها بالذات ، عاملاً للعاطفة المهووسة؟ أنا أعرف ان المرء لا يسعه ان يصدر حكماً على غراميات الآخرين؛ ولكني كنت ، في آخر المطاف ، قد حللت محل باليستياري في حياة سيسيليا ؛ وهذا يعني أني تناولت بدوري المخدر الذي كان الرسام العجوز يتحدث عنه بصدد سيسيليا . ولم أكن أتمالك من ان أدهش بلا انقطاع ، في شعور من الحذر المزمن ، كما يحدث عند اعلان خطر بطيء الظهور ، أدهش من ان المخدّر نفسه لم يكن يؤثر عليّ أي تأثير .

ولهذا كنت أسأل سيسيليا طويلاً ، وبطريقة التلمّس ، إذا صحّ التعبير ، من غير ان أعرف على الضبط ما كنت أود ان أعلمه منها . وهذا نموذج من تلك المحادثات :

— أخبريني : ألم يكن باليستياري يقول لك قط لماذا كان يحبك ؟

— اوه ! هذا السؤال الخالد أيضاً ! دائماً باليستياري . .

— اعذريني ، ولكن يجب ان أعرف تماماً ...

— ماذا ؟

— لا أدري ماذا ، يخصكما ، أنت وباليستياري . إذن قولي لي : هل شرح

لك يوماً لماذا كان يحبك ؟

– لا . كل ما هناك انه كان يحبني .

– انني لم أحسن الافصاح عن فكرتي . صحيح ان الحب لا يحتاج إلى دافع . فان المرء يحب ، وهذا يكفي ؛ اما صفة الحب ، فتحتاج إلى دافع . إن الانسان يحب بلا سبب ، ولكن إذا كان يحب في حزن أو في فرح ، في هدوء أو في قلق ، في غيرة أو في ثقة ، فان هناك في الحقيقة سبباً معيناً . ان باليستياري كان يحبك كالأهوس إذا صح التعبير . وأنت نفسك التي أفهمتني ذلك . لقد كنت بالنسبة له فسقاً ، مخدّراً ، شيئاً لم يعد الاستغناء عنه ممكناً ، على حد تعبيره نفسه . إذن ، لماذا كان ذلك الهوس ؟

– لا أدري .

– أنت لست امرأة تستطيع أن توحي هوساً من هذا الطراز ، هذا ما يخيّل إلي على الأقل .

– وهذا ما يخيّل إلي أنا أيضاً .

قالتها بلا ظلّ من غضب أو سخرية ، بل بكل تواضع واخلاص .

– إذا كان عليّ ان أقول لك ما أفكر به ، الآن وقد عرفتك معرفةً أفضل ، فاني لا أنجح في أن أفهم حقاً باليستياري وعاطفته المهووسة . انني مندهش ، إذا لم أقل خائب . إن ما قلته لي عن علاقاتك بباليستياري يجعلني أتصور انك كنت امرأة مريعة ، من هاتيك اللواتي يستطعن ان يهدمن رجـــلًا . ولكنك تبدين لي ، على العكس ، فتاة طبيعية جداً . وأنا على ثقة من انك جديرة بأن تكوني زوجة ممتازة .

– أتظنّ ؟

– نعم ، إنت توحين بهذا .

– وهذا هو رأيي ، في الحقيقة .

– إذن إلامَ تعزين العاطفة ، أو بالأصح هذا النوع من العاطفة المهووسة التي كان باليستياري يكنّها لك ؟

ـ لا أدري .
ـ حاولى ان تفكّري في الأمر لحظة .
ـ الحقيقة اني لا أدري . يجب ان نفكر بأنه كان مصنوعاً على هذا الشكل .
ـ يعني ؟
ـ لم يكن يستطيع ان يحب إلا بذلك الشكل .
ـ ليس هـذا صحيحاً . فلقد رأيت باليستياري طوال اعوام يغيّر النساء باستمرار . ولم تصبح الامور كما أصبحت الا معك .

صمت طويل ، ثم قالت باخلاص ونية حسنة :
ـ إطرح عليّ سؤالاً دقيقاً فأجيبك .
ـ ماذا تقصدين بسؤال دقيق ؟
ـ سؤال يمسّ أمراً مادياً . إنك تطرح عليّ دائماً اسئلة عن العواطف ، عما يفكر به الاشخاص او لا يفكرون به ، فلا ادري بمَ ينبغي ان أجيبك .
ـ شيء مادي ؟ حسناً ، قولي لي : هل كان باليستياري في رأيك يعلم أن علاقاتكما كانت تضرّ بصحته ؟
ـ نعم ، كان يعرف ذلك .
ـ وما كان رأيه فيه ؟
ـ كان يقول : لا بدّ من ان افقد حياتي ذات مرة . فكنت اقول له إن عليه ان يتنبّه ، ولكنه كان يجيبني أن الامر كان بالنسبة اليه بلا أهمية .
ـ بلا أهمية ؟
ـ نعم

ثم أضافت بلهجة مبهمة كما لو انها تتذكر في جهد :
ـ بل اني اذكر ، وانا الآن افكر في ذلك ، انه قال ذات يوم ونحن نقوم بفعل الحب : استمرّي ، استمرّي ، استمرّي ، اريد ان تستمرّي من غير أن تهتمّي بي ، حتى ولو اعترضت ، حتى ولو انزعجت ، وأن تميتيني ، تميتيني حقيقة .
ـ وانت ؟

– في تلك الاثناء ، لم أعلّق أهمية على كلامه . فان ما كان يقوله كثير ولكنك تذكّرني به الآن .

– وهكذا ، تظنين انه كان يحبك لانك تميتينه ، اي انك كنت له الوسيلة التي كان يستعملها ليقتل نفسه ؟

– لا أدري . فأنا لم افكر في ذلك مطلقاً .

وهكذا كنت اقترب رويداً رويداً من الحقيقة ، او على الاقل ، كنت اشعر اني اقترب منها . ومع ذلك ، فقد كنت أظلّ غير راض . فان فكرة أن سيسيليا كانت فتاة كسائر الفتيات وان باليستياري قد وجد فيها اموراً لم تكن فيها ، وانه مات بسببها ، إن هذه الفكرة الساذجة كانت تعزيني بما فيه الكفاية ؛ وقد كانت تشرح ، الى جانب اشياء كثيرة ، لماذا لم اكن احسّ ، خلافاً لباليستياري ، الا انجذاباً مادياً بسيطاً نحو سيسيليا . غير أنّ هذا الشرح لم يكن ليرضيني كل الرضى ، من غير ان اعرف السبب ، كما لو انه إذ يشرح كل شيء ، لم يكن ليشرح شيئاً ، وهو على اي حال كان يترك بلا حل قضية سيسيليا ؛ اي قضية التناقض بين بساطتها الفعلية ، وافتقارها الكامل للأهمية ، وبين العاطفة المهووسة التي عرفت ان توحيها .

والى جانب هذا ، كنت قد بدأت الاحظ اني كنت أسأم مع سيسيليا ، وكان هذا يعني العودة الى موقف التجرّد الذي كنت فيه ، غريباً عن كل شيء قبيل التعرف عليها . والقول بأني كنت اسأم مع سيسيليا يمكن ان يحمل على التفكير بأنها لم تكن لتسلّيني ، وانها كانت بكلمة واحدة مضجرة . ولكن القضية لم تكن ، كما ذكرت في مكان آخر ، قضية السأم بالمعنى الذي يُنسب عادة الى هذه الكلمة . فالواقع ان سيسيليا لم تكن هي المضجرة ، وانما انا الذي كنت أسأم فيما أنا اعترف في أعماق نفسي انه كان بامكاني ألاّ أسأم ، لو استطعت بمعجزة ما أن اجعل علاقتي بها اكثر واقعية ، بينما كانت هذه العلاقة على العكس تزداد كل يوم ضعفاً وتصبح وهمية اكثر فأكثر .

وكنت الاحظ تغيّر هذه العلاقة لاسيما وانا افكر بالطريقة المختلفة التي واجهت

بها اول الامر الحب الجسدي الذي أصبحت اعتبره الحب الوحيد الممكن بين سيسيليا وبيني . ففي البدء كان هو إذن شيئاً طبيعياً جداً بما ظهر لي من ان الطبيعة كانت تتجاوز نفسها فيه وتصبح انسانية ، بل اكثر من انسانية . اما الآن فيلفت نظري افتقاره الى الطبيعة ، وخصيصته كعمل مخالف للطبيعة على نحو ما ، اي انه اصطناعي ولا معقول . إن السير والجلوس والتمدّد والصعود والهبوط ، جميع هذه الالوان من العمل الجسدي كانت تبدو لي ذات ضرورة . فهي إذن طبيعية؛ اما الاقتران فقد كان يبدو لي على العكس قسراً شاذاً لم يُصنع الجسم الانساني من اجله ولا يستطيع ان يعتاده من غير جهد وتعب . وكنت افكر بان كل شيء يمكن ان يُعمل بيسر ، في انسجام ولذة ، كل شيء ما عدا الاقتران . إن بنية الجهازين التناسليين بالذات ، جهاز المرأة الصعب المنال ، وجهاز الرجل العاجز ، كالذراع او كالساق ، عن التوجّه نحو غايته بطريقة ذاتية ، والمحتاج على العكس الى مساعدة الجسم كله ، إن بنية هذين الجهازين كانت تبدو لي وهي تدل على لامعقولية الفعل الجنسي. ولم يكن بين الشعور بلا معقولية العلاقة الجسدية والشعور بلا معقولية سيسيليا غير خطوة واحدة .

وهكذا ، فان السأم كان كالعادة يهدم اولاً علاقتي بالاشياء ، ثم الأشياء نفسها ، اذ يجعلها لاواقعية وغير مفهومة . والشيء الجديد هذه المرة ، هو ان السأم لم يكن مقصوراً على ان يوحي لي بالبرودة او اللامبالاة ، تجاه سيسيليا التي اصبحت شيئاً لا معقولاً ، ربما بسبب العادة الجنسية التي مارستها والتي لم أكن حريصاً على قطعها ، في الوقت الحاضر على الأقل ، وانما كان السأم يتجاوز هذه العواطف ، او بالاصح هذا النقص في العواطف ، ليتحول الى قسوة وفظاظة .

وسيسيليا لم تكن قدحاً ، بل كانت شخصاً ، او بالاحرى ، بالرغم من انها كفّت في لحظات سأمي عن أن توجد كأي شيء آخر ، فاني كنت أعرف مع ذلك بذهني انها كانت شخصاً . وكما ان القدح كان يوحي لي احيانا برغبة عنيفة في ان أتناوله وألقيه الى الارض وأحيله الى شظايا لأحصل بتحطيمه على تأكيد لوجوده الفعلي ، بعد ان يكون سأمي قد أظهره لي لا معقولاً ولا مفهوماً ، فكذلك كانت

الرغبة ، من باب اولى ، تأخذني حين اسأم مع سيسيليا بأن اعذبها وأجعلها تتألم ، إن لم يكن بالمستطاع ان أحطّمها . والواقع انه كان يبدو لي ، اذ اعذبها وأجعلها تتألم ، أنني سأصل الى عقد العلاقات التي قطعها سأمي ، من جديد ؛ وسواء لديّ أن أبلغ ذلك بالقسوة ام بالحب .

وانا اذكر جيداً كيف تبدّت هذه القسوة للمرة الاولى . فبعد ظهر أحد الأيام كانت سيسيليا بعد ان نزعت ثيابها تقترب من الاريكة التي كنت انتظرها عليها ، متمدّداً وخالعاً ثيابي انا أيضاً ، وعيناي مسمرتان عليها . وكانت سيسيليا تسير على رؤوس أصابعها، ونهداها الى الامام، ونصفها الاعلى وخاصرتاها منكمشة قليلاً ، تحمل على وجهها شعوراً خائفاً وغير واثق ، هو شعور من يستعدّ لعمل معروف قام به مرات عديدة ، ولكنه مع ذلك يظل شعوراً جديداً كل مرة . وكنت اراها تتقدّم فافكر بأني لست فقط لم اكن اشتهيها (بالرغم من اني عالمٌ تماماً انه كان باستطاعتي ، ولو بطريقة آلية ، ان أبلغ درجة الإثارة الكافية لامتلاكها) بل لم اكن أنجح في أن اشعر بها كشيء له علاقةٌ ما بي .

وبينما كنت أقلّب هذه الافكار ، وكانت هي قد بلغت الأريكة واستندت بركبتها اليها لكي تصعد ، لاحظت فجأة ان ستائر النافذة كانت ما تزال مفتوحة . وكان نور نهار السموم الباهت يزعجني ؛ ثم إنه كان في الجانب الآخر من الساحة نوافذ يمكن ان يُنظر منها الى المرسم . فقلت آلياً :

– أرجوكِ ، اذهبي فأسدلي الستائر .

فقالت : – آه ! الستائر ...

وبدت طائعة كعادتها ، فأولتني ظهرها ، وقصدت إلى النافذة وهي تمشي على أطراف أصابعها . وفيما كنت أنظر اليها تعبر المرسم بتلك البنية الغريبة لجسمها نصف المراهق ونصف البالغ ، جاءني فجأةً ، للمرة الأولى منذ تعرّفي اليها ، اغراء قسوة . كان اغراءٌ يرتدّ بي إلى الوراء في الزمن ، إلى سنوات حداثتي ، إلى الظرف الوحيد في حياتي الذي كنت فيه قاسياً حقاً . كنت في تلك الأعوام أملك قطة اسبانية كبيرة ، رمادية وسوداء ، كنت شديد التعلّق بها ، ولكن كان

يحدث لي غالباً أن أسأم معها ، خصوصاً بعد ان أكون قد استنفدت بعض اللعب وتجارب الذكاء النادرة التي كانت القطة الصغيرة قادرة عليها . وقد أوحى لي السأم يوماً شعور قسوة ، وهذا بدوره أوحى لي باللعبة التالية : وضعت في صحن بعض السمك الصغير النيء كنت أعرف ان القطة شديدة الرغبة به ، ووضعت الصحن في ركن من الغرفة . ثم ذهبت أحمل القطة ، وبعـــد أن جعلتها تشمّ السمك ، أخذتها إلى الركن المقابل وأطلقتها . وسرعان ما اندفعت القطة في اتجاه الصحن ، وفي جسمها كلّه ، من طرف الذنب إلى طرف الانف ، تعبير فرح وشراهـة ؛ ولكن ما كادت تبلغ منتصف طريقها حتى هرعت أقبض فجأة على عنقها وأعيدها إلى نقطة انطلاقها . وكررت هذه اللعبة ، إذا كنت أستطيـع أن أسمّيها كذلك، عدة مرات متتالية ، وكانت القطة تلاحظ أكثر فأكثر في كل مرة انهـــا كانت ضحية سوء طالع خفيّ ، وكانت تغيّر مسلكها تبعاً لذلك . ففي قفزاتها الأولى بدت عنيفة شرهة واثقة من نفسها ؛ ولكنها كانت بعد ذلك أشد حذراً ، آملة ان تفلت من رقابتي ، بل ربما أن تكون غير مرئية وهي تزحف تقريباً على الأرض وتحرّك أرجلها في احتراس . وأخيراً كانت المسكينة تكتفي برسم حركة خفيفـة إلى الأمام في اتجاه الصحن ؛ وكانت تلك محاولة خبيثة وماكرة في وقت واحـد بأن تخضع من غير جهد بالغ لاستمرار ارادتي القاسية . ثم تغيّر فجأة كل شيء : فقد تكلمت القطة . أقصد انهـا أدارت إليّ رأسها ونظرت في عينيّ ، وأرسلت مواْة طويلة معبرة ، وفي الوقت نفسه مؤثرة وعاقلة ، تبدو وكأنها تقول : « لماذا تفعل ذلك ؟ لماذا تفعل ذلك ؟ » وقد استطاعت هذه المواْة الساذجة والبليغة ان تجعلني على الفور أشعر بالخجل من نفسي . وأحسب انني أتذكر أن الأمر بلـغ عندي اني أوشكت ان أحمرّ خجلاً . وأخذتُ القطة بين ذراعي، وحملتها بنفسي بالقرب من الصحن ، وتركتها تأكل سمكها الصغير قريرة العين .

وإذ رأيت سيسيليا تتجه بوداعة ، على رؤوس أصابعها ، إلى النافذة ، خطر لي ان أعيد معها اللعبة التي قمت بهـــا مع القطة . كانت هي أيضاً قد اقتربت من الأريكة لتروي غليلها ، وهي أيضاً قد عبّرت ، كالقطة في تلك اللحظة ، وبكل

كيانها ، من الرأس حتى القدمين ، عن تلك الرغبة الطبيعية والمشروعة إلى أبعد الحدود . وإذن ، فقد كنت على وشك ان ألعب معها كما لعبت مع القطة؛ ولكني هذه المرة كنت أدري بكامل وعيي الدافع الحقيقي للعبة ، وهو رغبتي في ان أعقد مجدداً ، بواسطة القسوة ، علاقتي مع الأشياء ، تلك العلاقة التي كان السأم قد قطعها .

وفي هذه الأثناء ، كانت سيسيليا قد ذهبت إلى النافذة فأسدلت الستائر وعادت نحو الأريكة . وكانت قد ظهرت على وجهها الذي تبدّى عليه لحظةً تعبير الخادمة التي تنفّذ أمر سيدها ، هيئة الاستعداد الطقسي للحب ، واستدارت حول المسند ، وهي ما تزال تسير على رؤوس أصابعها ، وعبرت المرسم حتى بلغت الاريكة وهمّت بأن تصعد عليها ، ولكني أوقفتها وأنا أقول :

– اعذريني ، اني لا احتمل أن أقوم بفعل الحب أمام باب مفتوح . فأرجوك أن تذهبي فتغلقي باب غرفة الحمّام .

فتمتمت :

– كم أنت صعب !

غير أنها مضت من جديد وادعةً عبر المرسم . ورأيتها تبتعد في الظلام شبحاً رائعاً ، بشعرها الكثيف المجعّد الأسمر ، وظهرها الدقيق المعظم ، وحدبتيْ فخذيها الشاحبتين . وأغلقت الباب بعناية وعادت على أعقابها شبحيةً في الظلام الذي كان يجعل عينيها أشدّ اتساعاً واكثر ظلمة ، ويجعل نهديها أثقل وأشدّ سمرة ، ويجعل منخفض بطنها أعمق وأشدّ سواداً ، ولم أوقفها هذه المرة حين وضعت ركبتها على الأريكة ، ولكن في اللحظة التي كانت تتمدّد فيها إلى جانبي ، وهي تلهث بعض الشيء ، قلت لها :

– اعذريني مرة أخرى . ولكن ألا تستطيعين ان تصنعي معروفاً فترفعي سماعة التلفون ؟ لقد دقّ أمس في اجمل لحظة . صحيح اني لم أذهب لأجيب ، ولكن ذلك الجرس مع ذلك قد حطّم أعصابي !

ورأيتها تنظر إليّ لحظة ، ثم قالت بصوت منخفض :

ـ للمرة الثالثة ...

ومن غير أن تشكو تقريباً ، نهضت فذهبت ترفع سماعة التلفون على الطاولة ، في وسط الغرفة ، باقيةً لحظة في وضع جانبي ، بعكس وجهة النور . وانتظرت حتى عادت إلى قربي ، فصحت في سذاجة مصطنعة :

ـ ما أشدّ شرودي ! اصنعي معروفاً آخر معي ، يا حبيبتي سيسيليا ، إذهبي فأتيني بعلبة السكاير من على النافذة .. فأنت تعلمين اني ، بعد الحب ، أحب أن أدخّن ، أرجوك ...

فلم تقل شيئاً ورمتني بنظرة طويلة مندهشة ، ولكنها أطاعت للمرة الرابعة : فاتجهت إلى النافذة . وتناولت السكاير وعادت بقربي ، وهي ما تزال مستعدة لأن تهب نفسها .

وقالت لي بنفاد صبر فرح وهي تقذفني بالعلبة :

ـ هذه هي سكايرك ..

وفي الوقت نفسه همّت بالارتماء عليّ ، فأوقفتها على الطائر :

ـ وعلبة الثقاب ؟

ـ أوه ! وبعد ؟

ثم نزهة جديدة عبر المرسم ، على رؤوس الأصابع دائماً ، ولكنها إذ عادت بدا التعبير المألوف على سحنتها مكدّراً بعض التكدير بطيف من شك وغمّ . وقذفت علبة الثقاب على رأسي ، كما قذفت علبة السكاير ، ولكن بدل أن تصعد على الأريكة توقفت على بعدٍ يسير وهي تسألني :

ـ قلْ لي على الفور ، ما دمت واقفة ، إذا كنت بحاجة بعدُ إلى شيء . فكذبت :

ـ أودّ لو تذهبي إلى المطبخ فتغلقي مفتاح الغاز ، فعندي شعورٌ أني تركته مفتوحاً .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك ؟ آه .. نعم ! هناك شيء آخر أريد أن أطلبه منك : اذهبي

إلى المدخل وانزعي جرس الباب : فربما جاء أحدٌ فأزعجنا .

وكنت انتظر أن تطيع ،ولكني رأيتها على العكس تجلس بعزم على كرسي، وهي تأخذ احدى ساقيها بذراعيها ، وهكذا كانت تنظر إليّ بصمت وهي متكوّمة في وضع حزين متردّد . وسألتها مندهشاً :

– ما بالك ؟ لماذا لا تذهبين للقيام بالأشياء التي أطلبها منك ؟

فلم تجب على الفور . وأخيراً ، سألتني في تحفّظ :

– هذان الشيئان ، ام هناك ايضاً غيرهما ؟

– هذان الشيئان فقط .

فانتفضت بما بدا لي تنهّدة خفيفة ، وعبرتْ المرسم مرةً أخرى لتذهب أولاً إلى المطبخ ثم إلى المدخل . وحين عادت ، لاحظت ان وجهها كان ما يزال يحتفظ بتعبير الانتظار والرغبة ، فتساءلت عما إذا كنت سأراها بعدُ هكذا إذا ما أطلتُ لعبتي القاسية . كان ذلك هو الحب ، الحب الوحيد الذي كانت جديرة به، وكنت على وشك أن أقتله . ولكنها إذ كانت متمدّدة إلى جانبي ، لم أتماسك من أن أقول لها :

– آسف ، فيجب ان تنهضي مرة اخرى . انني بحاجة الى منفضة. فانا لا أحب ان ألقي بالرماد ارضاً .

وفي هذه المرة ، قامت بعكس ما قامت به القطة في تلك السنوات البعيدة من حداثتي . لقد تكلمت بانسانية ، وبتعقـل، وأكاد أقول بمسيحية : فانّ الألم الذي جشّمتها اياه كان قد رفعها حتى الانسانية . اما سيسيليا فانها تجاه القسوة نفسها قد أتت حركة خضوع حيوانية خرساء ومؤثرة في وقت واحد . فبدلاً من ان تنهض كما طلبت منها تكوّمت والتصقت بي ، مخفيةً وجهها بين كتفي واذني ، معتنقةً إياي بذراعيها وساقيها ، كما لو انها كانت تبتهل إليّ في صمت ، على طريقة الحيوانات التي لا تستطيع ان تتكلم ، بأن اكفّ عن تعذيبها ، مهما كان دافعي ومهما كانت المتعة التي أصيبها منه . وهـذا الاعتناق الذليل ، الحزين والمبتهل ، الذي كان حيوانياً بصورة غريزية ، بقدر ما كانت موأة القطة انسانية منذ سنوات خلت ،

أحدث لديّ التأثير نفسه . فلقد خجلت فجأة من فظاظتي التي كانت تلتمس في عذاب الآخرين دليلاً على الواقع ؛ ومن غير ان أمضي في تجاربي اللامعقولة ، بادلتها ضمّتها . وعلى الفور أحسست بجسمها الذي كان يبدو وهو لا ينتظر الا هذه الاشارة حتى يلتحم بجسمي بصورة مختلفة ، ليست هي بعد صورةً مبتهلة ، وانما شرهة ، موجّهةً إليّ بعانتها ضربة قاسية نافذة الصبر كما لتبلغني أنها كانت على استعداد . وفكرت في تسلية ، لا في سأم ، بأن الوليمة سوف تبدأ .

ولكن بقي لي من هذا اليوم اشمئزاز القسوة ، هذه العلامة ذات المغزى لنقص في علاقاتي مع سيسيليا ، وفي الوقت نفسه ، الخوف من ان اسقط بالمستقبل في قسوات أشدّ ، اكثر امتناعاً على الاصلاح واوفر اثارة للخجل . وهذه القسوة لم تكن الا ضربة تجربة ، وكنت ادرك أنني اذ في أطيل علاقاتي مع سيسيليا السأمَ ونتائجه ، فقد أستطيع حقاً أن أنزلق الى السادية ، فالى هذا فعلاً كانت تدفعني الحاجة الى اقامة علاقة ما معها . وأن يكون اعتناق سيسيليا المؤثر الحيواني قد اوقف قسوتي ، إن ذلك لا ينبغي ان يدع لديّ اوهاماً . والواقع اني كنت قد عدلت عن تعذيبها ، لا لأني أشفقت عليها وخجلت من نفسي ، بل لأنها بذلك الاعتناق كانت قد اعترفت بأنها كانت تتألم ، وهذا بالذات ما اردت ان أحملها على الاعتراف به لأخنق سأمي بمنظر عذابها .

ولكن كان بوسعي وانا اتبع هذا الطريق ، وأنا أقسّي حساسيتي اكثر فأكثر ان أبلغ السادية كما قلت ، اي ابلغ نقطة تحويل سأمي الى آلية فاسدة ، فقد كان السأم يوحي لي خوفاً ، لا اشمئزازاً ، لأنه كان له شيء ما واضحٌ وجوهري . اما السادية ، فقد كانت على العكس تثير نفوري بنفاقها (فالسادي يزعم دائماً انه يريد ان يعاقب ضحيته ، بينما هو في الحقيقة يلتمس المتعة عبر العذاب الذي يسبّبه بحجة العقاب). ثم إن السادية ، بما تجلب لي من إثارة، تبدو لعيني قذرة بمقدار ما كانت طاهرة ، او ما كانت تدعي الطهارة ، الى اللحظة التي تزيح بها كل نفاق ، لتستسلم كل الاستسلام في العلاقة الغرامية ، كاشفة بذلك عن انها لم تكن شيئاً آخر غير المحذّر .

ومن حسن الحظ اني لست قاسياً ؛ وهذا الفصل الاول من القسوة كان كذلك الفصل الأخـــير . وعلى العكس ، فكرت بأنّ عليّ ، قبل ان يفوت الأوان ان افترق عن سيسيليا . وكنت آسفاً على اني بلغت الى ذلك الحدّ ، لا من اجـــلي بالذات ، لاني كنت اتصور اني لا احبها ، وانما من أجلها هي وقد كنت أتصورها مغرمة ، ولو كان ذلك على طريقتها الصامتة اللامعبرة .

لماذا تراني كنت على ذلك القدر من الوثوق بأني لم أكن احبها ، وانها كانت تحبني ؟ إن هذا صعب على التفسير . فكوني كنت استطيع ان اتصرّف بسيسيليا اي بجسدها ، حين كنت أريد ذلك ، وكلما كنت أريد ذلك ، وبجميع الطرق التي كنت أريد بها ذلك ، فيما هو يعطيني وهم تملّكها إلى أبعد الحدود ، ووهم انعقاد علاقة معها كافية إلى حدّ يجعل استمرارها بعد الآن مجدياً ، ان ذلك كان قد أقنعني بأني لم أكن أحبها .

وبالمشابهة ، كنت مقتنعاً بأن سيسيليا كانت تحبني ، لأني كنت أجدها دائماً ملاطفة باشّة ، متنازلة ، وادعة . وبدافع من غرور رجاليّ مشترك جداً ، كنت اعزو هذا اللطف إلى الحب ، بينما كان عليّ على الأقل أن أشكّ بنوع ذلك الحب الذي يكاد يكون آلياً . وإذن فقد كنت أفكر اني بينما كنت أستشعر عزاءً من انفصالي عنها ، كان لا بد لسيسيليا على العكس أن تتألم من ذلك ، ومن أجل هذا كنت أؤجل هذا الفراق يوماً فيوماً ، راغباً في أن أجد حجة لأجعله ، إذا أمكن ، أقل ايلاماً واهانة .

الفصل الرابع

عزمت على أن أترك سيسيليا في اليوم نفسه الذي حدث فيه ذلك الفصل القاسي الذي رويته . وكنت قد اتخذت هـذا القرار فجأة بعد أن ذهبت سيسيليا ؛ ثم تركت اسبوعين يمضيان ، كما ذكرت ، لأجد حجة لائقة لافتراقنا ، ومع ذلك ، فلم أعان من السأم كما عانيت في تلك الفترة ، وكان هذا السأم يبدو وهو يتجسّد ، بعينيّ ، في شخص عشيقتي الصغيرة .

واذكر اني حين كنت أسمع الجرس يُقرع بطريقتها المـألوفة ، الموجزة والمتكتّمة ، كنت أرسل زفرة من نفاد صبر غير محتمل ، ثم كان كل ما يحدث بعد دخول سيسيليا إلى المرسم يبدو لي غارقاً في جمود بليد ومعتم لم يكن يستطيع أن يهزّه لا عملية نزع الثياب المألوفة ، ولا القُبل ولا الملامسات ولا المهيجـات الغرامية الأخرى التي لم تكن سيسيليا ضنينة بها قط ، حتى ولا التشنّج الصرعي لذروة الانتشاء النهائية ، كخاتمة لهذا النوع من الطقس الرتيب الذي كان يشكل حبّنا . والواقع ان سيسيليا، سواء أ كانت عارية أم مرتدية ثيابها ، في الضمّة أو متمدّدة إلى جانبي بعد الحب ، في الظلام أم في وضح النهار ، كانت تبدو لعيني وهي تفقد كل يوم صلابتها كشخص ، بل حتى كحاجة ذات ماهية . ولما لم أكن راغباً بعد في اللجوء إلى القسوة التي كان بإمكانها بلا شك أن تكسب عـلاقتنا ، ولو ظاهرياً ، واقعاً عابراً ، فقد كنت أرى اقتراب يوم أتصرّف فيه مع سيسيليا

كما أتصرف مع أية حاجة يكفّ المرء عن الاحتياج اليهـا ، أعني أنني سأتركها ، من غير ان أقدّم لا لها ، ولا لي أنا نفسي ، حجة مقبولة . وعلى هذا ، فقد كان عليّ أن أجد حجّة قبل أن يفوت الأوان .

ذات صباح مضيت أزور أمي التي لم أكن قد رأيتها منذ يوم فراري.فاستقلات سيارتي القديمة المتفسّخة في اتجاه جادة « آبيا » . وكانت هناك تلك الطريق الجاهلية والمسيحية التي كانت آنذاك «على الموضة» بين الأغنياء ، بجدرانها الطافحة بالخضرة، وحواجزها ، ومقاصيرها المختبئة بين الاشجار ، وكنت أرى من جديـد صفوف السرو الطويـلة وأشجار الصنوبر المتوحـدة ، وحوافي الطريق المعشبة والخرائب القرميدية الحمراء المزدانة بقطع من المرمر الابيض ، ثم رأيت أخيراً بين ركيزتين الجادّة المنحدرة بحصاها المجروف جيداً والساحة التي تحيط بها أشجار الغار والسنديان الأخضر ، والمقصورة الواطئة الحمراء .

وهذه المرة لم تكن ريتا الفرّاشة ذات السحنة المرائية المزودة بالنظـــارتين الكبيرتين هي التي أقبلت تفتح لي ، وإنما كان رئيس خدم مربوعاً وأصلع ذا وجه قندلفتي سمين ، يرتدي سترة عمل مخططـة ، وبعد أن دعاني بـ « سيدي المركيز » أخبرني ان « السيدة المركيزة » كانت في مكتبها . وقد انتفضت لسماع هـــذا اللقب النبيل الجديد عليّ تماماً ، وقصدت المكتب على التو .

وكانت أمي جالسة إلى طاولتها ، مستغرقةً في تفحّص دفتر ، والنظارات على أنفها ، وبزّ سكاير طويل بين أسنانها . وبعد القبلة المألوفة على خدها الهزيل الجافّ، قلت لها .

ــ ولكن ما معنى لقب المركيز هذا الذي أطلقه عليّ رئيس خدمك ؟ ثم من أين قد نبـع ؟ وأين ذهبت ريتا ؟

فرفعت أمي نظارتيها وحدّقت فيّ لحظة بعينيها الزرقاوين المزججتين ، من غير أن تتكلم . ثم قالت لي بصوتها المزعج :

ــ لقد طردت ريتا ، فقد كانت امرأة سيئة السيرة .

ــ ما الذي كانت تعمله ؟

فقالت أمي :

– جميع الرجال ، بلا استثناء ، في البيت وخارجه ، في قطر دائرة يمتد عدة كيلومترات ، إنها جنّية رجال !

– عجباً ! من كان يظن هذا ، فقد كانت تبدو شديدة الرصانة .

فصمتت أمي من جديد ، كما لو أنها أرادت أن يعود إلى نفسي السكون الضروري لتلقّي النبأ الذي ستعطيني إياه :

– وأما بشأن اللقب ، فقد جاءني منذ حين أخصائي في علم النسب فشرح لي ان أسرتنا كانت من أسر النبلاء ، واننا مركيزات . ويبدو ان أسرة أبيك قد تركت هذا اللقب يسقط في القرن الماضي ، لسبب غير معروف . والآن ، سأقوم بالتحقيقات اللازمة ، وعما قريب يصبح لنا الحق في حمل اللقب ، وقد بدا لي انه ليس جرماً أن نستعمله ، ما دام حقاً مكتسباً لنا .

فلم أقل شيئاً : فقد كنت أعرف سنوبيسم أمي ، وقد انقطعت منذ وقت طويل عن الشعور بالدهشة إزاءه ، واستطردتْ بعد لحظة ، بلهجة عتاب:

– لا أدري ان كنت تلاحظ انه منذ ... لنقل منذ اختفائك في يوم عيد ميلادك ، هذه هي المرة الاولى التي تعود فيها لترى أمك .

فقلت بصوت نادم بما فيه الكفاية :

– أنتِ على حق . ولكني كنت مشغولاً جداً .

فسألت :

– هل عدت للرسم ؟

فأجبت :

– لا تخافي شيئاً ، وانما كنت مشغولاً بشؤون أخرى .

– أنا لا أخاف شيئاً... بل اني شخصياً أفضل أن تكون قد عدت إلى رسمك .

– لماذا ؟

– لأنك بهذه الطريقة يقلّ تفكيرك بالنساء .

قالت امي ذلك بصورة غير متوقعة ومستاءة الى ابعد حدّ . ثم نظرت إليّ

مواجهة وأضافت :

– ماذا تظن إذن ؟ أتعتقد أن ذلك غير واضح ؟

– ماذا تقصدين ؟

فلم تجب امي جواباً مباشراً ، بل قالت :.

– هل تعلم ان نضارتك قد زالت تماماً ؟

كنت اعرف ذلك . فمنذ شهرين وأنا اسرف في العلاقة الجنسية ، بل اني لم أفعل شيئاً آخر ، وكان هذا يعني اني قد خبلت . وأجبت :

– هذا ممكن ، غير اني مع ذلك أجدني في صحة ممتازة .

– إن عليك في رأيي أن ترتاح ، ان تبقى في الهواء الطلق ، وتقوم بالرياضة ، وتتنشق الهواء الجيد . لماذا لا تذهب الى الريف شهراً او شهرين ؟

– إن الذهاب الى الريف يتطلّب مالاً ، وليس معي مال .

وكانت امي ، كلما حدثتها عن فقري ، الذي هو مع ذلك ارادي في حقيقته وخيالي ، تغضب وتغتاظ ، كما لو ان ذلك بدافع غير مفهوم ولا أخلاقي بالاجمال. وكان ردّ فعلها مماثلاً هذه المرة ايضاً :

– ولكن هذا يا دينو شيء ينبغي لك ألاّ تقوله !

– لماذا ؟ اننا في الخامس عشر من الشهر ، وأظنّ ان ما بقي معي لا يتجاوز اربعين الف لير مما تعطيني اياه .

– ولكن اذا لم يكن معك مالٌ يا دينو ، فذلك لانك لا تريد ان يكون معك مال . انت غنيّ ، غنيّ جداً يا دينو ، فمن العبث ان تتظاهر بالفقر . إنك غنيّ ، ومهما فعلت فستظلّ غنياً .

وهذا تماماً ما كنت افكر به . فقلت وانا اقطّع كلماتي :

– اذا شئت ان آتي لرؤيتك ، فكفّي عن تذكيري بأني غنيّ ، هل تفهمين ؟

– ولكن لماذا ؟ انها الحقيقة !

– نعم ، ولكنها حقيقة تخفضني .

– ولماذا تخفضك ؟ فكّر بعدد الاشخاص الذين سيكونون سعداء اذا كانوا

في وضعك . فلماذا يخفضك يا بنيّ امرٌ يجعل الآخرين سعداء ؟

كانت لهجة امي آسفة حقاً : ولم أتماسك من الشعور باحساسٍ مفاجيء من التعب الخانق . وقلت :

– إن هناك أشخاصاً شديدي الحساسية تجاه الفريز ، فإذا اكلوا منه امتلأ جسمهم بالبقع الحمر . وانا شديد الحساسية تجاه المال ، وأحمرّ خجلاً لفكرة ان احصل عليه .

وسادت لحظة صمت . ثم استأنفت امي بلهجة راضية :

– حسناً ، انت فقير . ولكنك فقيرٌ له امٌ غنية ، هل تقرّ ذلك على الأقل ؟

– وبعدُ ؟

– وبعد ، فان امك ستعيرك مالاً لتذهب الى الريف : مثلاً الى « كورتينا دامبيزو » .

وكنت على وشك ان اطلق ولولة الغضب الذي كانت توحيه لي عادة نصائح امي الاصطلاحية والشديدة التوقع ، قضاء الشتاء في كورتينا دامبيزو ، والصيف في الليدو والربيع في الريفيرا ؛ وحين فكرت فجأة بأنها كانت ، على غير ارادة منها ، تقدّم لي الحجة التي كنت أبحث عنها لأنفصل نهائياً عن سيسيليا ، اوشكت أن اطلب المبلغ الضروري لاقامة فترة من الزمن في كورتينا ؛ فبهذا المال سأشتري هدية لسيسيليا وأبلغها في الوقت نفسه أنّ عليّ ان أصحب امي الى الريف . وسوف تخفف الهدية من وقع الفراق الذي سأقدّمه على انه موقت ؛ وفيما بعد ، اكتب لسيسيليا رسالة وداع .

وقلت بلهجة طاعة :

– أوافق على كورتينا . أعطيني المال إذن .

وبالطبع ، لم تكن أمي تتوقع أن أوافق بمثل هذه السهولة . فترصّدتني حائرة ، ثم سألت :

– متى تريد ان تسافر ؟

– على الفور . اننا اليوم في الخامس عشر ؛ فليكن السفر في الثامن عشر .

– ولكن يجب ان تحجز غرفة في الفندق .
– سأبرق في هذا .
– وكم من الوقت ستمكث ؟
– خمسة عشر أو عشرين يوماً .
وكانت أمي تبدو الآن وهي نادمة على عرضها ؛ أو خيّل إلي انها نادمة على كونها قد قدّمت هذا العرض من غير ان تضمن أيّ مقابل : فقد كانت عادة المساومة عندها قوية جداً حتى انها لم تكن لتختفي حتى في علاقاتها معي . وقالت بلهجة متردّدة ، مليئة بالمضض :
– لا شك اني سأعطيك المال الذي أنت بحاجة اليه ، فقد وعدتك به ولن اسحب وعدي .
– حسناً ... اعطيني إياه .
– ما أعجلك ! ثم كم أنت محتاج ؟
– احسبي عشرين الف لير في اليوم . فاعطيني مئتي الف لير .
– عشرون الف لير يومياً ؟
– هل أنا غني أم لست غنياً ، وفقاً لما تقولين ؟ انني لن أقصد فندقاً من الدرجة الأولى . وعشرون الف لير كافية لإقامة متواضعة .
– انني لا أملكها هنا .
قالت أمي ذلك وقد عزمت أخيراً على أن ترفض طلبي رفضاً مقنّعاً وأضافت :
– أنا هنا لا احتفظ بمال قط .
فقلت وأنا انهض :
– حسناً ، لنذهب إذن إلى غرفتك .
– وليس في غرفتي كذلك مال . فقد وجب عليّ أن ادفع مبلغاً هذا الصباح بالذات .
– نظّمي لي إذن « شكاً » . ولا ريب ان دفتر شكاتك هنا ؟
ولدى هذا الاقتراح المعقول جداً ، رأيتها تغيّر فكرتها بصورة غريبة :

– لا ، أفضل في آخر المطاف أن أعطيك نقداً ، لأن دفتر شيكاتي قد انتهى منذ الأمس . لنصعد .

ونهضت فتبعتها خارج المكتب ، وأنا أتساءل عن سبب هذا التغيّر المفاجىء في أشكال الدفع . ولم انتظر طويلاً لأفهم السبب . فإذا كنا على الدرج ، قالت لي أمي التي كانت تتقدمني ، من غير أن تلتفت :

– بالمناسبة ، سأعطيك دفعة مئة الف ليرة . وستأخذ البــاقي غداً . انني لا استطيع ان اعطيك اكثر من ذلك ، فهذا كل ما معي .

وهكذا فان أمي قد غيرت فكرتها لأنها لم تكن تستطيع ان تعطيني شكاً بالمبلغ كله ، بينما كان باستطاعتها أن تعطيني أقل من ذلك نقداً ، وهي تدّعي انها لا تملك اكثر من ذلك . فلماذا هذا البخل المفاجىء ؟ وفكرت ان السبب المرجّح هو انها لم تكن تريد ان تفقد الرقابة التي كانت تمارسها عليّ ، وان تحصل في الوقت نفسه على شيء ما مقابل المال .

ولم أقل شيئاً ، بل تبعتها على الدرج ، ثم إلى غرفتهـا . وكانت حجرة كبيرة باذخة ، ذات طراز عصري ، بألوان رمادية وبيضاء ، ومع طنــافس وسجاجيد كثيرة تشعر شعوراً خائفاً بعض الشيء أن ليس في أرض الغرفة ولا على جدرانها بوصة واحدة لا يغطّيهــا النسيج . وفي الظل الذي كان يجعل طيفينا الاثنين المنعكسين في المرايا متواطئين بصوره خفيّة مذنبة ، اتجهت أمي إلى باب غرفـة الحمام ، في جوف الغرفة ، وفتحته . وظللت جامداً حيث كنت، وقالت لي أمي:

– لماذا أنت باقٍ هناك ؟ تعال ، فليس لديّ أسرارٌ أخفيها عنك !

فقلت :

– ليس لديك أسرار لأنك تعلمين انني غير راغب في مالك. ولكني لو كنت راغباً فيه ، لكانت لديك أسرار ، وأسرار كثيرة !

فأجابت :

– أية حماقات ! انت ابني ، أليس كذلك ؟

وتقدمتني فدخلت غرفة الحمام . وكانت غرفة واسعة جداً ، بتلك الأبعـــاد

المزدهية واللامجدية التي تختصّ بها ، في بيوت الاغنياء ، الاماكن المرصودة للعناية الجسمية . فبين المغطس والمغسلة أربعة أمتار من مربّعات المرمر ، وبين المغسلة ومقعد المستراح مساحة من الجدار مغطّـــاة بالخزف . ورأيت أمي تقترب من الجدار ، وتمسك بأحد المعاليق التي تـعلّق بها المناشف ، فتديره إلى اليسار ، ثم إلى اليمين ثم تشدّه اليها . وانفتحت اربعة مربّعـــات من الخزف الابيض كأنها النافذة ، كاشفة عن مساحة رمادية لامعة لخزنة حديدية . وقالت أمي في ملاطفة طبّية بعض الشيء :

ـ هيّا ، هيّا ، حاول ان تفتحها بنفسك ، مع السرّ .

وكانت أمي قد كشفت لي سر الخزنة ، فحفظته على مضض تقريباً ، وربما لأنه كانت لي فقط ذاكرة جيدة ، ولكنني كنت اكره ان استعمله ، وخصوصاً تحت نظرها ، كما يكره المرء ان يشارك في طقوس دين لا يؤمن به . فقلت :

ـ ولكن لماذا ؟ افتحيها أنت ، فليست هي من شأني .

فقالت أمي بما يشبه المرح .

ـ أردت ان اعرف ان كنت ما تزال تذكره .

وبسرعة ، ادارت بيدها العصبية البيضاء المحمّلة بالخواتم الثقيلة بضعة أزرار على اللوحة وفتحت . ولمحتُ في جوف العلبة الصغيرة بعض لفائف الأسهم الصناعية وعدة ظروف بيضاء وصفراء .

وانتقلت أمي فجأة من المرح إلى الريبة . ورمتني بنظرة حـذرة . فخفضت نظري مرتبكاً ، وإذ رفعته ثانية ، كانت أمي قد أخرجت من الخزنة ظرفـــاً ابيض منتفخاً جداً ، وكانت بسبيل ان تعيد المربّعات إلى مكانها ، ثم اتجهت إلى غرفتها وقالت لي :

ـ سأعطيك اليوم خمسين الف لير.فقد تذكرت اني بحاجة إلى الخمسين الأخرى لأدفعها إلى حانوتي .

وهكذا خفّضت مرة أخرى المبلغ الذي كنت طلبته منهـــا . وكنت قد حسبت أن أقدّم لسيسيليا هدية قيمتها مئتا الف لير ، وتساهلت لأقبل مئة الف ،

أما الخمسون ألفاً فكانت تبدو لي أتفه من أن تخفّف من حدة فراقنا .

واحتججت بحزم :

– انني بحاجة إلى مئة الف لير اليوم بالذات . وسوف تدفعين لحانوتيّك في مرة قادمة .

– لا ، لا استطيع .

واتجهت أمي إلى خزانة قديمة عالية فأولتني ظهرها وفتحتها ، ورأيت ظرفاً فيها ، فقلت من غير ان أتحوّل عن وسط الغرفة :

– لا شك أن في هذا المغلف اكثر من خمسين الف لير ، بل ربما اكثر من ثلاثمئة الف . لا بد ان لديك هنا نصف مليون على الأقل ، فلماذا هذه الحكايات كلها ؟

فأجابت بسرعة ، من غير أن تلتفت :

– كلا ، ليس في هذا الظرف إلا مئة الف لير .

– أريني .

وفجأة ، وبحركة غير متوقعة ، التفتت وهي تخفي المال بكتفيها ، وأرتني وجهاً منفعلاً تقريباً ، بجفائه المعهود :

– دينو ، لماذا لا تريد ان تأتي فتعيش من جديد مع امك ؟ لو كنتَ هنا ، لحصلت على المال كله الذي ترغب فيه .

ذلك إذن كان هو المقابل الذي كانت امي تطلبه مني ، ولا أهمية لأن تقدم لي عرضها بشكل رجاء مؤثر ، بدلاً من ان تضعني أمام تخيير جافّ ؛ كما لو كان الامر مع مدين مفلس . وسألتها بدوري :

– ما دخل هذا بهذه القصة ؟

– لم يسعني الا ان الاحظ انك بعد شهرين لم أرك فيهما ، لم تأت للقائي ألا لتطلب مني مالاً .

– لقد ذكرت لك اني كنت مشغولاً .

– لو كنت تسكن هنا ، لاستطعت ان تفعل كل شيء . إنني لن اتدخل في

حياتك اي تدخل .

ـ حسناً ، أعطيني هذا المال ، ولا تتحدث في الموضوع بعد ذلك ابداً .

ـ تستطيع ان تذهب وتجيء ، وتعود متأخراً في الليل ، وتستقبل من تشاء ، وترى جميع النساء اللواتي تريد ...

ـ ولكنني لست بحاجة لأن أرى أحداً .

ـ لقد فررتَ ذلك اليوم ، لأنك شعرت بلا شك أنني سوف امنعك من ان تكون لك علاقات مع ريتا ، أليس كذلك ؟ إنك على خطأ : إنني لن أمنعك من شيء ، شريطة ان تحافظ على الشكل .

ودهشت هذه المرة تماماً . هكذا إذن : لقد لاحظت امي شيئاً بيني وبين ريتا؛ ولكنها صمتت ، آملة ان تنعقد بيني وبين هذه الفتاة علاقة تعزّز اواصري بالمقصورة ، وبالتالي بها ايضاً . ومتى لاحظت ذلك ؟ في أثناء الطعام ؟ بعده ؟ وشعرت فجأة بشعور استياء من ذنب عائلي ، كما لو اني عدت صبياً وأن أمي كانت على حق بان تملأني بالخجل ؛ ولكني نجحت في التغلب عليه وانا أفكر بان انجذابي الى ريتا ، كان مصدره في آخر المطاف انطباع اليأس الذي كانت كل زيارة لأمي توقظه فيّ . وأجبت وانا انظر اليها مواجهة في عينيها ، بلهجة غاضبة :

ـ كلا ، انني لم أفرّ بسبب ريتا ، وانما بسببك .

ـ بسببي ؟ واذا قلت لك اني تظاهرت بأني لم ار انك كنت تداعبها في أثناء الطعام ؟

وجُننتُ غضباً لهذه العبارة واللهجة التي قيلت بها ، فقلت :

ـ تماماً ! انما بسببك انت وضعت يديّ عليها !

ـ ولماذا ؟ ما شأني بذلك ؟ إنه الآن ذنبي أن تهاجم الخادمات ؟

ـ لقد وضعت يديّ عليها ، لأنك كنت تضعين قدميك على قدميّ .

ـ قدميّ ؟

ـ لتوصيتي بألاّ أتحدث في شؤون المال امام الخدم .

وكنت قد اقتربت منها وانا أحدثها في وجهها :

– ثم اعلمي جيداً، ومرة أخيرة ، أن جميع الحماقات التي ارتكبتها في حياتي ، انما ارتكبتها بسببك .

– بسببي ؟

فهدرتُ فجأة وانا فريسة غضب هائل :

– لقد قضيت جميع سنوات حداثتي وانا احلم مفضلًا ان اكون سارقاً ، قاتلاً، مجرماً ، على ان اكون ما كنت تريدين ان اكونه . واحمدي الله انني بفضل الظروف لم اصبحه . كل ذلك لأني كنت اسكن معك ، في هذا البيت .

وبدا صوتي ، هذه المرة ، يرعب امي التي كانت في العادة تتقبّله بشجاعة ، اذا كانت القضية قضية كلام . ولقد رأيتها تنفض رأسها يميناً وشمالاً ، بحركة مفزعة ، ثم تمتمت :

– حسناً ، اذا كان الأمر كذلك ، فكفّ عن المجيء إلي . لا تأت بعد الى هذا البيت .

فهدأت لحظتها وقلت :

– لا ، بل سوف آتي ، ولكن لا تطلبي مني ان أحبّه .

– ولكن اى شيء كريه تجده في هذا البيت ؟ أليس هو بيتاً كالبيوت الأخرى ؟

– على العكس ، بل هو أجمل وأوفر بذخاً وراحة من كثير من البيوت.

– وإذن ؟

ورأيت انها قد تعزّت قليلاً من اني كففت عن مهاجمتها مباشرة . وأجبت بسؤال :

– إن أبي لم يكن هو أيضاً يريد ان يبقى في هذا البيت ، فلماذا ؟

– كان أبوك يحب السفر .

– أليس الأصح ان يقال انه كان يسافر لانه لم يكن يحب البقاء هنا ؟

– كان أبوك أباك ، وأنت هو أنت .

ولم تكن هي المرة الأولى التي تحدث فيها مناقشات من هذا النوع بين أمي

وبيني . كان بوسعي ان اهدر وأجرحها، ولكني كنت دائماً أقف مواجهاً الحقيقة: لقد كان هذا البيت يثير اشمئزازي لأنه كان بيت شخص غني . ومن جهة أخرى، كانت أمي ، على ما يخيّل إليّ ، تدفعني لكشف تلك الحقيقة ، بأن تثيرني وتتحداني ، ولكنها في الواقع لم تكن ترغب في أن اكتشفها ، وكانت تأتي دائماً لحظةٌ تتراجع فيها وتغير الحديث . وكان هذا ما حدث هذه المرة أيضاً .

فقد كنت أهمّ بالجواب عليها ، حين أضافت في بعض العصبية :

– قلْ بالأحرى انك تريد ان تعيش لحسابك ، لتكون اكثر حرية . وانك واهم ، فليكن . خذ ، هذه آلافك المئة من الليرات .

ومدت لي المبلغ ، ولكن بحركة نصف مكبوحة ، وحين مددت يدي ، سحبت يدها ، فكأنها لاحظت أنني لم اكن أعطيها شيئاً بالمقابل . وأضافت :

– بالمناسبة ، إبقَ هنا للغداء .

– لا أستطيع .

– لقد دعوت بعض الاشخاص للغداء ، وبينهم الوزير تريولو وزوجته . إنه رجل قريب إلى القلب ، وذكي ، ونشيط .

– وزير ؟ أية فظاعة ! هيّا ! اعطيني هذا المال .

واعطتني المال هذه المرة ، ولكن بحركة غاضبة ، وفي الوقت نفسه بخيلة ، كما لو انها أرادت في اللحظة التي أعطتني إياه فيها أن تستردّه .

– إذن ، تعال غداً لتناول الغداء . سنكون وحيدين ، أنا وأنت ، وهكذا اعطيك باقي المبلغ . بالنظر طبعاً إلى انك ذاهب إلى كورتينا .

– لماذا ؟ هل تشكّين في ذلك ؟

– إن المرء لا يستطيع معك أن يطمئن ...

وكانت أمي تبدو الآن راضية بما فيه الكفاية . وقد أدركت ذلك من الطريقة التي كانت تتقدمني فيها عالية الرأس ، واضعة يدها على الدربزين النحاسي . وفكرت بأنها ربما كانت راضية لأنها نجحت مرةً أخرى في تجنب الشرح الكبير بيني وبينها ، هذا الشرح الذي يخشاه كل غنيّ لأنه لا يستطيع بعد ذلك أن

يستمتع بغناه . وكان سرورها بالغاً حتى انها نسيت رفضي الحديث ، فعرضت عليّ حين وصلنا إلى المدخل :

– لماذا لا تبقى على الأقل حتى وصول الوزير ؟ سوف تأخذ معه المقبّلات ثم تذهب ، إنه رجل ذو نفوذ ، ويمكن أن يكون نافعاً يوماً .

فقلت في زفرة :

– لن يكون لي نافعاً مع الأسف ، ثم ينبغي لي حقاً أن أذهب .

ولم تلحّ أمي ، وفتحت باب الخروج ، وخطت خطوة على العتبة ، ويداها تحت ابطيها وهي ترتعش في الهواء الخريفي الرطب ، وقالت وهي ترقب السماء التي تغطيها الغيوم :

– إذا ظلت السماء تمطر بهذه الصورة ، فوداعاً يا أزهاري !

وانحنيت فوضعت القبلة المألوفة الجافة على خدّها الذي لا يقل جفافاً ، وقلت :

– إلى اللقاء يا ماما .

ثم هرعت مسرعاً إلى سيارتي ، لأنني رأيت آنذاك في آخر الجادة سيارة صاعدة نحو المقصورة ، وكنت أريد بأي ثمن أن أتحاشى اللقاء بمدعوّي أمي . وكنت أمام مقودي حين كانت السيارة الأخرى تبلغ الساحة وتقف فيها. وكانت أمي واقفة على العتبة في وضع من يتهيّأ لاستقبال ضيوف معتبرين . وأدرت المحرك ومضيت في اللحظة المناسبة لأرى السائق المزدان بالشرائط يهبط ، ثم يرفع قبعته وينحني وهو يفتح الباب ، ولكن لم يتح لي الوقت لأرى من هو صاحب القدم المنتعلة حذاء رجالياً أسود والتي كانت خارجة من السيارة تلتمس الارض .

وكانت الساعة حوالي الواحدة ، وعدت أصعد بسرعة كل طريق « آبيا » ، فبلغت ساحة « اسبانيا » قبيل موعد اغلاق الحوانيت . وكنت أعرف إلى أين ينبغي أن اتجه لأشتري هدية الوداع لسيسيليا ، فدخلت حانوتاً للمحفظات والمظلاّت ، في شارع كوندوتي ، وكان الحانوت غاصّاً بالشاريات الأنيقات اللواتي ابتعدن قليلاً لدى ظهوري ، وعلى وجوههن بعض دهشة . وبينما كنت اختار على عجلة محفظة من جلد التمساح ، نظرت إلى وجهي في مرآة ففهمت سبب

دهشة الشاريات .

كنت أشبه المشردين ، بل كنت أشبه متشرداً يثير القلق : رأس أصلع يحيط به شعر أشقر مجعّد وطويل . وظلّ لحيـــة حمراء على الخدّين وثوبٌ من نسيج مسرّد ذو لونٍ انتراسيت يكشف عن قميص لا ربطة عنق له ، وبنطلون اخضر اللون ، مشوّه يكاد يكون مهترئاً . وكنت إلى ذلك طويلاً ، بل ربما طويلاً جداً بالنسبة لسقف الحانوت المنخفض جداً ، ذا جبين مكوّر كان يبدو وكأنه حافة خوذة مُسدلةٍ على عينين زرقـــاوين محتقنين بالدم ، وأنفٍ قصير ، وفم ناتيء : وبالاجمـــال نوع من القرود الكبيرة . وإذ كنت انظر إلى نفسي ، أدركت في الوقت نفسه أي دليل على الحنـــان قد أعطتني أمي إذ دعتني ، وأنا لابس هذه الثياب ، إلى تناول الغداء بصحبة وزير ومدعوين آخرين ... ولكنني كنت أفكر بعد ذلك ان أمي ، بما لديها من حساسية ازاء ما كانت تدعوه بـ « الشكل » ، لا بد انهـا قد فكرت بعد كل حساب اني كنت في ثياب رسّـام ، أي كنت مرتدياً نوعاً من اللباس يدلّ على المكان الذي كنت أحتلّه ، من غير ما يُنقص الشرف ، في مجتمع كمجتمعها كان يعترف بحق ارتداء نسيج الفنّان كما يعترف بحق ارتداء سترة الوزير المخطّطة .

وكنت غارقاً في هذه الافكار ، حين انتفضت لصوت البائعة التي كانت تمدّ لي المحفظة . فدفعت وتناولت الرزمة وخرجت .

وكانت الساعة الواحدة . وكان الموعد عند الساعة الخامسة . وغريبٌ أن أقول انني بينما لم أكن في الأيام الاخرى ألاحظ انني كنت انتظر سيسيليا ، لأنني كنت أعرف ان علاقتنا كانت مستمرّة ، فان الانتظار الآن ، وقد قررت ان أقطع علاقاتي بها ، كان يثقل عليّ . وإذن ، فقد قمت ، في أبطأ ما يمكن ، بكل ما كنت أستطيع أن أفعله قبل الساعة الخامسة آملاً على هذا النحو أن أرى الوقت ينقضي بلا إحساس ولا ألم .

وتناولت الغداء في مطعم من مطاعم الحيّ وأنا أتظاهر بتذوق ألوان الطعام ، وأغرق في التأمل بين كل لقمتين : ثم قصدت حانةً فشربت فنجـــان قهوة ، ثم

لبثت أتسمّع إلى بعض أغاني « الجوك بوكس » ، وتناولت فنجان قهوة آخر في حانة أخرى ، ثم تسلّقت مقعداً مرتفعاً وقرأت الجريدة من أولها إلى آخرها ، وتوقّفت على الرصيف زهاء عشرين دقيقة وأنا أتحدّث مع رسّام شاب كنت أجهل اسمه ، وأنا أتظاهر بالاهتمام بخطابه الطويل ضد الاسعار والمعارض . ولكني لم اكد اقضي بجميع هذه الوسائل اكثر من ساعتين من اصل الساعات الاربع التي كانت تفصلني عن الموعد . وأخيراً ، عدت إلى المرسم ، وقلبي منقبض .

وقد وجدت هناك النور الرقيق يتسرّب عبر الستار الأبيض ، ذلك النور الواضح الدقيق الذي كنت أعرفه جيداً ، النور نفسه الذي كان يبدو فيه السأم ، أي انعدام العلاقات بين الاشياء وبيني ، يتخذ مظهراً عادياً إلى أبعد الحدود ، ولكنه ليس أقل إقلاقاً مع ذلك ، بل ربما كان من أجل هذا بالذات اكثر إقلاقاً من أي وقت مضى .

والواقع انني ما كدت أدخل وأجلس على الأريكة ، قبالة اللوحة الفارغة التي كانت تتشكّل لطخة بيضاء على المسند ، حتى فكرت : أنا هنا ، و « هي » هناك . و « هي » إنما كانت الأشياء المحيطة بي : اللوحة على المسند ، والطاولة المركزية المستديرة ، و « البارفان » الذي كان يُخفي السرير ، في الزاوية اليسرى ، والوجاق المصنوع من الطين بمدخنته الداخلة في السقف ، والكرسي المحمّلة بالدفاتر ، والرفوف الملأى بالكتب . وكنت اردّد : اجل ، لقد كانت هناك ، وكنت أنا هنا ، ولم يكن بينها وبيني شيء ، لم يكن شيء على الاطلاق ، كما انه ربما ليس ثمة شيء في الفضاء النجمي ، بين النجوم التي تفصل بينها مليارات من السنوات الضوئية .

وكنت أردّد : « أنا هنا ، وهي هناك » ثم كنت أتذكر سيسيليا ، كيف كانت مساء الامس ، متمددة على الاريكة ، ووجهها ذو العينين المغمضتين مقلوبٌ على الوسادة ، وبطنها منبسط إلى أمام ، واهبةً نفسها بأبسط طريقةٍ وأصرحها ، أي كحاجةٍ محرومة من كل إرادة إلا إرادة أن تكون مملوكة ، وكنت أذكر أيضاً انني فكرت ، وأنا ذاهب اليها ، كما أفكر اليوم : « انها هنا ، وأنا هناك » وكنت قلت في نفسي انه لم يكن بينها وبيني شيء ، وانه كان عليّ أن أعبُر

وأملأ إجمالاً هذا العدم بواسطة جسمي الذي سوف يرتمي عليها . وإذ تذكرت الجهد الشبيه بما يتطلبه تحطيم حاجز ، الجهد الذي قمت به لأضمّها وآخذها ، أدركت فجأة ان قراري بتركها لم يكن في الواقع إلا توكيداً رسمياً ، إذا صحّ التعبير ، لوضع سابق الوجود . أجل ، كنت سأترك سيسيليا في اليوم نفسه ؛ ولكني كنت عملياً قد تركتها منذ وقت طويل ، إذا كانت قد انعقدت بيني وبينها علاقة ما .

ولفرط التفكير ، كان النعاس قد استولى عليّ ؛ ونهضت من كرسيّ لأذهب فأستلقي على الاريكة . وقد نمت على الفور تقريباً ، وبقوة كبيرة حتى اني وانا نائم أخذني شعور بأني اسقط ، منقبض اليدين والأسنان ، منطوياً على نفسي ، في فراغ لا نهاية له ، وبمقدار ما كان سقوطي مستمراً ، كان وزن جسمي يزداد .

واستيقظت وفي فمي مــذاق حديد ، كما لو اني شددت بين اسناني على قضيب معدني . وكان المرسم غارقاً في الظلام تقريباً ؛ وفي الظلّ الرمادي اسوّدت الاشياء تقريباً ؛ وقفزت خارج الاريكة ورحت أضيء النور . واذ ذاك رأيت من النافذة ان الليل قد هبط . ونظرت الى المنبّه على الطاولة : كانت الساعة قــد تجاوزت السادسة ؛ ولا بد ان سيسيليا قد وصلت في الساعة الخامسة .

ولم أحتج الى جهد تصوّر كبير لأدرك أن هــذا التأخر لم يكن مردوداً للمصادفة ، وأنه على أي حال كان من الأرجح ان لا تأتي سيسيليا بعدُ ، ذلــك اليوم . ولكنه لم يكن حادثاً طبيعياً يمكن ان يُقبل في صفاء نفس . فبدافع من احــدى تناقضاتها العديدة ، فيما هي تبدو غير جديرة بالعواطف التي توحي بألاّ تعذّب اولئك الذين يحبّونك ، كانت سيسيليا شديدة الدقـة في مواعيدها ، كما لو انها كانت تخبي حقــاً ؛ وحين كانت تضطر ، لسبب من الاسباب ، ان تصل متأخرة ، كانت تتدبّر الأمر دائماً لتبلغني ذلك في الوقت المناسب . وإذن ، فان التــأخر الراهن كان غير طبيعي ، ولا يمكن ان يفسّر إلا بطريقة واحدة ، اي بحادث أهم من موعدنا ، بل من الأهمية بحيث لم يقتصر على منعها من المجيء فقط ، بل على منعها ايضاً من إعلامي بأنها لن تأتي .

ومع ذلك ، فان الفكرة الاولى التي خطرت ببالي كانت التالية :

« حسناً ، ألستَ مسروراً ؟ كنت تريد ان تتخلّص منها ، وها هي لا تأتي . هذا أفضل ، أليس كذلك ؟ »

لكن ذلك كان تفكيراً ساخراً ؛ لأنني لاحظت بذهول أنّ تأخر سيسيليا لم يكن فقط يثير استيائي ، بل كان كذلك يثير اضطرابي الى أبعد حد .

وعدت أجلس على الأريكة ، وأخذت أفكر . لماذا كان تأخر سيسيليا يثير اضطرابي ؟ وفهمت أنه إذا كانت سيسيليا حتى الآن لم تكن شيئاً بالنسبة لي ، فان هذا التأخر كان يجعلها تصبح شيئاً مـــا . ومن جهة أخرى ، فان هذا الشيء في الوقت الذي كان يتخذ فيه صلابته ، كان يفلت مني بطريقة مؤلمة ، لأن سيسيليا لم تجيء على كل حال . وهكذا كانت سيسيليا تبدو لي غائبة حين كانت تجد نفسها في المرسم وتلتصق بي ؛ اما الآن وهي ليست هنا ، وأنا أعرف أنهـــا لن تأتي ، فاني كنت أشعر بها ، في مرارة وغموض ، حاضرة .

وجهدت لأضع في أفكاري مزيداً من الوضوح، ولكني شعرت بأن ذلك كان شاقاً عليّ ، لأني كنت أتألم . إن سيسيليا إذن لم تجيء فهي إذن لم تهتمّ حتى بأن تبرّر غيابهـا . إنها إذن لم تكن تحبني بعد ، او على الاقل لم تكن تحبني بمـا فيه الكفاية ، وإلاّ لكانت دقيقة في الموعد ، او لأخبرتني أنها لن تأتي ، اي انهـــا كانت تحبني قليلًا جداً . وعند ذلك ، تذكرت فجأة في دهشة ان سيسيليا ، طوال هذين الشهرين اللذين استغرقتها علاقتنا ، لم تقل لي قط إنها كانت تحبني ، وانني لم أسألها قط ذلك . صحيح أن كونها قد وهبت نفسها لي ، وأظهرت انها كانت تصيب معي المتعة ، كان يعادل بلا شك تصريحاً بالحب ، ولكن كان من الممكن ايضاً ، كما لاحظت بسرعة ، ان لا يعني ذلك شيئاً على الاطلاق .

ثم إن الأهمية الضئيلة التي كانت سيسيليا تنسبها لهبة جسدها ، كانت تبـــدو وكأنها تدلّل على ان هـذه الهبة لم تكن تعني شيئاً في نظرها . إن هـذه الأمور يُحسّ بها . كانت سيسيليا قد أعطتني جسدها بمثل اللامبالاة البدائية الساذجة التي يدلّل عنها المتوحش وهو يقدم للرحّالة النهم تعويذة الاحجار الكريمة التي يحملهـا

في عنقه . وكان يبدو بالاجمال انها لم يكن لها عشاق جعلوها تدرك كم يمكن أن يكون جسد امرأة مرغوباً فيه . صحيح ان باليستاري كان قد عبدها ، وان هذه العبادة سبّبت موته ، ولكن سيسيليا كانت ما تزال تبدو مندهشة من ذلك ، كما لو كان هذا شيئاً لا يبرره في نظرهـا مبرر .

وأحسست فجأة بمثل العضة في قلبي ، وارتعشت برعـدة شملت جسمي كله ، لأني انتهيت الى التفكير بما يلي : « إن بوسعي أن أجترّ ما أشاء ، ولكن الواقـع انها لم تجيء » ، وكانت هذه الفكرة قد أعطتني إحساساً يكاد يكون جسمياً بغيـة كل محاكمة عقلية إزاء واقع الغياب .

ونظرت الى ساعتي فرأيت ان أكثر من نصف ساعة كان قد انقضى عليّ منـذ يقظتي : إن سيسيليا لن تأتي بالتأكيد . ولم تكن لي رغبة ٌ بعد بأن ابرهن لنفسي أن غيابها كان يجعلني لامبالياً .

وقلت لنفسي انها ربما كانت تشكو شيئاً ، وهو الدافع الوحيد الذي يمكن ان يفسر سلوكها من غير ان يقودني الى اتهامها . ونهضت لأقصد التلفون . ولكني تذكرت ، وبي احساس من يحقق اكتشافاً ، اني لم يسبق لي ان تلفنت لسيسيليا ، حتى ولا مرة واحدة . كانت هي التي تتلفن لي كل يوم ؛ وانا لم أكن اتلفن لهـا قط لعدم شعوري بالحاجة إلى ذلك . وقد بدا لي هذا النقص في الفضول من جانبي أمراً ذا مغزى . انني لم أهتم قط بأن أتلفن لسيسيليا ، كما اني لم أسع قط الى إقامة اية علاقة حقيقة معها . وهكذا فان صلتنا لم تكن شيئاً قط ؛ كان السأم قد تأكلها بسهولة ، وكنت قد عزمت بدوري على قطع علاقتي بها .

وإذ تشكل الرقم المطلوب ، رنّ جرس تلفون سيسيليا وقتاً طويلاً في صمت سرّي : ولكني فكرت بأن هذا الصمت لم يكن سرّياً إلا لأن سيسيليا التي كانت في داخله ، كحيوان منزوٍ في حجرة ، كانت قد أصبحت سرية بالنسبة لي ابتداء من اللحظة التي لم أرها قادمة فيها . غير أن هذا الصمت ، على سريتـــه ، لم يكن سلبياً تماماً . فبطريقة لا تخلو من تبرم وحيرة ، كما يحدث للمقامر الذي يداعبه وهم الربح بعد أن يكون قد خسر كثيراً ، كنت أؤمل ان يُصدي صوت سيسيليـا

في جهاز التلفون ، في آخر المطاف .

ولكن حـــدث ، بدلاً من ذلك ، أمرٌ غريب : فقد صمت الجرس ، ونزع أحدٌ ما السماعة ، ولكن لم يتكلم أحد ، أو بالأحرى خيّـــل إليّ اني أسمع في الجانب الآخر على الخط ما يشبه نفَساً مضغوطاً ونوعاً من الهمس . وناديت : « آلو ! آلو ! » فسمعت صوت السماعة وهي توضع ومن جديد . وعدت أطلب الرقم من جديد ، في سورة من الغضب ، ومن جديد أجابني الصمت ، ثم ذلـــك التنفس الخفيّ ، وأخيراً صوت السماعة وهي تعاد إلى مكانها من الجهاز . وفي المرة الثالثة ، رنّ الجرس طويلا ، ولكن أحداً لم يُجب .

وتركت التلفون وعدت أجلس على الأريكة . وظللت فترة طويلة مذعوراً ، وأنا لا أفكر بشيء . والأمر الوحيد الذي كان واضحاً لديّ هو انني في اليـوم الذي كنت صممت فيه على أن أصارح سيسيليا بنهـاية علاقتنا ، أخلفتْ (ولا أدري سبب ذلك) موعداً للمرة الأولى ، محقّقة بذلك فعلياً ، ولو بطريقـــة ظاهرية ، الانفصال الذي خطر لي أن أعرضه عليها . كنت إذن أستشعر إحساس استياء من كان يهبط في الظلام سلّماً صعباً فيتهيّأ لاجتياز درجة ، فإذا هو يلتقي على العكس أرضاً منبسطة ، وإذا هو يفقد توازنه ، بسبب أن الدرجة التي كان يمكن ان تُفقده هذا التوازن ، لم تكن بالذات موجودة .

ونهضت مهموماً ، واتجهت آلياً إلى الباب ، ففتحته ونظرت في الرواق ، كما لو انني كنت آمل ان أرى سيسيليا وهي تنعطف عند زاويته . ونظرت أيضاً إلى الجهة المعاكسة : وتوقف نظري ، وهو يتابع الجدار ، عند الباب الأخير الذي كان باب مرسم باليستياري . ولم أتماسك من التفكير بأن باليستياري لا بدّ أن يكون قد ظهر مرات عديدة على العتبة ليرى إذا كانت سيسيليا ، وقد تأخرت عن موعدها ، قد برزت في نهاية الرواق . وكنت أعرف أن المرسم لم يكن قد أجّر بعد ؛ بل لقد كان يقال إن الأرملة كانت تنوي أن تأتي فتسكنه هي شخصياً . وقد حدث أن سيسيليا كانت قد تركت مفتاح مرسم الرسّام العجوز على طاولتي في يوم لقائنا الأول . ومنذ ذلك الحين لم تطلبه قط ، فرميته في جوف درج ، وأنا

أشعر شعوراً مبهماً إني ربما احتجت اليه ذات يوم .

وشعرت فجأة بالرغبة في أن أذهب فأرى مرة أخرى المكان الذي تعذّب فيه باليستياري بهذا الشك نفسه الذي كنت أعاني منه في تلك اللحظة .

وتناولت المفتاح ، وتركت بابي مشقوقاً لتتمكن سيسيليا ، في حالة قدومها ، من الدخول ، وقصدت مرسم باليستياري . وبعد أن أضأت الشمع الزائف في الثريا الوسطى ، بدا لي المرسم أشدّ عتمة من أي وقت آخر ، بأثاثه المقلّد للأثاث القديم وتطريزاته الحمراء . واقتربت من الطاولة وأنا أسير على الطنفسة السميكة وأشمّ في نفور رائحة الهواء المحبوس والمغبّر الآس . وكانت طاولةً ضخمة من طراز « رونيسانس » كان وجهها اللامع مغطّى بغبار شهريْ هجر ؛ وكان جهازٌ تلفوني موضوعاً عليها ، وإلى جانبه الدليل وورقة القسيمة الخضراء، مما يدل على أن الأجرة كانت مدفوعة . وقلت في نفسي أن الأرملة كانت تنوي حقاً أن تأتي فتسكن المرسم ، ما دامت مستمرة في دفع إجرة التلفون ؛ ثم وقع نظري على دفتر عناوين صغير مجلّد ، بغلاف مرمري ؛ فتناولته وتصفّحته . وجعلني خط باليستياري الضخم الكثيف أفكّر ، ولا أدري السبب ، بكتفيه العريضتين أكثر مما ينبغي وقدميه الكبيرتين أكثر مما ينبغي . ولاحظت العدد الكبير للأسماء النسوية من غير اسم العائلة ، وهي مسجّلة على كل صفحة : باولا ، ماريا ، ميللي ، ايناس ، دانييلا ، لورا ، صوفيا ، جيوفانا الخ — .. الخ ... وإذ كنت أعرف عادات الرسام العجوز ، فانني لم أشك في انها كانت أسماء الفتيات اللطيفات اللواتي كنّ ، في الماضي ، قبل غرامه الكبير بسيسيليا ، يزرْنه غالباً . وقلّبت الأوراق أيضاً ، لأنظر في صفحة الحرف « س» . فوجدت اسم سيسيليا يتبعه رقم التلفون نفسه الذي سبق منذ قليل أن ناديته عبثاً . وظللت لحظة وعيناي مثبتتان على ذلك الاسم وهذا الرقم ، وأنا أفكر بالأحاسيس المختلفة التي لا بدّ ان يكون باليستياري قد شعر بها يوم كتبهما ، ثم حين يذهب لينظر اليهما قبل ان يتلفن لسيسيليا ، على ممر الأيام . ولا شك في ان باليستياري لم يكن في آخر الأمر ، يلجأ إلى هذا الدفتر ، لأنه كان يحفظ الرقم ظهراً عن قلب : ولكن كان

لا بدّ له مع ذلك من أن ينظر بين الفينة والفينة إلى صفحة حرف « س » ليوقظ ذكرى هذه المرة الأولى ، هذه المرة المشؤومة التي كتب فيها هذا الاسم وذلك الرقم .

وفجأة ، أخذ التلفون على الطاولة يرنّ ، فترددت ، ثم رفعت السماعة . وكان يغمرني شعور غريب ، الشعور بأني لم أكن أنا ، وإنما كنتُ باليستياري.. وانني موشك ان أسمع في التلفون صوت سيسيليا . وقد تأكد هذا الشعور بطريقة غير منتظرة : والواقع اني سمعت الصوت المعروف يسأل :

– أهذا أنت ، يا مورو ؟

والحق ان باليستياري كان يُدعى مورو . وأحسست قلبي ينهار ، وقد أخذه شعورٌ من الضيق المغثي . وهكذا فقد كانت حقاً سيسيليا ، وهي لم تكن تتلفن لي أنا بالذات ، وإنما لباليستياري ، أي لرجل كان ميتاً ، وكانت تعرف انه كان ميتاً .

وهذا كله لم يدم إلا لحظة . فقد قلت بصوت لا يكاد يُسمع :

– لا ، بل أنا دينو .

وسرعان ما فقد الصوت كل شبه بصوت سيسيليا ، بل تبدّى مختلفاً عنه كل الاختلاف ، كما لو أنّ ذلك الشبه لم يخلق آنذاك إلا بسبب ضيقي ، فقال بلهجة مضطربة :

– اوه ! المعذرة ! أليس هنا منزل السنيور باليستياري ؟

– بلى .

– وباليستياري غير موجود ؟ لقد كنت لو تعلم خارج روما لمدة أربعة أشهر ، وكنت أودّ ان أحيّيه . أنت أحد أصدقائه ، أليس كذلك ؟

– نعم . أنا صديق . ولكن من أنت ؟

فأجاب الصوت بلهجة مؤثـّرة مليئة بالأمل ، كما لو انه كان بهذه اللهجة يذكـّر بصداقته الحميمة مع الرسام العجوز :

– أنا ميللي .

– يا سنيوريتا ميللي ، إن السنيور باليستياري ... قد ذهب .
– ذهب ؟ ألا تعرف متى يعود ؟
– لا .
– حسناً ، قلْ له إذن حين تراه إن ميللي قد تلفنت له

فأعدت السماعة وظللت لحظة جامداً ، وأنا أجترُ الشعور الغامض المنزعج الذي أوحته لي هذه المخابرة التليفونية . ثم لحظت ان الجوّ كان بارداً في المرسم وان هذا البرد كان ينفذ حتى عظامي . بردٌ غريب ، غير نقيّ وجنائزي في الوقت نفسه ، شبيه ببرد قبرٍ هو في الوقت نفسه مخدع نوم، أو برد مخدعٍ هو في الوقت نفسه قبر.

وكنت قد جلست وأنا أردّ على التلفون ، وربما كنت مرهقاً بالاضطراب الذي استولى عليّ وأنا أحسب انني أسمع صوت سيسيليا . ونهضت ، فخرجت إلى الممرّ .

واذ عُدت الى مرسمي ، نظرت الى الساعة ، ولما ادركت انني لم اكن انتظر احداً بعد ، فهمت اني كنت اريد فحسب ان أعرف كم يفصلني من الوقت عن المخابرة التليفونية المألوفة التي كانت سيسيليا تفتحها لي صباح كل يوم . وبعد ذلك بقليل ، فكرت بأنها كانت تلك المرة الاولى التي يخطر لي فيها مثل هذا ؛ وقلت نفسي إن أفكاراً كهذه ستهاجمني بعد الآن اكثر فأكثر .

الفصل الخامس

صباح اليوم التالي ، اذ فكرت ثانيـــة بزيارة سيسيليا التي لم تتمّ ، اقتنعت أو بالاحرى سعيت لاقناع نفسي بأن غيابها كان مردوداً الى عوامل لم تكن لها ادنى صـلة بعلاقاتنا . لأني إذا كنت مـا أزال راغباً في التخلص من سيسيليا ، فان السيسيليا التي كنت اريد التخلص منها كانت سيسيليا مغرمةً بي ، او انني كنت أتصوّرها كذلك ، وليست سيسيليا الـــتي قد كفت عن حبي وأصبحت تخلف مواعيدنا . وليس ذلك لهـذا الطراز من الحب الذي يُسمّى حباً معاكساً والذي يقضي بأن نحبّ من لا يحبنا ، ولا نحب من يحبنا ، بل لأن السيسيليا التي كانت تحبني قد تبدّت مضجرة ، اي وهميــــةً ، بينما كانت السيسيليا التي تحبني تكتسب اكثر فأكثر في عيني ظاهراً من الواقع (بسبب انها لم تكن تحبني بالذات) .

على اني مع ذلك كنت أفضل التفكير بأن سيسيليا كانت تحبني ، واني بالتالي ليس لي ان أغيّر قراري بالتخلّص منها لأن فكرة أنها لم تكن تضجرني ، وبذلك تصبح واقعية ، كانت توحي لي في الحقيقة بنوعٍ من الخوف ، كما لو اني اجابه تجربة لم اكن أحسني قادراً على مجابهتها .

وبالانتظار ، كانت تبقى مسألة صغيرة ولكنها مقلقة : هل كان يجب عليّ ان ابادر بعمل مخابرة تلفونية لها ، ام انتظر مخابراتها التلفونية ؟

كانت سيسيليا معتادة أن تتلفن لي كل يوم ، في الساعة نفسها ، حوالي الساعة

العاشرة صباحاً ، لتحييني وتؤكد موعد بعد الظهر . وإذن ، فقد كان باستطاعتي دون شك أن انتظر هـذا اليوم مخابرتها التلفونية ؛ ولكني في الوقت نفسه كنت أخشى ألاّ تعطيني علامة حياة ، وتخرج ؛ وفي هذه الحالة ، حين أقرر ان اتلفن لها انا نفسي ، فلن أجدها ويجب عليّ آنذاك ان ابقى طوال النهار في شك من مجيئها ، وهو شكّ كنت اعرف أنه أصبح بعد الآن أليماً .

ومن جهة اخرى ، كنت ألاحظ ، بسبب حكاية التلفون هذه ، ان معطيات مسألتي كانت تتكرر متشابهة : كنت أريد من سيسيليا ان تخابرني هي أولاً ، لأستطيع الاستمرار في اعتبارها غير موجودة ، لأنها انما هي مهيّأة ؛ فلو كنت بالعكس انا الذي اخابرها اولاً ، فينبغي ان افكر فيها كما أفكر بشيء حقيقي ، لانها مبهمة وغير قابلة للالتقاط .

وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر حين كنت ما أزال غارقاً في هـذه الافكار ، فاذا بالتلفون ، هناك في جوف المرسم ، يرن في إلحاح وهدوء وشكوى وسخرية ، كما ليقول لي إن أفكاري ، مهما بلغ تبصّرها ، لم تكن ذات قيمة امام هذا الرنين .

ونهضت ، فرفعت السمّاعة ، وسمعت فوراً صوت سيسيليا :

— آه ! واخيراً ، ولكن اين كنت ؟

فأجبت بصوت منخفض جداً :

— كنت في المرسم ، ولكني لم أسمعك .

وسادت لحظة صمت ، ثم قالت .

— انني لم أتلفن لك هـذا الصباح لأن تلفوني كان معطلاً . ولكننا سلنتقي اليوم في الساعة المألوفة ؟

فلم أتمالك أن صحت في بعض الحيوية :

— لماذا لم تأتي أمس ؟

وكنت أنتظر جواباً صادقاً او كاذباً ، ولكنه في أي حال واضح ؛ وعلى العكس ، فان الجواب كان هذه الكلمات المحيّرة التي بلغتني :

— لأنني لم أستطع .

– ولماذا لم تستطيعي .

– لأني كنت مشغولة .

وقلت غاضباً ، وقد عرفت في هـذه الاجوبة قدرة سيسيليا المميّزة على تحاشي الكذب وقول الحقيقة في وقت واحد :

– حسناً جداً . إذن ، الى اللقاء .

– نعم ، الى اللقاء .

ولاحظت على الفور بأن مخابرتها لي اولاً لم تحمل لي العزاء الذي كنت أرجوه. صحيح انها تلفنت اولاً . ولكنها تمكّنت بتكتمها من ان تظل هاربة وسرية ، لا أكثر ولا أقل مما لو أعطتني علامة حياة . وحركة مخابرتي التي كان لا بدّ من ان تعني تهيّؤاً وتبعيّة وبالتالي انعداماً ، لم تكن تعني شيئاً في الواقع . وقد كان عليّ بأي حال أن أقطع صلتي بها ، كما كنت قد قررت .

وبالانتظار ، كان يجب ان أعيش ، أعني أن أقضي الساعتين اللتين كانتا مـا تزالان تفصلانني عن اللحظة التي تظهر فيهـا سيسيليا امام المرسم . ولكي أعطي فكرة عن نفاذ صبري ، أقول إنني لفرط حيرتي حول ما ينبغي أن أعمله ، فكرت حتى بأن أعود الى الرسم ، بعـد انقطاع دام اكثر من شهرين . فقـد قلت لنفسي انني اذا بلغت على الأقل ان أغطّي بأية طريقة هذه اللوحة التي كانت مـا تزال معسكرة على المسند ، فسوف أحصل على حجـة أخرى للانفصـال عن سيسيليا ؛ والواقع اني كنت أعرف أن الرسم وحده سيتمكن من ان يملأ في حياتي الفراغ الذي سيخلفه انتهاء علاقتنا . ولكن كفاني أن انظر الى القماشة ، هناك على المسند ، لأفهم انني لم أكن قادراً على الرسم كما لم اكن قادراً ان ارفع يدي لأخط عليهـا أي خط . والواقع انه لم يكن لي في تلك اللحظة الا علاقة واحدة ، هي في الحق مريبة ، مع حاجةٍ ما ، وكانت هي علاقتي مع سيسيليا التي كنت أستعد لتحطيمها. ولكن ما كان عساي ان ارسم على هذه اللوحة التي كنت يوم لقائي الاول مـع سيسيليا قد وقعّتها كأنما لأشير الى اني قد ودّعت الرسم ؟

ولكي أعزّي نفسي قرأت نصاً لكاندانسكي في موضوع اللوحة الفارغة بالذات

« اللوحة الفارغة . في الظاهر : فارغة حقاً ، صامتة ، لامبالية . شبه مندهشة . في الواقع : ملآى بالتوتّرات ، مع الف صوت منخفض ، مثقلة بالانتظـــار . مذعورةٌ قليلًا لأنها يُمكن ان تُغضب وتُقهر . ولكنها وادعة . إنها تقوم راضية بكل ما هو مطلوب منها ، ولكنها تطلب الشفقة . إنها تستطيع ان تحمل كل شيء ، ولكنها لا تحتمل كل شيء . رائعةٌ هي اللوحة الفارغة ، أجمل من كثير من اللوحات الملآى ، الخ ... »

وفجأة قذفت كتابي أرضاً في عنف ، وخرجت من مرسمي وأنا أكاد أعدو .

وكنت أعرف أين كنت أوجّه خطاي ، لا يقودني فكري ، بـــل تقودني حاسّة شمّ شبيهة بحاسّة كلب صيد يقتفي رائحة في غابة أو براح . وهكذا انتقلت إلى شارع ديلبابوينو ، بعد أن غادرت شارع مارغوتا ، وسرت في اتجاه « ساحة اسبانيا » ، وأنا أحاذي الحوانيت مسرعاً بين الناس الذين كانوا يدافعونني ، كما لو اني كنت خائفاً أن أصل متأخراً إلى موعد مضروب . واجتزت زهاء مئة متر، ثم رأيت فجأة سيسيليا أمامي .

وهي أيضاً كانت تسير بسرعة ، كامرأة تعرف أين تتوجّه وهي على عجـــلٍ للوصول . وبعد أن فكرت لحظة في اللحاق بها ، أبطأت السير وتبعتها ؛ وقـــد لاحظت فجأة أنها لم تبد لي قطّ حقيقية واقعية كما كانت الآن بعـد ان نويت الانفصال عنها ؛ وكنت أريد ان أتمتّع بهذه الحقيقة الواقعية وأن أفهم في الوقت نفسه لماذا كانت تتكشّف الآن بالذات .

إذن ، فقد نظرت اليها بتنبّه ، فشعرت بأني أراها للمرة الاولى في حياتي في هيئة لا تقلّ جدّةً عن هيئة أول يوم من أيام الخليقة . فقد كانت تفاصيل شخصها تبدو لي ، لا أدري بأية معجزة ، أكثر ظهوراً من المألوف ، ظاهرة بنفسهـا إذا صحّ التعبير ، أعني ظاهرة بجميـع الأشكال ، حتى ولو لم أكن قد نظرت اليهـا وراقبتهـــا : كتلة شعرها الأسمر المتموّج الخفيف ، الأميل إلى مشابهة جزّة عانةٍ مختلطة متوحشة ، منها إلى شعرٍ مسرّح ؛ وحركات عنقها الذي لم يكن يُرى إذ أنه كان خافياً ، ولكن كان يمكن تصوّره طرياً جميلًا ؛ ومرونة ثوبها الطويـل

الأخضر الزغب حول قامتها التي كنت أعرف انها عارية ، بصدرها الريّان المشرئب الذي كانت قمّتاه الدقيقتان معرّضتين لاحتكاك الصوف الخشن؛ والتنورة السوداء ، القصيرة والضيقة ، التي كانت ترتسم في داخلها ، لدى كل خطوة ، استدارة خاصرتيها في وضوح متحرّك متوازن ، وجسمها برمّته كان يبدو بالاجمال وهو يجذب أو يلتهم ، إذا صحّ التعبير ، نظراتي بمثل النهم الذي تمتصّ به المطرَ أرضٌ قتلها الجفاف . ولكني لاحظت ، إلى جانب هذه المظاهر التي كانت تثب أمام العين ، اني كنت ألمح حقيقةً أخرى ، من الدرجة الثانية ، إذا كان هذا الوصف صحيحاً ، أي شيئاً كان يمنح روحاً لهذه الأشكال التي كانت تجدّ ذاتها حيّة ومليئة بالرونق . وقد فهمت أخيراً ما كانه ذلك الواقع . ففي جميع هذا الذي يغلي بالحركة ، كان ثمة ما يشبه قوة لاواعية وتلقائية كانت تبدو وهي تدفع سيسيليا ، كما لو انها كانت مروبصة ذات عينين مغمضتين وذهنٍ مظلم . وهذه القوة كانت تنتزعها مني ، وبالتالي ، تجعلها حقيقية واقعية .

واذ بلغت سيسيليا « ساحة اسبانيا » توّجهت في تصميم نحو الدرج . وتوّقفت لحظة ، واتجهت عيناي الى المكان الذي كان يبدو انها تقصده ، فالتقتا بطيف رجل كان يبدو بالفعل انه ينتظر أحداً ، وهو واقف بالقرب من مظلّة بائعة زهور . وكان رجلاً شاباً ، طويلاً ، ذا مظهر قويّ ؛ وقد لاحظت سريعاً أمرين لديه : كتفين عريضتين جداً كانتا تذكّران ببنيةٍ عتليتية ، وشعرٍ أشقر مذّهب ، متأكسد . وفي هذه الاثناء ، كانت سيسيليا قد اجتازت ، وهي خافضة الرأس ، أرض ساحة اسبانيا وكانت تقترب شيئاً فشيئاً منه ، من غير ان تحث الخطى ، ولكن بحركة من خاصرتيها مليئة بدفع مثير لا يقاوَم .

والتقت به فتوّقفت ، وحسبتني أرى انهما يتصافحان ؛ واذ ذاك سارعت بعبور الساحة بدوري ، فاذا بهما الآن يتحدّثان ، وكانت سيسيليا وهي واقفة على الدرجة الاولى ، تبدو أكثر منه انخفاضاً .

وفي لحظة كنتُ بجانبهما ولاحظت ان سيسيليا لم ترني ، وتقدمت حتى أصبحت على خطوة منها تقريباً ، ولكني تبيّنت انها لم ترني بعد . وصعدت الدرجة ،

واستدرت حولها ، وأنا أكاد ألامسها هـذه المرة ، وكانت تتحدث وتضحك بمرح مع الرجل ذي الشعر المتأكسد . وفجأت ، توقفت عيناهـــا الكبيرتان المعتمتان عليّ ، ولكني لاحظت هــذه المرة ايضاً ، مهما بدا ذلك مستحيلاً ، أنها لم تكن تراني . وأيقنت أني أسجّل هـذه الأمور من غير أن افكر بشيء ، وفهمت اني لم اكن افكر بشيء ، لأني كنت أتألم . وذهبت أخيراً فاختبأت خلف مظلّة بائعة الزهور ، على بعد خطوات من هناك .

وها هو الشاب ذو الشعر المتأكسد يأخذ الآن سيسيليا تحت ذراعه بحنان بليغ ، ويدفعهـــا برقّة نحو المظلّة التي كنت مختبئاً وراءها . وتوقفا ؛ واختار الشاب ، من غير ان يترك ذراع سيسيليا ، باقة من النبفسج كانت في اناء ، وقدّمها لها . وحملت سيسيليا الباقة الى منخريها ؛ ودفع الشاب للبائعة وصعد الاثنان الدرج ، من غير ان يترك احدهمـا ذراع الآخر ، نحو « الترينيتيه ديمون » وللمرة الاولى رأيت ان الشاب كان يرتدي سترة خضراء صغيرة لم اكن رأيتها حتى ذلك الحين .

وبعد ان اختفيا ، بقيت لحظة حيث كنت ، وأنا انظر الى الدرج . وكنت اشعر بألم حادّ لم يكن يترك لي راحة ، وفي الوقت نفسه بغضب عاجز لكوني أحس ذلك الألم . وكنت ادرك في الواقع اني ما دمت أتألم هكذا ، فلن أستطيع ان أنفصل عن سيسيليا كما كنت ما ازال أرغب . وكنت ادرك كذلك انني مـع سيسيليا لم أكن أستطيـع الا أن أسأم وأتألم ؛ كنت حتى ذلك الحين قد سئمت ، ومن أجل هـذا رغبت في تركها ، اما الآن ، فكنت أتألم وأحسّ بأني لم أستطع ان أنفصل عنها الا اذا سئمت من جديد .

ولا بدّ أن هذه الافكار وافكاراً اخرى مشابهة كانت عميقة جداً ومستغرقة اذ انني في ذهول وجدتني بلا شعور في مرسمي ؛ كنت قد عدت ، بلا وعي ، وأنا غـــارق في افكاري كما لو كنت غارقاً في ضباب ، الى شارع مارغوتا ، فدخلت وارتميت على الأريكة . وكان المنبّه على الطاولة الوسطى يسجّل الرابعة والنصف ؛ ولم يكن باقيـاً على وصول سيسيليا الا نصف ساعة . ولكن لم يكن لديّ حقاً مـا أفعله ، إلا أن انتظرها . وقد بدت لي نصف الساعة هذه لا تنتهي من الانقضاء ،

كما لو أن الزمن قد توقّف وانتظر أن أدفعه ليستأنف جريه . والواقع اني كنت أنا الذي جُمدت امام فكرة ثابتة بالرغم من جميع جهودي .

وما كان يثير غضبي حقاًهو ان الظروف كانت ، بالرغم من عدم حبي ّ لسيسيليا، تقسرني اذا صحّ التعبير ، على أن استشعر العواطف الخاصة بالحب وان أتصرف كمحبّ عاشق . وقد وددت لو أتحرّر من هذه الظروف ، كما يود جاموسٌ ان يتحرّر من النير الذي يثقُل على عنقه ، ولكني كنت لدى كل حركة أشعر بأنها كانت تضيّق عليّ الخناق اكثر فأكثر وتجبرني على ان أتصرّف كعاشقٍ كنت مقتنعاً بأني لم أكنه .

كنت أقول لنفسي مثلاً : « إن سيسيليا وصديقها هما الآن في ركن منزوٍ من قصور بورغيز » ، وسيسيليا تفعل ما فعلته معي مراراً: انها تقبّله بارتباك وبرودة، بشفتيها الطفوليتين ، وفي الوقت نفسه توجّه الى بطنه ضربة عانتها القاسية الآمرة.» ولكني ما لبثت ان فكرت : « ولكن لماذا تراني افكر بهـــذا كله ، ولماذا أتألم منه ؟ طبعاً لأنني رأيتها معاً ، وبسبب هذا وحده ، اي بسبب رؤيتي إياهما معاً ، كنت مجبراً ، بالرغم مني ، على ان أغار عليها وأتألم . »

كنت أفكّر مطرق الرأس ، وعيناي مثبتتان في الارض ، وأخيراً ألقيت نظرة على المنبّـــه فلاحظت أن وصول سيسيليا كان وشيكاً . وقمت آنذاك عن الأريكة وتمطّيت بضلوعي المتألمة ، وانا أفكر بأني لم اكن ، في آخر المطاف ، واثقاً كل الثقة من الخيانة . فما الذي رأيته في الحقيقة ؟ موعد لقاء بريء في مكان ليس فيه اي خفاء او سرّية ، وهدية لطيفة ، ولكنها غير ذات معنى كبير ، من باقة بنفسج ، ونزهة في « البانشيو » . إن مثل هذه الامور تحدث في كل ساعة ، وفي كل يوم ، من غير ان يكون الذين يقومون بها مرتبطين بصلات غراميـــة . صحيح انه كان ثمة امر الموعد الذي أخلفته أمس . ولكن كان عليّ ان احذر هذا الاستعداد الذهني الذي يميل الى إقامة علاقات اعتباطية بين امور متباعدة ومختلفة . إن سيسيليا لم تأتِ أمس إلى الموعد المتفق عليه : هذا أمرٌ قد حدث . ولقد رأيتها بعد الظهر مع شاب ذي شعر متأكسد : وهـذا أمرٌ آخر قد حدث . ولكن لم

يكن مؤكداً أن هذين الامرين مرتبطان ، ومرتبطان خصوصاً برابطة الخيانة .

وشيء غريب" أقوله : ما كدت افكر بهذه الافكار ، حتى عاد وجه سيسيليا (تلك التي كانت تظهر لعينيّ حيّة وحقيقية ، بالرغم من انها مليئة بالاسرار ، او بسبب انها مليئة بالاسرار ، ما دمت أتهمها بالخيانة) حتى عاد وجهها ذلك ، الآن وقد شككت بتلك الخيانة ، وهمياً ومضجراً كما في الايام السابقة . وكما حدث في الايام السابقة ، كنت أحسّ بأن عليّ أن اقطع علاقتي بهـا بأي ثمن ، وتأكد تصميمي على ذلك بذكرى القسوة التي عمدت اليها ، في احد لقاءاتنا الاخيرة ، حتى لا أسقط في السأم .

وكانت سيسيليا دقيقة" في الموعد . ففي الساعة الخامسة سمعت الجرس برنّته المألوفة ، القصيرة المتكتّمة ، والصميمية في الوقت نفسه . وكنت أفكر ، وأنا ذاهب لأفتح لها الباب : « ما ان تقع عيني عليها ، حتى اقول لهـا انني ذاهب إلى الريف ، بحيث اكون ، حتى ولو ندمت على ذلك فيما بعد ، قد خلقت أمراً واقعياً يمكنني بصعوبة أن ألغيه بعد ذلك . »

وكنت أتوقّع ان تلقي سيسيليا على عادتها ، ذراعيهـا حول عنقي ، حين تدخل ، بحركتها المألوفة الآلية الحرارة ، ولكني سأمسك هـذه المرة بيديها ، فأحلّ اعتناقها وانا أقول لها : « قبل كل شيء ، يجب أن أحدّثك . »

ولكن حدث ، على العكس ، ما لم أكن قد توقعته ، ومـا كان عليّ في الحقيقة أن أتوقّعه . فبعد ان فتحت البـاب ، لم ترتمِ سيسيليا على عنقي ، بل اقتربت وهي تقوم بحركة لتُبعدني ثم قالت :

– قبل كل شيء ، يجب أن أقول لك أمراً .

ولم أتمالك من التفكير بأن هذه الكلمات كانت تقريباً ما نويت أن اقوله لها ، ثم خطر لي على الفور ان سيسيليا كانت تريد ان تبلغني قراراً شبيهاً بقراري ، أي انها كانت تريد أن تتركني . وفي هـذه الاثناء كانت قـد توجهت إلى الأريكة وجلست عليها . فتبعتها وجلست إلى قربها ، وقلت لها بصوت قويّ مغتاظ :

– لا ، قبل كل شيء ، يجب ان تعطيني قبلة .

فانحنت مطيعة ورشقت خدّي بقبلة سريعة ، ثم تراجعت وقالت :

– إن ما عليّ أن أقوله لك هو أننا بعد الآن لن نستطيع أن نلتقي بعدُ كل يوم ، وإنما مرتين في الاسبوع .

– ولماذا ؟

– هدّىء نفسك ، ولا تغضب .

قالت لي ذلك قبل ان تجيبني ، وكنت بالفعل قد تكلمت بصوت عالٍ ، وبلهجة مرّة ، ولكني غضبت غضباً حقيقياً وأنا اسمعني أقول :

– إنني هادىء ولست غاضباً . كل ما هناك اني وددت ان أعرف سبب هذا كله .

– لقد بدأوا عندنا في البيت ، يستاءون لكوني أقصدك كل يوم .

– ولكن ألم تقولي لهم : إنك كنت تأخذين دروساً في الرسم ؟

– بلى ، ولكني قلت إنني آخذ هذه الدروس مرتين في الاسبوع . اما من اجل الايام الأخرى ، فيجب عليّ دائماً ان أخترع عذراً ما ، وقد فهموا الآن !

– ليس هذا صحيحاً ، فان ذويك غير مستائين . انهم مثلاً لم يكونوا يحتجّون حين كنت ترين باليستياري كل يوم .

– كان باليستياري في الخامسة والستين ، لا في الخامسة والثلاثين مثلك ، وهم لم يكونوا يحترسون منه . ثم إنهم كانوا يعرفونه .

– إذن قدّميني إلى ذويك .

– سوف أقدّمك . ولكن بانتظار ذلك ، ينبغي ألاّ نلتقي إلا مرتين في الاسبوع .

وظللنا لحظة صامتين . وكنت اكتشف الآن انني لم اكن فقط غير راغب في قطع العلاقة مع سيسيليا ، بل انني لم اكن لأحتمل ألاّ أراها إلا مرتين في الاسبوع . ثم فجأة فهمت. لقد كنت ما أزال مستعداً ان أباعد ما بين مواعيدنا، ولكن كان ينبغي ان اكون واثقاً ثقة عميقة بأنها لم تكن لتكذب عليّ وان ذويها قد احتجوا حقاً . ولما لم اكن واثقاً من ذلك، فان فكرة انها كانت تكذب

عليّ كانت توحي لي شعوراً بالضيق ، كما لو انها أفلتت مني في اللحظة نفسها التي كانت تصبح فيها ، بفضل هذه الكذبة ، حقيقةً في نظري ومشتهاة .

وتناولت يدها :

– قولي الحقيقة ، انك لا تريدين ان تريني بعد .

فأجابت بحيوية :

– إن هذا لا علاقة له بما اطلبه منك . لقد قلت لك إن علينا ان نتقابل مرتين في الاسبوع فقط ، هذا كل شيء .

ولاحظت ان صوتها كان محايداً تماماً،على مسافة متساوية من الحقيقة والكذب. وكانت هذه ملاحظة أحسست بها عدة مرات ، ولكن فقط من اجل تسجيل تفصيلٍ تتفرّد به سيسيليا ، من غير ان أضفي عليه ايّ معنى . وبالاجمال ، لم تكن تبدو انها تقول دائماً الأشياء التي تقولها ، لا اكثر ولا اقل ، اقصد بلا ادنى مشاركة عاطفية . وهذه المشاركة كنت اعرف انها موجودة في العلاقة الجنسية ، وفيها وحدها فقط . ولكن كان عليّ ان اعرف تماماً إذا كانت تكذب عليّ ، لأني كنت ما أزال راغباً في الانفصال عنها ، وكان الكذب يمنعني من ذلك .

وألححت :

– الواقع انك تريدين ان نفترق ، ولكنك لا تملكين الجرأة على قول ذلك ، ولهذا تحاولين ان تـُمهّدي لي . فانت اليوم تقولين : مرتين في الاسبوع ، وغداً سيكون مرتين في الشهر ، وفي النهاية ستقولين الحقيقة ...

– اية حقيقة ؟

وكان على رأس لساني ان اقول : « ان لك رجلاً آخر . » ولكني امتنعت ، وكانت الصلة بين قرارها بتخفيف زياراتها ولقائها بالرجل في « ساحة اسبانيا » ، واضحة اكثر مما ينبغي ، وكان قبولها يذلـّني .

وقلت فجأة :

– حسناً ، ليكن ما تريدين : فلن نلتقي ابداً ابتداء من اليوم إلا مرتين في الاسبوع . فلنغيّر الحديث ...

ـ ولكن ما بك ؟ لماذا تبدو هيئتك قاتمة إلى هذا الحدّ ؟

ـ لنغيّر الحديث . أتعلمين انني اليوم فررت تحت انفك ، ولم تريني ؟

ـ أين ؟

ـ في ساحة اسبانيا ، عند أسفل الدرج .

ـ في أية ساعة ؟

ـ في حوالي الرابعة .

وكنت أنظر اليها في تنبّه : كان وجهها يحتفظ بعبيره المتردّد الطفولي ، بل هي لم ترتعد قط :

ـ آه ، نعم ، كنت مع ممثل يُدعى « لوسياني » .

وكان الصوت أيضاً لا يكشف عن أي شيء خاص : فهو محايد ، لامعبّر ، يتجاوز الطهارة والإثم ، وسألتها كيفما تأتى لي :

ـ ولماذا تراه يؤكسد شعره ؟

ـ لأنه كان عليه ان يمثل دور رجل أشقر .

ـ كنتما تبدوان في صداقة حميمة ، إذا حكمنا على الأقل من طريقة مشيتك .

فسألتْ بفضول غير مصطنع :

ـ أية طريقة ؟

فأحسست بأن الكلمات لن تفي بوصف الحنان الذي أخذها الممثل به من ذراعيها ، فقلت :

ـ إنهضي .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ إنهضي .

فأطاعت ، فأخذت إذ ذاك ذراعها وأجبرتها على ان تمشي قليلاً عبر المرسم ؛ تماماً كما رأيتها تمشي مع الممثّل ؛ وقلت أخيراً وأنا أترك ذراعها :

ـ هكذا .

فعادت تجلس على الأريكة ونظرت إليّ لحظة ؛ ثم قالت :

– إنه يفعل ذلك تماماً .
وفكرت بأنها كانت عبارة لا تعني على الاطلاق أنه كان بينها وبين الممثل غرام. وسألتها :
– متى تعرفت عليه ، لوسياني هذا ؟
– منذ شهرين .
– وهل تقابلينه كثيراً ؟
– بين وقت وآخر .
ورأيتها تنهض وتبدأ في نزع صدرتها من رأسها ، فسألتها :
– ولكن ، كنت على موعدٍ معه اليوم ؟
–نعم ، هو يودّ لو أعمل في السينما ، وكان علينا ان نتحدث في هذا الموضوع بالذات .

فتفحصتها ملياً : كانت قد رفعت صدرتها فوق رأسها ، كاشفةً عن إبطيها الأبيضين بشعراتهما النادرة الطويلة ، الطريّة والسمراء ؛ ولكنّ صدرها لم يكن قد حُرّر بعد ، فلم يكن يُرى إلا نصفها الأعلى الهزيل المراهق . وأخيراً ، بحركة مفاجئة ، نجحت في التخلص من ثوبها ، فانبثق نهداها إلى الخارج : دفعةً واحدة ، أصبح النصف الأعلى من جسدها نصف امرأة ، فيما ظلّ يحتفظ بشيء من الرخص وسبق النضج . وخطر لذهني انها كانت تنزع ثيابها لتضع حداً لاستجواب مزعج . وسألتها :
– إذن ، ستعملين في السينما ؟
– لا أدري بعد .
– وبعد ذلك ، إلى أين ذهبتما ؟
– إلى « البانسيو » لنأخذ فنجان قهوة .
وكانت الآن قد جلست على الأريكة من جديد ، عارية حتى النطاق . وبعناية ، كانت تقلب كمّي ثوبها ؛ فقلت :
– لقد رأيتكما في الواقع تصعدان نحو « الترينيتيه ديمون » . ولكن هذا

الممثل ، ألا يسكن في شارع سيستينا ؟

– لا ، بل في ضاحية باريولي ، شارع ارخميدس .

– وبعد القهوة ، ماذا فعلتما ؟

– تنزّهنا في ممرات قصور بورغيز،حتى الساعة التي تركته فيها لأجيء إلى هنا .

ولاحظت اني كنت انظر اليها في رغبة ، فأدركت اني كنت اشتهيها لا لأنها كانت عارية ، بل لأنها كانت تكذب عليّ . ويظهر انها لاحظت نظرتي فأضافت ببساطة :

– وإذن ، هل تريد ان نقوم بفعل الحب ؟

وثار غضبي فجأة إذ فكرت بأنها انما كانت تعرض عليّ القيام بفعل الحب لتخفي عني انها كانت تكذب عليّ . لقد كنت متأكداً أنّ عاشقاً فقط كان يستطيع ان يضمّ ذراع امرأة على النحو الذي رأيت لوسيانو يضمّ به ذراعها . ولكني تحاشيت هذه المرة ايضاً ان اذكر اسم الممثل ، فقلت هادراً :

– كلا ، لا اريد ان اقوم بفعل الحب ، بل اريد ان اعرف الحقيقة .

– ولكن ، اية حقيقة ؟

– الحقيقة مهما كانت .

– انني لم افهم قصدك .

– بالأمس لم تأتي إلى موعدنا ، حتى من غير ان تخبريني انك لن تستطيعي المجيء . واليوم تريدين ان تخففي زياراتك . اريد ان اعرف الحقيقة ، اريد ان اعرف ما وراء هذا كله ؟

– لقد قلت لك السبب ، ان اهلي غير راضين .

وأحسست من جديد انه كان على رأس لساني ان أقول : « هذا غير صحيح ، والحقيقة هي انك تقومين بفعل الحب مع لوسياني » ولكني فهمت في الوقت نفسه أنني لن استطيع النطق بذلك بأي ثمن . وإذن ، فقد ظللت صامتاً وقاتماً ، منخفض العينين . ثم أحسست بيدها على خدّي :

– أيغضبك كثيراً ألاّ تراني كل يوم ؟

– نعم .

– حسناً ، فليكن الأمر كما لو أني لم أقل شيئاً . سنستمرّ كما في السابق . ولكن ينبغي ان نكون اكثر تنبّهاً . فحسب الأيام سنتقابل في ساعات مختلفة . والحق اني سأتلفن لك في الصباح لأبلغك كل مرة الساعة التي نستطيع ان نتقابل فيها . فهل انت راضٍ الآن ؟

وهكذا عدلت سيسيليا ، بطريقة مفاجئة سرّية ، عن تخفيف زياراتها . وكنت مندهشاً جداً حتى اني لم أفكر بأية فكرة رديئة . كان الأمر واضحاً : إن سيسيليا بالرغم من تجاربها المبكّرة ، كانت فتاة صغيرة تخاف ذويها ، وقد أوحى لها هذا الخوف بأن تقلّل مقابلاتنا ، ولكن إزاء حزني وشكوكي ، غيّرت قرارها من جديد لترضيني . وعلى هذا ، فانها لم تكن تخدعني ، ولم تكن تكذب عليّ ، انها لم تكن إلا فتاة بسيطة وبلا أسرار ، متوزّعة بين خوفها من ذويها وتعلّقها بعشيقها.

وبدا لي مستغرباً ألاّ اكون قد فكرت بهذا قبل ذلك ، وسرعان ما اصبحت الطريقة التي اخذ فيها الممثل بذراع سيسيليا تفصيلاً لا اهمية له ، ربما كان يفعل ذلك مع جميع النساء ، أياً كانت علاقته بهنّ !

ودامت هذه الافكار لحظة ، ثم أدركت أمراً جديداً : انني لم اكن فحسب راضياً من كون سيسيليا قد عدلت عن تقليل زياراتها ، بل كنت أرى السأم ينبت في أفقنا ، كسحابة صغيرة قاتمة في سماء صافية .

– شكراً . ربما كان بوسعنا ، إذا أردت ، ان نلتقي اربع مرات في الاسبوع بدلاً من سبع مرات ؟

– كلا ، دعْ عنك هذا ، فسأجد حجة ما .

وكانت قد عادت إلى الكرسي الذي كانت قد وضعت عليه صدرتها ، واستأنفت نزع ملابسها . ورأيتها ترفع يديها الى سحاب تنّورتها ، الى جانب ، وتخفضه . وتساءلت آنذاك عما اذا كانت الحركات الحيّة الانيقة التي كان يُخلّفها سقوط ثيابها المتتالي ، وتعرّي جسدها التدريجي ، تبدو لي الآن وقد تأكدت من انها لم تكن تخدعني ، مضجرة ولا معقولة كما في السابق ؛ وبعد لحظة تنبّه ، كان لا بدّ

من ان أقر أنّ الأمر كان كذلك .

والواقع ان سيسيليا التي كانت تبدو لي مشتهاة جداً ما دمت أتهمها بالخيانة ، قد أصبحت الآن ، كما لو ان معجزة عكسية قد حدثت ، اي معجزة تجرّد الواقع من شيء سحري ، بدلاً من أن تزوّده به – أقول أصبحت الآن وقد تأكدت من العكس ، شيئاً تافهاً ، ربما يكون حاضراً لإدراك حواسّي ادراكاً سطحياً ، ولكنه لم يكن بسبب ذلك واقعياً حقاً .

وفكرت بأنها كانت « هنا برّمتها » ، في هذه الحركة التي تخفض السحّاب ،من غير قرينة استقلال ذاتي او أسرار ، كانت هنا برّمتها ، وبالتالي غير موجودة . انها ممتلكة ً سلفاً ، حتى قبل ان تأتي العلاقة الجنسية فتعطي هذا الامتلاك المعنوي توكيداً إضافياً ؛ إنها ممتلكة ، وبالتالي مضجرة .

واذكر اني انا ايضاً ، فيما انا غارق في هـــذه الافكار ، كنت أخلـع ثيابي بدوري . ولم أتمالك من إلقاء نظرة على عضوي ، وانا أخشى تقريباً ان يكون في حالة انتصاب ، كما كان بوسعي ان أخشى اذا حكمت على الامر بناء على أفكاري . ولكنه كان كذلك ؛ وأبداً لم أعجب ، كما عجبت في تلك اللحظة ، بقوة الطبيعة التي كانت اذا صح التعبير تجعلني أشتهي من غير شهوة حقيقية . وكنت الآن عارياً. وتمددت على الأريكة ، على نحو ما يتمدد مريض على سرير طبيب ، يأخذني الشعور نفسه بأني أخضع نفسي لتجربة مزعجة ، وهي على اي حال ، بعيدة ٌ عن الحب .

واذ ذاك حدث أمرٌ غير متوقع . فبعد أن فرغت سيسيليا من نزع ثيابهـا ، اتجهت كعادتها ، على رؤوس أصابعهـــا ، فأسدلت ستائر النافذة ، وبحركة تشبه حركة مَنْ تحرر من كل شيء وعدا نحو البحر ليرتمي فيه ، ركضت نحو الأريكة واستلقت عليّ ، بثقـــل وعنف ، وهي تطلق صرخة نصر ثاقبة . ثم قعدت عليّ منفرجـة الساقين ، وكنت مستلقياً على ظهري ، وضغطت بكلتا يديها على كتفيّ وصاحت :

– قل الحقيقة ؛ اعترف بأنك منـــذ لحظة ، ظننت اني كنت أخونك مع لوسياني ؟

ونظرت الى وجهها المهتاج ، المحمّر من النشوة بين شعرها الخفيف المتاوج الذي لم يبْد لي قط من قبل كما بدا لي آنذاك ممتلئاً بالحياة ، وفجأة تيقنت من عكس ما كنت قد فكرت به حتى ذلك الحين . نعم ، كانت سيسيليا قد كذبت عليّ ، نعم ، كانت سيسيليا قد خانتني مع الممثل : ودليل ذلك ، إن كان هناك من دليل ، كان صوتها المنتصر ، الذي كان يشبه في سذاجته التي لا تُقاوم صوت صبي مزح مع رفيق له مزاحاً ناجحاً ، فصاح به : « قل الحقيقة ، لقد وقعت حقاً في الشرك !»

وفي الوقت نفسه ، رأيتها من جديد أكثر حقيقةً وواقعاً من أي وقت مضى ، وبالتالي ، مشتهاةً بصدرها ذلك الأسمر الريّان المعلّق بنصفها الأعلى الهزيل الأبيض المراهق ، وقامتها الدقيقة وخاصرتيها القويتين الصلبتين ؛ وكنت أفكر بأنها إذا كانت تبدو لي حقيقةً ومشتهاة ، فلأنها إنما كانت تفلت مني بالكذب والخيانة .

ولدى هذه الفكرة ، غمرني غضبٌ متململ وحقود ، فأخذتها من شعرها بقوةٍ شديدة ، حتى اني سمعتها تئنّ ، وقلبتها ثم ارتميت عليها .

والامتلاك الجسدي لم يكن في العادة إلا تكرار امتلاك ذهني سابق ، أي انه كان يؤكد السأم الذي كان يرد لي سيسيليا وهمية ولامعقولة ، ولكني في هذه المرة أحسست مباشرة بأن الامتلاك كان يبدو وهو يؤكد على العكس ، عجزي عن امتلاكها حقيقة ؛ لقد حاولت طويلاً ان أقسو معها ، وأضمّها وأشدها ، وأعضّها وألج فيها ، ولكني لم اكن امتلك سيسيليا ، فقد كانت في مكان آخر ، من يدري أين ؟ وانتهى بي الأمر إلى ان سقطت واهن القوى، ولكني ظللت ممتلكاً بالغضب ، خارجاً منها كما أخرج من جرح لا فائدة منه ، وخيّل إليّ ان سيسيليا وهي متمدّدة إلى جانبي ، مغمضة العينين ، كأن على وجهها هيئة ساخرة ، حتى في التعبير المطمئن الذي يتبع ارضاء الشهوة الجسدية . وفكرت بأنها نفس هيئة تلك الحقيقة التي كانت تهرب مني وتتلاشى في اللحظة نفسها التي كنت أتوهّم فيها انني اصبحت سيدها ومالكها .

وتفرّست فيها مليّاً . ولا بدّ أنها أحست بنظرتي ، فانها قد فتحت عينيها

ونظرت إليّ بدورها ، ثم قالت :

ـ لقد كان ذلك جميلاً جداً اليوم ، لو تعرف !

ـ أليس هو دائماً جميلاً هكذا ، وبالطريقة نفسها ؟

ـ أوه ! كلا ، بل هو دائماً مختلف . هناك أيام يكون فيها أقلّ جمالاً ، أما اليوم فهو جميل جداً .

ـ ولماذا ؟

ـ هذه أمورٌ لا تُشرح . ولكن المرأة تشعر حين يكون ذلك جيداً جداً أو لا يكون كذلك . أتعرف كم مرة حصلت على المتعة ؟

ـ كم مرة ؟

فرفعت ثلاثة أصابع من يدها وقالت :

ـ ثلاث !

ثم أغمضت عينيها من جديد وهي تلتصق بي التصاقاً خفيفاً ، وفي هذه الحركة برز مرة أخرى على وجهها ذي الجفون المسبلة ، التعبير الساخر الذي سبق ان لمحته .

وفكرت أنه كان ممكناً إذن ان أكون قد امتلكتها حقاً ، امتلكتها بعمق ، من غير أدنى تقييد في الاستقلال الذاتي أو السرّية . ولكني لم أكن أستطيع أن أعي ذلك ، ولا أن أتمتّع به بالتالي ؛ وكان يخيّل إلي انّ الذي يُمتلك وحده هو الذي يمكن ان يعي الامتلاك ، لا الذي يَمتلك . ومن جديد عاودني أقوى من أي وقت آخر شعور العجز عن الامتلاك ، بالرغم من اكتمال العلاقة الجسدية . وكنت أودّ ان أسأل : « أكان أجمل معي أم مع لوسياني ؟ » ولكني أحسستني مرة أخرى عاجزاً عن النطق باسم الممثل .

وعلى العكس ، سألتها حتى من غير ان أعرف السبب :

ـ أصحيح أن باليستياري قد مات بين ذراعيك ، بينما كنتما تقومان بفعل الحب ؟

فرأيتها ووجهها يتقلّص خفية ، من غير ان تفتح عينيها ، كما لو أنّ ذبابةً لامسته في طيرانها ، ثم تمتمت :

ـ لماذا تريد ان تعرف ذلك ؟

واحتفظت بعينيها مسبلتين ، فكنت أشعر كأني أسأل مربوبصة، ثم أجابت:

ـ ليس تماماً ؛ لقد شعر بانزعاج بينما كنا نقوم بفعل الحب ، ولكنه مات فيما بعد وكنّا قد فرغنا من ذلك .

ـ أنت لا تقولين الحقيقة .

ـ ولماذا تريدني ألاّ أقولها ؟ لقد أصابني خوفٌ شديد ! فقد ظننته حقاً قد مات ، ولكنه ما لبث ان انتعش ، لحسن الحظّ ، فتمكنت من ان أوصله إلى سريره .

ـ إنكما إذن لم تكونا آنذاك على السرير ؟

ـ لا .

ـ وأين كنتما ؟

ـ ما أشدّ فضولك !

ـ أين كنتما ؟

ـ على الدرج .

ـ على الدرج ؟

ـ نعم ، كانت به رغبة للقيام بفعل الحب في كل لحظة ، إذا صحّ التعبير . وكنا قد قمنا به مرةً أولى في غرفته الصغيرة ، بالطابق الثاني ، وكنا هابطيْن إلى المرسم لأنه كان يريد ان يرسم . وكنت أتقدّمه في الهبوط ، وفجأة أخذته الرغبة للقيام بفعل الحب ، ففعله ، هناك على الدرج . ولكن تصوّر ...

ـ ماذا ؟

ـ بعد ان شعر بانزعاج ، وبعد ان ساعدته في الصعود ثانية إلى غرفته والتمدّد على سريره ، ظلّ لحظة مغمض العينين ، جامداً ، ثم أخذ يستعيد رويداً رويداً قواه، فتصوّر انه كان يريد ان يقوم بفعل الحب مرة ثالثة . ولكني أنا التي لم أرد. كان وجهه قد أصبح وجه ميت ، وكان يثير خوفي . وقد عدل عن ذلك ، على مضض ، وبعد ان غضب . وأنا أفكر أحياناً بانه قد مات لأنه قد غضب .

وفكرت ان باليستياري إذن قد أراد حقاً ان يقتل نفسه ؛ وكان يخيل إليّ اني أراهما هذين الكائنين اللذين كانا ينفصلان في أجمل لحظات الحب ؛ وأتمثّل الرسام العجوز متشبثاً بكلتا يديه بالدوبزين ، وهو يتحامل بمشقة ، درجة بعد درجة ، حتى يبلغ الرواق ، ويتّجه فيرتمي على سريره ، ثم أتمثّل ذلك النوع من الجثّة تجلس فجأة وتمدّ ذراعيها نحو سيسيليا .

سألت إذ ذاك ، وأنا أتبع مجرى أفكاري :

– قولي ، أكنت تخونينه ، باليستياري ؟

فرأيتها تكشّر تكشيرة انزعاج ، كما لو ان ذبابة كانت تضايقها ؛ لقد فهمت اني في الحقيقة إنما سألتها :

– هل تخونينني ؟

والواقع انها بدت هي أيضاً تدرك المغزى الحقيقي لسؤالي ، لأنها اكتفت بأن تمتمت :

– هأنت ذا تعود !

فألححت :

– قولي لي ، أرجوك ، هل كنت تخونينه ؟

فأجابت أخيراً :

– لماذا تريد ان تعرف ذلك ؟ نعم ، كنت أخونه بين وقت وآخر ، فقد كان مُضجراً جداً .

– ماذا تقصدين ؟

– مضجر .

وهكذا كانت سيسيليا تخونني ، وهي إنما كانت تخونني لأنني كنت مضجراً ، يعني بكل دقّة غير موجود ، كما كانت بالنسبة لي . ولكن كان بيننا هذا الفرق : هو اني كنت أعرف ما كان السأم ، لأنني عانيت منه كل حياتي ؛ اما بالنسبة اليها ، فإن السأم لم يكن إلاّ دفعاً غامضاً لتحويل حركة خاصرتيها المثيرة والتي لا تقاوم إلى مكان آخر .

ونظرت اليها من جديد : كانت متمدّدة على ظهرها ، منفرجة الساقين ، كما خلـّفتها الضمّة الأخيرة ، بلاحشمة ، ولكنها في الظاهر واثقة من اني كنت أعتبر استسلامها كدلالة على الطبيعة والصميمية . وإذ كنت أتأملها لم يمتنع عليّ هذا الوهم الرجاليّ الذي يرى في الامتلاك المادي الامتلاك الحقيقي الوحيد .

وفكرت : أجل ، كانت سيسيليا تفلت مني ، كانت تهرب مني ، ولكن من يدري ، إذا أخذتها من جديد ، فربما نجحت هذه المرة في إزالة ذلك الشعور بأني لم أمتلكها ، وفي امتلاكها حقاً ، ونهائياً ، ونهضت ، وانحنيت عليها ، فلامست شفتيها بقبلة . ومن غير ان تفتح عينيها همست :

– أعتقد انه قد آن الأوان لأمضي .

– انتظري .

وعلى هذه الصورة أخذتها مرةً أخرى من غير ان تفتح عينيها بالرغم من ان جسدها قد أفهمني بأنه كان يتلقـّى الاعتناق ويسهّله بنهمه المألوف ؛ وكان لا بدّ من دليل أخير بكونها غائبة في مكان آخر ، وأنّ ما كنت أستولي عليه لم تكن له أية قيمة في نظرها ، وبالتالي في نظري . ولكن سيسيليا فتحت عينيها هذه المرة ، بعد عملية الحب مباشرة ، وصرّحت :

– الآن ، يجب حقاً ان أذهب .

ونهضت فركضت إلى غرفة الحمام واختفت . وإذ بقيت وحدي ، سقطت في نوع من التفكير الفارغ . كنت أفكـّر ، بالمعنى الذي يعطى حرفياً لهذه الكلمة ، أي انني تأملت نفسي ، في مرآة ضميري المعتمة ، وأنا متمدّد عارٍ ، جامد ، فوق الأريكة في المرسم ، مع المسند واللوحة البيضاء بالقرب من النافذة وجميع الأشياء التي كانت الغرفة تضمّها . ثم تسلـّلت فكرة معيّنة في هذا العالم المتجرّد الميت : هي ان سيسيليا قد ظلـّت بعد اعتناقنا الثاني ، أشدّ فراراً وهروباً من أي وقت مضى ، فكانت إذن حقيقيةً ، بحيث اني لو حدثت معجزة في الطبيعة ، واستطعت ان آخذها لا مرتين متتاليتين فقط ، بل مئة مرة متتالية ، فسوف أجدني آخر الأمر على مثل ما كنت عليه من عدم الرضى .

وبالاجمال كنت أقلّ امتلاكاً لها بمقدار ما كنت أكثر أخذاً لهـــا ، لأنني كنت إذ آخذها أفرّط بالطاقة التي كان يمكنني أن احتاج اليها لأمتلكها حقـاً ، بطريقة لم أكن أتوصّل إلى تصوّرها ، لهذه الفترة على الاقل .

وفي تلك اللحظة ، سمعت سيسيليا تفتح باب غرفة الحمام ؛ فتحاملت إذ ذاك على مرفقيّ ، وقلت لها :

– انظري في الخزانة ، فان لك فيها هدية .

فصاحت :

– لي أنا ؟

من غير أن تنمّ لهجتها عن دهشة أو حتى عن سرور ؛ ثم لا بد ان تكون قد فتحت الخزانة ، فتناولت محفظة اليد ، وأخرجتها من الورقة التي كانت تغلـّفهـا ، ونظرت اليها ؛ ولكني لم أر شيئاً ، إذ كنت راقداً على ظهري ،وعيناي في السقف.

ولكن بعد لحظة ، شعرت بشفتيها تلامسان شفتي في إحدى تلك القبـــلات الجافة الطفولية ، وتمتم صوتها :

– شكراً !

وفيما بعد ، نهضت على مرفقيّ ، فإذا بسيسيليا وقد ارتدت ثيابهـا ، وكانت واقفة أمام الطاولة ، تنقل حاجاتها الشخصية المختلفة من محفظتها القديمة إلى محفظتها الجديدة . وتركتني أتداعى مرة أخرى على ظهري .

الفصل السادس

لم تكن سيسيليا ثرثارة ، ويبدو لي أني جعلت القارىء يفهم ذلك ، بل يمكن القول ان مسلكها الطبيعي كان مسلك الصمت ؛ ولكن حتى ولو كانت تتكلم ، كانت تنجح مع ذلك في أن تكون صامتة ، بسبب ايجاز لغتها المحيّر ولاشخصيتها.

لقد كانت الكلمات في فمها تبدو وكأنها تفقد كل معنى حقيقي ، وتتحوّل إلى أصوات مجرّدة ، كما لو انها كانت كلمات لغة أجنبية أجهلها . وقد كان انعدام اية لهجة او لكنة يمكن ان تدلاّ على طبقتها الاجتماعية ، وانعدام اية امور مشتركة ذات دلالة ، وقصر محادثتنا على مجرد تقرير وقائع لا تحتمل النقاش ، من مثل « الجو حارّ اليوم » ، إن ذلك كله كان يؤكّد هذا الانطباع بالتجريد .

كنت أسألها عمّا فعلته مساء أمس ، فكانت تجيبني :

– لقد ذهبت أتناول العشاء في البيت ، ثم خرجت مع ماما فقصدنا الى السينما.

وقد حدث ان لاحظت على التوّ أن كلمات « البيت » و « العشاء » و « ماما » و « السينما » التي كانت تعني ، لو نطق بهـا فمٌ آخر ، ما تعنيه عادةً ، وكانت بالتالي جديرة بان تُفهمني ، وفق الطريقة التي نُطقتْ بها ، اذا كانت تكذب عليّ او تقول لي الحقيقة – إن هذه الكلمات لم تكن في فم سيسيليا تبدو شيئاً آخر غير أصوات مجرّدة ، كان من المستحيل ان نتصوّر خلفها واقع الحقيقة او واقع الكذب . ومن جهة أخرى ، تساءلت كثيراً كيف كانت سيسيليا تستطيع ان

تتكلم ، فيما هي تُشعر بأنها صامتة . وقد انتهيت الى انها لم يكن لديها الا طريقة واحدة للتعبير ، هي الطريقة الجنسية ، التي كانت مع ذلك تستعصي على الادراك ، بالرغم من انها مبتكرة وقادرة ؛ ولئن كان فمها لا يقول شيئاً ، حتى ولا الاشياء المتعلقة بالجنس ، فلأن الفم لديها كان ، اذا صح التعبير ، فوهة لا عمق لها ولا صوت ، ولا تتّصل بشيء في الداخل . حتى اني غالباً ، إذ كنت أراها متمدّدة ، منفرجة الساقين ، لم اكن أستطيع الامتناع عن مقارنة شقّ فمها الأفقي بشق الفرج العمودي ، وان ألاحظ في اندهاش بأن الشقّ الثاني كان اكثر تعبيرية من الاول ، بتلك الطريقة السيكولوجية التي تختصّ بملامح الوجه التي تكسف عن شخصية الانسان .

ومن جهة أخرى ، كان عليّ أن أعرف مع ذلك ما كان يختبيء وراء عبارة من مثل « لقد ذهبت أتعشى في البيت ثم خرجت مع امي وقصدنا السينما » ، اذا كانت هذه الكلمات بالجملة تتعلّق حقاً بعشاء وبيت وام وسينما ، ام انها كانت تخفي موعداً مع الممثل ذي الشعر المؤكسد .

وفجأة أخذتني رغبة مجنونة في أن أعرف سيسيليا معرفة أعمق ، بينما لم اكن قد اهتممت حتى ذلك الحين بان اعرف اي شيء عنها ، متوهّماً انني أمتلكها بالعلاقة الغرامية وانني بالتالي أعرف كل شيء عنها . مثلاً : اسرتها . فان سيسيليا كانت قد قالت لي، بإيجازها المألوف ، انها كانت فتاة وحيدة ، وانها كانت تعيش مع أبيها وامها اللذين لم يكونا يملكان المال الكثير ، لأن أباها كان مريضاً ، ولم يكن يعمل بعد . كنت قد اكتفيت بهذه المعلومات ، وكدت اعترف بالجميل لسيسيليا ألا تقول لي أكثر من ذلك ، لأن ما كان يهمني خصوصاً هو ان تأتي كل يوم الى المرسم لنقوم بفعل الحب .

ولكن ابتداء من اللحظة التي أصبحت أشكّ فيها بأنها تخونني ، فاذا بهذا الشك يحوّلها فجأة من الفتاة الوهمية المضجرة التي كانتها، إلى الفتاة الحقيقية المشتهاة، أخذني الفضول بأن أعرف المزيد عن حياتها العائلية ، كما لو اني كنت اؤمّل بواسطة معرفة معمّقة ان أبلغ هذا الامتلاك الذي كانت العلاقة الغرامية تمنعه علي.

وإذن فقد أخذت أسألها وأستجوبها ، كما فعلت بصدد علاقاتها مع باليستياري . وهذا نموذج من حديثنا :

– هل أبوك مريض ؟

– نعم .

– وممَّ يشكو ؟

– من سرطان .

– وماذا يقول الأطباء ؟

– يقولون انه مصاب بالسرطان .

– لا ، أقصد : هل يظنون انه يمكن ان يشفى ؟

– كلا ، يقولون انه لا يمكن ان يشفى .

– إنه إذن سيموت عما قريب .

– نعم ، يقولون انه سيموت عما قريب .

– وهل تتألمين لذلك ؟

– ماذا ؟

– ان يموت أبوك ؟

– نعم .

– وتقولين الأمر هكذا ؟

– وكيف تريدني ان أقوله ؟

– ولكنك تحبين أباك ؟

– نعم .

– حسناً ... لنتابع : كيف هي أمك ؟

– ماذا تقصد ؟

– أقصد هل هي قصيرة أم طويلة ، جميلة أم قبيحة ، سمراء أم شقراء ؟

– هي بين بين ، امرأة ككثير من النساء .

– ولكن أيّ مظهر لها ؟

– آه ، ليس لها أي مظهر ..
– ليس لها أي مظهر ؟ ولكن ماذا تقولين ؟
– أقصد ليس لها اي مظهر خاص . إنها كجميع الأخريات .
– هل تحبين أمك كثيراً ؟
– نعم .
– أكثر ام اقل من ابيك ؟
– بطريقة مختلفة .
– ماذا تعنين بكلمة : مختلفة ؟
– مختلفة تعني : مختلفة .
– حسناً .. وامك ، هل تحب أباك ؟
– أظن ان نعم .
– لماذا ؟ ألست متأكدة من ذلك ؟
– انهما متفقان ، فأنا أتصوّر انهما يتبادلان الحب .
– ماذا يفعل ابوك طوال النهار ؟
– لا شيء .
– ما معنى لا شيء ؟
– لا شيء ، يعني لا شيء .
– ولكن من يقول إنه لا يفعل شيئاً ، فهذه طريقة في التعبير ، لأن المرء في الواقع يفعل أشياء كثيرة ، حتى ولو لم يفعل شيئاً . إن اباك لا يشتغل ، ولكن ماذا يفعل بدلاً من ذلك ؟
– لا يفعل شيئاً .
– يعني ؟
– الواقع اني لا ادري : فهو في البيت يبقى جالساً قرب الراديو،على كرسي. وكل يوم يقوم بنزهة صغيرة ، هذا كل شيء .
– فهمت ... أتسكنون شقّة في « براتي » ؟

ـ نعم .
ـ كم غرفة فيها ؟
ـ لا ادري .
ـ كيف ، لا تدرين ؟
ـ انني لم أعدّها قط .
ـ ولكن هل هي شقة صغيرة ام كبيرة ؟
ـ بين بين .
ـ يعني ؟
ـ متوسطة .
ـ صفيها لي .
ـ إنها شقة ككثير من الشقق ، وليس فيها ما يوصف .
ـ ولكنها ليست فارغة ، هذه الشقة ؟ إن فيها أثاثاً ، أليس كذلك ؟
ـ نعم ، فيها الأثاث المألوف ، سرر ، كراسي ، خزائن ...
ـ اي نوع من الأثاث ؟
ـ اوه ، لا أستطيع ان أصفه ، أثاث كباقي الأثاث .
ـ لنأخذ غرفة الاستقبال مثلاً ، هل لديكم غرفة استقبال ؟
ـ نعم .
ـ وكيف هي مؤثثة ؟
ـ بالأثاث العادي : كراسي ، طاولات صغيرة ، ارائك ، كما في جميع غرف الاستقبال
ـ ومن اي طراز هو هذا الأثاث ؟
ـ لا أدري .
ـ ولكن ما هو لونه على الاقل ؟
ـ لا لون له .
ـ كيف لا لون له ؟ ماذا تقصدين ؟

– أقصد انه لا لون له : فهو مذهّب .
– فهمت . ولكن الذهب هو ايضاً لون . وهل تحبين بيتكم ؟
– لا أدري ان كنت أحبه . والحق اني لا أمكث فيه كثيراً .

وبوسعي ان أمضي إلى ما لا نهاية ، على هذا النحو . ولكن يبـــدو لي اني أعطيت مثالاً طيباً لما سميته تجريد سيسيليا . وربما فكـّر البعض ، في هذا الصدد ، بان سيسيليا كانت بليدة ، وعلى كل حال ، بلا ادنى شخصية . ولكن الواقع لم يكن كذلك : والدليل على انها لم تكن بليدة ، كوني لم أسمعها قط تنطق بأشياء بليدة ؛ واما شخصيتها ، فقد كانت تكمن في مكان آخر ، غير كلماتها، بحيث ان نقل هذه الكلمات، من غير إرفاقها في الوقت نفسه بوصف وجه سيسيليا وجسدها، يشبه قليلاً قراءة كرّاس اوبرا بلا موسيقى او فيلم من غـــير صور على الشاشة . ولكني أردت ان أنقل مثالاً للمحادثة لكي يدرك المرء جيداً بأن لغة سيسيليا إذا كانت موجزة وشاحبة ، فلأن سيسيليا نفسها كانت تجهل الأمور التي كنت أسألها عنها ، كانت تجهلها مثلي وأكثر مني . لقد كانت بالتأكيد تعيش مع أبيها وأمها ، في شقـّة ببراتي ، وقد سبق ان كانت عشيقة باليستياري ؛ ولكنها لم يحدث لها قط ان وقفت تنظر إلى أشخاص حياتها واشيائها ، ومن أجل هذا لم تَرَها قط ، ولم تراقبها على الاطلاق . وبالاجمال كانت غريبة عن نفسها وعن العـالم الذي كانت تعيش فيه ، لا أكثر ولا أقل ممن كانوا لا يعرفونها ولا يعرفون عالمها .

وعلى أي حال ، فان الشك الذي كان ينتابني بصدد خيانة سيسيليا بـدأ يجعلها سرّية لديّ وممتنعة على الادراك ، وبالتالي حقيقية ، وانتهى بان يوحي لي بالرغبة في التحقـّق من هذه المزاعم ، حتى ولو لم تكن الغاية الا إلغاء هـــذا الجزء من السر الخفيّ الذي كان خارج العلاقة الغرامية .

وهذا ما حدا بي يوما الى ان أطلب منها ان تعرّفني على أسرتها . لقد لاحظت في بعض الدهشة أن الطلب لم يكن ليربكها قط ، بالرغم من « الاحتجاجات » التي كانت قد قدّمتها لتبرّر نيّتها من تقليل لقاءاتنا . وقد قالت :
– لقد فكرت انا نفسي بالأمر : إن الماما تحدثني دائماً عنك .

– وهل قدمت باليستياري لعائلتك ، في حينه ؟
– نعم .
– هل عرف ذووك يوماً انك كنت عشيقة باليستياري ؟
– لا .
– ولو عرفوا ، ما عساهم كانوا يصنعون ؟
– أتساءل عن ذلك . . .
– وهل كان باليستياري يزوركم كثيراً في البيت ؟
– نعم .
– وماذا كان يفعل عندكم ؟
– لا شيء . كان يأتي لتناول الغداء ، أو تناول القهوة ، ثم كنا نذهب معاً الى مرسمه .
– وهل حصل ان قمتما ، انت وباليستياري ، بفعل الحب يوماً في بيتكم ؟
– كانت لديه دائماً رغبة في ذلك ، ولكني انا لم اكن اريد ، لأني كنت أخشى ان يفهم أهلي هذا .
– ولكن لِمَ كان راغباً ان يقوم بذلك ، في بيتكم بالذات ؟
– لا أدري ، كان ذلك يروق له .
– ولكن هل قمتما بالفعل ، ام لا ؟
– نعم ، ، قمنا به أحياناً .
– أين ؟
– لست لأذكر بعد . . .
– حاولي ان تتذكري .
– آه ! نعم . قمنا به مرة في المطبخ .
– في المطبخ ؟
– نعم ، كانت امي قد خرجت لتشتري شيئاً ، وكان عليّ ان أبقى لأراقب الفرن .

– ولكن اما كان بوسعكما ان تذهبا الى غرفتك ، ما دام لم يكن هناك من احد في البيت ؟

– حين كانت الرغبة تأخذ باليستياري بالقيام بفعل الحب ، كان يفعله حيث ُوجد . كان يحب ان يفعله في الاماكن غير العادية .

– لماذا ؟

– لا أدري .

– ولكن كيف كنتما تقومان بفعل الحب في المطبخ ؟

– وقوفاً .

وإذن ، فقد نقلت إليّ سيسيليا ذات يوم دعوةً من ذويها لتناول الغداء . وقد ابدلت ذلك اليوم صدرتي وبنطلوني المخملي ببذلة كاملة غامقة اللون ، وقميص أبيض وربطة عنق رصينة ، تناسب الاستاذ الذي كان عليّ أن أتقمّصه ؛ وحوالى الساعة الواحدة سرت باتجاه بيت سيسيليا ، الى شارع في براتي .

والحق اني كنت أستشعر فضولاً عميقاً وما يشبه الاضطراب لتوجّهي الى بيتها ، لأن كل اكتشاف كنت أقوم به او احسبني أقوم به فيما يخص سيسيليا ، كان يصبح على الفور حدثاً شهوانياً ، كما لو اني إذ اكتشف مظاهر حياتها التي كنت أجهلها ، انما أكتشفها هى نفسها ، مادياً ، كما لو اني عرّيتها .

ولم ألقَ كبير مشقة في العثور على الشارع . وهو شارع هادىء رتيب ، مستقيم ، يكتنفه شجر الدلب العاري ، وعند الطوابق الأرضية من البنايات الصفر والرمادية كانت تصطف بعض الحوانيت . وكان باب بيت سيسيليا يفضي إلى ساحة واسعة ، كان بعض النخيل المغروس فيها وسط مجموعات شجر مقلّم يرفع قممه المصفرّة حتى حبال الغسيل المنشور في الطوابق الأخيرة . وكان ثمة بضعة سلالم مطبوعة بأحرف تبدأ من حرف A وتنتهي بحرف F ؛ وكان السلم الذي يؤدي إلى بيت سيسيليا هو السلّم E . وكانت لوحة تحمل عبارة « واقف بسبب التصليح » تتدلى من حاجز المصعد القديم ؛ وهكذا رقيت على القدمين عدة درجات ، وانتقلت من سطيحة إلى سطيحة ، في نور شاحب وبارد ، وأنا أتفحّص لدى كل طابق لوحات

الأبواب . الشقة ١و٢و٣، الشقة ٤و٥و٦، الشقة ٧و٨و٩، الشقة ١٠و١١و١٢ . وهكذا كنت أفكر ، وأنا أبلغ الطابق الخامس ، بالشقة ١٣ ؛ وإذ ضغطت على زر الجرس ، قلت هذا هو إذن السلم الذي تصعده سيسيليا وتهبطه كل يوم إذ تقصد مرسمي وتعود منه، فما عساني كنت سأعرف من هذا السلّم لو طلبت من سيسيليا ان تصفه لي ؟ لا شيء على الاطلاق ! كانت ستجيبني بتكرارها المعهود إن السلّم كان سلّماً ، وينتهي كل شيء . ومع ذلك ، فقد كانت تخلّف عند هذا السلّم جزءاً من حياتها ؛ وذلك النور الرمادي ، وتلك الدرجات المرمرية البيض ، وهذه المربعات الحمر لدى السطيحات ، كان ينبغي ان تظل في ذاكرتها كما تظل لدى آخرين أكثر حظاً المناظر الضاحكة التي قضوا فيها طفولتهم وحداثتهم .

وعبر هذه الأفكار سمعت ، خلف الباب ، خطوة خفيفة وإن كانت تُصدي صدى قوياً على بلاط متوجرج . وفُتح الباب ، فبدت سيسيليا على عتبته .

وكانت ترتدي ، على عادتها ، كنزتها الخضراء الزغبة التي كانت تنحدر إلى ما تحت خاصرتها والتي كانت لدى صدرها العاري تكشف عن مولد النهدين ؛ وتحت تنورتها السوداء ، القصيرة والضيقة ، كان بطنها ينطبع في ثنيات عميقة ومشتركة المركز .

وإذ كنت أحيّيها ، اطلّت خارج الباب ، فعجبت ، لأني حسبت انها كانت تريد ان تقبلني ، وهذا ما لم تكن جديرةً به ، في هذا المكان وهذه اللحظة . ولكنها على العكس ، قالت لي بصوت منخفض :

– تذكّر أن اليوم هو يوم درس ، واننا بعد الغداء ، سنخرج معاً لنقصد المرسم .

فلم أدرِ لماذا جعلني هذا الطلب الغريب مرتاباً؛وتساءلت عما إذا كانت سيسيليا تريد ان تستغلّني وتستغلّ موعداً لتخفي موعداً آخر .

وكانت غرفة المدخل مؤثثة على طراز بعض النُزُل العائلية في المحطات الحمّامية : مقاعد وطاولة من الخيزران ، نبتةٌ في زاوية ، وفي الزاوية الأخرى تمثال من الجصّ لامرأة عارية . ولكن الكراسي والطاولة كانت تبدو قديمة

ومتفسّخة ، وكان التمثال مرمداً من الغبار في أماكن الثقوب ، وكان ، بالاضافة إلى ذلك ، تنقصه يد . واما النبتة ، وهي من جنس الصبّار ، فلم يكن باقياً منها إلا عرقان في نهاية غصن طويل . وقد لاحظت ايضاً أن الجدران البيضاء كانت تغطّيها أثارة من غبار ، غبار قديم لزج كان يُبدو في زوايا السقف وهو يثقل في بعض خيوط سميكة ومسوّدة من خيوط العنكبوت . وخطر لي انّ أية فتاة كان لا بد ان تشعر بالخجل من مثل هذا البيت ، على صواب او خطأ ، في اللحظة التي تُدخل اليه عشيقها . أية فتاة ، ولكن ليس سيسيليا .

وكانت تتقدمني داخل ممرّ طويل فارغ ، ثم فتحت باباً ، وأومأت لي ان أتبعها.

ورأيت حجرة كبيرة مستطيلة ، ذات أربع نوافذ تغطّيها ستائر صفر مصطفة على الجدار نفسه . وكانت الحجرة مفصولة الى قسمين بواسطة درجة تعلوها فتحة واسعة بشكل قوس . وكان القسم الأكبر هو الصالون الذي كان يقوم فيه ذلك الأثاث الذي وصفته لي يوماً سيسيليا على أنه بلا لون ، اي مذهّب . والواقع أنه كان أثاثاً من طراز لويس الخامس عشر ، مقلداً عن الاثاث القديم ، وقد كان شائعاً منذ اربعين سنة ، وكان موضوعاً بشكل دائرة حول طاولات صغيرة مستديرة ومصابيح هزيلة ذات مظلات مزدانة باللآلي. ومن النظرة الاولى لاحظت القشور البيضاء للملاط المذهّب ، وظلّ القذارة على السواعد المزدانة بالزهور ، ولطخات الرطوبة على السجاجيد الصغيرة ذوات الموضوعات الغزلية .

ولكنّ انحطاط البيت كان أقلّ ظهوراً في مظهر الأثاث المتهرّىء منه في بعض تفاصيل تكاد لا تصدّق ، لما تمّ عليه من اهمال طويل لا مبرّر له . فقد كانت رقعة كبيرة ضيّقة من السجّادة الجدارية المزدانة بباقات صغيرة وسلال ، تتدلى مثلًا وسط لوح مأطور كاشفةً تراب الجدار الخام ؛ وكان احد الستائر الصفر عند النوافذ يكشف عن تمزّق عريض غير متساوٍ وذي أطراف مقطعة إرباً ، وكان ثقب كبير اسود ينفغر عند زاوية من زوايا السقف .

لماذا كان أهل سيسيليا لا يهتمّون على الأقلّ بالصاق رقعة الورق الجدارية المدهونة ، وباصلاح الستائر ، وبترميم السقف ؟ اما بالنسبة لسيسيليا ، فقد كان

هذا إذن هو البيت الذي كان بيتاً ، وغرفة الاستقبال التي كانت غرفة استقبال ، والاثاث الذي كان أثاثاً ؟ أكان ممكناً انها تعيش في شقة فريدة الى هذا الحدّ بمظهرها البائس ، من غير أن تكون واعية لها حقاً ؟

كنت أفكر بهذه الامور وانا أتبع سيسيليا الى أصغر جزء من غرفة الاستقبال الذي كان مفصولاً عن الجزء الآخر بقوسٍ دائري ومجعولاً غرفة طعام ، وفيه أثاث من طراز « الرونيسانس » نفسه ، معتم وكثيف ، كنت لاحظت مثله عند باليستياري . ومن فتحة نافذة ، كانت تتسرّب في الصمت نغمات راديو موسيقية وثّابة . وربما لأن صمت البيت كان فيه شيء مثلّج ، لاحظت وانا أسمع هذه النغمات انه بالرغم من اننا كنّا في مطلع كانون الاول ، لم يكن البيت مدفأً .

وقالت سيسيليا وهي تسبقني :

– بابا ، اقدم استاذي في الرسم .

فنهض ابو سيسيليا على مشقة من الاريكة التي كان جالساً فيها ليستمع الى الراديو ، ومدّ لي يده من غير ان يتكلم ، وهو يومىء في الوقت نفسه الى حلقه ، كأنما ليوضح لي انه فاقد الصوت ، بسبب مرضه . وتذكّرت الهمس الغريب في التنفّس الذي سبق لي ان سمعته في التلفون قبل ذلك بأيام ، فأدركت انه انما كان هو الذي يجيبني ، او يجهد في إجابتي .

ونظرت إليه فيما هو يتداعى للسقوط على أريكته الجلدية القديمة ، المسودّة والمتهرّئة ، وينحني الى أمام ليخفض صوت الراديو . ولا بدّ أنه كان في السابق ما يسمّى عادة برجل جميل ، وبذلك الجمال الذي هو مع ذلك مبتذل بعض الشيء ، والمختصّ به بعض من لهم بنيات متينة . ولكن لم يكن باقياً من هذا الجمال شيء . فان المرض كان قد عكّر ذلك الوجه ، فنفخه هنا ، وجوّفه هناك ، وحمّره هنا ، وصفّره هناك .

وفكّرت بأن الموت كان قد عشّش في هذا الشعر الأسود المنبسط الذي لا حياة فيه والذي كان يبدو ملتصقاً بالجبين والصدغين بعرقٍ متّسخ ، وفي ذلك اللون البنفسجي للشفتين ولا سيما في العينين المذعورتي التعبير . وقد كانت هاتان

العينان تبدوان وكأنهما تقولان أشياء كان الفم يظلّ صامتاً عنها ، حتى ولو لم يكن فاقد الصوت . حتى ليظنّ المرء أن هناك بُكماً ليس مصدره المرض بقدر ما هو وهْنٌ معتسف ، وهنُ شخصٍ موثقٍ ومكموم الفم ومتروك وحده ، بلا دفاع ، لخطر الموت .

وطلبت سيسيليا من أبيها ان يجلس ، ودعتني كذلك أن آخذ مقعداً وأجالس أباها ، لأنه كان عليهـــا ان تذهب إلى المطبخ ، وكانت تتكلم بصوت مرتفع ، مسمّية أباها كحاجة لا روح لها ويمكن التصرف بها في يسر .

وقد جلست قبالة المريض ، فلم أدرِ مـــاذا أقول ، فجعلت أتحدث حديث اطراء وثناء على موهبة سيسيليا الفنيـة . وكان الأب يستمع إليّ وهو يدير عينين مذعورتين ، كما لو اني ، بدلاً من ان أحدّثه عن ابنته ، كنت أحدّثه عن أخطار عظيمة . وبين الفينة والفينة يتكلم ، او بالاحرى يحاول ان يتكلم بدوره ، على نحو ما فعل على التلفون يوم أجابني ، ولكنّ الاصوات التي كانت تخرج من فمه ، مهموسةً اكثر منها ملفوظة ، كانت تظلّ بالنسبة لي غير مفهومة .

وفجأة ، وبلا ادنى انزعاج ، بتلك التربية الرديئة التي يظهر بها غالباً الأصحّاء ازاء المرضى ، صرّحت بأنه كان عليّ أن اذهب فأغسل يديّ . ونهضت وخرجت من غرفة الاستقبال .

ومـــا دفعني للخروج ، كان هو ذلك الفضول نفسه الذي جعلني اطلب من سيسيليا ان تقدّمني إلى ذويها . وحين اصبحت في الرواق ، قصدت على غير تعيين اول بابٍ من الابواب الاربعة المصطفّة وفتحته . ورأيت غرفة صغيرة فقيرة فقراً مثلجاً : كان النور ، الواطىء والبارد ، يجيء من الباحة ، عبر زجاج النافذة التي كانت بلا ستائر . سرير من الحديد الملمّع الأسود مع نبتة شجرة الزيتون المقدّسة معلّقة بالقضبان ، والغطاء الاحمر يعلو الفراش الدقيق ، وكرسيان من القش الاصفر ، من كراسي المطبخ ، وخزانة صغيرة من الخشب الابيض : هذا كله أثاث الغرفة . وقد تأكدت على الفور أن هـــذه الغرفة شبه الفارغة كانت غرفة سيسيليا ، وقد حزرت ذلك من الرائحة التي كانت تطفو في الهواء ، تلك الرائحة

النسوية الحامزة بعض الشيء والوحشية التي سبق لي أن شممتها في شعرهـــا وعلى بشرتها .

وفتحت الخزانة لأكون اكثر يقينـاً ، فرأيت بالفعل ، معلّقاً على أقواس خشبية ، الملابس القليلة التي اعرفها والتي كانت تشكل كل ثيـــاب سيسيليا : تنّورة الراقصة الصغيرة التي كانت قد لبستها طوال الصيف حين تعرّفت عليهـا ، وثوب من قطعتين من الصوف الرمادي كانت ترتديه في الايام الباردة ، ومعطف صغير اسود للمساء ، وفستان أسود ، من تلك الفساتين التي توصف بأنها « لسهرات العشاء » . وعلى أحد الرفوف ، كان ثمـــة رزمة معلّقة بورق حريري ابيض : المحفظة التي أعطيتها لسيسيليا في اليوم الذي كان المفروض ان يكون يوم فراقنا .

وأغلقت الخزانة ونظرت فيما حولي ، وأنا احاول أن أحدد لنفسي الشعور الذي كانت توحيه لي هذه الغرفة ، وفهمت أخيراً : كانت غرفة عارية بائسة ذلك العري والبؤس الطبيعيين ، اللذين يكادان يكونان حيوانيين ، واللذين نلاحظهما في الصخور او الثقوب التي تسكنها الحيوانات المتوحشة . وبالاختصار ، إنه عُريٌ أجدر بالجُحر منه ببيت بائس .

وخرجت على رؤوس اصابعي وفتحت الباب المجاور . وهنـاك كان الظلام كاملاً تقريباً ، ولكني إذ لمست زوايا سرير كبير لشخصين وشممت رائحة انغلاق تختلف عن رائحة غرفة سيسيليا ، بما هي أثقل وأقلّ صحّية ، حدست بأنها غرفـة والديها . وأغلقت هذا الباب لأفتح الثالث .

وكانت تلك غرفة الحمام ، وكانت أشبه برواق طويل ضيق منها بحجرة ، وكان لها نافذة ذات مصراعين متقاربين تجاه الباب . وكان المغطس والمرحاض والمغسلة والطست مصطفّة كلها على طول الجدار . كان المغطس ذا طراز قديم ، متفسّخاً تفسّخات صدئة على المينا القديم المصفرّ ، وكانت المغسلة تكشف عن شبكة من التشققات الدقيقة السوداء ، وكان جوف المرحاض مغطّى بنوع من الزنجار الرمادي السميك ، وأخيراً كشف لي نظري الذي كان يتنقل باشمئزاز بين هذه الآلات الوسخة ، عن شيء رطب اسود وملمّع ، كان على الطرف الداخلي للمرحاض ،

ولا شك في انه قاوم الماء غير الكافي الذي كانت ترسله آلة المياه القديمة . واقتربت من المغسلة وبدأت أغسل يدي . وفيما انا افعل ذلك ، كنت أتذكر الاسئلة التي كنت قد طرحتها على سيسيليا عن بيتهم ، والأجوبة التي حصلت عليها ، الأجوبة الموجزة والتجريدية ، فتأكد لي افتراضي الاول : إن سيسيليا لم تعرف أن تقول لي شيئاً عن بيتهم ، لأنها في الواقع لم تكن قد رأته قط .

ثم فُتح الباب ودخلت سيسيليا .

– آه ... انت هنا ؟

قالتها من غير أن تبدو مندهشة ألاّ اكون في الصالون برفقة أبيها ، كما أوصتني ، ومرت خلف ظهري ، واتجهت تواً إلى المرحاض فرفعت ثوبها بكلتا يديها وجلست تبوّل . وحين رأيتها جالسة ، وساقاها منفرجتان ومطويّتان ، وصدرها مشرئب ووجهها ملتفتٌ نحوي ، وحين رأيت خصوصاً عينيها الرائعتين المعتمتين اللامعبرتين اللتين كانتا تحدّقان بي في براءة شبيهة ببراءة الحيوانات التي تقضي حاجتها جاهلةً أن إنساناً يراقبها، عادت إلى ذهني مرة اخرى فكرة الجُحر التي جاءتني وأنا أزور غرفتها .

وقلت لنفسي : نعم ، كانت تلك الشقّة تلوي القلب إذا فكر المرء بانها كانت مسكونة بالبشر ، ولكنها كانت تصبح مقبولة وطبيعية ابتداء من اللحظة التي يستطيع المرء فيها ان يتصورها مسكونة بحيوان صغير ، متوحش وظريف ، ثعلب أو سمّور أو فقم ...

وفي هذه الاثناء ، كانت سيسيليا قد فرغت من التبويل . ورأيتها تحمل فخذيها العاريتين من المرحاض إلى المغسلة ، فتقرفص وتغتسل فترة طويلة بيدٍ واحدة ثم نهضت فباعدت ما بين فخذيها وأمرّت بينهما منشفة . وقالت أخيراً وهي تخفض تنورتها :

– دعْ لي المكان لحظة ، فيجب ان أمشط شعري ثانية .

فابتعدتُ ، وتناولت هي من على الطاولة فرشاة متهرّئة ومشطاً قذراً جداً كانت تنقصه عدة أسنان ، فأخذت تسرّح شعرها في قوة . وقلت من غير تحديد :

ـ إن أباك هو مريض جداً ، وأنا أخشى أن يكون الأطباء على حق .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ ان يموت عما قريب .
ـ نعم ، أعرف ذلك .
ـ وماذا ستصنعون ؟
ـ وماذا نصنع في أي شيء ؟
ـ حين يموت .
ـ بأيّ معنى ؟
ـ ممّ ستعيشون ؟
فأجابت بسرعة وهي تمر على شفتيها إصبع حمرة :
ـ كما عشنا حتى الآن .
ـ وكيف عشتم ؟
ـ إن لنا حانوتاً . ومنه نعيش ...
ـ حانوت ؟ إنك لم تقولي ذلك قط .
ـ وأنت لم تسألني في ذلك قط .
ـ وماذا يُباع في هذا الحانوت ؟
ـ مظلات ، محافظ ، حقائب ، حاجات جلدية ...
ـ ومن يهتمّ بالحانوت ؟
ـ أمي وعمّتي .
ـ وهل يحقق دخلاً كبيراً ، هذا الحانوت ؟
وكانت قد انتهت من صبغ شفتيها فأجابتني بطريقة تختم الحديث :
ـ لا ، إن دخله قليل .
وأحطت قامتها بذراعيّ والتصقتُ بها ، ضاغطاً بطني على ظهرها ، ورأيتها ترميني بنظرة سريعة ، لم أفهم أكانت نظرة تفاهم أم اندهاش ، ثم تناولت قلماً أسود وجعلت ترتوش حاجبيها . وسألتها :

ـ ألا تفكرين بالموت قط ؟

وكنت ملتصقاً بها تماماً ، وبدأت تحرّك خاصرتيها ، بقوة ، يميناً وشمالاً :

ـ لا ، لا أفكر فيه قط .

ـ وحتى حين ترين أباك بهذا الوضع ؟

ـ نعم .

ـ إن أي إنسان في مثل وضعك لا بدّ أن يفكر فيه .

ـ إن صحتي جيدة ، فلماذا ينبغي ان أفكر بالموت ؟

ـ ولكنّ هناك الآخرين أيضاً ...

ـ هذا ما يُقال .

ـ كيف ، ألست متأكدة من ذلك ؟

ـ لا ، لقد قلت هذا كما أقول شيئاً آخر .

ـ وأبوكِ ، أتظنّين انه يفكر بالموت ؟

ـ هو ، نعم .

ـ هل يخاف ان يموت ؟

ـ جداً !

ـ إنه إذن يعلم انه سيموت ؟

ـ لا ، لا يعلم ذلك .

ـ وأنتِ ، ألا تفكرين أبداً انه بسبيل أن يموت ؟

ـ ما دام حياً ، ولو كان مريضاً ، فاني لا أفكر بموته . أفكر فقط بأنه مريض .

وفجأة ابتعدت عنها وأنا أقول :

ـ أتعلمين اني اشتهيكِ ؟

ـ لقد لاحظت ذلك .

وفرغت من رتوشة حاجبيها ، فوضعت القلم على الطاولة ودفعتني إلى الباب وهي تقول لي :

– هيّا بنا الآن ، فلا بد ان أمي قد عادت .

وبالفعل كانت قد عادت ، فاذ كنا في الممر ، أخذ صوت ثاقب غير متناسب، شبيه بصوت تلك الأجراس الصغيرة التي تدقّ عند انفتاح بعض الابواب ، يصيح:

– سيسيليا ... سيسيليا ...

واتجهت سيسيليا باتجاه هذا الصوت ، وتبعتها . وكان باب المطبخ مفتوحاً ، فرأيت الأم بمعطفها وقبعتها واقفة أمام الفرن ، وهي تُدير ملعقة في إناء . وكان للمطبخ المعتم المدخن شكل غريب مثلث ، وكان الفرن قائماً في الناحية الاكثر طولاً ، تحت القفّة ، وكانت زاوية المثلث متجهة نحو النافذة ، ضيّقة ومرتفعة ، وهي في الواقع نصف نافذة ، ثم هي محجوبة حتى العمى بغسيل منشور حتى يجف . وكان المطبخ يبدو قذراً وفي فوضى كبيرة ، وكان ذا بلاط مليء بالثقوب ، وكان سطح الطاولة الرخامية مغطـّىً بالرزم والورق القديم ، وعلى البلوعة ، بالقرب من النافذة ، كانت تقوم ركامٌ وركامٌ من الصحون القذرة ، المنضدّة بعضها فوق بعض بلا نظام .

وقالت أمّ سيسيليا من غير أن تلتفت :

– الصحون ... يجب غسل الصحون .

فأجابت سيسيليا :

– سأغسل كل شيء هذا المساء ، صحون اليوم وصحون الأمس .

فقالت الأم :

– صحون أمس الأول أيضاً ، وقد غسلت هذا الصباح صحون طعام الفطور ، أما صحون الغداء فيجب ان تغسليها أنت نفسك ، لأن عليّ أن أذهب إلى الحانوت .

– ماما ، أقدم لك دينو .

– اوه ! بروفسور ، اعذرني ، تشرّفنا ... تشرفنا ... اعذرني ، اعذرني ... تشرفنا .

وظلّ جرس هذا الصوت الأمومي يدحرج كلمتي « اعذرني » و « تشرفنا » ،

فيما كنت أصافح يد المرأة . ونظرت اليها : وكانت قصيرة ذات وجه دقيق رثّ ؛ ومع ذلك فقد كان يبدو ان شباباً صاخباً كان قـد انفجر فيه متأخّراً . وكانت العينان السوداوان البسيطتان المحاطتان بتجعّدات دقيقة تلتمعان بشيء جريء ؛ وكان لونٌ فاقـع ، لا أدري ان كان طبيعياً ام اصطناعياً ، ينعش الخدّين الطريّين ؛ وكان الفم الكبير المصبوغ بالأحمر يفترّ عن بسمة لامعة . وقد لاحظت أنهـا كانت تشبه سيسيليا ، ولا سيما بطابع جبينها الطفولي الناتيء فوق عينين متباعدتين وبشكل الوجه المستدير .

وصاحت بصوتها الأبح :

– ولكني لم أكن أعرف ان البروفسور قـد وصل . سيسيليا ، رافقي البروفسور الى الصالون ، وسوف أهتم بالمطبخ .

وفي الممر قلت لسيسيليا :

– لقد قدّمتني لأبيك على اني استاذ الرسم ، ولأمك على اني دينو . فهـل تكونين قد نسيت اسم عائلتي ؟

فأجابت بشرود :

– قد لا تصدّق ذلك، ولكني في الواقع لا أعرفه بعد. لقد عرفتك كدينو، ولم أفكر بعد ذلك قط ان أسألك عن اسم عائلتك . وبالمناسبة ، ما اسم عائلتك ؟

فقلت :

– لا أهمية ! فما دمت لا تعرفينه بعـد ، فالأفضل ان تستمري هكذا . سأقوله في مناسبة أخرى .

والحق اني شعرت فجأة بأني كنت غير قابلٍ للتسمية ، وربما لأن سيسيليا بالذات كانت تبدو وكأنها تفضّلني بلا اسم .

– كما تريد ...

ودخلنا معاً غرفة الاستقبال ، وسألت سيسيليا :

– إن امّك تشبهك كثيراً ، فكيف هو طبعها ؟

– ماذا تقصد ؟

– كيف هي ، خبيثة ام طيبة ، هادئة ام عصبية ، كريمة ام بخيلة ؟

– ولكني لا أستطيع ان اقول لك ... فانا لم أفكر بالموضوع قط . إن لها طبعاً عادياً . انها بالنسبة لي امي ، وهذا يكفيني .

فسألتها وأنا اومىء الى ابيها الجالس في أريكته ، قرب الراديو :

– وهو ؟ كيف هو طبعه ، في نظرك ؟

فلم تجبني بشيء ، تلك المرة ، واكتفت بهز كتفيها ، كما لو اني كنت أوجه لها سؤالاً محروماً من المعنى . وأخذني غيظ مفاجيء فقبضت على ذراعيها وسألتها في اذنها :

– ما هذا الثقب الاسود ، فوق ، في السقف ؟

فرفعت عينيها ونظرت الى الثقب كما لو انها كانت تراه للمرة الاولى :

– إنه ثقب ، وهو موجود هناك منذ حين .

– اه ! انك إذن ترين هذا الثقب ؟

– ولماذا تريدني ألاّ أراه ؟

– إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يحدث انك لا ترين طبع ابيك ولا طبع أمك ؟

– إن الثقب شيء يُرى . اما الطبع ، فلا يُرى . إن أبي وامي شخصان ككثير من الاشخاص . هذا كل ما في الأمر .

وكنا قد وصلنا الى مقربة من الأب الذي كان يصغي ، جامداً ، الى الراديو . وجلست على كرسي واطيء تجاهه ، وقلت له وانا أرفع صوتي :

– كيف حالك اليوم ؟

فأخذته انتفاضة في أريكته ونظر إليّ نظرة مذعورة ، ثم قال شيئاً لم أفهمه . وشرحت لي سيسيليا التي كان يبدو انها تفهم فهماً ممتازاً الهمسات الأبوية :

– يقول إنه لا حاجة للصراخ ، فليس هو بالأصمّ .

وكانت على حقّ ، فلماذا تراني قد فكّرت بأنه ما دام نصف أبكم ، فلا بدّ من أن يكون كذلك أصمّ ؟ وقلت :

– اعذرني ، كنت أسألك كيف حالك ؟

فأشار إلى النوافذ . وقال شيئاً ترجمته سيسيليا على هذا النحو :

– إن هناك ريح سموم ، وفي ايام السموم ، لا يشعر بأنه في حالة جيدة .

وسألت :

– ولماذا لا تقصد حانوتك ؟ ألا تظنّ ان ذلك يسلّيك ؟

فرأيته يقوم بحركة نفي متواضع ، ثم يجيب بطريقته وهو يشير إلى حلقه ووجهه . وشرحت سيسيليا :

– يقول انه لا يستطيع ان يذهب اليه ، لأن الزبائن إذا رأوه متغيّراً إلى هذا الحد ، فسوف يتأثرون ، وسيؤثّر ذلك على البيع . ويقول انه سيعود اليه فور أن تتحسّن صحته .

– وهل تُعنى بعلاج نفسك ؟

وتكلم من جديد ، ومن جديد ترجمت ابنته :

– إنه في هذه الفترة يعالج نفسه بأشعة X . وهو يأمل أن يشفى في أثناء العام .

ونظرت هذه المرة إلى سيسيليا لأرى الأثر الذي كانت تحدثه لديها اشارات أبيها المؤثرة ، وكالعادة لم يكن شيء يشفّ على وجهها المستدير ، او في عينيها اللامعبرتين . وفكرت بأن سيسيليا لم تكن فقط تدرك ان أباها كان بسبيل أن يموت ، ولكنها ، على عكس ما أكدته لي ، لم تكن تلاحظ انه كان مريضاً . او بالأحرى بلى ، كانت تعي ذلك كما تعي الثقب الاسود الذي كان فاغراً في السقف : كان الثقب ثقباً ، وكان مرض أبيها مرضاً .

ودقّ خلفنا جرس صوت أمّها :

– لقد جهز الطعام ، فالرجاء أن تتفضلوا إلى المائدة .

فنهضنا لنجلس إلى الطعام ، واعتذرت الأم عن عدم وجود خادمة ، وحملت هي الاناء تطوف بنا . وحين نظرت إلى كبّة المعكرونة السمينة الحمراء في إناء البورسلين ، فكرت بأن الطعام نفسه كان يشبه البيت ، أقصد انه كان فيه شيء

قديمٌ ومهمل . وهكذا أكلت بنفور هذه المعجنات الرديئة وأنا استعمل شوكة كانت ذراعها المكونة من العظم المصفرّ متوجرجة ، وكنت أحسد مضيفيّ الثلاثة ولا سيما سيسيليا ، الذين كانوا يلتهمون المعكرونة في شهيّة .

وصبّت لي أم سيسيليا خمراً حكمت من الجرعـــة الأولى انه كان محمّضاً ، وحين طلبت منها ماءً بارداً ، ملأت قدحي الآخر ماءً معدنياً كان هو أيضاً قديماً ، أي حارّاً ولا يفور بعد . على ان قلّة اللذة في هذا الطعام ، قد تجاوزهـا انعدام اللذة اطلاقاً في الحديث الذي كانت الأم ، وهي وحدها التي تـكلّـمت ، تصرّ على ان تعقده معي .

وسرعان ما بلغت منطقياً ، إلى ان الحجة الوحيدة التي كنا نشترك فيها معاً ، بصرف النظر عن الكلام العادي حول الطقس والافلام وما إلى ذلك ، إنما هي باليستياري إذ انه كان سَلَـفِي في اعطاء دروس الرسم لسيسيليا .

ولهذا ، فبينما كنت ، بعد المعكرونة الرديئة ، أعلك قطعة من اللحم قاسيـة ومحترقة ،مزدانة بخضار مقلية بزيت من جنس رديء جداً ، هاجمتني بصوتها الرنّان :

— بروفسور ، لقد عرفت البروفسور باليستياري ، أليس كذلك ؟

وقبل ان أجيب ، نظرت الى سيسيليا ، فنظرت إليّ بدورها ، واستولى عليّ شعور بأنها لم تكن تراني لفرط ما كانت نظرتها مجرّدة وغير مطمئنة ، وأجبت بجفاء :

— نعم ، كنت أعرفه بعض المعرفة .

— إنه رجل طيب ودود وذكي . إنه فنّان ! وانت لا تستطيع ان تتخيّل الأثر الذي خلفه موته في نفسي .

فقلت بلا تفكير :

— اي نعم ! وهو مع ذلك لم يكن مسنّاً جداً !

— إنه لم يكن يتجاوز الخامسة والستين ، ولكن لم يكن يبدو عليه انه يتجاوز الخمسين . وكان قد مضى عامان فقط على تعرّفنا عليه ، ولكن كان يخيّل إليّ اني كنت أعرفه منذ الأزل . ولقد كان عضواً من اسرتنا ، اذا صحّ التعبير وكم كان

متعلقاً بسيسيليا ! كان يقول إنه كان يعتبرها قليلاً مثل ابنته .

فصححت من غير ان أبتسم :

– كان عليه ان يقول : مثل حفيدته !

فوافقت الأم آلياً :

– طبعاً ، مثل حفيدته ... تصوّر أنه لم يكن يريد ان يأخذ اجرة دروسه . وكان يقول « إن الفنّ لا يؤجر » وكم هذا صحيح !

فقلت في ملاحظة شاقة الخبث :

– ربما كان قصدك أنّ عليّ انا أيضاً ، ان اعطي دروساً مجانية لسيسيليا ؟

– لا ، وإنما قصدت ان أقول فقط إن باليستياري كان يحب سيسيليا . أما أنت ، فلك شأن آخر . اما باليستياري فالحق انه كان يموت حباً بسيسيليا .

وكان على طرف لساني : « بل هو قد مات فعلاً بذلك » ولكني سألت على العكس :

– هل كنت ترينه كثيراً ؟

– كثيراً ؟ كل يوم تقريباً ! كان من أفراد البيت . وكان صحنه موضوعاً على المائدة دائماً . ولكن لا يذهب بك الظنّ انه كان عديم التحفظ ، بالعكس !

– ماذا تقصدين ؟

– الواقع انه كان يسعى دائماً الى التعويض علينا . كان يشارك في النفقات ويشتري دائماً بعض الحاجات ، ثم إنه كان يرسل لنا الحلويات والخمر والزهور ... وكان يقول : ليس لي من اسرة ، فانتم بعد الآن اسرتي .. فاعتبروني قليلاً قريباً لكم ... المسكين ! كان منفصلاً عن زوجته ويعيش وحده !

واذ ذاك قالت سيسيليا :

– بروفسور ، اعطني صحنك ، وأنت يا ماما اعطيني صحنك ، وانت يا بابا .

ووضعت الصحون الاربعة المصفحة ، والصحون العميقة بعضها فوق بعض ، وخرجت من القاعة . وما ان اختفت حتى بـــدا على أبيها أنه يريد ان يوجّه إليّ الكلام ، وكان قـد اكتفى بان ينظر الينا بعينيه الخائفتين المبتهلتين ، فيما كانت

زوجته تلقي رثاء التأبين لباليستياري . فانحنيت قليلاً ، وفتح المريض فمه وقال بقوة شيئاً لم أفهمه .

ونهضت الأم فاتجهت إلى « البوفيه » من غير أن تقول كلمة ، فتناولت دفتراً صغيراً وقلماً وضعتهما على الطاولة ، الى جانب زوجها ، وهي تقول :

– اكتب ما تريده ، فان البروفسور لا يفهمك .

ولكن الأب كنس بحركة عنيفة الدفتر والقلم ، ملقياً بهما الى الأرض .

وقالت الأم :

– نحن نفهمه ، أما الأجانب فلا يفهمونه تقريباً أبداً . وكم مرة طلبنا منه أن يكتب ، فرفض . هو يقول إنه ليس أبكم ، وهو ليس كذلك ، ولكن ما دام الآخرون لا يفهمونه ، فالأفضل ان يكتب ، ألا تعتقد ذلك ؟

ورمى الأب زوجته بنظرة حانقة ، ثم عاد يتحدث. وشرحت لي الأم ، بصوت حزين مطيع :

– يقول إن باليستياري لم يكن يحوز حبّه .

وهزّت رأسها في عاطفة آسفة حقاً ثم أضافت :

– إن المرء ليتساءل : ما الذي فعله له باليستياري هذا المسكين ؟

وقال الزوج من جديد شيئاً ما ، في قوة . وترجمت الأم :

– يقول إن باليستياري كان يأخذ هنا مظاهر رب البيت .

وكان الزوج ينظر اليها الآن بعينين قلقتين حقاً . ثم بذل جهداً يائساً ، كأبكم يخفق في افهام عبارته ، ففتح فمه على سعته ونفخ في وجهي بعض أصوات غير مفهومة . ورأيت سيسيليا ، وكانت قد عادت ، ترفع عينيها نحوي وتنظر إليّ . وقالت الأم :

– إن زوجي يقول أشياء لا معنى لها . هل فهمت ما قاله ؟

– لا .

وشعرت بأن المرأة كانت متردّدة ، ولكنها انتهت إلى القول :

– يقول إن باليستياري كان يغازلني .

ولفظت هذه الكلمات بظهر مهتم، وقد حدّدت عينيها لا بي، ولكن بزوجها، في نظرة كثيفة كان يمتزج فيها الحزن والرجاء والعتاب. والتفتّ نحو المريض ففهمت أن نظرة زوجته قد بلغت تأثيرها، على نحوٍ ما. فقد كان يبدو متطامناً مذلاً ككلب تلقّى ركلةً قوية. وقالت الأم بلهجة تحمل بعض العزاء:

– كان باليستياري يحبّ أن يقدّم التهاني، وان يمازحني قليلاً، وبالاجمال ان يكون لطيفاً، ولكن هذا كل شيء. هذا كل شيء حقاً...

واستطردت وهي تتكلم عن زوجها كما لو أنه لم يكن حاضراً او انه لم يكن الا حاجة بلا روح، كما فعلت سيسيليا قبل ذلك بدقائق:

– لا، يا بروفسور.. إن زوجي طيّب جداً، طيّب جداً، ولكن رأسه يشتغل، ويشتغل ويشتغل... الا ترى عينيه؟ انها الأفكار التي يجترّها طوال النهار في رأسه. إن رأسه يشتغل ويشتغل ويشتغل، ثم تخرج منه حماقات!

وتطلّعت إلى الزوج، فإذا هو الآن صامت، مستاء، مُرهق، يُدير عينين عينين مذعورتين ويعجن بأطراف أصابعه بعض فتات الخبز. وحسبتني دفعةً واحدة، كأنما ذلك برق، أجد تفسيراً معقولاً لغضبه الذي انحسر بسرعة: لقد أحسّ دونما ريب بأن شيئاً ما كان يحدث بين باليستياري وسيسيليا، او أن باليستياري، على الأقل، كان قد غذّى نحو سيسيليا عاطفة لم يكن فيها أثر أبويّ، بعكس ما كان يريد ان يحمل على الاعتقاد. وتلك كانت التهمة التي قذفها المريض في وجه زوجته التي سارعت فأخذت محلّ ابنتها، بأن شرحت ان زوجها كان يغار، ويتصوّر أن باليستياري كان يغازلها هي.

يبقى أن أعرف لماذا أرادت الأم أن تخفي عني المعنى الحقيقي لكلمات زوجها. أتراها كانت لا تريد ان تكرّر تهمة كانت تراها مزيّفة وغير محتشمة؟ أم تراها قد استفادت من كرم باليستياري، حتى من غير ان تلاحظ أن هذا الرجل وسيسيليا كانا عاشقين؟ أم تراها كانت على علم بالعلاقات القائمة بين ابنتها وبين الرسّام العجوز، وكانت تقبل الهدايا بكل رضى؟ إن هذه الاحتمالات الثلاثة، وقد لاحظت ذلك بسرعة، كانت هي أيضاً معقولة، بالرغم من اختلافها،

واختلاف خطورتها .

وفيما كنت أقلّب هذه الأفكار في راسي ، كنت أنظر إلى سيسيليا فأفهم مرة أخرى ان كل ما كنت أكتشفه خلال زيارتي ، لم يكن في الحق يعنيها قط . ففي أسوأ الحالات ، أي إذا كانت الأم قد علمت بعلاقة ابنتها ، وبالاتفاق معها ، أفادت منها فوائد مادية ، فان ذلك لن يمكنني من التأكد اني علمت شيئاً نهائياً عن سيسيليا . ذلك ان سيسيليا كانت تعيش في أسرتها كأنها مروبصة ووسط أثاث بيتها نفسه ، أي فيما هي تبعده عن وعيها الخاص .

وانتهى الغداء الخفيف بطريقة غير منتظرة . فبعد أن أكل كلٌّ منّا تفاحة صغيرة حمراء وخضراء ، نهض الأب بلا إنذار وجرّ ساقيه المرتبكتين في بنطلونه الفضفاض الواسع كما لو أنه كان فارغاً ، وخرج من الصالون ، ليظهر بعد لحظة مرتدياً معطفاً مفرط الاتساع ، ووجهه نصف مختبىء بأطراف قبعة لا تبدو أنها كانت قبعته .

وحيّاني من بعيد وهو يلوّح بيده ، ثم أضاف شيئاً وهو يشير إلى النوافذ التي كانت تبدو الآن مضاءةً بأمل شمسي ضعيف . وشرحت الأم وهي ترفع صوتها :

– يقول إنه ذاهب للتنزه ، ويجب ان أذهب معه . وسوف نقوم بنزهة صغيرة ثم أصحبه إلى السينما حيث أتركه ، لأن الحانوت يفتح في الساعة الرابعة ... آه إنه لعذاب شديد ، يا بروفسور ، ان يبلغ إنسانٌ هذا الوضع !

وأضافت أشياء أخرى من النوع نفسه عن زوجها الذي كان في هذه الأثناء ينتظرها جامداً على العتبة ، في داخل الصالون ، شبيهاً بفزّاعة عصافير ؛ ثم مدّت لي يدها وأوصت سيسيليا بان تحكم اغلاق الباب بعد خروجهما ومضت . وخرج زوجها معها . وبعد لحظة ، سمعت صوت الأم التي كانت تقول كلاماً لم أفهمه ، ثم انغلق الباب وساد السكون .

وظللنا أنا وسيسيليا حيث كنا ، متباعدين ، أمام المائدة الغارقة في الفوضى . وقلت بعد لحظة :

– وها هم ذووك الذين تقولين إنهم كانوا يغضبون لأننا كنا نلتقي كل يوم ؟

فرأيتها تنهض وتبدأ في اخلاء المائدة . وكانت تلك طريقتها التي أعرفها للاجابة على الأسئلة المربكة .

وألححت :

– كيف تريدين ان أصدّق أن أبوين كأبويك قد وجّها اليك تأنيباً ؟

– لماذا ؟ وايّ شيء خاص يتميز به أبي وأمي ؟

– لا شيء خاصاً ... بل شيء مشترك جداً !

– ماذا تقصد ؟

– أنّ هذين الأبوين لا يبدوان قاسيين أكثر مما ينبغي !

– ومع ذلك ، فصحيح انهما غاضبان لأننا نلتقي أكثر مما ينبغي .

– ربما أبوك ، اما أمك فلا .

– ولماذا أمي لا ؟

– لأن أمك كانت على علم بصدد باليستياري . وإذا كانت لم تغضب بشأنه ، فلماذا يجب ان تغضب بشأني ؟

– لقد سبق ان قلت لك انها لا تعرف شيئاً .

– إذا كانت لا تعرف شيئاً فلماذا لم تردّد اليوم تماماً الكلمات التي قالها أبوك؟

– متى حدث ذلك ؟

– أتظنّين اني لم ألاحظ هذا ؟ الواقع ان أباك قد قال إنه لم يكن يحب باليستياري لأنه كان يغازلك ؛ وقد أرادت أمك ان تحملني على الاعتقاد بعكس ذلك ، أي ان باليستياري كان يغازلها هي . أليس هذا صحيحا ؟

فترددت ثم أقرّت على مضض :

– بلى .

– أسألك إذن من جديد : إذا كانت أمك لا تعرف شيئاً من علاقتك بباليستياري ، فاية حاجة بها لأن تريدني ان أعتقد ان باليستياري كان يغازلها هي ؟

فأجابت ببساطة :

– لأن ذلك صحيح .

– ما هو الصحيح ؟

– أنا التي قلت لباليستياري أن يغازل أمي ، حتى لا تلاحظ انه كان مغرماً بي .

– هذا بارعٌ جداً ودقيق جداً . ولكن هل كانت أمك تصدّق مغازلة باليستياري لها ؟

– جداً !

– اما ابوك ، فلم يكن يصدّق ذلك ؟

– نعم ، لم يكن يصدّقه .

– لماذا ؟

– لأنه رآنا ذات يوم ، انا وباليستياري ..

– وماذا رأى ؟

– رأى ان باليستياري كان يقبّلني .

– ولم يخبر أمك بذلك ؟

– بلى ، أخبرها ، ولكن امي لم تصدّقه ، لأن باليستياري كان في الوقت نفسه يغازلها ، ولهذا فقد قالت لأبي انه كان يخترع ذلك لأنه كان يغار .

– وبعد ذلك ، هل استمرّ باليستياري في زيارتكم ؟

– نعم ، استمرّ ، ولكننا أصبحنا اكثر حذراً وتنبّهاً ، حتى ان ابي اقتنع آخر الأمر بأن نظره قد خدعه . على ان كرهه لباليستياري لم يخفّ . وكان يخرج حين يراه قادماً .

وكانت المائدة قد فرغت من محتوياتها ، وكانت سيسيليا تعيد الكراسي الى امكنتها . واذ كانت تمرّ بقربي ، جذبتها من ذراعها وأجبرتها على الجلوس على ركبتي ، وهي مترددة شاردة . وسألتها :

– إذن ، بعد قليل ، سنقصد المرسم ؟

فرأيتها تنظر الى ساعة يدها ، ثم أجابتني :

– انني انتظر مخابرة تلفونية .

– يعني ؟

ـ وفق هذه المخابرة ، سأذهب الى المرسم أو لا .
ـ ومن الذي سيتلفن لك ؟
فتأملتني تأملاً غير قابل للتعريف ، ثم أجابتني :
ـ انه منتج سينمائي يريد ان يحدّد لي موعداً للقاء . فاذا كان هذا الموعد لهذه الساعة بالذات ، فاني أخشى ألاّ نستطيع اليوم ان نلتقي ..
وعلى الفور كنت متأكداً من انها تكذب . ودليل كذبها كان لهجة صوتها المفرطة الطبعيّة ، تلك اللهجة التي لا يمكن ان يتكلم بها انسان إلا اذا كان يكذب . وقلت :
ـ لماذا لا تقولين الحقيقة ؟ أيكون الممثل هو الذي سيتلفن لك ؟
ـ اي ممثل ؟
ـ لوسياني
فقالت بطريقة لم اكن انتظرها :
ـ لقد رأيته أمس .
وفكرت بأنها تقذفني بحقيقةٍ عمرُها اربع وعشرون ساعة لتخفي عني كذبةً عمرُها دقيقة واحدة :
ـ ولقد قصدنا معاً أحد المنتجين ؛ وليس من اليسير أن أراه كل يوم .
ـ أمس ايضاً ، قصدت منتجاً ؟
ـ إنه هو نفسه . وقد قدّمني اليه لوسياني . ولم يكن المنتج يستطيع ان يستقبلني فأبلغني أنه سيتلفن لي اليوم .
ولاحظت كم كان ذلك معقولاً ، وربما كان كل شيء صحيحاً ، في تفاصيله على الأقل ، لأني كنت أعرف ان سيسيليا ، حين كانت تجد نفسها مضطرة للكذب ، فانها كانت تكذب وهي تبني بناء كذبتها بموّاد الحقيقة . وألحت :
ـ كفى ! إن لوسياني هو الذي سيتلفن لك . فماذا يكلّفك الاعتراف بذلك؟
ـ إنه لا يكلفني شيئاً ولكنه غير صحيح .
ـ اذا كان ذلك غير صحيح ، فستتركينني أذهب الى التلفون ، لأجيب بدلاً

منـك ؟

– افعل ذلك ، اذا كان يروق لك .

وجعلني تنازلها هذا أفكر بأنه ربما كان بينها وبين لوسياني اتفاق ، كما يحدث غالباً بين العُشاق : فاذا كانت هي التي تجيب ، فان لوسياني سيظهر على حقيقته ؛ أما اذا كان ثمة شخص آخر على التلفون ، فسيقول انه كان المنتج .

وقلت ببرارة :

– لا ، انني لا اريد ان التمس البرهان . وانمـــا أود ان تفهمي شيئاً ، شيئاً واحـداً .

– وما هو ؟

– هو اني لا اريد ان تحبّيني ، اريد ان تقولي لي الحقيقة . اني افضل ان تقولي لي انك سترين اليوم لوسياني ، اذا كان صحيحاً انك سترينه ، على ان تقولي لي إنك لن تريه ، لإرضائي .

وتبادلنا النظرات . ثم داعبتْ خدّي بحركة رقيقة تقريباً ، وقالت :

– حقيقتي هي انني اليوم لن ارى لوسياني . فهل تفضّل ان أقول حقيقتك ، اي انني سأراه اليوم ؟

وهكذا كانت سيسيليا توحي ، من غير ان تقصد ، بأن الحقيقـة والكذب لم يكونا في نظرها إلا شيئاً واحداً ، وانه ليس ثمة ، في آخر المطاف ، لا حقيقة ولا كذب . وفجأة ، رنّ في الممرّ جرس التلفون ، فنهضت سيسيليا عن ركبتي وهي تصرخ : « التلفون ! » وغادرت القاعة وهي تركض . فتبعتها .

كان جهاز التلفون في نهـــاية الممر ، على طاولة صغيرة تقوم في أظلم زاوية . ورأيت سيسيليا ترفع السمّاعة الى اذنها وتقول بسرعة : « مرحبا » فاقتربتُ فاذا هي تدير إليّ ظهرها ، كما لو أنها ارادت ان تخفي وتحمي السمّاعة الابنوسيةالسوداء التي كانت تتكلم فيها وتسمع الكلام . ثم استمرّت المحادثة ؛ ولكني لاحظت ان سيسيليا كانت تجيب بكلمات موجزة ذات مقطع واحد او بكلمات اشدّ خلواً من المعنى من الكلمات التي كانت تعبّر بها عادةً عن أفكارها . وتأكدت فجأة من أن

الممثل كان على الطرف الآخر من الخطّ ، وانه كان يدبّر موعداً مع سيسيليا ، وان سيسيليا كانت تخونني معه . وفي الوقت نفسه لاحظت اني كنت أشعر برغبة عنيفة بهـا ، هي التي كانت تكذب عليّ ، وبالتالي تفلت مني ، وتصبح بذلك حقيقية وجذّابة ؛ بحيث انني لو أخذتها هنـاك ، في الممر ، بينما هي تتحدث الى عشيقها ، كان بامكاني أن امتلكها في اللحظة نفسها التي كانت ، بواسطة التلفون ، تستعصي فيها على الامتلاك .

وكنت ملتصقاً بها ، كما فعلت في غرفة الحمام ؛ وعلى الفور ، لدى قيامها بحركة في فخذيها بازاء بطني ، حسبتني أفهم انها لن تعارض فقط اعتناقاً كهذا غريباً وغير مناسب ، بل انهـا ستشجعه باستسلام مزيّف ، كأنما لتعوض عليّ من استسلام حقيقي تقوم به من تلقاء نفسها لذلك الذي يتلفن لها .

وفي سورة غضبي وشهوتي ، كنت قد بدأت اشدّها إليّ ، حين تذكّرت ان باليستياري سبق له أن أخذها في المطبخ ، بالطريقة نفسها ، وعلى الارجح ، بدافع الشعور نفسه . وسرعان مـا ابتعدت ؛ وشعرت سيسيليا بالأمر فرمتني من فوق كتفها بنظرة متسائلة ؛ ثم مدّت يدهـا الحرّة فيما وراء ظهرها لتشدّ بها على يدي ، بينما مضت في التحدث على التلفون . وتركتها تفعـل ، واستندت الى الجدار ، خلفها ، ووجهي مائل على صدري ، وذهني شارد .

وقالت سيسيليا أخيراً :

— إذن إلى اللقاء عما قليل .

ثم وضعت السمّاعة وظلّت لحظة حالمة ، ويدهـا في يدي ؛ وحين التفتت أخيراً قالت :

— آسفة ، انني اليوم لا أستطيع ان أجيء إلى مرسمك . فان المنتج ينتظرني بعد نصف ساعة .

— حسناً ، انني أتركك على الفور .

— انتظر ، تعال الآن معي .

وكانت تتقدمني في الممرّ متجهة نحو غرفتها ؛ ودخلت قبلي ، وما ان دخلت

حتى أغلقت الباب بعناية :

– بالانتظار ، هل تريد ان نقوم بفعل الحب هنا ؟ ولكن يجب ان نقوم به على الفور ، لأن الوقت الذي أملكه قصير حقاً .

وتجاه هذا الاقتراح اللطيف الوقح ، شعرت من جديد بتلك الرغبة التي لا يبدو انها قد أشبعت قط، لأنني لم أكن أشتهي جسدها المتهيىء دائماً والوديع ، بل كنت أشتهيها كلّها . على اني قلت :

– لا ، لا تتحدث بهذا ، فأنا لا أحب الأمور التي تُعمل على عجل .

– ولكننا لن نعمله على عجل . غير أنّ عليّ بعد ذلك مباشرة أن أذهب .

– كلا ، لست كباليستياري ، وأنا لست حريصاً على أن أقوم بفعل الحب في بيتك .

– ما الذي جاء بباليستياري ؟

– بمناسبة باليستياري ، يجب ان تقولي لي شيئاً ...

– ماذا ؟

– تلك المرة التي قمتما فيها بفعل الحب في المطبخ ، ألم يسبق ذلك نقاش او خصام او خلاف بينكما ؟

– كيف تريد أن أتذكّر ذلك ؟ لقد انقضى على ذلك وقت طويل جداً !

– حاولي أن تتذكّري .

– حسناً ، نعم، لا بدّ ان يكون قد وقع نقاش ما . كان باليستياري مضجراً جداً ، إذ كان يريد ان يعلم كل شيء .

– كل شيء ؟

– نعم ، كل شيء: منْ كنت أرى ، وإلى أين كنت أذهب ، وماذا كنت أفعل .

– وفي ذلك اليوم ، حدث بينكما نقاشٌ من هذا النوع ؟

– أظنّ أن نعم .

– وكيف انتهى ذلك ؟

– كالعادة .
– يعني ؟
– يعني انني إذ لم أجبه في لحظة من اللحظات ، أراد ان يقوم بفعل الحب .

فلم أتمالك ان صحت :
– مثلي تماماً ؟
– كلا، بل انت على العكس، فأنت لا تريد ان تقوم بفعل الحب. هيّا، هيا، لماذا لا نقوم بفعل الحب ؟

وكانت تنظر إليّ بإغراء ، كما لو أنها شعرت بديونٍ نحوي وأرادت ان تسدّدها بأي ثمن ، كي تكف عن التفكير بالأمر نهائياً . وقد وددت ان أجيب : «لا أريد ان أقوم بفعل الحب ، لأنني لا أستطيع ان أفعل الأشياء نفسها التي كان يفعلها باليستياري . » ولكنني قلت عكس ذلك وأنا أقبلها في عنقها :
– سنقوم بفعله غداً في المرسم ، في هدوء .

فرأيتها تهزّ رأسها علامة خيبة خفيفة ، ثم تقصد الخزانة فتفتحها وتخرج منها المحفظة فتخليّها من ورقتها الحريرية ، وتقول لي وهي تبتسم :
– أترى ، انني آخذ محفظتك !

وخرجنا من القاعة ، ثم من الشقـّة ؛ وكانت سيسيليا تهبط أمامي وأنا أتبعها مفكراً . وكنت أقول لنفسي انني تحاشيت ، ولو بجهد يتجاوز قدرة البشر ، أن آخذها في الممرّ ، بالرغم من رغبتي العنيفة جداً ؛ وإذن فقد تحاشيت ، هذه المرة على الأقل ، ان أفعل مرة أخرى الشيء الذي سبق لباليستياري ان فعله . ولكن ذلك لم يكن إلا فصلاً واحداً من فصول عاطفة مهووسة كانت في نموّها العام تميل اكثر فأكثر لأن تشبه العاطفة التي كان الرسّام العجوز يغذّيها نحو سيسيليا .

وبالاجمال ، كان باستطاعتي ، بفضل وعي كبير ان أمتنع عن القيام بما يشبه أعمال باليستياري في فرصٍ خاصة؛ ولكني لم أكن أستطيع،على ما يخيّل إليّ، ان أتوقف على الدرب الذي سلكه قبلي حتى نهايته .

وإذ وصلنا إلى قرب المخرج ، قلت لسيسيليا فجأة :

ـ إذن ، إلى اللقاء .

فبدا أن صوتي وكلماتي قد أدهشتها :

ـ ولكن كيف ، ألا ترافقني ؟

ـ ولكن إلى أين ؟

ـ لقد سبق ان قلت لك : إلى ذلك المنتج .

ـ حسناً ، هيّا بنا .

وطول الطريق ، ظللت أبكم . وكان أكثر ما يغيظني ، لا كون سيسيليا قد طلبت مني ان أصحبها إلى موعد مع عشيقها ، وإنما كونها طلبت ذلك بلا خبث ولا فظاظة ، وبشرود ، وربما لأنه كان يُسئمها بكل بساطة ان تستقل وحدها ، كالعادة ، سيارة او اتوبيس ملأى ، بينما كنت أنا هنا ، على أتم الاستعداد ، بسيارتي . وقد لاحظت اني كنت أتألم من عدم الحساسية هذه التي كانت متحلّلة وطفلية اكثر مما كنت سأتألم من أيّ فجور ودعارة .

وأوقفت السيارة أمام البناية السينمائية،ورأيت سيسيليا تختفي في ظل المدخل المسقوف بخطوتها المتباطئة التي تهتز معها خاصرتها . بالطبع ، كانت على موعد مع الممثل ؛ ولكن إمّا ان الممثل كان ينتظرها في المكتب ، او ان سيسيليا ستقصد منزله بعد ان تكون قد تحدثت مع منتج الأفلام . وفي كلتا الحالتين ، سيكون يسيراً عليّ ان أكتشف الحقيقة ، إما بأن ألحق بسيسيليا على الفور ، وإما بأن أنتظرها عند الخروج . ولكني عدلت عن ذلك . لقد كنت ما أزال عند تلك النقطة من الغيرة التي تمنعني عندها بقية من شعور الكرامة أن أتجسس على الشخص الذي يثير الغيرة . ومع ذلك ، فبينما كنت أبتعد ، أدركت اني لم أكن أفعل غير ان أؤخر هذه المراقبة . وفكرت بأني، في المرة القادمة ، لن أستطيع مقاومة الظروف التي كانت بالفعل توحي إليّ بل تفرض عليّ أن أترصّد سيسيليا .

الفصل السابع

لعلّ ما سوف أرويه يعطي فكرة عن أزمـــة غيرةٍ مألوفة بما فيه الكفاية ؛ وبالفعل ، لو أن مشاهداً قليل التبصّر راقب مسلكي خلال هذه الايام ، لوضح له انه مسلك الغيور الكامل . ولكن الامر لم يكن كذلك . فان الغيور يعاني من إحساسٍ متطرف بالملكية ، فيتّهم الآخرين من غير انقطاع بأنهم يريدون الاستيلاء على إمرأته هو ، ويوحي له هذا الشك الطاغي بتخيلات واوهام خارقة ، ويمكن ان يدفعه حتى الى الجريمة .

اما انا ، فقد كنت على العكس أعاني من أني كنت احب سيسيليا (لأن القضية أصبحت في آخر المطاف قضية حب) ؛ وكنت ارمي من مراقبتي لها ان أتأكّد من خيانتها ، لا من أجل ان أعاقبها عليها ، وان امنعها بكل وسيلة من المضيّ في خيانتي، وانما من أجل ان اتحرّر منها ومن حبي . وبالاجمال ، فان الغيور يميل ، حتى بالرغم منه ، الى تعزيز عبوديته ؛ اما انا ، فقد كنت أريد بالعكس ، ان اتخلّص من هذه العبودية بالذات ، ولم اكن ارى ، لبلوغ هذا الهدف ، الا ان اهدم استقلال سيسيليا الذاتي وسرّيتها ، وأحيلها بمعرفةٍ أدقّ لخيانتها ، الى شيء معروف ، ومشترك ، وخالٍ من المعنى .

وقد فكرت اول الامر في ان استخدم التلفون . وكانت سيسيليا ، كما سبق ان ذكرت ، تتلفن لي كل صباح حوالي الساعة العاشرة. وفي الاوقات الاولى ، لم

تكن تفعل ذلك ابداً إلا لتحييني . اما الآن وقد أخذت تقلّل زياراتها (فقد تبدّى وعدها بان تراني كل يوم ، كما كان الأمر في اول علاقاتنا ، مائعاً) فان التلفون قد أصبح عنصراً أساسياً من عناصر علاقاتنا . والواقع ان سيسيليا إنما كانت بالتلفون تحدّد لي بين مرة وأخرى ، وبطريقة غير منتظمة ، مواعيد لقائنا.

وحدث ان لاحظت ، في الفترة الأخيرة ، ان مخابرتها التلفونية كانت تأتي ظهراً ، بدلاً من الساعة العاشرة . وكانت سيسيليا قد برّرت هذا التغيير في الوقت بأن جهازها التلفوني كان مشتركاً ، وان المشترك الذي كان يستعمله معها قد اعتاد ان يعطي عدّة مخابرات تلفونية في الصباح الباكر . ولكني كنت قد اقتنعت بأن عذرها كان شيئاً آخر : انها لم تكن تتلفن لي في الساعة العاشرة بعد ، لأنها لا تكون في تلك الساعة قد تحدثت مع الممثل ، الذي كان كسائر زملائه ينام حتى ساعة متأخرة من الصباح . وبناء على انها لا تكون قد حدّثته بعد ، فانها لا تعرف ما سوف تفعله في النهار ، ولا تستطيع بالتالي ان تقول لي اذا كانت تستطيع ان تراني ، ومتى .

ولم يكن رقم الممثل في دليل التلفون ، ولكن كان يسيراً عليّ أن أحصل عليه من شركة سينمائية كنت قد اشتغلت لها في السابق . واذ حصلت على الرقم،تأكدت من صحّة افتراضي بالطريقة التالية :

كنت أتلفن اولاً لسيسيليا ، حوالي الساعة الحادية عشرة وثلاثة ارباع، فكنت أجد التلفون مشغولاً بصورة لا تتغيّر ، وكنت سرعان ما أتلفن آنذاك للممثل فاكتشفت انه كان كذلك يتكلم . وكنت انتظر خمس دقائق او عشراً ثم اكرّر تجربة المراقبة : فأجد الجهازين حرّين . وبالواقع ، ما ان تنقضي بعد ذلك دقيقة ، حتى يرنّ جرس تلفوني في وقت دقيق معيّن كان يملأني بالأسى ، وتقول لي سيسيليا في الطرف الآخر من الخطّ ، بهدوء ودقّة تتميز بها كل سكرتيرة ، ان بوسعنا في ذلك اليوم ان نلتقي او لا ، حسب الظروف .

وكنت أستخدم التلفون ايضاً لأراقب خروج سيسيليا وعودتها . فقد كنت أتلفن بصورة منهجية (إذا كان ممكناً ان نتحدث عن المنهج بصددِ حيلٍ للغيرة

جنونية) في ساعات مختلفة من النهار ، فاما ألاّ أجد أحداً ، واما ان أجد أمها التي كانت غالباً ما تبقى في البيت تاركة الحانوت بعهدة أختها . وكنت آنذاك أعقد الحديث مع الأم التي لم تكن تطلب شيئاً أفضل من أن تثرثر ؛ بحيث اني كنت أتوصل ، بواسطة الثرثرات الأمومية ، إلى معرفة ما كنت أرغب في معرفته ، بشكل او بآخر .

وبالطبع ، فان معلومات الأم كانت تَرِدُها كلها تقريباً من سيسيليا التي كانت تكذب عليها كما كانت تكذب عليّ ، ولم تكن تترك لها ان تعرف ، بأي حال ، إلا ما كان يناسبها ان تقوله ، ولكن كان بمقدوري الآن ان أفكّ ألغازاً كثيرة من هذه المعلومات ، لا سيما وان سيسيليا ، التي لم تكن تعرف انها مراقبة ، لم تكن تهتمّ بجعلها منسجمة مع المعلومات ، المزيّفة ولكن المختلفة ، التي كانت تعطيني إياها .

وهكذا استطعت ان أعرف أن سيسيليا ، الروتينية كسائر من كانوا على شاكلتها محرومين من الخيال الخصب ، كانت قد برّرت ، امام ذويها ، علاقاتها بالممثل ، بمثل ما بررت به العلاقات التي كانت تعقدها مع باليستياري ، ثم معي : كانت تدّعي انها ترى الممثل لأن هذا كان قد وعدها بأن يجعلها تشتغل في السينما ، كما سبق لها في الماضي ان قالت انها كانت ترى باليستياري ، ثم تراني انا نفسي ، لأننا كنا نعطيها دروساً في الرسم . ولكن الدروس لم تكن تدوم إلا ساعتين ، في حين أن العلاقات مع وسطٍ للعمل كان يمكن ان تدوم النهار برمّته .

وإذن ، فقد اكتشفت انها كانت تراه أحياناً في الصباح ، وفقاً لهذه الحجّة ، لا سيما حين يكون الطقس جميلاً ، ليقوما بنزهة في المدينة او يتناولا المشهّيات ؛ وكانت تلقاه ثانية بعد الظهر ، ليقوما بفعل الحب على الأرجح ؛ وكانت تلقاه ثالثة في المساء لتناول العشاء او لمرافقته إلى السينما .

وكانت الأم قلقةً بعض الشيء لهذا « النشاط » السينمائي الذي تقوم به ابنتها. ولكنها كانت مع ذلك مفتونةً به بعض الشيء . وكانت تتخذني نجيّها فتسألني تارة في قلق عما إذا كان جو السينما الواضح التحرّر، إذا لم نقل المنحلّ ، يوشك ان يُفسد

سيسيليا ؛ وكانت تسألني تارة اخرى ، بالعكس ، وبالقلق نفسه ، عما إذا كانت ابنتها تملك حظوظاً لتصبح كوكباً سينمائياً . وكانت تتكلم بسذاجة كلّية ، ولكن ذلك كله كان يشعرني انها ، على الطرف الآخر من الخط، كانت على اطلاع كامل بما يجري ، معي انا والممثل ، وانها كانت تتسلى بتعذيبي في قسوة واعية ومرهفة . والواقع ان القسوة ، كما كنت واثقاً من ذلك ، إنما كانت في الظروف، وفيها وحدها .

وهكذا فان التلفون ، بين أوهام الأم وأكاذيب البنت ، لم يكن يستطيع ان يطمئنني كلياً ، ولا ان يقدّم لي تلك الحجج اليقينية التي كنت بحاجة اليها لكي أتحرّر من عشيقتي الصغيرة ومن حبي لها . فقد كان التلفون ، بطبيعته اللامباشرة والمجرّدة يبدو لي بعد الآن رمزاً لوضعي : وسيلة للاتصال كانت تمنعني من الاتصال ؛ آلة للمراقبة لم تكن تسمح لي ان أعرف شيئاً دقيقاً ، مكنةً آلية سهلة الاستعمال إلى أبعد حد كانت تتبدّى جامحة وغير أمينة تقريباً .

ومن جهة اخرى ، كان التليفون يبدو مصنوعاً ليؤكد بالذات عدم قابلية سيسيليا للالتقاط . وبالطبع ، لم يكن الذنب ذنب الجهاز الابنوسي الصغير إذا كانت سيسيليا تتأخر في مخابرتي أو عدم مخابرتي ، وإذا كانت تكذب عليّ أو تخيّب ظني . ولكن لما كان ذلك كله يحدث بواسطة التلفون ، فقد بلغ بي الأمر ان كنت أكنّ كراهية متطرفة لهذه الآلة البريئة .

ولم أكن أتلفن بعد ذلك إلا في نفور كبير ؛ ولم أكن أسمعه يرنّ من غير ضيق . وكنت أخشى ، في الحالة الاولى ، ألاّ أجد سيسيليا ، وكان ذلك هو الذي يقع دائماً تقريباً . وفي الحالة الثانية كنت أخشى أن أسمعها تكذب عليّ ، وكان ذلك شكلاً لعدم وجودها . غير ان التلفون كان يؤكد خصوصاً عدم قابلية سيسيليا للالتقاط ، لأنه كان يُحِلّ محل الشخص الجسمي قسماً منه ، هو فوق ذلك اكثر الاقسام تجريداً ، اي الصوت . فحتى حين كان هذا الصوت لا يكذب عليّ ، كان يظل بالنسبة لي ملتبساً مبهماً هارباً ، لأنه بالذات لم يكن إلا صوتاً . لا سيما وأن صوت سيسيليا كان دائماً لامعبّراً بصورة عنيدة .

ولكن ما دفعني خصوصاً للتجسّس على سيسيليا مباشرة ، انما كان التعب . انني اقضي بعد الآن نهاري كله تقريباً الى جانب التلفون ، إمّا في انتظار الساعة التي كانت تتلفن لي فيها ، أو الساعة التي كنت أعلم انني أستطيع ان أتلفن لها فيها وبي أملٌ لأن أجدها . وبالاضافة الى ذلك ، كان ثمة المخابرات التلفونية التي لم تكن تجد أحداً ، او تسمع فقط همسات الاب ؛ ثم المخابرات التلفونية المرهقة المغيظة مع الأم ، بغية تمثّل نهار سيسيليا .

وجميع هذه الحيل التلفونية التي كانت تزداد تعقّداً وقلقاً ، كان من شأنها ان تلغي كل العزاء الذي كنت أستطيع ان أصيبه من التلفون نفسه . وأشبه بحالة الجائعين الذين كان يبدو جوعهم ما يزال قائماً بعد ان يكونوا قد أكلوا ، كنت أشعر بأن غضبي وضيقي لم يكونا يزولان بعد ان أوفّق بالتحدث مع سيسيليا . وكانت نتيجة ذلك كله نوعاً من الجنون الجنسي يتلخّص بأني بعد ان أكون قد صمّمت على استجواب سيسيليا مطوّلاً ، وبهدوء ، لأقسرها على الاعتراف بخيانتها، كنت فور ظهورها على عتبة المرسم أنسى تصميماتي الباردة ؛ وكنت ألقيها على الاريكة وآخذها حتى من غير ان أنتظر ريثما تنزع ثيابها ، بل حتى من غير ان أدع لها الوقت للتنفّس ، على حدّ ما كانت تقول في لهجة مسايرة طفولية . وكان ما يدفعني الى هذا الجنون الغرامي الوهم الرجولي المعتاد بأن الحصول على الامتلاك دفعة واحدة انما يتمّ دفعة واحدة بالعمل الجسدي ، من غير كلام . ولكني كنت الاحظ خطئي بعد انتهاء عمل الحب مباشرة اذ كنت أرى سيسيليا أشدّ امتناعاً على الالتقاط من اي وقت مضى، وكنت أقول لنفسي انني اذا كنت اريد ان امتلكها حقاً ، فينبغي ألاّ أبذّر طاقتي في فعل لم تكن له إلاّ مظاهر الامتلاك .

وحادثٌ تافهٌ هو الذي كان سبب عزمي على مراقبة سيسيليا . واذا كنت أرويه ، فانما لأعطي انطباعاً عن الحالة النفسية التي كنت أجدني فيها آنذاك .

فقد حدث ذات صباح ، بعد ان تحقّقت من مخابرات سيسيليا والممثل ، على مألوف عادتي، وبعد ان وجدت الجهازين كليهما مشغولين ، ان تلفنت لي سيسيليا، فسارعت بسؤالها :

– لمن كنت تتلفنين ؟ لقد كان خطك مشغولاً لمدة عشرين دقيقة على الأقل .

فأجابت بطبعية كاملة :

– كنت أتلفن لجيانا .

وكانت جيانا صديقة لسيسيليا ، وكنت بالاتفاق أعرف اسمها وعنوانها . وتبادلت بضع كلمات عجلى مع سيسيليا ، ومضيت أبحث في الدليل عن رقم جيانا. وفي غيظي ، كنت أفكر بأن اضع سيسيليا هذه المرة في موضع حرج .. وطلبت الرقم ، فأجابني صوت امرأة ، وهو على الارجح صوت الأم . وسألت :

– الآنسة جيانا ؟

– لقد خرجت .

– كم مضى على خروجها ؟

– اوه ! اكثر من ساعة ... من يطلبها ؟

فأعدت سمّاعة التلفون وطلبت من جديد رقم سيسيليا . وما كدت أسمع صوتها حتى صحت :

– لقد كذبت عليّ !

– ماذا تعني ؟

– لقد قلت لي ان جيانا قد تلفنت لك منذ دقائق . والواقع اني تلفنت لها انا نفسي ، فعلمت انها خرجت منذ ساعة .

– وإذن ؟ لقد كانت جيانا تتلفن من الخارج . ومن تلفون عمومي .

فاسقط في يدي وانقطع نفَسي .

وهكذا لم أعد قادراً ، في الارهاق الذي كنت أجدني فيه ، على التفكير بمنهجية وتبصّر ؛ لقد حسبتني أحبس سيسيليا في مصيدة كان الخروج منها أمراً سهلاً للغاية . وقلت وانا شبه مذهول :

– اعذريني، انني لم أفكر في ذلك. انني منذ حين من الزمن، لا أفهم بعد شيئاً من شيء ...

– هذا ما يبدو لي .

وأقنعني هذا الحادث ، على تفاهته ، بأنني لم أكن أستطيع أن أركن الى ذهني المتعب ، والمختلط ؛ وانه كان عليّ أن اراقب سيسيليا مباشرة ، بعيني . ولاول وهلة ، بدا لي ، ان ذلك هو أيسر الامور في الدنيا ، ولكن ما ان باشرته ، حتى ظهر لي العكس .

وكانت فكرتي أن أتلفن لسيسيليا من أقرب تلفون عمومي الى بيتها ، وبعد ان أتأكد من انهـا في بيتها ، أذهب فأقف موقف الحارس تجاه باب بيتها ، في انتظار ان تخرج كعادتها ، حوالي الساعة الثالثة . وكانت علائم عديدة قد أقنعتني بأنها كانت تقصد الممثل في تلك الساعة تقريباً : سوف أتبعها ، واتأكد من وصولها الى بيت لوسياني ، فأنتظر خروجها ، وأقبض عليهـا آنذاك . ولم يكن مستبعداً بالطبع ان تتمكن سيسيليا ، حتى تلك اللحظة وذلك المكان ، من ان تجد وسيلة لتكذب عليّ ، او على الارجح ، من ألاّ تقرّ إلاّ جزءاً من الحقيقة ، يكون بالذات هو ذلك الجزء البريء الذي يوجد دائماً في كل عمل مذنب ؛ ولكني كنت أعوّل على المفاجأة وعلى الافتضاح لكي اكشف أمرهـا وأجبرها على الاعتراف . حتى اذا حصلت على الاعـتراف ، كنت على يقين بأن سقوط سيسيليا في عيني ، وتحرّري الذي يلزم عنه ، سيأتيان تلقائياً .

وكنت قد لاحظت ان ثمة حانة تقع على بعد بنايتين فيما تحت بيت سيسيليا ؛ عند ملتقى الشارع الذي تسكنه بشارع معترض . وقد أوقفت سيارتي ، بعد ظهر أحد الايام امام هذه الحانة ، وطلبت قسيمة وأدرت رقم سيسيليا . وبينما كان التلفون يرنّ لاحظت انه لم تكن لي اية حجة للتحدث معها . وكان قد سبق لنا ان تكلمنا في الصباح نفسه واتفقنا على ان نلتقي في اليوم التالي ؛ فما كان بوسعي انْ أقول لهـا ؟

وفكرت في ان ارجوها ان تجيء الى المرسم في هذا اليوم بالذات ، خلافاً لما كنا قد اتفقنا عليه ؛ وقلت في نفسي أيضاً بأنني اذا قبلت ، فسوف أعدل نهائيـاً عن ترصّدها .

ودقّ جرس التلفون طويلاً ، ثم جاء أخيراً صوت سيسيليا ، محايداً لا لون له:

ـ هذا انت ؟ ماذا تريد ؟
ـ لقد فكرت . اودّ لو أراك اليوم .
ـ اليوم ، مستحيل .
ـ لماذا هو مستحيل ؟
ـ لأنني لا أستطيع .
ـ هل تذهبين اليوم أيضاً الى هذا المنتج ؟

فلم تجب هذه المرة ، منتظرةً دون ريب أن أغلق السمّاعة . وكنت من جهتي أنتظر ، مؤملاً ان تكون سيسيليا منافقةً بما فيه الكفاية لتقول لي كلمة لطيفة ، كما تفعل كل امرأة تجد نفسها في موضع الارتياب والشك . ولكن سيسيليا كانت عديمة الخيال ، وكانت لا تقول قط اكثر مما كان ضرورياً . ولهذا سمعتها تختم الحديث ، بعد صمت طويل بقولها :

ـ الى الغد ، « شيو » .

وخرجت من الحانة ، وصعدت إلى سيارتي ، فذهبت أقف على بُعد بيتين ، تجاه مدخل بيت سيسيليا . وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أتجسّس فيها على انسان ؛ وقد سبق ان قلت ان الوهم كان يدغدغني بأن ذلك سيكون أمراً يسيراً . فبخلاف الذين كانوا يتجسسون بحكم مهنتهم ، من رجال الشرطة وسواهم ، ألم تكن هناك نساء ثرثارات يتجسسن عبر شقوق النوافذ ، وسوقة من ثقوب الأبواب ، وعاطلون عن العمل يريدون ان يقتلوا الوقت ؟

ولكني إذ باشرت ذلك بدوري ، اكتشفت امراً بسيطاً جداً لم أكن قد توقعته : ذلك انه إذا كان التجسس بحكم المهنة ، كرجال الشرطة ، اوّ بفضول الثرثارات والسوقة شيئاً ، فقد كان شيئاً آخر مختلفاً التجسّسُ من أجل غاية دقيقة تعنيك شخصياً ، كما كان وضعي . والواقع انه لم يكن قد انقضى بعد اكثر من عشر دقائق حتى أحسستني أتألم أكثر مما لو ظللت في مرسمي أحلّل ذهنياً شكوكي من غير ان ألتمس توكيداً لصحّتها . لقد كنت الآن مستمراً في الارتياب بسيسيليا ، ولكن كان ينضاف إلى ضيق الشك ضيقُ التجسس . فلو اني ، على

الأقل ، كنت أعرف اللحظة الدقيقة التي كانت سيسيليا تخرج فيها ، لأمكنني أن أكون مطمئناً ، حتى الدقيقة التي تسبق ظهورها على عتبة منزلها . ولكن لما كنت أجهل متى تصل هذه اللحظة ، فان كل هنيهة تمرّ كانت تتميّز في نظري بما تتميز به من مزية كبرى ومؤلمة تلك اللحظةُ الفريدة التي سأراها فيها وهي تبرز .

وهكذا فان الانتظار ، الذي كان يخيب كل لحظة ، لم يكن إلا ليتفاقم فارغاً ومتوتراً ، بدلاً من ان ينقسم بالنسبة لي إلى عدد من التأخرات التي يسهل تبريرها ، من مثل التأخر الذي يُمنح عادة للنساء ، او التأخر المتسبب عن التزيّن ، او عن مخابرة تلفونية ، او عن زيارة الخ ... وكان ذلك شبيهاً بلحنٍ حادٍ إلى أبعد الحدود كان يصعد أكثر فأكثر ، او كألم كامن يزداد حيوية .

وطوال الدقائق العشر الأولى ، انتظرت في هدوء ، لأني كنت واثقاً من ان سيسيليا لن تخرج قبل عشر دقائق ، ما دمت قد انتصبت للحراسة في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق ، وكنت أعلم انها لن تخرج قبل الساعة الثالثة . وقد انقضت هذه الدقائق العشر الأولى من غير ان تظهر سيسيليا ، فمنحتها عشر دقائق أخرى ، وقد انقضت هذه أيضاً . ثم عشر غيرها ، فقررت إذ ذاك ان أنتظر عشر دقائق أخرى ، من غير ان أستطيع هذه المرة ان أتصوّر بأية صورة ما الذي كان يحبس سيسيليا في بيتها . وقد استغرقت هذه الدقائق العشر الفارغة ، على كونها ما تزال محتملة ، وقتاً للانقضاء أطول من الدقائق الثلاثين الأولى ، لأنني لم أكن بعد مستعداً للانتظار ، وكنت أؤمّل ان أرى سيسيليا تظهر عند الدقيقة الرابعة أو الخامسة ؛ ولكن سيسيليا لم تظهر ، ووجدتني للمرة الخامسة تجاه وقت فارغ كان يُخمد همّتي ، كما يمكن لساحةٍ شاسعة خالية ان تُخمد همّة شخص مصابٍ بالأغورافوبيا [1] .

ومع ذلك ، فقد انتظرت وانا أقول لنفسي ، في أمل لا يخلو من صوفيّة ، إن سيسيليا لا يمكن هذه المرة إلا ان تأتي . ولكنها لم تظهر ، فعزمت على ان أنتظر عشر دقائق أخرى ، وانا أفكر لأعزي نفسي بأن الوقت الذي أكون قد قضيته

---

١ – دوار يشعر به بعض الاشخاص حين يعبرون ساحة او شارعاً .

ساعة هو ساعة ، وأن مدة ساعة ، في أية حالةٍ من الحالات ، هي مدة الانتظـار القصوى .

ولكن بالطبـع (وأقول: بالطبـع ، لأني كنت أحسّ منذ ذلك الحين بان ظهور سيسيليا سيكون أمراً مخالفـاً للطبيعة ، نوعاً من المعجزة) لم تجيء سيسيليا ، هذه المرة ايضاً ، فتجشمت ان انتظر للمرة السابعة عشر دقائق اخرى ، وأنا أبرر نفسي بفكرة دقيقة واعتباطية ، هي انه كان عليّ ، مــا دامت الساعة هي المدة القصوى للانتظار ، أن أمنح سيسيليا عشر دقائق زيادة عن الساعـــة ، بدافع من شهامةٍ على الأقل .

وفي تلك اللحظة ، تحقّقت من ان ذهني كفّ عن التفكير ، وانه إذن كان يرفض مرافقتي في هذا الانتظار . كنت وحيداً مع نفسي ، اي مع الضيق والقلق الذي كان في الوقت الراهن طراز حياتي الوحيد ، وكان الشيئان اللذان يهانني هما الساعة التي كنت احملها في معصمي ، وباب الخروج الذي كانت عيناي تراقبانه . فأما الساعة فكنت أقسر نفسي على ألا انظر اليها إلا كل ثلاث دقائق ، وأما باب الخروج ، فقد كنت انظر إليه اطول وقت ممكن ، وأنا أكاد اخشى ان تخرج سيسيليا في سرعة البرق وتختفي في اللحظة التي تكون فيها عيناي مثبتتين على ساعتي ، ولكن كان يحدث باستمرار ان نفاد صبري كان يجعلني أظن ان الدقائق الثلاث كانت قد انقضت ، حين انها لم يكن قد انقضى منها في الواقع إلا دقيقة واحدة ، واما الجهد الذي كنت ابذله لأجبر نفسي على التحديق في الباب ، فقد تبدّى لي فجأة غير محتمل ، على غرار كل توتّر عضوي يدوم اكثر مما ينبغي ، مندهشاً بأن أرى دقائق الانتظار هذه تبدو أبطأ من جميع دقائق حياتي التي كان عليّ فيها ان أنتظر ، وعلى العكس ، كنت أشعر برغبـــة تكاد لا تُقهر بأن أنزع عينيّ عن الباب الذي لم تكن عتبته تبدو خالية إلا لأني كنت أنظر إليه ، كما لو أنّ تلك الحجارة ، وهذا البلاط ، وجصّ الدار ذاك ، كانت تعرف انتظاري ، فتحرمني بخبث من رؤية سيسيليا ، لأني انما كنت أتمنّى تلك الرؤية بهذا العنف .

وإذن ، فقد انتظرت عشر دقائق ، بعد الساعـــة ، ثم عشراً أخرى ، لأني

كنت اعرف ان أم سيسيليا كانت تقصد في الرابعة والثلث حانوتها غير البعيد الذي كان يفتح في الرابعة والنصف ، وكانت سيسيليا احياناً تنتظر ذهاب أمها لتخرج . ولكن في الساعة الرابعة والربع ، أدرت ، بلا تفكير ، محرك سيارتي فجأة ، كما لو ان عضلاتي قد أصيبت بانتفاضة غير ارادية ، فأقلعت ومضيت . غير اني لم أبتعد كثيراً ، بل توقفت عند حانة الزاوية فهبطت وذهبت أتلفن . وأجابتني أم سيسيليا بصوت متردد :

– لا بدّ انها قد خرجت ، لقد كنت في المطبخ، ولم أرها ، يمكن ان تكون قد خرجت منذ خمس دقائق او منذ نصف ساعة .

فسارعت أغادر الحانة ، وصعدت إلى سيارتي ثانية ، ثم اجتزت بأقصى سرعتي الشارع والشوارع المتفرعة ، حتى بلغت محطة الاوتوبيس التي كنت أعرف ان سيسيليا كانت عادة تقصدها ، ولكني لم أجد أحداً . لا شك إذن في أن الأم قد أخطأت ، وان سيسيليا لم تخرج لا منذ خمس دقائق ولا منذ نصف ساعة ، بل منذ دقيقة ، ولا بدّ انها قد اجتازت عتبة بابها في اللحظة نفسها التي كنت ابحث فيها عنها في الشوارع المجاورة ، إلاّ ان تكون قد بلغت منتصف السلّم فصعدت ثانية لسبب لم أكن استطيع أن أتصوره ، بحيث انها الآن موجودة في البيت . ولكن لم تكن لديّ رغبةٌ بعد في ان انصرف مجدّداً إلى مراقبات تلفونية ، فعزمت ان أذهب فأعسكر تجاه بيت لوسياني .

وكان الممثل يسكن في شارع أرخميدس « بباريولي » وهو شارع ملتوٍ وضيّق يحيط بالرابية بين صفّين من البيوت العصرية . وكان قد سبق لي ان عبرت هذا الشارع ، قبل ذلك بأيام ، لا لأتجسّس ، بل لأرى المكان الذي كنت أعرف ان سيسيليا تقصده غالباً ، وحسبتني أتذكّر أنه كان ثمة ، تجاه بيت الممثل تماماً ، حانةٌ يسهل عليّ ان اراقب منها . وبالفعل ، ما كدت أترجل من السيارة ، حتى اقتربت من الحانة وتأكدت من أني لم أكن على خطأ : فقد كان خلف الواجهة طاولتان او ثلاث إذا تطلّع المرء منها عبر الزجاجات وعلب الحلويات ، أمكنه بسهولة ان يراقب باب البيت المقابل ، من غير أن يُرى .

وجلست، فطلبت فنجان قهوة ، وأخذت أراقب ، وهو عملٌ كنت قد بدأت احتقره من كل قلبي . وكان مدخل بيت الممثل المؤطّر بالمرمر الأسود يرتسم على الواجهة البيضاء كإعلان وفاة على صفحة جريدة ؛ ولكني اكتشفت بعد قليل ان زجاجة كحول ، معروضة في الواجهة ، كانت تحجب عني نصف الباب . وكان بامكان سيسيليا ان تتسلّ الى البيت،عبر هذا النصف الذي لم اكن أراه، او تتسرب خارجه من غير ان ألاحظها . وحاولت أن أغيّر موضع كرسيّ ، فاذا بعلبة بسكوت انكليزية كبيرة تحجب عني الباب برمّته . وتساءلت عما إذا كان مناسباً ان امدّ يدي وأغيّر موضع الزجاجة ، ولكني فهمت انني لن أستطيع ان أفعل من غير ان أثير تنبّه صاحب الحانة . وأخيراً قررت ان أتخلّص من الحاجة المربكة ، بأن اشتريها . صحيح أن صاحب الحانة كان يمكن ان يكون لديه زجاجة أخرى مماثلة، وانه بالتالي لن يعطيني زجاجة الواجهة ، ولكن لم تكن لديّ وسيلة أخرى لبلوغ هدفي ، فقد ناديت :

– اريد هذه الزجاجة .

وأقبل عليّ بسرعة ، وكان شاباً ذا هيئة قاسية ، هزيلاً وشاحباً جداً ، وكان له ما يتفرّد به : فم يشبه فم الأرنب مختفٍ تحت شاربين هابطين ؛ وسأل بصوت ضخم أليف :

– زجاجة الوسكي الكندي ؟

– نعم ، هذه .

فانحنى وتناول الزجاجة من الواجهة ورسم بحركة ابدالها بأخرى كانت معروضة الى جانبها . وقلت بحيوية ، في صيغة أمر :

– أرني إياها .

فمدّ لي الزجاجة ، وهو مندهش بعض الشيء ، فتظاهرت بأني أتفحّصها مطوّلاً ، على أمل ان ينسى المكان الخالي في الواجهة . ومن حسن الحظ ان دخل في تلك اللحظة زبون ، فتركني صاحب الحانة ليذهب خلف المشرب . وبعد قليل، جاءني بقهوتي ، ولكنه لم يضع زجاجة بدلاً من التي أعطاني إياها . وتنفّست

الصعداء ، ثم كرست نفسي لمراقبة الباب الذي أصبح الآن يُرى بأكمله .

وحسبت الحساب التالي : لا بدّ ان سيسيليا قد استقلّت الاوتوبيس ، لأني كنت أعرف انه لم يكن معها مال ، وانها من جهة أخرى لم تكن قطّ تتعجّل الوصول إلى مواعيدها . والواضح ان المسافة بالاوتوبيس تستغرق على الأقل عشرين دقيقة بين بيت سيسيليا والباريولي . هذا ، طبعاً ، إذا كانت سيسيليا قد خرجت حقاً قبل مخابرتي التلفونية بدقيقة ، وإذا كانت متوجهة إلى بيت لوسياني . وقررت ، ظاهرياً على الأقل ، بأنّ هذين الاحتمالين كانا صحيحين ، وقضيت زهاء عشرين دقيقة وأنا لا أنزع عيني دقيقة واحدة عن الباب .

وبعد ان انقضت هذه الدقائق العشرون،تصبّرت ايضاً عشر دقائق، ثم طرحت على نفسي هذا الافتراض : إما ان تكون سيسيليا قد وصلت قبلي بسيارة تاكسي (لم يكن ذلك بعيد الاحتمال : فقد وجب عليّ أن أتوقف ثلاث مرات عند الاشارات الحمر) واما انها لم تصل اطلاقاً . فما الذي كان ينبغي عمله ؟ أأنتظر أن تخرج أم أذهب ؟ وكنت من شدة الثقة يومذاك بأن سيسيليا قد قصدت بيت لوسياني ، حتى إني عزمت ، آخر الأمر ، على أن أنتظر . ثم لنفرض ان سيسيليا قد وصلت قبلي بخمس دقائق،فقد كان يبقى عليّ أن انتظر خمساً وثلاثين دقيقة على الأقلّ .

ولكن برز لعيني فجأة شبح رجل في سترة خضراء ، كما لو أن ذلك كان بمثابة نفي لهذا العزاء المتواضع . وخيّل إليّ أني أتعرف فيه على شخص كنت أعرفه ، وحين اجتاز الشارع ، عرفته نهائياً من كتفيه العريضتين ، ورأيته يدخل البيت ويختفي .

وهكذا فإن انتظاري كان ما يزال في بدئه . كانت سيسيليا قد وصلت قبل لوسياني ، فدخلت الشقة وكانت في انتظاره ؛ او انها لم تكن قد أتت ؛ ولكن التثبّت من ذلك يقتضي الانتظار ردحاً من الزمن لا يعرفه الا الله . والدقائق الثلاثون التي قضيتها وانا أتجسّس ، انما انقضت عبثاً .

وشعرت بسرعة ان الانتظار تجاه بيت سيسيليا ، اذا كان مؤلماً ، فأشدّ من ذلك إيلاماً بمئة مرة ، كان الانتظار امام بيت الممثل . فالواقع اني حين كنت

انتظر سيسيليا خارج بيتها ، كنت أنتظر ان تنتهي من طعامها ومن ارتداء ثيابها او من انتهاء ثرثرتها مع امها ، وكلها أشياء بريئة ؛ ولكني اذ أنتظرها خارج بيت لوسياني ، فانما كنت أنتظر ان تفرغ من القيام بفعل الحب . وهكذا ، بينما كنت قبل ذلك بساعة أعاني من انتظار فارغ لا شكل له ، ولم تستطع مخيّلتي ان تملأه ، فقد كنت أعرف الآن معرفة جيدةً لماذا كانت سيسيليا عند لوسياني ، وكنت أعاني من انتظار كان يأخذ شكل العمل الجنسي وإيقاعه. وبعكس ما كان يحدث من قبل ، كان بوسعي الآن ، وأنا أنظر الى ساعتي ، أن أحسب بالدقيقة تقريباً ما كان يحدث في شقة الممثل . « في هذه اللحظة ، تنزع سيسيليا كنزتها من رأسها . وفي هذه اللحظة تقترب ، عارية ، من السرير ، فتصعد وتتمدّد عليه . وفي هذه اللحظة ، تصيب نشوتها الاولى ، وبعد إنتفاضتين عنيفتين او ثلاث من بطنها، تقلب رأسها الى خلف وتستسلم ، نافذة القوى . » وكانت جميع هذه التصورات تجدّد لديّ بالطبع الشعور بأني لا أمتلك ، ولم يسبق لي قط ان امتلكت سيسيليا ، لأنني حتى الآن لم أتوهمّ اني امتلكتها إلا بان أمتلك جسمها ، هذا الجسم الذيهو الآن بين ذراعي لوسياني .

وكان الاحساس بعدم قابلية سيسيليا للالتقاط يُولد ايضاً من عدم اليقين الذي كنت أجدني فيه بالنسبة لحضورها الفعلي في بيت لوسياني . فقد كان ممكناً ، بعد كل حساب ، ألاّ يلتقيا ذلك اليوم ، لسبب كنت أجهله . وفي مثل هذه الحالة ، كانت تصوّراتي تصبح تصوّرات غيورٍ لا يختلف عن الغيورين المبتذلين ، غيورٍ يبنى على علامةٍ خادعة بناءً شاهقاً من الافتراضات . والحق ان ذلك كله لم يكن يعني أن سيسيليا لم تكن تخونني ، وانما كان يعني ببساطة أنها لم تكن تخونني في ذلك اليوم بالذات .

وأخيراً ، قررت ان أتلفن للوسياني ، فربما استطعت ، بواسطة ضجّة ما ، أن أحزر حضور سيسيليا في الشقة . ومن حسن الحظ أن جهاز تلفون الحانة كان قريباً من الباب ، بحيث كنت استطيع ان أتلفن من غير أن أكفّ عن مراقبة البيت المواجه . وطلبت الرقم، فسمعت صوت الممثل ودفعت القسيمة ولم يكن

حسابي خاطئاً مئة بالمئة ، إذ بينما كان الممثل يردّد : « آلو ، آلو » تمكنت بالفعل من أن أسمع بوضوح ألحان موسيقى راقصة؛ وكان ذلك انهياراً لقلبي، لأني كنت أعرف أن سيسيليا كانت مغرمة بالقيام بفعل الحب على ألحان الموسيقى . وبعد أن ردّد الممثل « آلو » مرة أخيرة ، أضاف كلمة واحدة : « أبله ! » ثم أعاد السماعة.

ولئن كانت الموسيقى قد صوّرت لي ، على نحوٍ ما ، ابعاد الغرفة وموضعها ومظهرها ، تلك الغرفة التي كانت الموسيقى تُصدى فيها ، فان هذه الشتيمة التي حسبتني أشعر فيها بالغيظ الناشىء عن الازعاج ، وفي الوقت نفسه بالغرور الرجولي الذي توحيه طبيعة الشيء نفسه الذي أزعج ، إن هذه الشتيمة قد أرتني سيسيليا والممثل كما كانا في تلك اللحظة ؛ هو ، واقفاً، عارياً ، قرب الطاولة الصغيرة التي كان جهاز التلفون موضوعاً عليها ، راشحاً ، بعضلاته الصدرية الواسعة وكتفيه العريضتين اللتين يغطيها الشعر ، وبطنه ذي العضو الذي ربما كان لا يزال في حالة الانتصاب ، وخاصرتيه وساقيه العتليتين ؛ وهي ، عارية ، متمدّدة باسترخاء على السرير ، تحضن بعينيها جسم عشيقها .

وأغلقت السمّاعة ، وعدت اجلس خلف الواجهة .

وانتظرت ايضاً زهاء عشرين دقيقة ، ثم برز لي دليلٌ آخر عن حضور سيسيليا في بيت لوسياني . فقد سُمع جرس التلفون يرنّ في الحانة ، فقصد صاحب الحانة الجهاز فأصغى وقال بصوت عليّ عسكري :

– ... « في خدمتك دائماً ، يا سنيور لوسياني » .

وبعد لحظة ، رأيت خادم الحانة ، وهو فتى مراهق ذو سحنة محمرّة ، يخرج وهو حاملٌ صينية أتيح لي أن ألقي نظرة عليها: كان ثمة زجاجة بيرة،وسندويشات مغلّفة بنشفة ، وقدح كبير من عصير البرتقال .

وكنت أعرف ان سيسيليا كانت تحبّ ، بعد فعل الحب ، أن تطفىء عطشها بثلاث برتقالات معصورة أو اربع . وتبعت الخادم بنظري ، فرأيته يدخل باب البيت المواجه ، ثم يخرج بعد دقيقة حاملاً صينية فارغة .

ودخل إلى الحانة ، فقال له سيّده بلهجة ضاحكة هازئة :

– ما بك ؟ ما الذي رأيته ؟ لقد اوصيتك مع ذلك اكثر من مرة : إن ما تراه عند الناس لا يعنيك ... هيّا عجّل ، إغسل هذه الأقداح .

وفي تلك اللحظة بالذات ، كما لو اني كنت مدفوعاً بنابض قويّ ، وبالطقّة العضلية نفسها التي جعلتني أتخلّى عن مراقبة بيت سيسيليا ، وضعت المال على الطاولة ، وتناولت زجاجة الويسكي وخرجت .

وفهمت بعد ان انتظرت طوال هذه المدة ، أن ذهابي كان يعني إلقاء جميع الجهود وجميع الآلام التي عانيتها بعد ظهر هذا اليوم الطويل ، ونثرها أدراج الرياح ، ولكني كنت أحس انني لن أقوى بعدُ على الانتظار ، بالنسبة لذلك اليوم على الأقل . وفيما بعد ، فكرت بأني ربما كنت في الواقع أريد تأخير اللحظة التي سوف أشعر فيها ، فيما أكون على أتمّ اليقين بخيانة سيسيليا أنني كنت امتلكها ، ما دام باستطاعتي ان أدينها ، وبالتالي اني كنت متحرّراً منها ، واني كففت عن حبها . وعلى أي حال ، فان التدليل النهائي على هذه الخيانة قد أرجيء إلى ما بعد ، وأرجيء معه كشف خداع سيسيليا ، وتحوّلها من مخلوقة سرّية إلى بغيّ صغيرة تافهة .

لقد أردت أن أصوّر بهذه التفاصيل يوم تجسّسي الأول ، لأن الأيام العديدة الأخرى التي تلت كانت مشابهة تقريباً ، وهذا ما يوفّر عليّ التحدّث عنها مطوّلاً . والفرق الوحيد هو اني كنت في اليوم الأول ما أزال قادراً على أن أتصرّف بواسطة منهج ما . وعلى العكس ، بمقدار ما كان الزمن ينقضي ، وكانت هذه الانتظارات المرهقة تتكرّر ، كنت أتصرّف اعتباطاً وفي بلادة . والواقع ان التجسّس بطريقة مجدية كان يقضي ، كما سبق ان ذكرت ، ان أملك ما يملكه رجل التحري من تجرّد تكنيكي بارد ، او ما يملكه الجريء من فضول يجد غايته في نفسه . ولكني على العكس كنت أراقب سيسيليا بنفس عاشق قلقة ، وكان سواء لدي ان اكون عاشقاً لم يكن يريد ان يحتفظ بالمرأة التي كان يحبها ، بل كان يريد أن يتحرّر منها .

وكم من ساعة قضيت خلال هذه الأيام ، جالساً في سيارتي تجاه بيت سيسيليا !

وكم من ساعة في الحـــانة ، أمام الطاولة وراء الواجهة ! ولـكي أفهم إلى أي حدّ كنت مغموراً بالغيرة ، يكفيني ان اقول انني بعد اسبوع من الترصّد المرهق ، اكتشفت بالاتفاق ان مراقبة بيت سيسيليا كانت بلا جدوى ، لأنه كان للبيت مدخلان : احدهما على الشارع الذي كنت أنصب فيه كميني ، والآخر على شارع موازٍ كانت تمر فيه الاوتوبيسات وكان يمكن العثور فيـــه على سيارات أجرة . وبالطبـع ، كانت سيسيليا تخرج من هذا الباب الأخير الذي كان يناسبها تماماً . وقد بدا لي هذا الاكتشاف ذا مغزى . فقد كنت من شدة الخبـــل بحيث اني احتجت إلى اسبوع لألاحظ أمراً كان اي انسان يفكر به منذ اللحظة الأولى .

وبعد ان اكتشفت المدخل الثـــاني لبيت سيسيليا ، حسبت ان مراقبتي التي أصبحت تقتصر على بيت الممثل وحـده ، ستغدو أسهـل بكثير . ولكني كنت مخطئاً مرة اخرى . كان يبدو الآن انني كنت اختار دائماً ، من دقائق النهار كلها، تلك التي لم تكن تجري قطّ على ساعة يد سيسيليا . إن زمن سيسيـليا وعشيقها لم يكن زمني . كان زمنهما هو ثمن الحب الهادىء ، المطمئن ، المنتظم . أما زمني ، فكان زمن الغيرة الغاضب المتشنّج .

وإذن ، فقد كان يحدث على الأرجح اني كنت أصل إلى الحانة حين تكون سيسيليا قد دخلت بيت الممثل ، وكنت أغادر الحانة حين لا تكون هي قد خرجت من بيته . والواقـع اني لم اكن أنجح في التغلّب على نفوري من هـذا التجسّس الذي كنت أجده مذلاً ومخيّباً في وقت واحد . كان هذا النفور يجعلني كسولاً حين أقصد الحانة ، ونافد الصبر في تعجّل انتهاء انتظاري .

وهكذا ، وبالرغم من تهافتي في ترصد سيسيليا ، لم أرها مرةّ واحدة تدخل إلى بيت لوسياني او تخرج منه . وكان يبدو لي ذلك امراً لا يصدّق ، وانه خارج الطبيعة ، حتى انه قد اتفق لي احياناً ان أفكـّر بأن سيسيليا انما كانت مخلوقاً غير مرئيّ ، ولقد كانت كذلك ، بالنسبة لي على الأقل ، شأنها في ذلك شأن الأشياء التي كانت تفلت من الذهن ، فيما تكون بديهيةً للحواسّ .

وعدم قابلية سيسيليا للالتقاط لم تكن موكدة لي فقط بافلاس مراقبتي ، وإنما

ايضاً بافلاس تحقيقاتي عن علاقاتها مع لوسياني فبالرغم من معرفتي بأني لم أكن استطيع ان أهاجمها مواجهة بسبب استعدادها الدائم للكذب عليّ ، وهذا ما كان يجعلها أشدّ امتناعاً على الالتقاط ، حاولت احياناً ان احملها على الكلام عن الممثل بطريقة تافهة لأرى إذا كانت في أجوبتها تشفّ عن أن تكون اكثر من ودّية .

وهذا نموذج عن هذه الاستجوابات :

– هل ترين لوسياني كثيراً ، في هذه الفترة ؟

– نعم ، أراه أحياناً .

– وبالاجمال ، انت تعرفينه الآن جيداً ؟

– نعم ، أعرفه قليلاً .

– إذن ، قولي لي رأيك فيه .

– رايي فيه ؟ ماذا تقصد ؟

– نعم ، رأيك فيه ، أقصد كيف تحكمين عليه ؟

– إنني لا أحكم عليه ، ولماذا يجب أن أحكم عليه ؟

– أقصد أية فكرة تكونينها عنه ، وكيف تجدينه ؟

– إنه لطيف .

– هذا كل شيء ؟

– ماذا تقصد بـ : هذا كل شيء ؟

– لطيف فقط ؟

– أجل ، انه يبدو لي لطيفاً ، وهذا كل شيء .

– وأنت تخرجين معه لأنه لطيف وهذا كل شيء .

– نعم .

– ولكني لطيف ، وأنت لطيفة ، وأبوك لطيف ، وأمك لطيفة ، فالقول عن شخص بأنه لطيف لا يعني شيئاً تقريباً .

– وماذا يجب أن أقول ؟

– نقائص ، مزايا ، طيّب ، شرّير ، ذكيّ ، بليد ، بخيل ، كريم ... وما يدريني ؟

فصمتت هذه المرة ، مجيبةً على كلامي بصمت لم يكن عدائياً ، ولم يكن مقهوراً ، ولم أمتنع عن التفكير بأنه يشبه صمت حيوان . وألححت :

– أراكِ لا تتكلمين ؟

– ليس لديّ ما أقوله . تريد ان تعرف كيف هو لوسياني ، ولا استطيع ان أقول لك شيئاً ، لأنني لم أفكر بالأمر قط ، ولأنني لا اعرفه . كل ما اعرفه هو انني أجد نفسي راضيةً معه .

– لقد قيل لي أنه كان ممثلاً رديئاً جداً .

– هذا ممكن ، وانا لا أفهم شيئاً من ذلك .

– ومن أين هو لوسياني ؟

– لا أدري .

– وما هو عمره ؟

– لم أسأله ذلك قط .

– هل هو أصغر مني سناً أم أكبر ؟

– ربما كان أصغر .

– انه كذلك بلا شك . ويصغرني بعشر سنوات على الأقل . قولي لي : هل له أب وأم وأخوة وأخوات ، وبالاجمال أسرة ؟

– اننا لم نتحدث في ذلك .

– وبمَ تتحدثان حين تلتقيان ؟

– بأشياء كثيرة ...

– مثلاً ؟

– كيف لي أن أتذكّر ؟ إننا نتحدث ، وهذا كل شيء .

– اما انا فأتذكّر جيداً جميع احاديثنا تقريباً .

– واما انا ، فعلى العكس ، لا أتذكّر شيئاً قط .

— ولكن ، بالاجمال ، إذا كان عليك ان تصفي لوسياني ، إذا كنت مجبرة على ذلك ، ولم تكوني تستطيعين تحاشي الأمر ، فكيف تصفينه ؟

فترددت ثم أجابتني ببساطة :

— ولكن ليس ثمة من يجبرني ، فلست إذن مضطرة إلى وصفه .

— إذن ، سأصفه لك بنفسي : إنه طويل ، عتليّ ، ذو كتفين عريضتين ، وعينين سوداوين ، وشعر أشقر ، ويدين صغيرتين ، وقدمين صغيرتين ، وهيئة مختالة .

— ماذا تعني كلمة : مختالة ؟

فصمتت لحظة ، ثم قالت ملاحظة :

— صحيح ان يديه وقدميه صغيرة ، اما وأنك تقول لي ذلك ، فاني الآن أتذكّره .

— لو لم أقله لك لما تذكّرته ؟

— إنني لا أفعل كما تفعل ، فأنا لا أنظر إلى الناس في تفاصيلهم . وإنما أرى فقط إن كنت أجدهم لطفاء او غير لطفاء . وهذا يكفيني .

وجاءتني الفكرة طبعاً أن أتساءل عن رأي سيسيليا بي . وكان على رأس لساني هذا السؤال :

— ولكن ما رأيك فيّ ؟

غير أني لم أستطع طرحه ، كما لو اني كنت أخشى ان تجيبني ، كما فعلت بصدد لوسياني ، بأنها لا تفكر بشيء عني .

على أني عزمت ذات يوم فسألتها :

— وما رأيك فيّ ؟

فأجابت بصورة غير متوقّعة :

— اوه ! عندي أشياء كثيرة .

فأحسست بالعزاء وألححت في السؤال :

— حقاً ؟ ما هي ؟

– لا أستطيع ان أقول ... أشياء كثيرة .
– قولي لي واحداً ، على الأقل .

فبدت تفكّر ، في اهتمام ، ثم أجابت :

– ربما لأنك تريد الآن بالذات أن تعرف ذلك ، فاني لا أجد شيئاً ، هذه اللحظة .

– ماذا تقصدين ؟
– أقصد انّ لدي شعوراً في هذه اللحظة بأني لا أفكر بشيء .
– لا شيء على الاطلاق !
– لا شيء .
– ولكن منذ لحظة كنت تقولين انك تفكرين بأشياء كثيرة عني ؟
– لقد قلت ذلك ، ولكن يبدو اني كنت مخطئة .
– ولكن ألا يزعجك ألاّ تفكري بشيء ، بشيء على الاطلاق ، عن الرجل الذي تقومين معه بفعل الحب ؟
– كلا ، لماذا ؟ أيّ حاجة لنا بأن نفكر في شيء ما ؟

وهكذا ، فان سيسيليا لم تكن تظل فحسب غير قابلة للالتقاط ، بل كانت تنجح في أن تجعل كل ما كان يعنيها غير قابل للالتقاط : شأنها في ذلك شأن بعض شخوص قصص الجن الذين لا يرضيهم ان يكونوا غير مرئيين ، فإذا هم يجعلون كل ما يمسّونه غير مرئي .

ومع ذلك ، فقد كنت أمتلكها مرتين او ثلاثاً في الأسبوع ، أقصد اني كنت آخذها . وتجاه عدم كفاية العمل الجنسي هذا ، كان لشخص آخر ان يبحث في ميدان آخر عن شرح لهذا العطش الذي كان يتفاقم بمقدار ما كان يُروى . ولكني كنت بعد الآن على دروب أحسها مشؤومة ومخطئة: وهكذا كنت أتهافت على ان ألتمس في الامتلاك الجسدي ، الذي كنت أعرفه مع ذلك وهمياً ، هذا الامتلاك الحقيقي الذي كنت محتاجاً اليه حاجةً يائسة . ربما كنت أشعر ، وانا أرتمي على جسد سيسيليا ، بأني كنت أعرض بهاتين الساعتين من الحضور الخدّاع ،

عن غياب الأيام الأخرى ؛ وربما كنت أبحث في وداعتها التي لم تكن قابلة للتعكر ، عن عامل للسأم ،وبالتالي للتحرر. ولكن جسد سيسيليا لم يكن سيسيليا ، وما كانته سيسيليا ، لم أكن أنجح في أن أعرفه . اما وداعتها ، فقد كفت الآن عن ان توحي لي بأي سأم ، وانما كانت توحي بجذر عميق ، كضرب من شرك للطبيعة وضعت فيه قدمي ، ولم أكن أنجح في التخلص منه .

على أي حال ، لا أذكر أني أحببت قط سيسيليا بمثل العنف الذي احببتها به في تلك الأيام التي كنت أراقبها فيها وانا أفكر بأنها كانت تخونني . كنت أرتمي عليها كما أرتمي على عدو اريد أن أقطعه إرباً ،وهو مع ذلك عدو حبيب كان يحثني هو نفسه ، بطريقة ملتبسة ، على أن أتصرف كذلك ؛ ولم أكن لأقنع قط باعتناق واحد . فبشكل ذي مغزى ، كان الإحساس بأني لا أمتلكها حقاً يرهقني غالباً إذ كانت تتجه نحو الباب ، مرتدية ثيابها ، لتذهب بعد ان تكون قد ودعتني ؛ كما لو ان رحيلها كان يكشف لي فجأة ، بطريقة جسمية محض ، قدرتها التي لا تتغيّر على الافلات مني والفرار . وكنت آنذاك أهرع اليها فأقبض عليها من شعرها وأقذف بها في عنف إلى الأريكة ، من غير ان أتوقف عند احتجاجاتها ، التي كانت في الحقيقة ضعيفة ، وكنت آخذها من جديد، كما هي ، مرتدية ثيابها كلها، وحذاؤها في قدميها ، ومحفظتها في ذراعها ، تداخلني دائماً تلك الفكرة الوهمية بأن أمحو ، إذ آخذها ، استقلالها الذاتي وسريتها . وبالطبع ، كنت ألاحظ ، بعد الاعتناق مباشرة ، اني لم اكن قد امتلكتها . ولكن بعد فوات الأوان ؛ كانت سيسيليا تمضي ، وكنت أعلم ان كل شيء سيعود من جديد في اليوم التالي : المراقبة اللامجدية ، والامتلاك المستحيل ، وخيبة .

واخيراً ، وبعد اكثر من شهر على التجسس اللامجدي ، ومن الجنون الجنسي الذي هو اكثر لا جدوى ، فهمت ما كان ينبغي لي أن أحزره منذ اليوم الاول : اي ان المراقبة ليست امراً يمكن ان يقوم بـه الشخص نفسه الذي يهتم بنتائج المراقبة . فإذا كنت أريد ان أبلغ غايةً ما ، فعليّ ان أتوجه للاستعانة بأولئك الذين كانوا يمارسون هذه المراقبة بدافع من واجبهم المهني : وكالة تحقيقات خاصة .

وكانت سيسيليا هي نفسها التي اوحت لي بفكرة الوكالة .

فاني فيما كنت أراقبها ، لم أكن أكفّ قط عن التفكير بباليستياري . وكان الرسّام العجوز الذي لم أهتم به مطلقاً في حياته ، قد أصبح بالنسبة لي ، الآن وقد مات ، موضوع اجتذاب فظيع وغير قابل للفهم . وكنت اقول لنفسي احياناً : الواقع ان باليستياري كان لي ما تكونه مرآة لمريض : شاهد لا يُرد لما يحرزه المرض من تقدم . وكنت أفكر خصوصاً بباليستياري كلما كنت أحسب اني أقوم بأمر كان قد سبقني الى القيام به . من اجل هذا ، لم اقاوم، خلال الأيام التي كنت أتجسس فيها على سيسيليا ، اغراءً لسؤالها عما اذا كان الرسام العجوز قد عرف الضعف نفسه .

كنا في السيارة ، وكنت أصحب سيسيليا الى بيتها ، ذات مساء . واذ وصلنا الى الشارع الذي كانت تسكنه ، والذي سبق لي ان انتظرت فيه مرات عديدة ، بلا جدوى ، أن تخرج من بيتها ، أوقفت السيارة وسألتها ، من غير تمهيد :

– هل تجسس عليك باليستياري يوماً ؟

– ماذا تقصد ؟

– هل كان يلاحقك ، وينتظرك ، ويراقبك بالاجمال ؟

– نعم .

– لم تقولي لي دلك قط .

– لم تسألني في ذلك قط ،

– وبأية طريقة كان يراقبك ؟

– كان يقف في ساحة البيت الخارجية ، وينتظر أن أخرج .

وفكرت بأن باليستياري كان إذن أذكى مني ، فانه قد اكتشف على الفور المخرجين كليهما . وسألتها ايضاً :

وبعد ذلك !

– بعد ذلك ، كان يتبعني فور خروجي .

– وكان يفعل ذلك غالباً ؟

– في فترة من الفترات ، وفعله كل يوم .
– وفي أية ساعة كان يترصّدك في الساحة ؟
– كان هـــذا يتوقّف . فحين كان يعرف في بعض الايام ان المفروض ان أخرج في ساعة مبكرة ، كان يعسكر في الساحة منذ الثامنة .
– و كيف كنت تستطعين ان تعرفي ذلك ؟
– كنت أراه من نافذة غرفتي .
– وما الذي كان يفعله في الساحة ؟
– كان يذرعها جيئة وذهابـــاً او يتظاهر بقراءة جريدة ، او يرسم على دفتر صغير .
– ولكن ما الذي كان يفعله حتى لا تريه انت حين كنت تخرجين ؟
– كان يذهب فيقف في عتمة المدخل ، او خلف شجرة .
– وبعد ذلك ؟
– ثم كان يتبعني .

ولزمت السكوت لحظـــة ؛ وكان يُخيّل إليّ أني أرى الرسام العجوز القصير المربوع ، بكتفيه العريضتين ، وقدميه الكبيرتين ، ووجهه الأحمر وشعره الفضيّ ، يرفع ياقة مشمّعة ، ويخفض على عينيـه طرف قبعته ، ليتبـع مراهقةَ الستة عشر عـاماً ، من الساحة الى الشارع ، ومن شارع الى شارع ؛ وأحسست في ردّ فعـل معاكس هذا الشعور من العار الذي أصبح مألوفاً وانا أفكر بأني قـــد قمت ، طوال أيام ، بمثل هذا تماما . وقلت مؤكّداً :

– ولكن هل كنت تلاحظين انه كان يتبعك ؟
– احياناً نعم ، واحياناً لا .
– وماذا كنت تفعلين حين كنت تلاحظين ذلك ؟
– لا شيء ؛ كنت أتابع طريقي كما لو ان شيئـاً لم يحدث . غـير اني التفتُ مرة ، فأقبلت للقائه وتوجهنا معاً الى مقهى .
– وماذا قال في المقهى ؟

– لم يقل شيئاً . بل اخذ يبكي .

وظللت صامتاً لحظة. وانتهزت سيسيليا الفرصة، ولم تكن تحب الاستجوابات، فتظاهرت بأنها تتوجل من السيارة ، ولكني أوقفتها :

– انتظري . في الوقت الذي كان يراقبك فيه هل كنت تخونينه ؟

فأجابت ، كأن توافق الظروف قد سلاها :

– تصور اني لم أكن أخونـه على الاطلاق ولم أعرف شخصاً آخر إلا بعـد بضعة أشهر .

– وعلى هذا ، فقد كان يراقبك بلا سبب ، وبلا عدل ؟

– بكل تأكيد .

– وحين تعرفت على ذلك الشخص الآخر ، كما تقولين ، كفّ عن متابعتك؟

– لا ، لأنه حصل على الدليل بأني لم أكن أخونه .

– و كيف ؟

– لقد كلف أحداً باتباعي .

– مَنْ ؟

فقالت في غموض :

– إحدى تلك الوكالات التي تقوم بالتحقيقات ، وبالاجمـال كلّـف رجل تحرّ خاصاً . فأكدوا له اني لم اكن اعرف غيره .

– وكيف استطعت ان تعرفي انه كلف وكالة بمتابعتك ؟

– لقد قالها لي هو نفسه . وقـــد قرأ لي ذات يوم وصفاً لأعمالي وحركاتي ، طويلاً في أربع صفحات . وقد كلفه ذلك لا أدري كم ...

– وهل كان مسروراً ؟

– كان سعيداً .

وسألتها بعد صمت قصير :

– وقد خنته فور ان دلّت له الوكالة انك لم تكوني تخونينه ؟

– نعم ، بعد ذلك بشهر ، لم أفعل ذلك عن قصد : وانما كان بالمصادفة . .

– وهل عرف الأمر ، هو ؟
فترددت ، ثم أجابت :
– اعتقد أنه ارتاب بشيء ما ، ولكنه لم يكن يوماً واثقاً من ذلك .
– يعني ؟
– لقد رآني مرتين او ثلاثاً مع الفتى نفسه ؛ فعاد يلاحقني بنفسه ، من غير معونة الوكالة . غير أنه تعب قليلاً من ذلك ، فكان يقوم بالمتابعة اقل من ذي قبل . ثم مات .
– ولماذا لم يكلف الوكالة ، تلك المرة ، بمتابعتك ؟
– فقالت بهيئة تفكر :
– لو كلف أحداً بذلك لعلم كل شيء . ولكنه لم يكن يؤمن بعدُ بالوكالة . كان يقول إنني قد خنته دائماً ، وأن الوكالة لم تعرف أن تكشف الحقيقة .

وبعد هذه المحادثة ، عاودني التفكير مرة بعد مرة بأن ألجأ الى وكالة ، كما فعل باليستياري . والغريب انني بينما كنت في الماضي أمتنع عن القيام ببعض الأمور ، لأني كنت أعرف ان باليستياري كان قد فعلها ، كنت أحسني الآن ، على العكس ، ميّالاً للجوء الى وكالة كما لجأ باليستياري الى وكالة لكأني بعد ان اعترفت بلا جدوى جهودي التي كنت أبذلها لأقف على هذا المنحدر الذي سبق لباليستياري ان انزلق عليه ، عزمت على القيام بما كان يقوم به من أعمال ، كما لو أنّ القيام بها طوعاً ووعياً كان هو بعد الآن الطريقة الوحيدة لأتميّز بها عنه ، هو الذي فعلها بالرغم عنه تقريباً ، في حالة لا وعي قريبة من الجنون .

وإذن ، فقد مضيت ذات يوم الى وكالة « فالكو »[1] الواقعة في بيت مظلم بشارع ناسيونال ، شديد الزهو من الخارج ، مزدان بالاعمدة والتماثيل والكتابات اللاتينية ، ولكنه معتم وبائس من الداخل. ورقيت حتى الطابق الرابع في مصعد كريه الرائحة وفي حالة يرثى لها ، وخرجت الى سطيحة مظلمة فتوجهت

١ – فالكو تعني بالايطالية طائر الباز .

نحو فتحة بات ذي زجاج متّسخ كان معلّقاً عليـــه اسم الوكالة وصورة عصفور رمزي صغير لا بدّ ان يكون بازاً .

وانفتح الباب الزجاجي فرنّ معه جرس ؛ ودخلت غرفة أمامية فارغة تقريباً، مؤثثة ببعض كراسي خيزران . وكان رجلان يخرجان آنذاك من غرفة وهما يشدّان نطاق مشمّعيهما ويركزان قبعتيهما على رأسيهما؛ وقد حكمت من مشيتهما بأنهما لا بدّ ان يكونا من رجال التحري ، وستُعهد قضية متابعة سيسيليا إلى مثلهما . وظلّ الباب مفتوحاً ، فاقتربت من العتبة ؛ وكان في جوف غرفةٍ كبيرة رجل أسمر هزيل ، أصلع ، ذو صدغين منكمشين وخدّين ممتقعين ، وكان يقرأ صحيفة خلف مكتب . وقال لي بصوت قوي ، ولكنه لطيف :

– انني المدير ... تفضّل بالجلوس .

ودخلت ، فنهض ليمدّ لي يده ويقدّم نفسه :

– الماجور موسكوني .

وجلست ونظرت اولاً الى الوجه الضامر ، ثم الى البذلة السوداء المتهرئة ، وربطة العنق المعقودة عقداً رديئاً،ولطخات الحبر القديمة التي تلطّخ ظاهر المكتب وكنت أتساءل عما يمكن ان يكون لذلك كله من شأن مع سيسيليـــا ومعي ، وكان الجواب « لا شيء » ومع ذلك ، فقد قلت :

– أود ان أدعوكم إلى مراقبة شخص .

فأجاب الماجور بلهجة حيّة وسريعة :

– اننا هنا من أجل ذلك ... هل هو رجل ام امرأة ؟

– امرأة .

– وهل هذه المرأة زوجتك ؟

– لا ، فلست متزوجاً . وإنما تربطني بها عاطفة خاصة .

– هل المطلوب إذن تحقيق « سابق للزواج » ؟

– إذا شئت .

فقام الماجور بحركة يقصد بها أنه لن يلحّ ؛ فلم تكن بي حاجة لمزيـــد من

الكلام ثم سأل :

– وبأي دافع تريد ان تراقب هذه المرأة ؟

فنظرت الى الماجور ؛ وكانت سحنته تتناقض في كل شيء مع اسم تلك الوكالة المدعوة بالباز ، ذلك الطير الكاسر ذي النظرة النافذة . وكانت عيناه الغائرتان ، الصغيرتان والمنطفئتان ، تحملان على التفكير ببرقش أعمى اكثر مما تحملان على التفكير بباز . وأجبت في قسوة لطيفة تقريباً :

– إن لي أسباباً وجيهة للاعتقاد بأن هذه المرأة تخونني .

وكان واضحاً كل الوضوح ان الماجور لم يكن حريصاً على ان يبلغ بهذه السرعة المفرطة الى عقدة القضية ، التي هي في الحقيقة بسيطة جداً ، لا لأنه لم يكن يفهم ما هو الموضوع وإنما ليحافظ على رصانة دوره .

وسأل :

– أهي متزوجة ؟

– لا ، بل هي فتاة .

– وهل انت متزوج ؟

– قلت لك ان لا .

– عفواً ... لقد نسيت ذلك... إذن، إن لديك شعوراً بأن هذه الآنسة... لأنها آنسة ، أليس كذلك ؟

فلم يسعني إلا ان أؤكد بنفاد صبر :

– طبعاً .

– اعذرني ، لقد أسأت التعبير : كنت أريد ان أعرف إن كانت القضية قضية آنسة تنتمي الى اسرة طيبة ، ام قضية امرأة تعيش وحدها ، وتسوق حياة مستقلة ؟

– آنسة من أسرة طيبة .

فقال بلهجة سرّية :

– لقد توقعت ذلك .

فلم أتمالك هذه المرة من ان اسأله :

– ولماذا توقعت ذلك ؟

– إن هؤلاء هنّ اللواتي يشغلننا اكثر من سواهن ، الفتيات الصبيّات ،ذوات الثامنة عشرة ، والعشرين . إن لديك شعوراً إذن بأن الآنسة تخونك ؟

– أجل .

– إنه الدافع الأبدي الخالد . اعذرني اذا قلت ذلـك ، فان تسعين بالمائة من الذين يأتون الينـا يقولون الشيء نفسه . ومن سوء الحظ أن شكوكهم في سبعين بالمائة من الحالات ، تتكشّف صائبة .

– إذا كانت شكوكهم صائبة ، فلماذا إذن يلجأون الى وكالتكم ؟

– ليحصلوا على يقين حسابي دقيق .

– وهذا اليقين ، هل انتم قادرون على الحصول عليه ؟

فهزّ الماجور رأسه في حركة تعاطف رحيمة :

– اسمع ، ربما كنت تظنّ ان بوسع اي انسان ان يقوم ببعض التحقيقات . حتى الشخص المعنيّ نفسه . ولكن الأمر ليس كذلك . فان بين تحرّيات محقّق مرتجـل ، وبين تحرّياتنـا ، الفرق نفسه الذي يقوم بين تحليـلات هاوٍ محرومٍ من الوسائـل ومن الجـدّ ، وتحليلات مختبر علمي . فاذا كنت تريد ان تعرف مرضاً معيناً ، أتراك تقصد مشعوذاً لتطلب منه التحليل ، ام تقصـد مختبراً علمياً رصيناً ، ذا حظوة ، ومعترفاً به من القانون ؟ إنك بالطبـع تفعل هذا الأمر الاخير . ووكالة فالكو هي مختبر رصين ذو حظوة ، ويعترف بـه القـانون (وكفّ المـاجور عن الكلام ليشير الى شهـادة مؤطـّرة معلقة على الجدار ، فوق رأسه) مختبر قادر على أن يحصل بطريقة علمية على اليقين الذي تحتاج اليه .

فسألته ، كسباً للوقت :

– يمكنكم بعبارة أخرى ، ان تكشفوا الحقيقة ؟

– دائماً . إن عـــدم اليقين هو حالةٌ نادرة ، وتـكاد تكون غير موجودة . فوكلاؤنا بارعون ، جديرون بكل الثقـــة ؛ وهم جميعـاً من رجـال الدرك

والامن العام ، ومن المستحيل علمياً ألاّ يلقوا الضوء على الخفايا .

– وكم تستغرق المراقبة من الوقت ؟

فقام الماجور بحركة بيروقراطية كلاسيكية ؛ وأعاد الى مكانه قلماً كان موجوداً في مكانه . وأخذ ذقنه بيده ، ونظر إلي بعينيه الصغيرتين السوداوين المنطفئتين :

– بوسعي ان أقول لك اسبوعين او ثلاثة . بل أستطيع ان أقول لك اكثر من ذلك . ولكني لا أريد أن أسرق مالك . فنحن بعد اسبوع نكون مطّلعين على كل شيء . حين تحبّ امرأة رجلاً ، لا تراه مرةً واحدة في الاسبوع . وانما تراه كل يوم ، بل بضع مرات في اليوم . فاذا اثبتنا ان الشخص المراقب يرى رجلاً كل يوم ، او حتى بضع مرات في اليوم ، فان زبوننا يقبض على جميع الحجج التي بين يديه وطبعاً ، اذا لم يقتنع زبوننا ، فبوسعنا ان نقوم بعمل تحقيق إضافي ، نتعمّق فيه الامور ...

– ماذا تقصد بتعمّق الامور ؟

– المعذرة ، فهذه ليست أشياء يمكن التحدّث عنها مسبّقاً . يجب ان نعرف الحالة . ولكن بوسعك ان تطمئنّ ، فاسبوع واحد سيكفي . إن حالتك ، لنقل ذلك من غير ان نجرحك ، هي حالة مشتركة .

– ولماذا مشتركة ؟

– إنها أبسط الحالات . وليست لديك فكرةٌ عن التعقيدات التي نواجهها أحياناً . فان اسبوعاً واحداً ، كما قلت لك هو اكثر من كافٍ .

فقلت : « فهمت » ثم لزمت الصمت لحظة . وكنت أفكر بأن الماجور كان مقتنعاً بإمكانية العثور على الحقيقة بفضل تحقيقاته التي يصفها بأنها علمية ، وكنت أفكر ايضاً بأن حقيقة الماجور هذه لم تكن حقيقتي. وسألته أخيراً:

– ما هي شروط الدفع ؟

– عشرة آلاف لير في اليوم . مع مبلغ إضافي يحدّد إذا كان الشخص الذي تريد أن تراقبه يتنقّل في السيارة ، لأن وكلاءنا في هذه الحالة ، سيضطرون لأن يستعملوا بدورهم سيارة .

فقلت بتفكّر :

– ولكنها لا تتنقّل بالسيارة ، بل على القدمين .

– في هذه الحالة عشرة آلاف لير .

– ومتى تستطيعون البدء ؟

– غداً ، ستقدّم لي كل المعطيات المطلوبة فأدرسها ، وغداً يبدأ الوكيل ملاحقته .

ونهضت فجأة وأنا أقول :

– سنبدأ بعد اسبوع . فالشخص المعني ليس موجوداً في روما الآن ، ولن يعود قبل اسبوع .

وكان الماجور موسكوني قد نهض هو ايضاً ، وقال :

– كما تشاء ولكن إذا كنت متردداً بسبب السعر ، فاستعلم ، وسترى ان الوكالات الاخرى لن تكلّفك أقلّ من ذلك .

فأجبت بأن القضية لم تكن قضية سعر ، ورددّت بأنني ساعود بعد اسبوع ثم مضيت .

وعدت آلياً إلى مكتبي وتهيّأت لانتظار سيسيليا ، لأنه كان أحد اليومين أو الثلاثة التي كنا نلتقي بها في الاسبوع .

وكنت منذ حين من الزمن أعاني الأرق بسبب القلق الذي كانت توحيه لي علاقاتي بسيسيليا . وكنت في العادة استغرق في النوم فور تمدّدي في السرير ، ولكن ما أن تنقضي ساعة حتى كنت استيقظ منتفضاً كما لو اني تلقيت ضربة ، وكنت إذ ذاك آخذ في التفكير بسيسيليا تفكيراً لا يُقهر ، ولا يعود إليّ النوم إلاّ مع الفجر ، لأستيقظ بعد ذلك ، في الساعة المعتادة ، اي في ساعة مبكرة جداً . ولهذا كان يتفق لي ، في اثناء النهار ، أن أستسلم للارهاق ، فأنام حيث اكون نوماً ثقيلاً لمدة ساعتين او ثلاث .

وهذا ما حدث لي في ذلك اليوم . وكان ستار النافذة مسدلاً ، فكان نورٌ مريحٌ أصفر وحارٌ يملأ المرسم . وتمدّدت على الاريكة ، واخذت انظر وانا

مستلقٍ على جانبي إلى القماشة البيضاء التي كانت ما تزال قائمة على المسند ، بالقرب من الباب الزجاجي . وكنت أفكر بأن القماشة كانت فارغة لأنني لم أكن أنجح في امتلاك حقيقةٍ ما ، بالطريقة نفسها التي كان ذهني فيها فارغاً بالنسبة لسيسيليا التي كانت تفلت مني والتي كنت عـــاجزاً عن امتلاكها . وكان العمل الجسدي الذي كان يعطيني غالباً وهم امتلاك سيسيليا يعـــادل الرسم الداعر الذي كان ينفّذه باليستياري ، أي انه لم يكن امتلاكاً ، كما ان ذلك لم يكن رسماً . وعلى نحو ما كنت أترجّح .. سيسيليا بين السأم وبين الهوس الجنسي. هكذا كنت في الفنّ ، أتحيّر بين الرسم الرديء والعدول عن الرسم . وها انني الآن أتوجّه إلى وكالة فالكو لأعرف شيئاً يقينياً عن سيسيليا ، ولكن ذلك كان شبيهاً بلجوئي إلى قراءة كتاب علمي عن طبيعة المادة وتركيبها ، من أجل ان أرسم . كنت أفكر بأن القماشة كانت فارغة ، لأن سيسيليا كانت تفلت مني ، وكان ذهني فارغـــاً لأن الحقيقة الواقعة كانت تهرب مني . والحقيقة وسيسيليا كانتا الكلمتين اللتين تـصديان في رأسي أضعف فأضعف ، مذكّرتين بعمليتين مختلفتين كنت أحسّهما مع ذلك مرتبطتين برباط لا يُنكر . وكان يخيّل إليّ ان هذا الرباط إنمـــا كان هوس الامتلاك ، وأن العمليتين كلتيهما كانتا تخفقان ، بسبب استحالة الامتلاك .

وانتهى بي الأمر الى الاستغراق في النوم ، وانا أفكر بهـذه الامور تفكيراً يزداد مشقة وإجهاداً .

ولكني ما كدت أنام حتى استيقظت . وكان المرسم في الظلمة تقريباً ، وإذ أضأت المصباح، لاحظت اني في الواقع قد نمت زهاء ساعة . وكانت الساعة الخامسة والنصف . وكنت قد عُدت من الوكالة حوالي الرابعة والنصف . وهذا النوم الذي كان عميقـــاً جداً حتى انه أشعرني بأني لم أنم على الاطلاق ، عاد عليّ بالراحة ؛ وأحسستني متبصّراً الى أبعد حدّ ، وكان مثل هذا يحدث لي في الماضي حين كنت أتأهّب للرسم ، ممتلئاً بطاقة خلاّقة واعية ومبصرة .

ورفعت عيني نحو القماشة ، فجاءتني ، على غير ما ارادة مني تقريباً ، فكرةُ أنه كان ممـا يؤسف له أن أكون قد عدلت عن الرسم : لقد كنت في حالة نفسية

صالحة للعمل . ومع ذلك، ما كادت هذه الفكرة تأتيني ، حتى قفزت من الاريكة وهرعت الى خارج المرسم . وكنت على ثقة بأن سيسيليا كانت في بيت لوسياني ، وكنت أريد أن أفاجئها في اللحظة التي تخرج فيها لتقصد مرسمي .

وبالواقع : كنت حتى ذلك الحين قد راقبت سيسيليا كل يوم ، باستثناء اليوم الذي كنا نلتقي فيه ، لظني ، ولا أدري السبب ، انها لم تكن تقوم بفعل الحب معي ومع الممثل بعد ظهر اليوم نفسه . ولكن سيسيليا كانت قد أخبرتني ذلك الصباح بالتلفون بأنها لن تستطيع ان تراني قبل الساعة السادسة ؛ وكنت أدرك الآن لماذا كانت قد أعطتني موعداً في تلك الساعة : كان عليها قبل ان تجيء الى مرسمي ان تقصد بيت لوسياني . وهكذا ، فبينما لم اكن أستطيع ، في الأيام الأخرى ، ان أعرف الساعة التي كانت سيسيليا تقصد فيها بيت لوسياني ، ولا الساعة التي تتركه فيها ، كنت أعرف اليوم على الاقل ، معرفةً يقينية ، الساعة التي ستغادر فيها بيته ، لأنها كانت الساعة التي تجيء فيها إليّ . ودهشت ان يكون أمرٌ في مثل هذه البساطة ، ومتطابق مع بسيكولوجية سيسيليا القاسية قسوة بريئة ، لم يخطر على ذهني قبل ذلك . والواقع ان من شأنها حقاً ان تنتقل من ذراعي الممثل الى ذراعي ، في مدة لا تكاد تجاوز نصف ساعة ؛ وان تهب نفسها لي بمثل الاستسلام اللطيف الذي وهبت نفسها له ، وان تمزج في بطنها بالذات زرع كلٍّ منا، بنهم حيواني . فكيف حدث اني لم أفكر بمثل هذا قبل ذلك ؟

وبعد ربع ساعة ، كنت أمام بيت الممثل ، وقد وجدت تجاه المدخل تقريباً، مكاناً لسيارتي ظللت فيه . ولم تكن بي حاجة لأن اذهب فأجلس في الحانة : وكان المفروض بسيسيليا ، وفق حساباتي ، ان تخرج بعد خمس دقائق على الاكثر .

وأشعلت سيكارة ، فيما ظللت أحدّق بمصاريع الطابق الارضي المضاءة . وكانت تلك مصاريع لوسياني ؛ وفي تلك اللحظة ، كان من المرجّح ان سيسيليا ترتدي ثيابها ، وهي تقول للممثل تلك الاكذوبة الطفولية نفسها التي كانت تقولها لي : « يجب ان اذهب ، فان امي تنتظرني » ولاحظت وانا أنظر الى المصاريع اني كنت أشعر بشعور غثيان لا يختلف كثيراً عن الشعور الذي كان يوحيه لي في

السابق وجه القماشة البكر في اللحظة التي كنت أتأهب فيها للرسم : فمن هذا الباب المؤطر بالمرمر الأسود ، سيبرز ما كنت أرغب في الوقت نفسه ان أعرف وأجهل، شيء كان يوقظ فيّ في وقت واحد شهوة واشمئزازاً: سيسيليا، اي الحقيقة الواقعة، وكنت أعلم انه كان عليّ ان أبقى في سيارتي ما لم ألمح سيسيليا على العتبة، ولكني كنت في الوقت نفسه شديد الرغبة في الذهاب . وعلى ضوء هذا الشعور المزدوج المتناقض ، كنت أدرك مرة أخرى ان ما كان قد دفعني غالباً الى التخلي عن مراقبتي ، في الايام الماضية ، لم يكن كما سبق ان ظننت تمرّداً من كرامتي ، بل كان اشمئزازاً من سيسيليا على النحو الذي كانت عليه ، اي ازاء الحقيقة الواقعة .

وكما توقعت ، رأيت بعد خمس دقائق سيسيليا والممثل يظهران معاً على العتبة، وكان كلّ منهما يمسك بيد الآخر وقد أوحيا لي بأنهما كانا معاً يترنحان ، منتشين على نحوٍ ما . ولاحظت ان سيسيليا كانت تضمّ يد الممثل بطريقة خاصة ، إذ كانت أصابعها مشتبكة بأصابعه ، كأنما هي تكرر بلا وعي اعتناق جسديهما الحديث .

وابتعدا على الرصيف ، هابطين المنحدر ، ما تزال يداهما متعانقتين .

ان بوسع المرء ان يتنبأ بكل شيء ، إلا بالشعور الذي يمكن ان يوحيه لك ما تنبأت به . فمن الممكن مثلاً التنبؤ بأن حية ستخرج من ثقبٍ تحت صخرة، ولكن من الصعب التنبؤ بصفة وكثافة الخوف الذي ستخلّفه فينا رؤية الحيوان الزاحف. وكنت قد تخيّلت الف مرة خروج سيسيليا من بيت الممثل ، وحدها او بصحبته ، ولكني لم أتنبأ بالمشاعر التي سأحس بها إذ أراها تخرج من هذا الباب المؤطر بالمرمر الاسود ، ويدها في يد لوسياني. ولهذا أدهشني ، إذ رأيت سيسيليا والممثل جامدين (وكأنهما كذلك إلى الأبد) على عتبة الباب ، أن أشعر بشعور فظيع شبيه بالإغماء . كنت أتألم بصورة هائلة ، ودهشت في الوقت نفسه بأن أتألم إلى هذا الحد وبهذه الصورة الجديدة ، بينما كنت قد أعددت نفسي بمثل تلك التنبؤات الدقيقة . وكنت أحسّ صورة هذين الكائنين تُحفر في ذاكرتي بشكل غير قابل للأمحاء ، وكنت أشعر بألم محرق كما لو ان هذه الصورة كانت حديدة محمّرة بالنار،وكانت

ذاكرتي لحماً حسّاساً كان يتلوّى تحت الحفر .

قلت إن عذابي كان يشبه إغماء . والواقع أنه أغمي عليّ في كل جسمي ، إلاّ في نقطة كانت حيويتي برمّتها قد تركزت فيها على ما يبدو ، فلم أكن مغمىً عليّ ، وإنما كنت حاضراً لنفسي بشكل يتجاوز كل حدّ . ومن هذا كنت أعـــاني : ان أحسّني أنهار في كل مكان ، إلا في هذه النقطة الحـــادة . وكنت قد أدرت المحرّك بصورة آلية ، وأخرجت السيارة من حيث كانت واقفة ، وبدأت أتبع سيسيليا ولوسياني عن بُعد .

كانا يسيران ببطء ، متشابكي اليدين ، صامتين وسعيدين بلا شك . وأمـــام حانوت حلاق ، وقف الممثل ، فحدّثته سيسيليا لحظة ، ثم مدّت له يدها فقبّلها . وثبّتّ عيني عليها ، وكانت تختفي تارة وطوراً تظهر ، حسب منعطفات الطريق ، وهبطت قسماً من الطريق وأنا أسوق ببطء . وكنت أنظر اليها ، وأتأمل خاصة حركة خاصرتيها في ثوبها القصير الضيّق ، حركة كانت في الوقت نفسه مرتبكةً ، لامبالية ، قوية ، وكنت أشعر اني ما زلت أشتهيها ، كما لو اني لم أكن قط على يقين من خيانتها . وفهمت اني إذا كنت أريد حقاً ألا أشتهيها بعد ، فينبغي أن أقسرها على الاعتراف بالحقيقة ، هذه الحقيقة التي من شأنها وحدها ان تحددهـــا لعينيّ ، فتقتل حبّي .

وفي هذه الأثناء ، كانت سيسيليا قد بلغت موقف الأوتوبيس ، على انخفاض قليل . ونظرت إلى ساعتي : كان ما يزال باقياً على موعدنا عشر دقائق . وإذن ، فان سيسيليا الدقيقة في مواعيدها قد حسبت حساباً مضبوطاً : فبعد ربع ساعة على الأكثر ، سيضعها الاوتوبيس في « ساحة الشعب » ، على بعـد خطوات من مرسمي . وسوف تستطيع سيسيليا عند الساعة السادسة ، وعلى الموعد المضروب ، ان ترتمي بين ذراعي .

وفجأة أوقفت سيارتي قربها ، وكانت في تلك اللحظة تفتّش في محفظتهـا ، خافضة الرأس ؛ وفتحت باب السيارة فقلت لها بصوت طبيعي :

— هل تريدين أن تصعدي ؟

فرفعت عينيها ورأتني ، وبدت على وشك أن تتكلم ، ثم عدلت ، ثم صعدت بصمت . وانطلقت ، وسرعان ما سألتها :

– ما الذي جاء بك إلى هذه النواحي ؟

فأجابت : – لقد قصدت منتج الأفلام .

– ولكن ، أليس مكتبه في شارع مونتبيلو ؟

– بلى ، ولكن هنا مسكنه الخاص .

فحدجتها بنظرة جانبية، ولاحظت بالرغم من اضطرابي ، انها كانت هي كذلك مضطربة مهما بدت هذه الكلمة غير جديرة بوصف شخص يبلغ من قلة التعبير ما تبلغه سيسيليا . ولكني حزرت ذلك من تقطيب خفيف جداً في حاجبيها كنت أعلم أنه يسجل لديها اضطراباً وتململاً. وعزمت على ان أهاجمها في عنف عقلاني، كما يحدث في استجوابات الشرطة .

– ما اسم هذا المنتج ، بسرعة ، الاسم والعائلة ...

– اسمه ماريو ميلوني .

– اين يسكن ، رقم الشارع ، والطابق ، والشقة ، بسرعة ...

فأجابت بصوتٍ مائعٍ ، كتلميذة صغيرة يسألها معلّمها :

– يسكن في شارع ارخميدس ، رقم ٣٦ ، الطابق الثالث ، الشقة ٦ .

وكان ذلك رقم بيت لوسياني ، ولكن لا الطابق ولا رقم الشقة . وفهمت ان سيسيليا كانت تريد ، وهي تعطيني هذا الرقم ، ان تحترس ضد نزاع محتمل ، اذا قلت لها إني رأيتها تخرج . ولكن كيف تراها ستشرح وجود الممثل الى جانبها ؟ وأردت ان أعرف كيف ستبرّر ذلك .

– لقد رأيتك تخرجين ، منذ لحظة، من رقم ٣٦ ، ولكنك لم تكوني وحدك، بل برفقة لوسياني .

– كان هو أيضاً عند المخرج وقد قصدناه معاً .

– لأية غاية ؟

– كان المتفق أن يحدثنا عن عمل .

– اي عمل ؟
– فيلم .
– ما عنوان هذا الفلم ؟
– لم يقل لنا ذلك .
– واين استقبلكما ميلوني ؟
– في غرفة الاستقبال .
– صفي لي هذه الغرفة، بسرعة ، ابتداء من الاثاث والاماكن الموضوع فيها.

وكنت أعرف ان سيسيليا لم تكن ترى الاشياء ولا الاطار الذي كانت تقوم فيه بالاجمال . وإذن فقد فكرت انها اذا وصفت لي ، من أجل ان تطمئنني، أثاث صالون ميلوني بكل تفاصيله، هذا الصالون الذي لم يسبق لها قط أن رأته ،فسأحصل على دليل آخر بأنها كانت تكذب عليّ. ولكني لم أحسب حساب كسلها التجريدي الذي لا يُقهر . فهي قد أجابت بجفاء :

– غرفة استقبال ككثير من غرف الاستقبال .

فألححت وانا حائر وشبه مغجب :

– يعني ؟
– غرفة استقبال ، فيها أرائك ومقاعد وطاولات وكراسي .

وكانت هي الكلمات نفسها التي استعملتها لتصف غرفة استقبال ذويها ،وألححت من جديد :

– ما هو لون الارائك والمقاعد ؟
– انني لم أنظر اليها .
– وما هو لون « كلسون » لوسياني ، إنك قد نظرت الى هذا على الاقل !
– آه ! هكذا ، كنت أعلم أنك ستبدأ بغمزاتك !

وكنّا آنذاك قد بلغنا شارع مارغوتا . فأدخلت السيارة الى الساحة . ثم وثبت الى الخارج، ثم واصلت برنامج الارهاب النظامي الذي كنت قد وضعته، فقبضت على سيسيليا من ذراعها وأخرجتها بفظاظة من السيارة :

– سنرى ، الآن ...

– ماذا ؟

– ان كنت قد قلت الحقيقة .

وكنت أضغط بقوة على ذراعها الهزيلة ، ذراع الفتاة الصغيرة ، ولاحظت اني إنما كنت أسحبها وانا أعدو لأوجّه لها بين الحين والحين هزةً عنيفة ، بحيث يمكن ان تتعثر بل حتى ان تقع . وقالت في المرة الأولى :

– أية طريقة هذه !

وقالت في المرة الثانية :

– ولكن هل يمكن ان نعرف ماذا دهاك ؟

ولكنها مع ذلك لم تكن تبدو مندهشة ، ولا غاضبة ، ولا مذعورة .

ووضعت المفتاح في القفل ، ثم أدرته وفتحت الباب بركلةٍ من قدمي ، ثم أضأت النور ، واخيراً ، بدفعة أخيرة أعنف ، رميت سيسيليا على الأريكة . وسقط رأسها عليها اول ما سقط . وهرعت الى التلفون فأخذت أقلّب صفحات الدليل في غضب ، وفقاً للشوارع . وبحثت ووجدت ، ثم صوّبت إصبعي الى صفحة ، وشهرت الدليل فوق أنف سيسيليا التي كانت قد نهضت آنذاك .

– في الرقم ٣٦ من شارع ارخميدس ، ليس هناك من يدعى ميلوني .

– إن رقمه غير موجود في الدليل .

– ولماذا ؟

– لأنه لا يريد ان يُزعجه أحد .

– ولكن في الرقم ٣٦ ، هناك مثلًا ، لوسياني ...

– هذا غير ممكن ، فهو غير موجود في الدليل .

– ربما كان هذا صحيحاً بالنسبة لدليل أسماء المشتركين. اما في دليل الشوارع، فهو موجود ... انظري هنا ، هل ترين ؟

فنظرت على مضض ، ولكنها لم تقل شيئاً . وعلّقت بلهجة ساخرة :

– يا لها من مصادفة ! إن ميلوني ولوسياني يسكنان البيت نفسه !

– نعم ، إن لوسياني يسكن في الطابق الأرضي ، وميلوني في الثالث .
– حسناً جداً ... والآن ، سنخرج ، وسنقصد معاً بيت ميلوني .
وتبع ذلك صمت طويل . وكانت سيسيليا تتأملني بعينيها الجميلتين الشاعرتين اللتين لم تكونا مع ذلك تريان شيئاً . وكانت تلتزم الصمت . وتابعت :
– هيّا ، تحرّكي !
فرأيتها تحمرّ احمراراً غير متساوٍ ، يصعد لطخاتٍ من عنقها إلى خدّيها .
وقالت :
– نعم ، هذا صحيح .
– ما هو الصحيح ؟
– اننا نتقابل ، انا ولوسياني .
وهذه المرة أيضاً ، كنت قد توقعت كلمات الاعتراف هذه ، منذ وقت طويل؛ ولكن كان ثمة فرق كبير بين التوقع بالذهن ، والسماع بالأذنين ؛ ومن جديد ، كما حدث حين رأيتها تخرج من بيت لوسياني ، شعرت بأني كنت منزعجاً .
وتمتمتُ ببلادة :
– انكما تتقابلان ؟ ماذا تقصدين ؟ أنا أعرف جيداً انكما تتقابلان .
– اننا نقوم بفعل الحب .
– وتقولين ذلك هكذا ؟
– وكيف ينبغي لي أن أقوله ؟
وفكرت بأنها كانت على حق ، انها لم تكن تحبني ، وكانت تخونني : فلهجتها الواضحة الخالية من الحرارة هي اللهجة المناسبة . بيد أني ظللت أشعر بحاجة مسعورة لأن أحبسها في اعترافها كما في زنزانة عارٍ لن تستطيع ان تهرب منها ابداً.
– ولكن لماذا فعلت ذلك ؟
فبدت تفكّر بجدّ وتدقيق قبل ان تجيب . ثم قالت ببساطة :
– لأنّ ذلك كان يلذّ لي .
– ولكن ألا تدركين انه كان عليك ألاّ تفعلي ذلك ؟

– ولماذا كان عليّ ألاّ أفعله ؟
– لأننا لا نخون رجلاً نحبّه ، وقد قلت لي مرات كثيرة انك كنت تحبينني !
– نعم أحبّك ، ولكني أحبّ أيضاً لوسياني .
– وهكذا ، فأنت من هؤلاء النساء اللواتي يهبن أنفسهن للجميع ، بالأمس لرسّام ، واليوم لممثل ، وغداً ربما لعامل الكهرباء ...
فنظرت إليّ من غير ان تقول شيئاً . وقلت مؤكداً :
– أنت امرأة حقيرة ، ولا قيمة لك .
وظلّت على صمتها . ولماذا تراني كنت ألحّ على هذه النقطة ؟ لأني كنت أودّ لو أقنع نفسي بأن سيسيليا ، بعد اعترافها ، قد انقصت قيمة نفسها ، وأذلّتها وحقّرتها في عيني ، بينما الواقع لم يكن هذا على الاطلاق . ومع ذلك ، فلا بدّ من ان يكون ثمة انقاص قيمة ، وتحقير ، ولم أكن أستطيع الامتناع عن الاعتقاد بذلك . لقد سقطت بعض النساء ، من حيث الاعتبار والاحساس اللذين كنت أكنّهما لهنّ ، لمجرّد عبارة ، او حركة ، او سلوك ؛ فأولى بذلك إذن سيسيليا التي خانتني وخدعتني بطريقة مبتذلة .
وانتهيت إلى القول ، في غضب :
– ألا تدركين ان المرء هو ما يفعله ، وأنّ ما فعلته يجعلك مختلفة عما كنته؟
وكنت أودّ لو تسألني :
– ماذا كنت ، وماذا أنا الآن ؟
ولو فعلت لأجبتها :
– كنت فتاة طيبة ، وأنت الآن مومس .
وفي الوقت نفسه كان من شأن سؤالها ، لو طرحته ، ان يُظهر لديها حاجةً بأن تكون معتبرةً ومحترمةً ومقدّرة من قبلي . ولكن خاب أملي : فان سيسيليا لم تفتح فمها ، وفهمت ان الصمت كان الجواب الوحيد الذي كان يمكنني ان أنتظره منها. وكان هذا الصمت يعني ان الكذب والخداع كانا بالنسبة اليها كلمتين خاليتين من المعنى ، لا لأنها لم تكن لتفهمهما ، بل لأنه لم يكن ثمة في حياتها شيء يمكن ان

يدلّ عليهما .

وأحسستها تفلت مني من جديد ، فصحت غاضباً وأنا أهزّها من ذراعيها :

– ولكن لِمَ لا تتكلمين ؟ لمَ لا تجيبين ؟

فقالت في صدق : – ليس لديّ ما أقوله .

فهددت أنا غاضباً :

– اما انا ، فان عندي ، على العكس ، ما أقوله . وهو انك قحبة صغيرة مبتذلة !

فنظرت إليّ في صمت ، وهززتها من جديد :

– أهكذا أراكِ تسمحين بأن توصفي بأنك بغيّ ولا تحتجّين ؟

فرأيتها تنهض :

– دينو ، انني ذاهبة .

وكنت أتوقع أشياء كثيرة ، ولكنني لم أكن أتوقّع أن تذهب . لقد سقط عليّ ضيق شديد أرهقني ، فسألتها :

– إلى أين أنت ذاهبة ؟

– انني ذاهبة . فالأفضل ان نكفّ عن التلاقي .

– ولكن لماذا ؟ لحظة .. انتظري ... فيجب ان نتحدث .

– ما جدوى ان نتحدث ؟ ما دمنا غير متفقين . إن لنا طبعين مختلفين أكثر مما ينبغي .

وهكذا كانت سيسيليا تفلت مني من جديد وبشكلين مزدوجين : الاول حين تقلّل من أهمية اعترافها بالذات: فقد كان بيني وبينها، في نظرها، اختلاف في الطبع فحسب ، كما لو أنّ الخداع والخيانة كانا قضية مزاج خاص ، لا قضية مبدأ أخلاقي، والثاني حين تتركني قبل أن أتركها انا نفسي . وبانتقال مفاجىء من المعنوي الى المادّي ، أحسست بغتةً أني أشتهيها ؛ كما لو اني اذا أخذتها في تلك اللحظة أمكنني أن أتوهّم انني امتلكها بالعلاقة الجسدية ، بعد أن فوّت الامتلاك النفسي .

وقبضت عليها من قامتها ، فيما كانت متجهة الى الباب وقلت في أذنها :

ـ سنقوم مع ذلك بفعل الحب مرةً أخيرة .

فأجابت وهي تحاول التخلّص :

ـ لا ، لا ، لا . لقد انتهى الأمر .

ـ تعالي هنا .

ـ لا ، دعني .

وكانت تقاوم في عناد ، ولكن من غير عداوة ، كما لو انها كانت ترفض لمجرّد أني لم اكن أعرف ان اقدم لها حبي بطريقة اجدى . بل لقد كان في عينيها المتردّدتين الجامدتين نوعٌ من نداء مبهم ، وكان في جسدها ، فيما فوق قامتها ، استسلام لم أحسّ به في نصفها الأعلى الطفولي الناحل . ولكنها كانت تقاوم ؛ وكنت قد نجحت في حملها على الجلوس من جديد فوق الاريكة ، فاذا هي ترتمي الى الخلف ، خارج متناول شفتي . وخطرت لي اذ ذاك فكرة ، بالأحرى إغراء . وكنت في الصباح نفسه قد أخذت من خزنتي عشرين ألف لير في ورقتين من فئة العشرة آلاف وضعتهما في جيبي . وجذبت سيسيليا في عنف ، وفي الوقت نفسه ، بينما كانت تصرف وجهها وكانت قبلتي تضيع في عنقها ، دسست لها الورقتين في يدها . ورأيتها تخفض عينيها في وضوح وتلقي نظرة سريعة على الشيء الغريب الذي كان في يدها ، وكأنها تودّ ان تتعرّف عليه ؛ ثم انقبضت يدها ، وأحسست أن جسدها يكف المقاومة ؛ وكانت سيسيليا قد أسبلت جفونها كما يحدث إذ يستعد الانسان للنوم ، وكانت تلك طريقتها في إفهامي بأنها كانت تقبل حبي ، وتتأهب للاستمتاع به .

وهكذا أخذتها ، حتى من غير أن تنزع ثيابها ، في سُعْرٍ وعنف يفوقان المعتاد ، كما لو ان جسدها قد أصبح ضرباً من حَلَبَةٍ كان عليّ أن أتصارع فيها مع المثل صراع قوة ومقاومة . أخذتها في صمت ، ولكن في لحظة الانتشاء بالذات ، همست في وجهها : « قذرة ! » وخيّل إليّ ، وربما كنت على خطأ ، ان بسمة خفيفة كانت تطيف بشفتيها ، ولكني لم أستطع ان افهم إذا كانت تبتسم من النشوة التي كانت تعانيها ، ام من شتميتي .

وفيما بعد ، اذ كنت متمدّداً الى جانبها ، وكانت هي قد أغفت، جاءتني الفكرة المألوفة بأن الامتلاك الجسدي لم يكن يُرضي على الاطلاق . وكانت تلك البسمة الغامضة ، والهاربة وربما الهازئة ، التي أجابت بها على شتيمتي ، تؤكّد على طريقتها بُطلان العلاقة الجسدية . ولكني كنت قد رأيتها تشدّ في قبضتها الورقتين الماليتين ؛ وفي أثناء الحب ، اذ كانت تغطّي جبينها بيدها ، بقيت الورقتان طوال الوقت أمام عينيّ . وقلت في نفسي فجأة أنه ربما كان بامكان المال ، بعد افلاس محاولتي السابقة للامتلاك ، ان يشكّل الأنشوطة التي أستطيع ان أحبسها فيها . كانت قد رفضت الاستسلام لي حتى اللحظة التي وضعت فيها المال في يدها؛ وإذن، وخلافاً لما كنت قد ظننته ، فانها كانت تباع . وكانت القضية الآن هي قضية التدليل على انها كانت كذلك حقاً ، اي تحويل سرّ شخصيتها إلى مسأله مصلحة .

كانت سيسيليا تنام قليلاً الى جانبي ، كمألوف عادتها وللفترة نفسها ؛ ثم استيقظت ، ورشقتني بقبلة على خدّي برقتها الآلية العادية ، ثم نهضت وهي تسوّي بكلتا يديها ثوبها المدعوك . وكانت الورقتان المطويتان الى أربع ، على الأرض ، وقد تركتهما سيسيليا تسقطان في أثناء الحب . والتقطتهما ففتحت محفظتها ووضعتهما بعناية كبيرة في حاملة نقودها . وقلت :

– أما زلت راغبةً في ان نفترق ؟

ولم تبد مدركة للايماءة التي تضمّنها عبارة « أما زلت » هذه وأجابت بلا مبالاة :

– كما تريد . اذا أردت ان نستمر ، فاني أقبل . واذا اردت ان نفترق ، فلنفترق .

وفكرت ، لا من غير دهشة ، بان المال الذي تلقّته وقبلته لم يخدم هكذا إلا مرة واحدة ؛ إنه لم يلوّح لمخيلتها الكسلى بأن هناك احتمالاً مغرياً بامكانية ربح مال آخر ، في المستقبل ، بالطريقة نفسها . وسألتها :

– ولكن اذا استمررت في البقاء معي ، فما هو سبب ذلك ؟

– لأنني أحبك .

– واذا طلبت منك ان تقطعي علاقتك بلوسياني ، هل تفعلين ؟

ـ آه ! هذا ، لا .

وبالرغم مني جرحتني لهجة رفضها الحازمة ، فقلت :

ـ إن بوسعك ان تجيبي بلهجة أقلّ حيوية !

ـ اعذرني .

ـ بالاجمال ، عليّ بعد الآن ان أتقاسمك مع لوسياني ؟

فبدت تنتعش كما لو لمست أخيراً نقطة حساسة :

ـ ولكن ما عسى ذلك ان يؤثّر عليك ؟ لماذا يزعجك ذلك الى هذا الحد ؟ سوف آتي للقائك كالعادة ، ولن يتغيّر شيء .

وكنت أردّد بيني وبين نفسي : « لن يتغيّر شيء » وانا أقول إن تلك كانت هي الحقيقة ، بالنسبة لها على الاقل . وكانت قد بدأت تتأملني في فضول ، وفي شبه أسف . وقالت أخيراً .

ـ أتعلم أنّه يشقّ عليّ ان أتركك ؟

فلم يسعني إلاّ أن أتأثّر بصدق هذه الكلمات الواضح . وسألت :

ـ صحيح ؟ أيشقّ عليك ذلك ؟

ـ نعم ، لقد تعودت عليك .

ـ ولكن سيشقّ عليك أيضاً ان تتركي لوسياني ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، كثيراً .

ـ لقد تعوّدت عليه أيضاً ؟

ـ أنتما شيئان مختلفان .

وظللت صامتاً لحظة . كيف يمكن ان نكون شيئين مختلفين ، ما دامت سيسيليا تطلب منا كلينا الشيء نفسه ، وهو العلاقة الجسدية ؟ وسألتها :

ـ إنك تريدين إذن ان تلتقي بنا كلينا ؟

فأومأت برأسها ايجاباً في صمت مليء بالأسرار وبنهم طفولي عنيد . ثم قالت :

ـ أيكون الذنب ذنبي ، اذا وجدتني مسرورة مع كليكما ؟ إن كلّا منكما يعطيني شيئاً مختلفاً ...

فأغراني ان اسألها: « انني اعطيك المال ولوسياني الحب، أليس الأمر كذلك؟»
ولكني تمالكت نفسي ، مدركاً انه لم يحن الأوان بعد لطرح هذا السؤال . إن طرحه يقتضي ان أتعمّق هذه الحالة الجديدة من قابلية البيع . فكونها قد قبلت المال ، مرةً بالأتفاق ، قد لا يعني شيئاً على الاطلاق .

وصرّحت لها اخيراً ، في مزيج من الغضب والارهاق :

ــ حسناً ، اتفقنا ، سنكون لك كلانا ، فلنقُم بالتجربة . ولكنك سترين بنفسك أن حبّ رجلين في وقت واحد أمرٌ مستحيل .

ــ وأنا أقول لك العكس إن ذلك ممكن جداً .

وكان يبدو انها كانت مسرورة بما فيه الكفاية لكونها قد حلّت مشكلة علاقاتنا ؛ وقد مالت فلامست خدّي بشفتيها وتوجّهت نحو الباب وهي تقول لي كما في كل يوم ، انها ستتلفن لي في صباح اليوم التالي .

واستدرتُ إلى الجدار ، وأغمضت عينيّ .

الفصل الثامن

كان عليّ الآن ان أدلل لنفسي ان سيسيليا كانت قابلة للبيع . وكنت اذكر جميع المواقف التي أعطيت فيها مومسات مالاً ، وكنت أقول لنفسي إن الأمر سينتهي بي ، اذا كانت سيسيليا قابلة للبيع ، إلى ان أشعر تجاهها بما كنت أحس به تجاه هاتيك النساء اللواتي كنت أدفع لهنّ : احساسٌ بامتلاك مأجور وفائض ، وحطٌّ للشخص الذي تلقّى المال الى درجة الحاجة التي لا روح لها ؛ ونزع كاملٌ للقيمة يُعزى بحق الى تسعير تجاريّ . ولم يكن بين هذا وبين السأم الذي من شأنه ان يحررني من سيسيليا ومن حبي لها ، الا خطوة واحدة . لقد كانت طريقة الامتلاك هذه مذهلة ولا شك، سواء بالنسبة للتي تُمتلك او بالنسبة للذي كان يمتلك ؛ وقد كنت اوثر بلا ريب نوعاً آخر من الامتلاك يتيح لي أن أنفصل عن سيسيليا على أنها شخص كنت أعرفه معرفة عميقة ، ولكني لم اكن احتقره ولكن كان يتوجب عليّ بأي ثمن أن أهدّىء قلقي . أجل ، كنت أفضّل ان أعرف سيسيليا مرتزقة على ان اعرفها مليئة بالاسرار والألغاز ؛ لأن معرفتي إياها كمرتزقة سيمنحني شعوراً بالامتلاك كان السر يحرمني منه .

وإذن ، فقد اعتدت ، في اللحظات الاولى من لقاءاتنا ان أدس في يد سيسيليا، من غير ان اقول شيئاً كما فعلت في المرة الأولى ، مبلغاً كان يتراوح حسب الأيام بين خمسة آلاف وثلاثين الف لير . وكنت أفكر أن سيسيليا السرّية الخفية غير

القابلة للالتقاط، والتي لم اكن انجح في فصلها عني، ستستبدل بهذه الطريقة بسيسيليا محرومة من السر والخفاء وقابلة بسهولة للادراك .

ولكن هذا التحول لم يحدث، وانما حدث العكس . فان المال لم يغير طبع سيسيليا، وانما غيّرت أقوى السيسيلتين طبعَ المال .

فحين كنت أدس في يد سيسيليا الاوراق المالية المطوية ، كانت تسارع الى شدها في قبضتها ، من غير ان تظهر في الواقع أنها تلقتّها وقبلتها . حتى لكأن اليد التي كانت تعطي هذا المال ، واليد التي كانت تأخذه ، انما كانتا موجودتين في عالم يختلف عن العالم الذي كنا انا وسيسيليا موجودين فيه . وبعد ذلك ، كانت سيسيليا ، فيما كنت اعتنقها ، تدع الاوراق تسقط على الارض ، بالقرب من الاريكة ، فكانت تبقى هناك ، مطوية ومدعوكة ، بحيث كنت أستطيع ونحن نقوم بفعل الحب ان أراها ، فتبدو لعيني رمزاً لنوعٍ من الامتلاك كنت احسبه اكمل وأدعى للرضى من امتلاكٍ كنت في تلك اللحظة اكرس نفسي له .

وبعد الحب ، كانت سيسيليا وهي تعدو عاريةً على أطراف أصابعها الى غرفة الحمّام ، تنحني بسرعة لتلتقط الاوراق باطراف اصابعها ، في حركة شبيهة بحركة العدّاء الذي ينحني ببراعة ليلم المنديل الذي أسقطه رفيقه ، فترميها على الطاولة ، بالقرب من محفظتها . وفيما بعد ، إذ تفرغ من ارتداء ثيابها ، كانت تقترب من الطاولة فتأخذ الاوراق وتضعها بامان في حافظة نقودها التي كانت تعيدها الى محفظتها. وكانت تحبّ ان تفعل الأشياء دائماً بطريقة واحدة، بحركات شبه طقسية. وهكذا دخل هذا التفصيل الظرفي للمال في طقس حبنا المألوف بكثير من الطبعيّة ، بل حتى في شيء من الروعة ، بعيداً عن مفهوم البغاء ذاك الذي كنت اظنّ انّ عليّ ان أربطه به ، بل بعيداً عن أي معنى على الاطلاق ، ككل ما كانت تفعله سيسيليا .

كنت أعطيها في بادىء الأمر ، كما ذكرت ، بين خمسة آلاف وثلاثين الف لير، جاهداً في تنويع المبلغ لأرى كيف يكون ردّ فعل سيسيليا ؛ وكنت أفكر انها اذا سألتني : « لقد اعطيتني في المرة السابقة عشرين الف لير ، اما اليوم، فلا

تعطيني إلا خمسة ، فلماذا ؟ » فسيكون لديّ عامل اكثر من كاف لأحكم عليها بانها قابلة للبيع . ولكن لم يكن يبدو على سيسيليا انها كانت تلاحظ ان الورقة التي كنت أضعها في يدها كانت واحدة او مزدوجة ، حمراء او خضراء ، كما لو ان حركة الدفع لها لم تكن ذات معنى خاص ودقيق ، وانما كانت احدى هذه الحركات العديدة التي كنت أقوم بها ، وانا بقربها ، وانه كان بوسعي ان أفعل حركات اخرى ، او لا أفعل شيئاً على الاطلاق دون ان تتأثر بذلك علاقاتنا أيّ تأثر .

وقررت اذ ذاك ان ارى ما عساه يحدث اذا كففت تماماً عن اعطائها المال . والغريب اني حاولت هذه التجربة في نوع من خفقان القلب . ولم أكن أعترف بذلك لنفسي في صراحة ، ولكن لما كنت مقتنعاً تقريباً بأن الأوراق المالية التي كنت أدسّها خفيةً في يد سيسيليا كانت تشكّل منذ ذلك الحين التبرير الرئيسي لعلاقاتنا ، فقد كنت أخشى ان أفقدها في اللحظة نفسها التي كنت آمل ان أدلّل لنفسي فيها انه لم يكن لديّ ، اذ أفقدها ، ما أفقده .

وإذن ، فقد اتى يوم لم أضع فيه شيئاً في يدها . واكتشفت في ذهول ان سيسيليا بدل ان تُظهر خيبة ما بدت وكأنها لم تلحظ التغيّر الذي طرأ على طقسنا الغرامي المألوف . ففي ضغطة الاصابع التي كانت تتلقى يدي الفارغة ، لم يكن ثمة اي شعور بالاندهاش او بالخيبة ؛ وانما كانت الضغطة الحارّة نفسها التي كانت تبلّغني بواسطتها ، بعد ان تتلقى المال ، أنها كانت متأهبةً لأن تهب نفسها .

وفي ذلك اليوم قامت سيسيليا بفعل الحب بالطريقة نفسها التي كانت تقوم به إذ كنت أدفع لها ، وذهبتْ من غير ان تشير أية اشارة إلى كوني لم أعطها شيئاً . ولقد كرّرت مرتين او ثلاثاً عدم الدفع هذا ، ولكن سيسيليا التي لا يُسبر غورها ، أظهرت من جديد انها لم تلاحظ شيئاً . وهكذا كنت أجدني امام ثلاثة فروض : إما ان سيسيليا كانت قابلة للبيع ، ولكنها كانت تملك مكراً رشيقاً متعالياً يمكّنها من إخفاء ذلك ؛ وإما أنها كانت شاردة ، ولكن شرودها كان مليئاً بالأسرار ، اي انه كان غير قابل للالتقاط دائماً وابداً ، بالرغم من المال ؛ وإما انها كانت نزيهة غير مغرضة ، وفي هذه الحالة أيضاً كانت تفلت مني وتستعصي على

تعطيني إلا خمسة ، فلماذا ؟ » فسيكون لديّ عامل اكثر من كافٍ لأحكم عليها بانها قابلة للبيع . ولكن لم يكن يبدو على سيسيليا انها كانت تلاحظ ان الورقة التي كنت أضعها في يدها كانت واحدة او مزدوجة ، حمراء او خضراء ، كما لو ان حركة الدفع لها لم تكن ذات معنى خاص ودقيق ، وانما كانت احدى هذه الحركات العديدة التي كنت أقوم بها ، وانا بقربها ، وانه كان بوسعي ان أفعل حركات اخرى ، او لا أفعل شيئاً على الاطلاق دون ان تتأثّر بذلك علاقاتنا أيّ تأثر .

وقررت اذ ذاك ان ارى ما عساه يحدث اذا كففت تماماً عن اعطائها المال . والغريب اني حاولت هذه التجربة في نوع من خفقان القلب . ولم أكن أعترف بذلك لنفسي في صراحة ، ولكن لما كنت مقتنعاً تقريباً بأن الأوراق المالية التي كنت أدسّها خفيةً في يد سيسيليا كانت تشكّل منذ ذلك الحين التبرير الرئيسي لعلاقاتنا ، فقد كنت أخشى ان أفقدها في اللحظة نفسها التي كنت آمل ان أدلّل لنفسي فيها انه لم يكن لديّ ، اذ أفقدها ، ما أفقده .

وإذن ، فقد اتى يوم لم أضع فيه شيئاً في يدها . واكتشفت في ذهول ان سيسيليا بدل ان تُظهر خيبة ما بدت وكأنها لم تلحظ التغيّر الذي طرأ على طقسنا الغرامي المألوف . ففي ضغطة الاصابع التي كانت تتلقى يدي الفارغة ، لم يكن ثمة اي شعور بالاندهاش او بالخيبة ؛ وانما كانت الضغطة الحارّة نفسها التي كانت تبلّغني بواسطتها ، بعد ان تتلقى المال ، أنها كانت متأهبةً لأن تهب نفسها .

وفي ذلك اليوم قامت سيسيليا بفعل الحب بالطريقة نفسها التي كانت تقوم به إذ كنت أدفع لها ، وذهبتْ من غير ان تشير أية اشارة إلى كوني لم أعطها شيئاً . ولقد كرّرت مرتين او ثلاثاً عدم الدفع هذا ، ولكن سيسيليا التي لا يُسبر غورها ، أظهرت من جديد انها لم تلاحظ شيئاً . وهكذا كنت أجدني امام ثلاثة فروض : إما ان سيسيليا كانت قابلة للبيع ، ولكنها كانت تملك مكراً رشيقاً متعالياً يمكّنها من إخفاء ذلك ؛ وإما أنها كانت شاردة ، ولكن شرودها كان مليئاً بالأسرار ، اي انه كان غير قابل للالتقاط دائماً وابداً ، بالرغم من المال ؛ وإما انها كانت نزيهة غير مغرضة ، وفي هذه الحالة أيضاً كانت تفلت مني وتستعصي على

امتلاكي .

وقلبت هذا الموضوع في رأسي على مختلف وجوهه ، وعزمت أخيراً على أن أوقعها في الإحراج . وبعد بضعة أيام دسست في يدها من جديد ورقتين من فئة العشرة آلاف لير وقلت لها في سرعة :

— انظري ، لقد أعطيتك عشرين ألف لير .

— لقد لاحظت ذلك .

— انها المرة الأولى منذ اسبوع : كنت قد انقطعت عن اعطائك اي شيء . فهل لاحظت ذلك أيضاً ؟

— بكل تأكيد .

— ولم يزعجك ذلك ؟

— فكّرت في انك لم تكن تملك مالاً .

وينبغي أن أقول ، بهذا الصدد ، إن سيسيليا ، الخالية من اي فضول ، لم تكن قط قد سألتني عن عائلتي ،وكانت تجهل إذا كنت غنياً ام لا . كانت تحكم عليّ من مظاهري : رسّام يرتدي كنزة وبنطلوناً مخملياً ، وله مرسم في حالة فوضى كبيرة،وسيارة بالية . وإذن ، فقد كانّ جوابها هو الجواب الوحيد الذي استطاعت ان تقوله . وقلت مؤكّداً :

— صحيح ، لقد كنت موقتاً في ضيق ، ولكن كان يمكن ان تنزعجي بألاّ تتلقي بعدُ شيئاً ؟

فكان جوابها غامضاً :

— قد يحدث لجميع الناس ان ينقصهم المال .

— لنفرض اني بعد الآن لن أتمكّن من اعطائك شيئاً : فماذا تراك تفعلين ؟

— لقد أعطيتني اليوم مالاً ، فلماذا أفكر في المستقبل ؟

وكنت أعرف أن هذا من أجوبة سيسيليا الأساسية ؛ إن الماضي والمستقبل لم يكونا موجودين في نظرها ، ولكن الحاضر الأقرب المباشر ، اللحظة الهاربة ، كانت وحدها تبدو لها جديرة بالاعتبار . ومع ذلك فقد قلت ملحّاً :

– ولكن لنفرض إنني لا أعطيك بعد شيئاً : فهل تستمرّين في رؤيتي ؟

فنظرت إليّ وقالت أخيراً :

– ألم نكن نلتقي حين لم تكن تعطيني شيئاً بعد ؟

وقلت في نفسي : إن العبارة ممتازة . ولكن اللهجـــة المتردّدة ، الشاكّة المستفهمة ، كما لو انها لم تكن واثقة كل الثقة مما كانت تقول ، كان يبدو أنها تدع مجالاً للافتراض بأنها قد تعيد النظر في قضية علاقتنا كلها ، حين أنقطع نهائيـاً عن الدفع لها . غير اني لم أكن متأكداً ، حتى من ذلك . والواقع اني كنت ألاحظ ان سيسيليا كانت تجهل حقاً ما سوف تعمله إذا قطعت عنها عطاياي؛ وذلك للسبب الواضح بأنها كانت متعلّقة بالحاضر ، كما ذكرت ، ومحرومة كلياً من الخيال، وأنها لم تكن تستطيع بالتالي ان تتنبأ بالاحساس الذي سيوحيه لها ضيقُ ذات يدي ، ولا أن تتنبأ خصوصاً ، بعد ان أكف عن الدفع لها ، إلى ايّ حدّ ستشعر بالرغبة في القيام بفعل الحب معي ، وما اذا كان ذلك سيتمّ بالطريقة نفسها ، او بطريقـة مختلفة ، او لا يتمّ على الاطلاق . وقلت :

– اسمعي ، سأقترح عليك شيئاً : فبدلاً من أن أعطيـك تارة خمسة آلاف ، وطوراً عشرة ، ومرة عشرين او ثلاثين ألفاً ، كما أفعل الآن ، فباستطاعتنا ان نتفق على تحديد مبلغ معيّن أعطيك إياه مرةً في الشهر . فما رأيك في ذلك ؟

فاحتجّت بقوة ، احتجاج من يقترح عليه ان يستبدل بعادة عزيزة لا معقولة بعض الشيء ، ولكنها شاعرية ، عادةً اوفر حظاً من العقل ، ولكنها مبتذلة ، وقالت :

– لا ، لا ، لنستمرّ كما كنا نفعل حتى الآن . تعطيني شيئاً حين تريد ، وكما تريد ، بلا أية قاعدة ، فعلى هذا النحو ، ستكون في كل مرة مفاجأة !

ولم أنجح هذه المرة ايضاً في إلقاء سيسيليا في شـَرَك قابلية البيـع ، وبالاجمال ، في تحويلها من مخلوقة سرّية غير قابلة للالتقاط، إلى امرأة مرتزقة، مبتذلة ومضجرة. وفكرت اخيراً بأن المال الذي يُعطى للمومسات هو في الواقع ذو طابع امتلاكي، لأن الذي يعطيه والذي يأخذه ، يعتبرانه جميعاً كتعويض عن احتجاجات واضحة

ودقيقة . وبعبارة أخرى ، فان عاشق المومس يعرف انه اذا لم يدفع لها اجرها ، فانها سوف تصدّه ، وتعرف المرأة ، من جهتها ، أنّ عليها ، إذ تقبل المال ، أن تعطي نفسها . ولكني كنت مدركاً ان سيسيليا كانت تستسلم لي بدافع عوامل لا علاقة لها إطلاقاً بالمال ، وأنها كانت تبدو ، من جهة أخرى، وهي تجهل ان المال المقبول كان يقسرها على اعطاء نفسها .

وقد حصلت ذات يوم على دليل هذا الجهل ، فبعد ان وضعت في يدها الاوراق المالية المألوفة ، رأيتها تصدّني بهذه الكلمات :

– اسمع ، ليست لديّ اليوم رغبة ... فلنبقَ معاً كأخٍ وأخت .

وكانت تلك عبارة لم أكن أستطيع أن اكتشف فيها أيّ نوعٍ من الحساب، وإنما كنت اكتشف لامبالاة تبلغ أبعد حدود السذاجة. وفي تلك الاثناء ، كانت الاوراق المالية في يدها ، فوضعتها بسرعة في محفظتها . وهكذا ، فان هذا المال نفسه الذي كان يمكن ، ما دام في جيبي ، ان يبدو لي رمزاً للامتلاك ، كان يصبح على العكس ، بمجرّد ان يصبح في محفظة سيسيليا ، رمزاً لاستحالة هذا الامتلاك نفسه .

ومن جهة أخرى ، فان كونها تعرف أنها كلما كانت تأتي لتراني ، فستتلقى مالاً ، لم يغيّر على ما بدا طابع زياراتها المتردّد ، المتقطّع ، المليء بالالغاز . إن سيسيليا ظلّت تأتي اكثر من مرتين او ثلاث في الاسبوع ، تماماً كما في العهد الذي لم أكن أعطيها فيه شيئاً ، وليس ذلك فقط ، بل لقد كنت أفهم ، عبر تردّدات صوتها وتشككاته ، حين كانت تحدّد لي موعداً بالتلفون ، أنّ لقاءاتنا كانت تتوقّف ، كما في السابق ، على ضرورات ومناسبات متجرّدة وغامضة لم تكن لها أدنى علاقة بالمال .

وكانت أول نتيجة لهذا الهوس بأن امتلك سيسيليا باللجوء إلى المال ، أن تقرّبت من أمي التي لم أكن قد طلبت منها حتى الآن إلاّ الشيء الضروري لحياتي، تقرّبت منها لأستطيع أن أواجه النفقات التي كانت تطلبها هذه التجربة . وكنت نادماً الآن على ان اكون قد احتقرت مالها ذلك الاحتقار ، فقد كنت أدرك أني

عوّدتها على تجرّد كان بودّي أن أتخلّص منه ، وكان يقسرني على أن أمثّل أمام سيسيليا دوراً إن لم يكن دور البخيل ، فهو على الأقل دور المقتّر . ولكني بلغت هذا المبلغ ، لقد أردت ان اكون فقيراً من غير أن أتنبّأ اني سأتمنى ذات يوم أن اكون غنيّاً من أجل سيسيليا ، وكان قد فات الأوان لتغيير الأفكار التي كانت أمي قد كوّنتها عني ، لا سيما وان هذه الافكار كانت تنسجم مع ميلها الطبيعي إلى الاقتصاد . غير اني كنت أعرف ان أمي كانت مستعدة لتعطيني اكثر مما أعطتني حتى ذلك الحين ، ولكن أعرف كذلك أنها لن تعطيني شيئاً بلا مقابل .

ولقد كانت ارادة أمي العنيدة هي أن اعود فأعيش معها ، ولم اكن اجهل ان المال الذي كانت قد اعطتني إياه في الماضي بلا جدوى ، والمال الذي كانت تعطيني إياه الآن ، وفقاً لطلباتي المتنامية دائماً ، كانت لهما في نظرها غايةٌ واحدة ، وهي ان تتمكن من ان تفرض عليّ إرادتها . وجهدت مع ذلك في تأخير موعد الاصطدام الذي كنت أحس انه لا مفرّ منه ، مجيباً كل مرة على كرم أمي الذي لا أمل منه بمثابرة وموقف ودّي لم اكن بالتأكيد قد عوّدتها عليهما حتى ذلك الحين، ولكني ، إذ رأيت انها لم تكن فقط تعطيني المال ، بل كانت تشجعني دائماً على أن أطلب المزيد منه ، ادركت اخيراً انه كان بيني وبينها العلاقة نفسها التي كانت بين سيسيليا وبيني . إن أمي كانت هي ايضاً تسعى من جهتها لتأمين سيطرتها عليّ بواسطة المال : ولكن التشابه كان ينتهي هنا ، لأني لم اكن مماثلاً لسيسيليا ، ولم تكن أمي خصوصاً تشبهني . وبالفعل ، فبينما لم يكن المال يبدو مالاً ، بين سيسيليا وبيني ، بسبب انعدام الأهمية التي كنا ننسبها اليه ، كلٌ لعوامل مختلفة ، وإنما كان يبدو جزءاً من علاقاتنا الغرامية ، فانه كان يحتفظ بطبيعته الاصلية بين أمي وبيني، بسبب ان أمي بالذات لم تكن ولا يمكن أن تكون إلا مالاً . وبالإجمال ، فقد كانت امي تحبني ، بكل تأكيد ، ولكنها لم تكن مستعدة على الاطلاق لإعطائي المال بلا غاية ، اي بدافع الحب ، الذي كان هو الطريقة الوحيدة لنزع من المال نفسه معناه المألوف .

وقد تأكدت من هذا الفرق يوم طلبت منها مبلغاً اكبر ، بحجة رديئة بما فيه

الكفاية ، كما سنرى . وكان ذلك بعد تناول الغداء ، وكانت أمي قد تمدّدت فوق سريرها في غرفتها ، على عادتها ، وكانت احدى ذراعيها تغطي وجهها ، وساقاها متدليتين خارج السرير ، وكنت أنا جالساً في مقعدٍ قائم قريباً من رأسها أطرح عليها ، كما أظن ، أسئلة متعلقة بأبي ، وهو احد الموضوعات النادرة التي كنا نشترك فيها ، وكان لا يني يثير اهتمامي . وكانت امي تجيبني بطريقة تزداد ايجازاً وابهاماً ، وهي تبدو على وشك أن تنام . وفجأة ، وبلا اي تمهيد ، قلت لها :

– وبالمناسبة ، اسمعي ، سأكون بحاجة إلى ثلاثمئة الف لير .

فرأيتها تزيح ذراعها بكل بطء ، كاشفة بذلك احدى عينيها ، ثم تنظر إليّ لحظة ، بعينها تلك الواحدة . ثم قالت في لهجة استياء بدت في صوتها الناعس :

– لقد أعطيتك خمسين الف لير يوم السبت ، واليوم هو الثلاثاء . فلأي شيء يمكن ان تستعمل هذا المال كله ؟

فأجبتها ، وفق الخطة التي كنت قد تخيلتها :

– إن هذا ليس إلا جزءاً من المبلغ الذي ينبغي أن أنفقه : لقد قررت ان أجري اصلاحات كثيرة على مرسمي ، إنه في حالة يرثى لها .

– وكم سيكلف مجموع الاعمال ؟

– ثلاثة اضعاف على الأقل . فالى جانب تمليط الجدار ، عليّ أن أصلح إصلاحاً كاملاً غرفة الحمّام ، وان أضع ستائر جديدة ، وأغيّر البلاط ...

وكنت أظن خطتي ممتازة . لقد كان المرسم ، بالفعل مفتقراً إلى تجديد تام ، وإذن فقد كان لديّ تبرير جادّ لأسحب من أمي مليون لير او مليوناً ونصف مليون . ومن جهة أخرى ، كنت واثقاً ان امي ، بسبب ما كانت تكنّه من كرهٍ نزقٍ لمرسمي ، لن تعزم ابداً على المجيء إلى شارع مارغوتا لتراقب الطريقة التي أنفق بها مالها .

وإذن ، فقد انتظرت جوابها في ثقة . ولم تكن أمي تأتي بأية حركة ، كانت تبدو وقد أغفت حقاً . بيد ان صوتها المستيقظ وصلني اخيراً من تحت ذراعها التي كانت تخفي وجهها :

– هذه المرة ، لن أعطيك مالاً .

– ولماذا ؟

– لأنني لا أرى ضرورة لاعطاء مليون لير لمعلم هذا المكان وسيده ، بينما هو يملك امكانية العيش في مقصورة قائمة على جادة آبيا .

ففهمت ما كانت تقصد اليه ، وأدركت ، بعد فوات الأوان ، ان الحجة التي اخترعتها لأسحب مالاً ، كانت هي الحجة الوحيدة التي كان عليّ أن أتحاشاها . غير أني صحت ، متظاهراً بالدهشة :

– ولكن ذلك لا علاقة له . . .

فقالت امي بصوت بطيء ، وقاس ورتيب :

– لقد جعلتني أفهم انك كنت تنوي الاقامة هنا . وقد أتيح لك ان ترى الفطنة التي عمدت اليها حين تركت لك الوقت كله لتقرر . ولكن ها أنت ذا تطلب مني المال لتعيد تجديد مرسمك . وأستنتج من ذلك أنك لا تفي بوعدك :

فقلت مغتاظاً بعض الشيء :

– لم أعدك بشيء . بل اني لم أخف عنك قط الاشمئزاز الذي يوحيه لي ان أعيش معك .

– انك إذن يا عزيزي دينو ، لا تستطيع ان تدهش حين أقول لك إنني لن اعطيك مالاً هذه المرة .

وكان قد حدث ، قبل ذلك بيومين ، أني أعطيت سيسيليا آخر خمسين الف لير كنت أملكها؛ وكان المفروض أن تأتي سيسيليا لتلقاني في اليوم نفسه، بعد الظهر. بالطبع كان بوسعي ألاّ أعطيها شيئاً ، كما فعلت ذلك من قبل ؛ ولكني لاحظت بغتةً انني ، بعد الآن ، لن اكون قادراً على ذلك . لا لأنني كنت أتوهم ، اذ أعطيها المال ، بأني أمتلكها ، بل للسبب المعاكس : فقد كان المال يضيف الآن الى عدم قابلية سيسيليا للالتقاط مظهراً جديداً كان يؤكدها ويعقدها : هو التجرد . وما دامت لا تدع نفسها تمتلك بواسطة المال ، فقد كنت أحسني ميالاً كل الميل الى اعطائها المال ؛ كما كنت احسني ميالاً الى مضاعفة العمل

الجنسي ؛ لأنني لم اكن ابلغ به أن أمتلكها . والواقع ان المال، كالعمل الجنسي، كانا يعطيانني لمدة لحظة وهم الامتلاك ؛ ولم اكن استطيع بعدُ أن استغني عن هذه اللحظة، فيما كنت أعلم بأنها كانت متبوعة دائماً باحساسٍ عميق من زوال الوهم.

ونظرت الى أمي ، التي ما تزال متمدّدة ، وما زالت ذراعها تخفي وجهها ؛ ثم فكرت في سيسيليا التي كانت اذ تغلق يدها على مالي، تفتح شفتيها لقبلني ، فشعرت بأني سأكون جديراً بالمضي حتى ارتكاب الجريمة ، لكي أحصل على المال الذي احتاج اليه . وفي تلك اللحظة ، جذبت انتباهي اليدُ التي كانت امي تضعها على عينيها ؛ كانت تلبس في كل أصبع من أصابعها الهزيلة خاتماً ثقيلاً مزداناً بالأحجار الكريمة . كان حسْبي أحد هذه الخواتم لأستطيع ان أعطي سيسيليا كل المال الذي كنت اريده ، لمدة بضعة اشهر على الأقلّ . ثم تذكّرت ، ولا أرى السبب ، الموقف المؤيد ، ولو كان مغرضاً ، الذي وقفته أمي يوم استسلمتُ لمغازلة فرّاشتها ريتا ، وسرعان ما غيّرت خططي ، فنهضت ورحت أجلس على السرير . وقلت في رقة محسوبة :

– اريد يا ماما ان اكون صريحاً معك . انني بحاجة إلى المال لا لأجدّد مرسمي ، بل لسبب آخر .

– وما هو ؟

– الأفضل لك ان تعطيني ما أطلبه منك ، من غير ان تطرحي كثيراً من الأسئلة . فان هناك اشياء ليس من السهل قولها .

– يحقّ للأمّ أن تعرف الطريقة التي ينفق بها ابنها المال الذي تعطيه إياه .

– ربما لو كان ابنها في السادسة عشرة . اما إذا كان في الخامسة والثلاثين ، فلا .

– إن الأمّ هي الأمّ مهما كانت سنّ ابنها .

– حسناً ، هذا المال ، انا بحاجة اليه من اجل امرأة !

وبعد ان نطقت بهذه العبارة ، تطلّعت إليّ أمي ، فاذا هي ما تزال على جمودها ، وإذا بها تبدو وكأنها قد عادت إلى الاغفاء . ولكن صوتها بلغني :

– إمرأة سيئة السلوك ، بلا شك ؟

– ولكن يا ماما ، لو كانت القضيـــة قضية مومس ، أتعتقدين أني سأطلب ثلاثمئة الف لير ؟

– إن المرأة المحترمة لا تطلب أن يُدفع لها .

– ولكن لنفرض ان هذه المرأة محتاجة حقاً للمال ؟

– حذار يا دينو ! إن هنـــاك نساء جديرات بأن يخترعن روايات حقيقية ، ليسحبن المال .

– ليست القضية قضية رواية، وإنما هي قضية أشياء ذات ضرورة اولية: غذاء ، مسكن ، ثياب ...

– يجب عليك ، بالاجمال ، ان تتعهدها كليّاً ؟

– كلا ، وانما أريد حقاً ان اساعدها قليلًا ، فترةً من الزمن .

قالت أمي :

– « واحدة حافية القدمين » . كم كان افضل يا دينو ان تكون لك علاقة بأمرأة متزوجة ، من وسطك ، امرأة كانت لتطلب منك شيئـــاً ، لا لتثقل على حياتك بأيّ شكل .

فأجبت من غير سخرية :

– إن وسطي ليس هو الوسط الذي نجد فيه هذا النوع من النساء .

فقالت أمي :

– إن وسطك هو وسطي . ثم حذار يا دينو ، قبل كل شيء ، فبوسعك ان تلتقط امراضاً مع هؤلاء المغامرات اللواتي يسرن اليوم في كل مكان .

– لم التقط شيئاً حتى الآن ، ولن التقط في المستقبل .

– أتعلم من يذهب مع هذه المرأة ، حين لا تكون أنت موجوداً ؟ اكرّر لك يا دينو ، إحترس . انك لا تجهل ، بلا شك ، ان المرء يستطيع ، بل يجب عليه ، في بعض الحالات ، ان يستعمل بعض الاحتياطات ؟

– لن تلبثي طويـــلًا حتى تقولي لي كيف يجب أن أتصرّف لأقوم بفعل

الحب ...

ـ لا ، ولكني اريد ان أحذّرك . انك ابني أولاً وأخيراً ، وتهمّني صحتك .

ـ وبالاجمال ، هل تريدين ، يا ماما ، ان تعطيني هذا المال ؟

فنزعت امي يدها التي كانت تضعها امام عينيها ونظرت إليّ ، وقالت :

ـ من هي هذه المرأة ؟

فأجبت بعبارة كانت سيسيليا أجدر بالنطق بها :

ـ ان هذه المرأة هي المرأة .

ـ انت ترى ، انك تريد مالا ، ولكنك لا تثق بي .

ـ ليس السبب اني لا أثق بك ، ولكن ما يهمك ان يكون اسمها ماريا او كلارا او باولا ؟

ـ اني لم أسألك عن اسمها ، وإنما سألتك من تكون ، أهي فتاة صبية ام امرأة ، أهي تعمل ، أم لا تعمل شيئاً ، أم انها تدرس ، ما عمرها ، وكيف شكلها ؟

ـ ما اكثرها اشياء ، هذه التي تريدين معرفتها مقابل ثلاثمئة الف لير مسكينة صغيرة !

ـ انك تنسى اننا اذا كنا مضطرين إلى اجراء حسابات ، وإلى ان ندخل فيها ما سبق ان أعطيتك إياه ، فيجب ان تضاعف هذه الثلاثمئة الف لير المسكينة التي تحتقرها إلى هذا الحد .

ـ آه ! لقد فعلت حساب ما أعطيتني إياه ؟

ـ طبعاً .

ـ حسناً يا ماما ، ليست لي اية رغبة في ان اجيبك ، هذه اللحظة على الأقل ، ولكن قولي لي مرة أولى وأخيرة اذا كنت تريدين ان تعطيني هذا المال ، او لا .

ونظرت أمي إليّ ، ولا بد اني بدوت لها من العزم ، بل من اليأس بحيث ظنت اني لن أسمح لها بأن تشد اكثر مما فعلت على حبل قلة رصانتها . فإذا بها تقول ، وهي تتظاهر بخنق تثاؤبة :

ـ حسناً ، اتفقنا . هو ذا المفتاح ، فاذهب إلى غرفة الحمّام . انت تعرف اين هي الخزنة وتعرف السرّ : فافتحها تجد ظرفاً أحمر ، فخذه وجئني به .

ونهضت فدخلت غرفة الحمام وأدرت التعليقة المعهودة،وفتحت مربّع الخزف، ثم باب الخزنة . وبالفعل ، كان فوق ملفّات الأسهم ظرفٌ برتقالي ، فأخذته ووزنته : وإذا كان لي ان أحكم عليه من وزنه فلا بد انه كان محتوياً على نصف مليون لير مكونة من أوراق فئة العشرة آلاف على الأقل . وعدت أعطي أمي الظرف ، وكانت قد جلست الآن على طرف السرير وهي ما تزال ناعسة . ورأيتها تفتح الظرف ، وتسحب منه بطرف أصابعها ورقة ، اثنتين ، ثلاث ، اربع، خمس ورقات من فئة العشرة آلاف :

ـ خذا هذا الآن .

فلم أتمالك ان صحت :

ـ ولكن في هذا الظرف خمسمئة ألف لير على الأقل .

ـ بل فيه أكثر من ذلك . ولكن هذا هو كل ما أستطيع اليوم ان أعطيك إياه . الآن ، أعد هذا الظرف إلى مكانه ، وأغلق الخزنة ، وردّ لي المفتاح ، ودعني ، انني متعبة جداً وأريد ان أرتاح .

وفعلت ما أمرت به . ولكني وأنا أعيد الظرف إلى الخزنة لم يسعني إلا ان أدهش للثقة التي كانت أمي ، الحذرة عادة ، تمنحني إياها . لقد كان بوسعي ، بعد كل حساب ، ان أفتح الظرف من جديد وآخذ مزيداً من المال . ولكني ما لبثت ان فهمت ان امي كانت تثق بي . لأنني منذ ولادتي ، إذا صح التعبير ، كنت قد تدبرت امري لأوحي لها بالثقة ، بفضل تجردي بل احتقاري للمال الذي كنت أتباهى به ، ولكنه كان على كل حال صادقاً إلى ابعد حد . وفهمت ان الذي تغير لم تكن أمي ، بل كنت أنا نفسي ، وكنت أحسّني الآن جديراً تماماً بأن أسرق المال الذي كنت بحاجة اليه لكي أدفع لسيسيليا ، وكنت أشعر أنها إن لم تعطني كفايتي منه ، فسينتهي الأمر بي إلى السرقة . نعم ، لقد تغيرت ؛ ولم تكن أمي قد اكتشفت بعد هذا التغيّر فيّ ، فظلت تثق بي كما كانت في السابق . وأغلقت

باب الخزنة ، وأعدت المربّع إلى مكانه ، ورجعت إلى الغرفة ، وكانت أمي قد عادت فتمددت على ظهرها ، وذراعها على عينيها .

وانحنيت فوضعت المفتاح في يد أمي ولكن أصابعها لم تلتقطه ، فسقط المفتاح على الوسادة . ولامست بشفتي الخد الهزيل المصبوغ وانا أقول :

ـ الى اللقاء ، يا ماما .

فأجابتني أنـّة ٌ خفيفة : كانت هذه المرة قد أغفت حقاً وخرجت على أطراف أصابعي .

وقررت ان أقسم هذه الخمسين الف لير الى قسمين : عشرين ألفاً لي ، وثلاثين الفاً لسيسيليا ستتيح لي في زيارتها القادمة أن أقدم تبريراً لقابلية البيع عندها ، وهو تبرير أصبح لا غنى عنه . ولكني كنت أحس ان سيسيليا ، كما ذكرت ، كانت تفلت مني بمقدار ما كنت أدفع لها ؛ وكلما ازددت دفعاً لها ، ازددت شعوراً بأنها لم تكن لي . ومن جهة أخرى ، كان ينضاف الآن الى قلق امتناعها على الامتلاك قلق الارتياب في انها ربما استسلمت لامتلاك منافسي لها . وبالفعل ، كان يبرمني التفكير اكثر فأكثر بأن يكون لوسياني قد تمكن من امتلاك سيسيليا ، وبهذا العمل الجنسي البسيط الذي كان يتبدّى بالنسبة لي غير كاف على الاطلاق . وبالاجمال ، كنت أخشى ان يكون الممثل وهو أضعف ثقافة مني وأقوى غريزة ، قد نجح حيث أخفقت . واذ كنت أفكر بان الامتلاك كان يكمن في تأثير العمل الجنسي على الشخص الذي كان موضوعه اكثر مما يكمن في هذا العمل بالذات ، فاني لم أكن أتعب في سؤال سيسيليا عن علاقاتها بلوسياني . وهذا مثال من هذه الاستجوابات :

ـ هل رأيت لوسياني امس ؟

ـ نعم .

ـ رأيته ام قمت بفعل الحب معه ؟

ـ انت تعلم اني حين اقول لك اني رأيته ، فأقصد اني قمت معه بفعل الحب .

ـ وهل قمتما به كثيراً ؟

– كالعادة .
– وهل تقومان به كثيراً عادة ؟
– هذا يتوقف على الايام .
– أتفضلين ان تقومي به معي أم معه ؟
– انتما شيئان مختلفان .
– يعني ؟
– مختلفان .
– ولكن أين يكمن هذا الاختلاف ؟
– انه ألطف منك .
– ويلذّك ان يكون لطيفاً ؟
– تلك هي طريقته .
– ولكن أيلذّك ذلك أم لا ؟
– لو لم يكن ذلك يلذّني ، لما بقيت معه .
– أليس هناك من اختلافات اخرى بيني وبينه ؟
– بلى ، هو ، يتكلم بينما نقوم بفعل الحب .
– وماذا يقول لك ؟
– الأشياء التي تقال حين يتبادل المحبّون الحب .
– وانا أيضاً ، أقول لك مثلها احياناً .
– لا ، بل تبقى أبكم ، والمرة الوحيدة التي كلمتني فيها ، سمّيتني : قذرة !
– وهل ساءك ذلك ؟
– لا ، لم يسؤني .
– ولكنك تفضلين ما يقوله لك ، هو ؟
– حين أكون معه ، أحب الأشياء التي يقولها لي ، وحين أكون معـــك ، أحب صمتك .
– ولكن ، بالاجمال ، ما الذي تحسّينه حين يأخذك ؟

ـ ليست هذه أشياء يمكن أن تشرح .
ـ أتحسّين بإحساس أقوى مما لو كنتِ معي ؟
ـ لا أدري .
ـ كيف ، لا تدرين ؟
ـ لم أفكر في ذلك قط .
ـ إذن ، فكّري فيه الآن .
ـ أحس أنه يحبني .
ـ وهل يلذك ذلك ؟
ـ يلذّ النساء جميعاً أن يشعرن أنهنّ محبوبات .
ـ هذا الشعور إذن ، هو أقوى من الذي تحسّينه معي ؟
ـ معك أيضاً ، احسّ انك تحبّني .
ـ وهل يلذّك ذلك ؟
ـ بالتأكيد ، يلذّني .
ـ يلذّك اكثر او اقل مما يلذك مع لوسياني ؟
ـ انهما شيئان مختلفان.
ـ فهمت . والآن ، قولي لي : اذا حال سببٌ ما دون أن تلتقي بعد بلوسياني ، فهل سيزعجك ذلك ؟ هل ستشعرين بفراغ ؟
ـ إن هذا لم يحدث بعد ، فكيف يمكنني أن أعرفه ؟
ـ ولكن اذا حدث ذلك ؟
ـ سأرى آنذاك . أعتقد أن نعم .
ـ وإذا لم تستطيعي بعدُ أن تريني أنا ؟
ـ وهذا ايضاً ، لم يحدث .
ـ ولكن تخيّليه .
ـ حين كنت تقول أن علينا أن نفترق ، اذكر أنّ ذلك كان يشق عليّ
ـ كثيراً ؟

– كيف يمكننا ان نقيس هذه الأمور ؟ كان ذلك يشقّ عليّ .
– ولكن على العموم ، أيّنا تحبّين اكثر ، هو أم أنا ؟
– أنتما شيئان مختلفان .

ورأيت مرة أخرى اني لم أنجح في ان أشدّ سيسيليا عن كثب حول موضوع عواطفها خلال عمليـــة الحب الجسدي ، فحاولت أن أخضع لتحقيقي سؤالاً اكثر براءة :

– مساء أمس ، هل خرجت مع لوسياني ؟
– نعم ، لقد خرجنا نتناول العشاء معاً .
– اين ؟
– في مطعم في « تراستيفير » .
– لم تريدي قط ان تخرجي معي في المساء .
– لم تكن لي حجّة . إن دروس الرسم لا يمكن ان تؤخذ إلاّ في النهار . اما مع لوسياني ، فأستطيع على العكس ان اقول أنه يريد ان يقدّمني لمنتج أفلام .
– ولكن كيف تريدين ان تقنعيني بأن أبويك يعارضان ذلك . لقـــد رأيتهما ، ابويك !
– ماما ، كلا ، ما كانت لتعارض . اما أبي ، فبلى . انـه مريض جداً ، ولا أستطيع أن أعاكسه .
– حسناً ، لندع هذا جانباً . لقد ذهبتما إذن الى مطعم في تراستفير .
– نعم .
– وبمَ تحدثتما ؟
– بكثير من الاشياء .
– أيّكما كان اكثر كلاماً : هو ام انت ؟
– انت تعلم اني أحبّ كثيراً أن اصغي .
– طيّب ... عمّ تحدثّ ؟
– لا أذكر .

– إجهدي قليلًا لتتذكري . لقد كان ذلك مساء الامس !

– ولكنك تعرف أن ليست لي ذاكرة . فانا لا اذكر حتى الاشياء التي قلتها لي منذ خمس دقائق .

– حسناً ... قليلًا من الصبر ! كيف كان المطعم ؟

– مطعم ككثير من المطاعم الأخرى .

– ما اسمه ؟

– لا ادري .

– أكان صغيراً ام كبيراً ، غاصاً ام فارغاً ، بقاعة واحدة ام بعدّة قاعات ، أنيقاً أم غليظاً ؟

– لا أستطيع ان أجيب ... فانا لم أنظر إليه .

– بينما كنتما تتحدثان ، أكانت يدك في يده ، على الطاولة ؟

– نعم . كيف حزرت ذلك ؟

– أتحبّين أن يمسك بيدك ؟

– نعم .

– قليلًا ام كثيراً ؟

– أعرف أنّ ذلك يلذّني ، ولكني لا أستطيع ان أقول إلى ايّ حدّ !

– وتحت الطاولة ، أكانت ركبتاكما تتلامسان ؟

– لا ، لأننا كنا نجلس متجاورين .

– هل داعبك لوسياني ، إلى جانب إمساكه بيدك ؟

– نعم ، لقد لامس خدّي وقبّلني في عنقي .

– انك لا تتذكرين الكلمات ، اما الملامسات فتذكرينها .

– أذكرها ، لأنني لم أكن أريد ...

– وهل تخاصمتما ؟

– لا ، ولكنه يريد دائماً ان أفعل أشياء لا أريد ان أفعلها .

– مثلًا ؟

ـ لن أقول لك ، لأنني إذا قلتها ، غضبت .
ـ لا ، لن أغضب . قوليها .
ـ طيّب ... كان يريد ان أمسك بيده ، ترى أين ... هل فهمت ؟
ـ نعم ، فهمت ؛ وانت ، ماذا ؟
ـ انا ، فعلت ذلك لحظة ، ثم كففت . ولكن ما بك ؟
ـ لا شيء . ولكن بينما كنت تفعلين ذلك ، هل كان يلذّك ؟
ـ كان يلذّني ان يلتذ .
ـ ولنفرض اني اطلب منك الشيء نفسه ، فهل يلذّك ان ألتذّ ؟
ـ أظن ان نعم . هناك أشياء كثيرة نفعلها في لذة لأننا نعرف أنها تلذّ شخصاً آخر .
ـ شخصاً آخر ؟ إذن اي شخص ؟
ـ لا . أقول شخصاً آخر وأقصد أنت او لوسياني .
ـ فهمت . ثم ماذا حدث ؟
ـ لقد أكلنا وشربنا . ففى المطعم يأكل الناس ويشربون ؟ أليس كذلك ؟
ـ وماذا أكلت ؟
ـ لا اذكر ؛ انني لا أنتبه قط لما آكله . الأشياء العادية .
ـ وماذا فعلتما أيضاً ؟
ـ لوسياني استقدم الموسيقيين فغنوا لنا أغاني من نابولي .
ـ أيها ؟
ـ لقد نسيت .
ـ هل تحبين أغاني نابولي ؟
ـ أظن ان نعم .
ـ تحبينها ام لا ؟
ـ هذا يتوقف . في المطعم،نعم. ولكن إذا أتى من يغنيها لي بينما أنام ، فلا .
ـ وبعد ذلك ، ماذا فعلتما ؟

– ماذا فعلنا ؟ لا شيء آخر .

– أراهن ان لوسياني اشترى لك وردة ذات ساق ملفوفة بورق فضة ، اشتراها من إحدى تلك الفتيات اللواتي يذرعن المطعم وهنّ يبعن زهوراً ؟

– آه ؛ نعم ، صحيح ، كيف عرفت ذلك ؟

– انني أعرف أشياء كثيرة ، انا . وأعرف ايضاً انك رفعتها إلى منخريك ، أليس كذلك ؟

– هذا ما يفعله المرء حين يُهدى زهرة ، أليس كذلك ؟

– وهل لذلك ان يعطيك لوسياني وردة ؟

– نعم .

– وبعد العشاء ، إلى اين ذهبتما ؟

– الى السينما .

– ما عنوان الفلم الذي رأيته ؟

– لا أدري .

– ومن هم الممثلون ؟

– أستطيع ان أقول ... انني لا أعرف اسماءهم .

– ولكن على الأقل ، ماذا يحدث في هذا الفلم ؟

– أظنّ انـــه كان فيلماً اميركياً ؛ انهم كما تعرف أشخاص يركبون خيولاً ويطلقون الرصاص .

– فيلم « وسترن » . وفي السينما تشابكت ايديكما ؟

– نعم .

– وهل تبادلتما القبلات ؟

– نعم .

– وهل قمتما بفعل الحب ؟

– نعم .

– كيف ! قمتما بفعل الحب في السينما ؟

– كان مقعدانا في جوف القاعـة ، خلف عمود ، وكانت السينما نصف فارغة .
– وبأية طريقة قمتما بفعل الحب ؟
– صعدت على ركبتيه .
– وهل لذّك ذلك ؟
– لا . كنت خائفة خوفاً شديداً . ثم إنني لا أحب ان أفعل هذه الاشياء في الأماكن العامة .
– لماذا إذن فعلت ذلك ؟
– لأن الرغبة قد جاءتني آنذاك .
– لقد لذّك هذا إذن ؟
– كلا ، كانت لديّ الرغبة ، ولكن ذلك لم يلذّني .
– وماذا فعلتما أيضاً مساء أمس ؟
– قصدنا أحد المراقص .
– أيّها ؟
– لا ادري ما اسمه . إنه يقع خلف شارع فينيتو .
– وكيف كان المرقص ؟
– كان فيه كثير من الناس .
– لا ، أقصد كيف كانت القاعة ، كيف هي مؤثثة ، ومزينة ؟
– لم أنظر اليها .
– وهل رقصتما ؟
– نعم .
– كثيراً . ؟
– نعم .
– وفي اثناء الرقص ، هل التصقت به ؟
– لا .
– لماذا لا ؟
– كانت الرقصات التي نرقصها لا تستدعي التقارب الشديد .

– وماذا فعلتما ايضاً ؟
– لا شيء غير ذلك . حوالي الساعة الثالثة ، رافقني ليوصلني إلى بيتي .
– هل يملك سيارة ؟
– كان يملك سيارة ، ولكنه باعها .
– إنه إذن لا يملك مالاً كثيراً ؟
– في هذه الفترة لا ، لأنه بلا عمل .
– هل تعطينه بعض المال ، أحياناً ؟
– نعم أعطيه أحياناً .
– مالي انا ؟
– نعم ، ما تعطيني إياه .
– هكذا إذن ، فان المبالغ التي أعطيك إياها ، لا تنفقينها لحسابك ؟
– بلى ، فاني أشتري بعض الحاجات . ولكنّ اكبر جزء منها ، أنفقه بمعيّته.
– امس مساء ، أكان هو الذي دفع ، ام أنت ؟
– لقد تقاسمنا النفقات ، فدفع هو السينما ، ودفعت الباقي .
– بالاجمال ، انت التي دفعت كل شيء تقريباً ؟
– لقد دفع في مرات كثيرة سابقة !
– كيف تمّ لك الأمر إذ اعطيته مالاً ؟
– في المطعم ، نقلتُ له المال من تحت الطاولة . وفي المرقص ، أخذه بنفسه من محفظتي .
– ثم رافقك إلى بيتك ، في سيارة تاكسي ؟
– نعم .
– وهل دخل معك إلى الساحة ؟
– نعم .
– وصعدتما السلم معاً ؟
– نعم .

ــ وعلى السلّم ، فمتنا بفعل الحب ؟
ــ قليلاً على السطيحة ، امام عتبة بيتنا .
ــ ماذا تقصدين بـ « قليلاً » ؟
ــ لم نمضِ إلى النهاية .
ــ وهل لذّك ذلك ؟
ــ اكثر من السينما . لأني كنت أقل خوفاً .
ــ وبعد ذلك ؟
ــ ثم افترقنا .
ــ وذهبت تنامين ؟
ــ نعم .
ــ وفكرت به قبل ان تغفي ؟
ــ لا ، بل فكرت بك .
ــ بي أنا ؟
ــ نعم ، فكرت بك إلى ان غفوت .
ــ ماذا فكرت ؟
ــ لا أذكر . فكرت بك . هذا كل ما في الأمر .

وأودّ الآن ان أروي حادثاً وقع ذات يوم ، ليؤكد الشعور بعدم قابلية الالتقاط الذي كانت سيسيليا توحيه لي . فغالباً ما كنت أقصد مرسم باليستياري الذي كان ما يزال في الحالة التي خلّفه فيها موت الرسام العجوز ؛ وكنت أقصده خصوصاً حين كنت أعلم ان سيسيليا لن تأتي للقائي . ولم تكن الأرملة قد اهتمت بتأجيره ، او انها على الارجح ، لم تكن قد وجدت بعد من يستأجره استئجاراً ثانياً . ولجت المرسم بفضل المفتاح الذي كان باليستياري قد أعطاه لسيسيليا فسرقته منها ؛ وأخذت أطوف بين قطع الأثاث تلك التي كانت الآن مغطاة بغلالة من الغبار ، في تلك الرائحة للأشياء القديمة التي تتفاوت في درجات النظافة ، باحثاً عما لست أدريه . وكنت أحس وانا في تلك القاعة الكبيرة المظلمة الملآى

بالأثاث الأسود والطنافس الحمر التي شهدت غراميات سيسيليا وباليستياري – كنت أحس بشعور مأتمي ، كما لو أني ، بدلاً من ان أكون في مرسم باليستياري ، كنت أجدني في مرسمي ، واني كنت أعود اليه ، وانا ميت ، بشكل شبح – باعتبار ان الأشباح توجع دائماً ، كما هو معروف ، إلى أماكن غرامها . وإلى جانب التشابه المنفر للعلاقة القائمة بين سيسيليا وبيني مع العلاقة التي كانت قائمة بين سيسيليا وباليستياري ، كان هذا الشعور يأتيني من الاعتقاد بأني كنت انا أيضاً ميتاً على نحو ما ، وربما بطريقة أكثر حسماً من الرسام العجوز الذي لم يسبق له ، هو ، ان شكّ بفنّه ، وكان قد رسم حتى آخر نسمة من حياته ، اذا صحّ التعبير . اما انا ، فعلى العكس – كنت أقول ذلك لنفسي وأنا أنظر الى صور سيسيليا العارية الضخمة التي كانت تغطّي الجدران حتى السقف – كنت قد متّ كرسّام حتى قبل ان ألتقي بسيسيليا ؛ ولئن كنت ميتاً ، كباليستياري ، بسبب سيسيليا ، فان حياتي لم يكن من شأنها الا ان تؤكد ما كان قد حدث في فني . وإذن فقد كنت أشعر شعوري الدائم بأنه كان ثمة علاقة بين أزمة رسمي وصلتي بسيسيليا ، بين استحالة رسم اللوحة الموضوعة على مسندي واستحالة امتلاك سيسيليا على وسائد الاريكة ؛ ومثل هذه الصلة التي كانت قائمة بين صفة رسم باليستياري القبيح ، وطابع علاقاته مع سيسيليا . انها صلة غامضة ومهدّدة تحمل المعنى الذي تحمله لمسافرٍ في الصحراء رؤيةُ العظام المبيضّة المتناثرة فوق الرمل .

وحدث اني بينما كنت بعد ظهر أحد الأيام أتأمل صور باليستياري العارية الكريهة ، كما يتأمّل أحدنا العلامة الخفيّة للغةٍ لم نحل ألغازها ، فُتح الباب الذي كنت قد تركته مشقوقاً ، وبرز منه رأس امرأة . واذ تأكّدت المرأة من وجودي دخلت وأقبلت عليّ ؛ لقد عرفتها على الفور تقريباً ، وكانت أرملة باليستياري التي كان وجهها ، في يوم الجنازة ، مختفياً كلّه تحت غلالة حدادٍ سميكة ، على نحو ما يُرى في الجنازات القروية ؛ ولكني كنت منذ ذلك الحين قد لقيتها عدة مرات . وكانت امرأة طويلة ذات أشكالٍ ضخمة ، وقد سبق ان كانت جميلة ، وكانت في

الخمسين ما تزال تحافظ على الوان الشباب التي كانت قد تعدلت وامتزجت فوق لحم متوهّل : بياض لامع في الوجه ، وسواد شفّاف في عينين بقريتين بعض الشيء ، وحمرةٌ فاقعة تشبه حمرة الكرز الناضج ، في الشفتين الرطبتين . لقد كانت في شبابها نموذجاً للرسم ، وكانت المرأة الوحيدة التي أحبّها باليستياري أو ظنّ أنه يحبّها قبل سيسيليا ، وكان قد تزوّجها وعاش معها عشرين عاما . وقد وُلدت في احدى قرى « اللاتيوم » المشهورة بأنهـا قدّمت لرسّامي روما نماذج نسائية ، فاحتفظت بريفية أصلها وبساطته . وقد لاحظت على التو انها لم تدهش ولم تغضب بأن تجدني في مرسم زوجها . وقد عرّفتني بنفسها بصوت حارّ ، صوت قروية: « السنيورة باليستياري » .

فسارعت الى الاعتذار:

– اعذريني، فقد وجدت الباب مفتوحاً، فدخلت ألقي نظرة على اللوحات .

فأجابت في ودّ:

– عفواً يا بروفسور ، تستطيع أن تدخل متى أردت . فأنا أعلم كم كنتما صديقين ، انت وزوجي .

فلم أجرؤ على مخالفتها في الرأي . وكانت تنظر إليّ وهي تبتسم ؛ وكان في بسمتها ما يشبه رفقاً ودوداً لم أكن أفهمه ، وقالت لي :

– لقد قصدتك في مرسمك ، يا بروفسور ، لأن عليّ أن أحدثك عن أمرٍ قد يهمك ، ولكني وجدت بابك مفتوحاً . واذ رأيت انك لم تكن موجوداً ، فكرت بأنك كنت هنا .

– كيف فكرت بأني كنت هنا ؟

– كنت أعرف أن معك مفتاح مرسم زوجي .

– ومن قال لك ذلك ؟

– بوّاب البناية ، يا بروفسور .

– وكنت تريدين أن تحدثيني ؟

فأجابت بهدوء :

– نعم لقد سبق لي ان بحثت عنك ذات يوم ، ولكنك كنت غائباً .

ثم غيرت الموضوع في عدم اكتراث قروي مرتبك :

– إن هذه اللوحات تروق لك ، أليس كذلك يا بروفسور ؟

فأجبت مرتبكاً :

– كان زوجك رساماً مليئاً بالمزايا .

– إنها جميلة ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك وهي تسير في المرسم ، متطلعة إلى اللوحات التي تتدلى من الجدار ، وأضافت :

– هل تعرف يا بروفسور ، ان نموذج اللوحات جميعاً ، هو واحد ؟

فلم أقل شيئاً . واستطردت بعد لحظة ، باللهجة نفسها المحملة بالايماءات والساخرة بطريقة شعبية :

– اية فتاة جميلة ، أليس كذلك يا بروفسور ؟ انظر إلى هذا الصدر ، وهاتين الساقين ، وذلك الظهر ، وهاتين الخاصرتين ؟ انها حقاً ما يمكن ان نسميه فتاة رائعة ، أليس هذا رأيك يا بروفسور ؟

فسألتها لأعرف مجرى الحديث :

– وأنت ، ألم يرسم زوجك مرة صورتك ؟

– اوه ! بلى ، مرات كثيرة ، منذ سنوات ، ولكن هذه اللوحات ليست هنا. فحين افترقنا ، نزع زوجي جميع اللوحات التي كانت تمثلني وأعادها إليّ. فهي عندي كلها . ولكني لم أكن في جمال هذه الفتاة ! لقد كان لي بالأحرى جمال كلاسيكي ، وكنت مصنوعة كالتمثال . اما هذه ، فهي على العكس ، جمال عصري ، نصف صبية ، ونصف إمرأة ، كما يحبونهنّ الآن .

ورددت في تنهدة :

– نعم ، فتاة رائعة حقاً ! وخسارة ألا تكون طيبة بمقدار ما هي جميلة ..

فلم أتمالك عن سؤالها ، من غير سذاجة :

– إنك إذن تعرفينها ؟

– وكيف لا أعرفها ! كيف يمكن ألا أعرفها! انه يمكن القول ان زوجي قد مات بسببها .

– هذا ما رووه ...

فصحّحت بجد :

– نعم ، أعرف ماذا رووا . القذارات المعهودة . انه يمكن لهذا ان يكون قد حصل ، كما يمكن ان يحصل مع اية امرأة أخرى . ولكن لا ، ليس هذا ما أردت ان أقوله . اردت ان اقول إنه مات من جراء الهموم التي سبّبتها له .

– بأية طريقة ؟

– بسبب رداءتها .

– أتكون شريرة إلى هذا الحد ، هذه الفتاة ؟

فأجابت في اعتدال متعقّل :

– انا لا أقول انها شريرة . فأنت تعرف ان النساء يكنّ طيّبات او شريرات تبعاً لجبهنّ او لا . على كل حال ، كانت مع زوجي شريرة . ولا ريب في انها ستكون معك طيبة !

وأدركت أخيراً الايماءات الغامضة في عينيها وكلماتها : كانت تعرف ان سيسيليا كانت عشيقتي . وقلت متظاهراً بالدهشة :

– ما دخلي بهذه القصة ؟

فرفعت يدها وربتت على كتفي بحركة رثاء قروية :

– مسكين يا بروفسور .. آه آه ! مسكين يا بروفسور !

ثم ابتعدت عني وأشارت إلى الجدار ، وسألتني فجأة :

– هذه اللوحة ، أتروق لك يا بروفسور ؟

فاقتربت ونظرت . وكانت لوحة فريدة ، بمعنى ان باليستياري الذي كان يكتفي عادةً بتصوير سيسيليا وحدها ، في أوضاع مختلفة ، قد رسم هنا نوعاً من التأليف . كانت سيسيليا مرسومة على الارضية المألوفة القذرة المزفتة ، في نور مختص بالطيف الشمسي ، ولكنها كانت هنا تركب شكلاً انسانياً ذا أربعة أرجل.

وكانت تلك احدى لوحات باليستياري الاشد إيحاء بالنفور، فهو من أجل ان يعطي فكرة عن انتصار سيسيليا لم يجد أفضل من أن يرفع لها في السماء يداً منتصرة ، بينما كانت اليـــد الاخرى تتشبث برقبة الـ « كاليبان » [١] المشوّه الذي تتخذه دابّة ركوب .

وقلت بجفاء :

– لا بأس بها !

واقتربت الارملة من اللوحة . فنظرت اليها نظرة انتقامية ، وسألت :

– أتعرف من هو الرجل الجاثم على أربـع أرجل ؟ إن من ينظر اليه لا يعرفه لان وجهه غير ظاهر جيداً ، اما انا ، فأعرفه . إنه زوجي . ربما ظننت ان زوجي حين يرسم نفسه على هذا الشكل، يريد ان يُفهم الناس ان هذه الفتاة كانت تسيّره. ولكن لا : إنه كان يمارس هذه اللعبة بممارسة حقيقة !

– وكيف ذلك ؟

– كان يركع على أربـع ، فتركب على ظهره ويشب هنا وهناك في الغرفـة كالأطفال الذين يلعبون بالحصان . وبعد ذلك ، يقوم برفسة ويلقي الفتاة أرضاً ، وساقاها في الهواء . لقد رأيتهما بعيني ذات يوم ، من خلال الباب الزجاجي . وكم كانا يتسلّيان !

وصمتت لحظة ، وعيناها ما تزالان مثبتتين على اللوحة ، ثم أضافت :

– اذا كانت هذه اللوحة تعجبك ؟ يا بروفسور ، فاني أبيعك إياها .

وكنت أتوقع أقل ما أتوقع مثل هذا العرض حتى اني ظللت لحظة لا أدري بمَ أجيب : كانت الارملة تعرف عاطفتي المهووسة لسيسيليا ، وكانت تريد ان تساوم على هـــذا الوضع . واحسست فجأة ، بشعور خجل كأنسان مصاب بعيب خفي تُقدم له في الشارع رزمـة من الصور الفـاجرة موضوعها هو هذا العيب . وسألت مغتاظاً :

---

(١) شخصية خيالية في « العاصفة » لشكسبير ، وهو عفريت ممسوخ يجسد القوة الوحشية المضطرة الى اطاعة قدرة عليا . ولكنها مع ذلك ثائرة عليها دائماً . (المترجم)

– لماذا ينبغي لي ان اشتري هذه اللوحة ؟

فأجابت بهدوء :

– اعرض عليك ذلك اذا كان الامر يهمك . فان عليّ بعد بضعة أيام ان انزع جميع هذه اللوحات ، لأني قد أجرّت المرسم ، والمستأجر الجديد غير راغب في اللوحات . وهو يجدها أجرأ مما ينبغي . ولهذا فكرت بان من الممكن ان ترغب في احداها كتذكار .

– تذكار عن أي شيء ؟ وممن ؟ من زوجك ؟ اننا نكاد لا نعرف بعضنا .

ومن جديد ندّت عنها حركة رثاء خبيثة ، فربتت على كتفي وقالت وهي تهز رأسها :

– يا بروفسور ، يا بروفسور . لنحاول ان نفهم بعضنا . فلماذا لا تكون صريحاً معي؟ لقد ابيضّ شعري (وأشارت الى شعرها الاسود سواداً غرابياً وكان مسرحاً في ضفائر ملساء معقودة على العنق كان يمكن ان يميز الناظر بينها بعض خيوط بيضاء). وربما كنت في سن ام هذه الفتاة فلماذا لا تكون صريحاً معي؟

وفي هذه المرة ، جلست على الطاولة التي كان الجهاز التلفوني موضوعاً عليها . واشرت الى الارملة بان تجلس أيضاً . وتظاهرت بأني لم اسمع دعوتها الى الصراحة فقلت لها في جد لا يخلو من تهديد :

– سنيورا باليستياري ، ارجوك ان تقولي لي تماماً ما هي القضية . لقد أومأت عدة إيماءات لم أفهمها ، فتفضّلي بشرحها لي .

فأجابت بلهجة قروية تثير الرثاء ولا تخلو من الخوف :

– من سوء الحظ أن زوجي قد تركني في وضع مالي سيء. وكنت قد ظننت أنك تستطيع، كفنان ، ان تفهم لوحاته أفضل فهم ، وان تشتري احداها على الاقل . لقد حاولت ان أبيعها ، ولكنها لا تُفهم .

فقلت :

– ولكني لا أملك درهماً. فأنا لست إلا رسّاماً. وانا فوق ذلك رسّام لا يرسم.

فدُهشت دهشة صريحة :

ـ هذا غريب ، فقد قيل لي ان امك كانت غنية جداً .
ـ أمي ؟ نعم ، اما انا ، فلا .
ـ إذن لنفرض يا بروفسور اني لم أقل شيئاً ، لنفرض اني لم أقل شيئاً !
فألحت بقولي :
ـ لحظة ، لقد وردت على لسانك إيماءة ، منذ لحظات ، لماذا ، بالاجمال ، ينبغي ان أشتري هذه اللوحة على سبيل الذكرى ؟ ذكرى من ؟
فنظرت إليّ وهي تباعد ما بين عينيها السوداوين :
ـ ذكرى هذا النموذج .
ـ ولماذا ؟
ـ انك يا بروفسور تعرف جيداً لماذا !
ـ سنيورا باليستياري . انني لا أفهمك .
ـ طيّب ، أتعرف ما يقولون يا بروفسور ؟ ان هذه الفتاة هي عشيقتك .
ـ ومن يقول ذلك ؟
ـ جميع الناس ، ابتداء من بوابة البناية
فتظاهرت بحركة حائرة ، ثم نطقت على مهل ، وفي حزم :
ـ آه . من أجل هذا إذن ! ولكنك في الواقع مخطئة . إن هذه الفتاة ليست شيئاً بالنسبة لي .
فرسمت ابتسامة لطافة متواطئة :
ـ آه ، يا بروفسور . آه ، يا بروفسور ...
ولكني قاطعتها وانا أرفع صوتي بطريقة مألوفة :
ـ إذا كنت أقول لك شيئاً ، فهذا الشيء صحيح .
ومن جديد انسحبت إلى قوقعتها كبزاقة مذعورة . ولكنها ما لبثت ان قالت ملاحظة :
ـ انني أصدقك يا بروفسور . وهل تعلم ما أقوله لك : انني مسرورة من أجلك .
ـ لماذا ؟

– لقد قلت لك السبب : ان هذه الفتاة جميلة ، ولكنها لست طيبة .

– بأي معنى ؟

فتنهدت وقالت :

– كان بامكان زوجي ان يخبرك أفضل مني . ولكن زوجي مـــات . لنكن واضحين . فأنا لا أعرف شيئاً دقيقاً . ولكن هناك شيئاً أعرفه : فقد كان لزوجي في حي ساحة بولونيا شقة من خمس غرف يُساوي ثمنها بضعة ملايين . وحين مات ، اكتشفنا انه قد باع الشقة ، ولكن الملايين لم يُعثر عليها . وبالمقابل ، وجدنا دفتراً صغيراً كان زوجي ، وهو رجل منظم ، يسجل عليه نفقاته . وكان مكتوباً في كل صفحة تقريباً : سيسيليا ، كذا وكذا ..

– أتـُريدين ان تقولي ان هذه الفتاة كانت تستغلّ زوجك ؟

– بالضبط يا بروفسور .

وزفرت من جديد واضافت سريعاً وبصوت منخفض :

– انها مياه نائمة ، هذه الفتاة ، يا بروفسور . بـــلا قلب ، خادعة ، مغرضة . وبالإضافة الى ذلك كله كانت تخونه ، كانت تأخذ ماله وتعطيه الى آخر .

فلم اتمالك من الصياح :

– كانت تعطي المال لآخر !

– بكل تأكيد . رجل جائع كانت تلتقي به كل مساء بعد ان تكون قد قضت النهار مع زوجي .

– ولكن من كان هذا الرجل ؟

– عازف على السكسفون . كان يعمل في مرقص ليليّ . وكان كلاهما ينفقان معاً مال زوجي . بل إن هذا الشخص كان قد اشترى سيارة .

– اذن كان زوجك يعطي هذه الفتاة مبالغ ضخمة ؟

– ملايين يا بروفسور . كل شيء مسجل على دفتر النفقات . ولكن هل تعلم يا بروفسور ؟

– ماذا ؟

– لقد ظللنا انا وزوجي ، بالرغم من انفصالنا ، صديقين اذا صحّ التعبير . وهكذا كان يأتي احياناً ويحدثني عن هذه الفتاة . كانت اقوى منه . ولم يكن يستطيع ان يستغني عنها ، وكان يتخذني كاتمة لأسراره. وهل تتصور؟ رجل مثله عرف كثيراً من النساء ، رجل في مثل تجربته وذكائه ، وكان يبكي ؟

– يبدو ان دمعته سريعة ، زوجك !

– سريعة ؟ أوه ! كلا ! لقد بقينا معاً سنوات ، فلم أره قط يذرف دمعة . كان يبكي لأن هذه الفتاة كانت تدفعه الى اليأس . وهل تعلم ما كان يقول ؟ كان يقول إن هذه الفتاة ستكون موته . ايه ! لقد كان لديه الشعور المسبّق !

– وما اسم عازف الساكسفون الذي كانت سيسي ... الذي كانت الفتاة تعطيه المال ؟

ففهمت أن الأمر كان يهمّني وارادت ان تفهمني انها كانت تفهم . واذا بها تستقيم بجدارة وتقول :

– آن لك يا بروفسور أن تسمّيها باسمها ، سمّها سيسيليا . كان عازف الساكسفون هذا يدعى « توني برواتي » وهو يعزف في مرقص « كاناري »، الواقع في جهات شارع فينيتيو . حسناً ... انني إذن ذاهبة يا بروفسور . اعذرني مرة أخرى . اذا كانت هذه اللوحات تهمّك ، فبوسعك دائماً ان تجدني في بيتي. واسمي في دليل الهاتف : اسونتا باليستياري . او ربما أقنعت امك بشراء احدى هذه اللوحات ، يا بروفسور ؟ أأنت باقٍ او تريد الخروج معي ؟

ولم أبق، وبعد ان حييتها عدت الى مرسمي، فارتميت على الاريكة واستغرقت في تفكير عميق. لقد كانت الادلة على قابلية سيسيليا للبيع تتكاثر . ولكن الغريب ان هذه الادلة لم تكن تدلّ على شيء آخر . فلقد كانت سيسيليا ، بناء على قول أرملة باليستياري ، تحوّل المال من الرسّام العجوز الى عشيقها توني برواتي . وكان فقر خزانة سسيليا بالثياب وكونها لا تملك ادنى مجوهرات ، يبدوان وكأنهما يؤكدان صحة ذلك . فاذا لم تكن قد أعطت برواتي مال باليستياري ، فأين عساه يكون قد ذهب ؟

وفي اليوم التالي لزيارة ارملة باليستياري ، سألت سيسيليا فور وصولها الى مرسمي ، بلا تمهيد :

– من هو توني برواتي ؟

فأجابت بلا تردّد :

– عازف ساكسفون يعزف في « كاناري » .

– نعم ، ولكنه ما كان بالنسبة إليك ؟

– خطيبي .

– هل كنتما مخطوبين ؟

– نعم .

– وإذن ؟

– إذن ماذا ؟

– إذن ماذا حدث ؟

فأجابت في تردّد :

– لقد تخلى عني .

– لماذا ؟

– لأنه كان يحب امرأة أخرى .

– وهل كان باليستياري يعرف انكما كنتما مخطوبين ؟

– بكل تأكيد ، كان يعرف ذلك ؛ كنت مخطوبة لتوني وأنا في الرابعة عشرة ، أي قبل ان أعرف باليستياري بسنة .

فظللت مشدوهاً وتمتمت :

– ولكن سبق ان قلت لي إن باليستياري لم يكن يعرف شيئاً ، وانه كان يغار ، وهو من أجل ذلك قد توجّه إلى وكالة للاستعلامات الخاصة .

فأجابت ببساطة :

– لم يكن باليستياري يغار من توني ، باعتبار انه جاء بعد توني ، وعلم على الفور اننا كنا مخطوبين ، أنا وتوني . وإنما بدأ يصبح غيوراً حين ظن اني كنت

تخونه مع آخر .

– ولكن ، هل كان ثمة حقاً رجل آخر ؟

– نعم ، والحق ان الأمر دام وقتاً قصيراً .

– وهل حدث ذلك في عهد توني ؟

– لا ، بل بعد ان انقطعت صلتنا ، أنا وتوني .

– ولكن ، هل كان توني على علم بعلاقتك مع باليستياري ؟

– كيف تفكر بهذا ؟ لو عرف ذلك ، لقتلني .

– وبالاجمال ، من كان الأول بالنسبة اليك ؟

– الأول ؟ ماذا تقصد ؟

– الأول الذي قمت معه بالحب ؟

– توني .

– في أيّ سنّ ؟

– لقد قلت لك : في الرابعة عشرة .

– والآن ، أنت لا ترينه أبداً ، توني ؟

– نلتقي أحياناً ، فنتبادل التحية .

– أخبريني شيئاً آخر : هل كان باليستياري يعطيك مالاً ؟

فنظرت إليّ لحظة ثم أجابتني بتردّدها العجيب المألوف :

– نعم ، كان يعطيني .

– كثيراً أم قليلاً ؟

– كان هذا يتوقف ...

– علامَ كان يتوقف ؟

فصمتت من جديد ثم قالت :

– لم أكن أريد ان أقبل ، ولكنه كان يعطيني بالقوة .

– يعني ؟

– بالقوة . كان قد علم ان توني لا يملك درهماً ، واننا حين كنا نخرج أنا

وتوني في المساء ، لم نكن نستطيع حتى ان نذهب إلى السينما ، وإذ ذاك ، أراد ان يجبرني على قبول هذا المال ، فأعطيته لتوني .

– باليستياري كان يجبرك على ان تعطيه لتوني ؟

– نعم .

– وكيف حدث الأمر ، في المرة الأولى ؟

– كنت قد قلت له اننا لافتقارنا إلى المال كنا نقضي أمسياتنا في الشوارع . وإذ ذاك أخذ ورقة من فئة العشرة آلاف فوضعها في يدي وهو يقول : « خذي ، تستطيعان بذلك ان تذهبا إلى السينما . »

– وأنت ؟

– لم أكن أريد هذا المال ، ولكنه فرض عليّ أن آخذه ، مهدّداً إياي ، إن لم آخذه ، بأن يبلغ توني انه كان يقوم معي بفعل الحب ؛ وعند ذلك أخذته .

– وبعد ذلك ، استمر في اعطائك المال ؟

– نعم .

– وهل أعطاك مبالغ أكبر ؟

– لما كان يعلم ان المفروض ان نتزوج أنا وتوني ، وان علينا ان نؤثث بيتنا، فقد أجبرني على ان أشتري بماله أثاثاً لشقتنا .

– وماذا حدث بهذا الأثاث ؟

– انه في بيت توني . لقد تخليت له عنه .

– والسيارة ؟

– أية سيارة ؟

– ألم يشتر باليستياري أيضاً سيارة لتوني ؟

– بلى ، لقد اشتراها ، سيارة ذات طراز نفعي . من أخبرك ذلك ؟

– أرملة باليستياري .

– آه ! تلك المرأة ؟

– أتعرفينها ؟

ـ نعم ، لقد قصدتني يوماً ، وكانت تريد ان أردّ لها المال .
ـ وبمَ أجبتها ؟
ـ أخبرتها الحقيقة . أن زوجها أجبرني على قبوله قسراً ، واني لم أكن أملك بعد شيئاً ، لأني كنت قد أعطيت توني كل شيء ، كما كان زوجها يريد .
ـ ما طول المدة التي أعطاك فيها باليستياري مالاً ؟
ـ عامان تقريباً .
ـ وكيف كنت تشرحين لتوني عن مصدر المال الذي كنت تعطينه إياه ؟
ـ كنت أقول له انه كان لي عمّ غني يحبني جداً .
ـ وبعد ان تركك توني ، هل استمر باليستياري في إعطائك المال ؟
ـ نعم ، بين وقت وآخر ، حين كنت أطلب منه ذلك .
ـ ولكن الآخر الذي جاء بعد ذلك، والذي كان يوقظ شكوك باليستياري، أكنت تعطينه المال الذي كنت تتلقينه ؟
ـ ذاك لم يكن بحاجة اليه . فقد كان ابن صناعي .
ـ وقد تخلى عنك هو أيضاً ؟
ـ كلا ، بل أنا الذي تركته لأني لم أكن أحبه بعد .
ـ ومن كنت تحبين ؟
ـ أنت . أتذكر حين كنت التقيك في الممر فأنظر اليـــك ؟ لقد تركته في تلك الفترة بالذات .
ـ وهل لاحظ باليستياري يوماً انك كنت تحبينني ؟
ـ لا .
ـ ألم تحدّثيه عني قط ؟
ـ بلى . مرة واحدة . إنه لم يكن يطيقك .
ـ وماذا كان يقول عني ؟
ـ كان يقول إنك كنت شاباً مدّعياً .
ـ شاباً مدعياً ؟

– نعم ، كان يزدري رسمك . وكان يقول إنك لا تعرف ان ترسم .

وقد أكّدت لي هذه المحادثة الاعتقاد بأن تلك المحاولة بأن أدلّل لنفسي قابلية سيسيليا للبيع انتهت أخيراً إلى الاخفاق : ان سيسيليا لم تكن لتباع ؛ ولم يكن ممكناً اعتبار شخصها من زاوية المصلحة وحدها . لقد كان واضحاً ان باليستياري قد سعى لتوكيد تفوقه الشخصي على توني إذ تعهّده بواسطة سيسيليا، من غير ان تتنبّه عازف الساكسوفون إلى ذلك . وكان واضحاً ان سيسيليا ، من جهتها ، قد استجابت لمناورة باليستياري البسيكولوجية من غير ان تشارك فيها أو تفهمها . وعلى العموم ، كانت سيسيليا قد نجحت ، غريزياً ، كما نجحت معي ، في ابقاء عالميْ الحب والمال منفصلين . طبعاً كان بوسعنا ، أنا وباليستياري ، ان نؤكد اننا كنا قد أعطيناها مالاً ، ولكن كان بوسعها ، من جهتها ، أن تبرهن على انها لم تكن مأجورة .

وكان مسلكي تجاهها يميل اكثر فأكثر الى أن يشبه مسلك باليستياري ، مع فرق واحد ، هو ان الرسّام العجوز قد مضى الى أبعد مما مضيت . وعلى سبيل التعويض ، كان جنوني اكبر من جنونه ، لأنه هو لم يكن له اي سلف يمكن اعتباره مرآة ، وكان ممكناً أن يدرك المرء لماذا لم يوقف على الدرب الذي سلكه . اما انا ، فقد كان لي ، بالعكس ، مثاله يحذّرني لدى كل خطوة من الخطر الذي كنت اتعرض له ، وبالرغم من ذلك ، فقد كنت اكرّر اخطاءه ، بل كنت أعمد الى نوعٍ من المسايرة والمراعاة في ارتكابها .

الفصل التاسع

في هذه الاثناء ، كانت سيسيليا ماضية في لقاء لوسياني كل يوم ، بما في ذلك الايام التي كانت تلقاني فيها ؛ بحيث ان عدم قابليتها للالتقاط ، بعد ان كانت افتراضاً لمدة طويلة ، قد أصبحت يقيناً ، اي شيئاً يشبه طبعاً ثابتاً كان يجب أن أحسب حسابه ، على نحو او آخر ، وكان يجب ان أنسجم معه .

وبالفعل ، فقد كنت أحس أن حبي لهـا ، هذا الذي وُلد من عجزي عن امتلاكها ، بعد ان ترجّح بعنف بين السأم والألم ، كان يتخذ رويداً رويداً مظهر نوعٍ من العلة ذي اربع مراحل متتابعة : محاولة امتلاك يختلف عن الامتلاك الجنسي ؛ إخفاق هذه المحاولة ، سقوط آخر مسعور ولا مجدٍ ، في العمل الجنسي ، إخفاق جديد ، وهكذا تعود الدورة . ولكن الشيء الوحيد الذي لم أكن قادراً عليه ، هو أن أخضع لعدم قابلية سيسيليا للالتقاط ، وان أقرّه ، وأن أتقاسم بالاجمال عطاياها مع لوسياني . واذكر اني ، على غرار باليستياري الذي لم يكن يغار من توني بروواتي لانه كان متوهما ان سيسيليا كانت قد خانت توني معه ، كنت أسعى أنا ايضاً الى ان اعزّي نفسي اذ أقول اني بينما كنت مطلعاً على غراميات سيسيليا مع الممثل ، فان هذا كان يجهل ان سيسيليا كانت تقوم بفعل الحب معي . وبعبارة أخرى ، قد انتهيت الى ان أجدني تجاه لوسياني في مثل وضع عاشق تجاه زوج أعمى . ولم يحدث ان غار عشيق من زوج لان المعرفة تعني

في بعض الاحوال الامتلاك ، ولأن الجهل يعني عدم الامتلاك .

وكانت تلك تعزية مسكينة ، ولكنها كانت تجعلني امضي الوقت في حسابات من هذا القبيل : كنت اعرف ما كان من شأن لوسياني . ولكن لوسياني كان يجهلني . واذن فان سيسيليا كانت تخونه معي ولم تكن تخونني معه . ومن جهة أخرى ، فانه قد جاء بعدي ، وبالتالي فان سيسيليا كانت قد خانتني معه ولم تخنه معي . وكانت هناك اخيراً قضية المال كما كان الشأن مع باليستياري . كنت اعطي سيسيليا مالاً ، بينما كان لوسياني ، الذي كان يسوؤه ألا يعطيها ، كان ينفق مالي معها ، واذن فقد كنت انا الذي يدفع لها ، وليس هو ، وبالتالي ، كانت تخونه معي على نحو ما . غير اننا لم نكن نستطيع ان نستبعد امر انها كانت تذهب مع لوسياني بدافع الحب ومعي بدافع المال ، واذن فقد كانت تخونني مع لوسياني . ولكن سيسيليا لم تكن تعلق اية أهمية على المال ، وهذا ما اصبحت واثقاً منه الآن . وإذن فقد كان ممكناً ان يكون للمال بيني وبينها مغزى عاطفي. ولما كان الممثل لا يعطيها مالاً ، فربما كانت تخون لوسياني معي . وهلم جرا ، إلى ما لانهاية .

وكان يبقى دائماً بعد هذه الافكار الجميلة الكثيرة أمر واحد لا يتعكر ولا يمحي ، وهو ان سيسيليا كانت تقوم بفعل الحب مع لوسياني وانها ما دامت مستمرة في ذلك ، فلن يمكنني ان امتلكها لأنه ليس هناك امتلاك غير كامل . وليت ان سيسيليا جهدت على الأقل لتجعلني أنسى انني لم أكن امتلكها كل الامتلاك . ولكنها ، لثقتها بأنها قد حلت حلاً نهائياً مشكلة حضور رجلين في حياتها بصورة مزدوجة ، فانها لم تكن فقط تحدثني بحرية عن علاقاتها بالممثل ، بل كانت لا تهتم بأن تخفي عني الآثار التي كان يمكن لحب لوسياني ان يخلفها على شخصها .

والحق انه لم يكن ثمة اية مراعاة او اية قسوة في صوت سيسيليا حين كانت تجيبني بلا اكتراث على سؤال اطرحه عليها فتقول : « إنه لوسياني ، لقد عضني ... » او تقول ايضاً : « هذه اللطخة البيضاء هنا على ثوبي ، لأننا قمنا بفعل

الحب من غير ان ننزع ثيابنا . » ولكنها تقول ذلك في صفاء المرأة التي تجد أيسر وأنسب ان تقول الحقيقة من ان تخترع أكاذيب . لقد كانت سيسيليا من فرط الاقتناع بحيث اني اصبحت لا أعاني بعد من هذه القسمة الغرامية ، وبحيث انها قد بلغت ان تعطي بحضوري مواعيد لقاء بالتلفون للوسياني ، ثم تطلب مني بعد ذلك ان ارافقها لأوصلها إلى بيته .

وأخيراً كنت ذات يوم اصطحبها في السيارة إلى شارغ ارخميدس ، حيث كان لوسياني ينتظرها ، فقالت لي فجأة :

– كم سيلذني ان تستطيع انت ولوسياني أن تتعارفا وتصبحا صديقين .

فلم أقل كلمة . ولكني فكرت بأن عالماً مصنوعاً على شاكلة سيسيليا سيكون مختلفاً اختلافاً كاملاً عن العالم الذي نعيش فيه، المليء بالاختلاط ، الذي لا حدود له ولا منعطفات ولا هندام ، الاتفاقي واللاواقعي ، والذي كانت جميع النساء فيه تخص جميع الرجال ، والذي ليس فيه لأية امرأة إلا رجل واحد .

ولكني كنت أتألم ـ وشيئاً فشيئاً ، عبر الألم ، كانت فكرة أدهشني انها لم تخطر لي قبل ذلك ، تشق دربها في ذهني : فربما كانت الطريقة الوحيدة للتحرر من سيسيليا ، أي لأن أمتلكها كلياً ، وبالتالي لأن أسأم معها ، هي أن أتزوجها . ولم اكن قد وصلت إلى حد أن توحي لي سيسيليا السأم ، فيما هي عشيقتي، فكنت شبه متيقن من انها ستسئمني ما ان تصبح زوجتي .

وهكذا بدأت فكرة الزواج تجتذبني اكثر فاكثر ، وتكشف لي منظوراً يختلف كل الاختلاف عن المنظور الذي يبتسم عادة لمن يتأهب للزواج : إن هذا الأخير يداعب حلم حب لا نهاية له ، أما أنا فقد كنت بالعكس أحلم بنهاية الحب . وكنت اتخيل في انبساط ان سيسيليا اذ تتزوج تصبح امرأة عادية ، ذات مشاغل بيتية واجتماعية، امرأة راضية ، وليس فيها من سر ولا خفاء . انها ستصبح بالاجمال ، كما يقال في لغة المجتمع ، امرأة عاقلة . وربما لم يكن عدم قابلية سيسيليا للالتقاط إلا تعبيراً عن مطمح زواجي : فلعلها كانت تبحث غريزياً ، بين عشاقها ، عن الزوج الذي تستطيع معه ان تتركز وتستقر . وكنت افكر ان اتزوجها

بكل مظاهر البذخ الديني والبورجوازي ، وبعد الزواج ، ان اصنع لها عدداً كبيراً من الاولاد الذين سيشاركون هم ايضاً في تحديدها وفي حبسها في صورة الأمومة التي لا تحمل أي لغز او سرّ .

وتبيّن لي إن هذه الفكرة باللجوء إلى الزواج ، في الوقت الذي أخفقت فيه العلاقة الجسدية والمال ، إنما هي فكرة غير معقولة ، وبالتالي ناقصة . ولكن الواقع ان اية صلة لديّ بالمجتمع كانت ، واحسب اني اظهرت ذلك ، قد انقطعت ، ولا سيا بالمجتمع الذي كانت تنتمي اليه أمي . وفي هذه الغيبة الكاملة للجذور والمسؤوليات ، وهذا الفراغ المطلق للسأم ، كان الزواج يبدو لي كشيء ميت وتافه يقدّم ، بصفته تلك بالذات ، شيئاً ما على الأقل .

وكنت أنوي بالطبع ، بعد أن أتزوج ، أن أذهب فأعيش في مقصورة جادّة آبيا ، مع زوجتي وأمي . فالزواج ، والمقصورة ، وأمي ومجتمع أمي ، كانت جزءاً من الآلة الشيطانية التي ستكون سيسيليا ، وهي العفريت المليء بالأسرار ، قد دخلتها لتصبح فيها إحدى النساء البورجوازيات .

ومن جهة أخرى ، فان فكرة الزواج كانت قد جاءتني تلقائياً ، على انها اضمن وسيلة لقطع العلاقات بين سيسيليا ولوسياني . وبالفعل ، فقد كنت أظن انها إذ تقبل الزواج بي فستعدل طوعاً عن لقاء لوسياني . ولكن كان صحيحاً كذلك انه إذا أصبحت سيسيليا زوجتي ، فسيكون سواء لدي بلا شك ، ان تستمر في اتخاذ لوسياني او سواه كعشيق ، او ان تكفّ عن ان يكون لها عشّاق .

وينبغي ان اقول ان حل الزواج ، إلى جانب منظور تحريري من حب سيسيليا ، كان يلوّح امام عيني بأمل اعادتي إلى الرسم ، بمجرّد ان تكون سيسيليا المقيمة في مقصورة أمي قد ملأت أفقي . ولقد كنت أتمثّل سيسيليا منهمكة وسط أولادها وحياتها الاجتماعية ، بينما اقوم انا في المرسم القائم عند نهاية الحديقة ، اكرّس نفسي بلذة إلى رسمي الحبيب ، الطاهر ، الغارق في الفكر والثقافة . وسوف يكون شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن عاريات باليستياري الغرامية القذرة ! وكنت أحسّ انه سيكون بوسعي ان ارسم اكثر اللوحات تجريداً ، منذ ان وجد الرسم

التجريدي . وفي نهاية الأمر ، سأزرع هنـــاك سيسيليا وأمي . وأعود لأعيش لوحدي في شارع مارغوتا .

وقد يقال لي ان ذلك كله كان متناقضاً مع ما كنته وما فعلته حتى هـــذا التاريخ ، وان معطيات قضيتي ، من جهة أخرى ، لم تكن هذه . وبالفعل : فان حب سيسيليا والرسم لم يكونا أمرين يتوقف احدهما على الآخر ، ولكنهما كانا متعادلين ومستقلين . لم يكن حبي لسيسيليا هو الذي يمنعني من الرسم ، وإنما الذي كان يمنعني عجزي عن الرسم بمقدار ما كان عجزي عن امتلاك سيسيليا . فتحللّي من حبي لسيسيليا لم يكن يعني إذن أنني سأكون قادراً على العودة إلى الرسم . ثم انني كنت قد احتقرت دائماً بيت أمي ووسط أمي ومـــال أمي ، وكنت قد ذهبت أسكن في شارع مارغوتا لأني كنت قد شعرت بأنه يستحيل عليّ ان ارسم في مقصورة جادة آبيا . وهاأناذا أضع مشروعاً بالعودة للعيش قرب أمي ، في ذلك البيت وذلك العالم الذي كنت أكرهه . وأنا لا أرى أي تفسير لهذا ، إلا ان التناقض يشكّل الجذر المتحرك وغير القابل للنفس البشرية . والواقع اني كنت يائساً، وكان يخيّل إليّ ان هـذا النوع من الانتحـار الذي تعنيه عودتي بالقرب من أمي ، كان أفضل من وضعي الحاضر ، شريطة أن يؤدّي إلى تخليصي من سيسيليا.

كنّا إذ ذاك في الصيف ، وقلت لسيسيليا ذات يوم ، خلال المخـابرة التلفونية الصباحية المعتادة ، ان بوسعنا بدل ان نلتقي في المرسم ، ان نقوم بنزهة في السيارة خارج روما . وكنت أعرف ان سيسيليا تحبّ الهواء الطلق ، ولكني دهشت مع ذلك للهجة المفرطة الحرارة التي استقبلت بها اقتراحي ، وأضـــافت بطريقة غير متوقّعة :

– بل نستطيع اليوم ان نبقى معاً طوال النهار ، حتى الليل ... فأنا حرة .

فسألتها بسخرية :

– ما الذي يحدث ؟ أيسمح لكِ أبوكِ القاسي جداً ان تخرجي الآن معي ؟

فأجابت بصراحة ، كأنما ادهشها ان أذكّرها بالكذبة التي عمدت اليها لتخفي عني علاقتها بلوسياني :

– ليس الأمر كذلك . ولكن لوسياني لا يستطيع ان يراني هـــذا المساء . ولهذا فكرت بأنه سيروق لك أن تقضي طول النهار معي .

– اشكري لوسياني شكراً حارّاً من قِبَلي ، على كرمه ...

– هكذا انت ! إن المرء لا يستطيع ان يقول لك الحقيقة !

– حسناً ... سأمرّ لأصطحبك في الساعة الحادية عشرة ، وسنتناول الغـــداء مع لوسياني .

– حسناً .

– الحق انه كان يبدو لي عجيباً ان تظلي نهاراً بطوله من غير ان تريه ...

– سأجيء إلى المرسم حوالي الساعة الثالثة .

– اتفقنا ، إلى الساعة الثالثة .

ومثلت سيسيليا ، بدقّتها المعهودة ، في الساعة المحدّدة . وكانت ترتدي ثوباً جديداً يتألف من قطعتين خضراوين يناسبانها تماماً ، وقد عبّرت عن ذلك. وسرعان ما أجابتني بلهجة عرفان أدهشتني قليلًا :

– لقد اشتريته بمالك . وهذا ايضاً ...

وأشارت إلى حذائها ثم مدّت ساقها لتريني جوربيها وهي تضيف :

– بالاجمال ، من فوق ومن تحت ، فانا كلّـي مكسوّة بفضل مالك .

وسألتها وأنا اخرج السيارة من الساحة :

– لماذا تقولين لي ذلك ؟

– لأنك قلت لي مرة إنك تحبّ ان تسمعني أقول هذه الأشياء .

– صحيح . ولكن يروقني اكثر ان تكوني لي ، لا من فوق ولا من تحت فقط ، بل من الداخل .

– داخل أين ؟

– داخل .

فرأيتها تضحك ضحكتها تلك الطفولية التي كانت تشمّر شفتيهـــا عن اسنانها الحادّة :

– من داخل ، لست لأحد . ففي الداخل رئتي وكبدي وأمعائي . فما عساك

تفعل بها ؟

وكانت مرحة ، فلفتّ انتباهها إلى ذلك . وأجابت بخفة :

– انني مرحة لأنني معك .

– شكراً ، انت لطيفة جداً .

واجتزت « ساحة الشعب » وعبرت « التيبر » وجزت شارع « كولاديرمانزو » وبعد ان استدرت حول جدران الفاتيكان المائلة ، سلكت شارع « اوريليا » باتجاه « فريجين » . وكانت سيسليا جالسة بجانبي لا تتحرك ، وعنقها مستقيم ، وكتلة شعرها كثيفة متموجة ، مؤطرةً وجهها المستدير ، ويداها في حضنها .

وبين الفينة والفينة ، كنت وانا أقود ، أرميها بنظرة جانبية فأتعرف مرةً اخرى هذه الملامح والاطباع التي كانت تجعلها مشتهاة وهاربة في وقت واحد : مظهر الوجه الطفولي الذي تناقضه مع ذلك تلك التجعدات الدقيقة التي كانت تشقّ البشرة لدى زاويتي الفم الصغير ؛ وهُزال الكتفين المروّستين اللتين كان بروز نهديها المنتفخين يبدو وهو ينكرهما ، ورقة القامة الرخصة التي لم تكن تنسجم مع امتلاء الخاصرتين وكثافة الفخذين . وفي حضنها ، يداها الكبيرتان البشعتان ، ببياضهما المعتكر ، والجذابتان مع ذلك وربما الجميلتان ، اذا كان ممكناً ان يوصف شيء قبيح بأنه جميل .

ولم يسبق لها قط أن راقتني كما راقتني آنذاك ، وبطريقة شبيهة بها كل الشبه ، اي مغيظة وهاربة . وكنا لم نتجاوز روما كثيراً حين اخذت افكر بأني لن أصمد حتى الساعة السادسة ، وهي الساعة التي كان المفروض ان نعود بها الى المرسم . كان امامي عشر ساعات ، وهو وقت كاف للقيام بفعل الحب مرتين : على الفور ، وفي المساء بعد العشاء . الآن ، في حقلٍ ما ؛ وبعد العشاء ، في المرسم .

وكانت الطريق تصعد وتهبط بين كثبان لا شجر لها ، يغطيها عشبٌ ريّان زاخر ، ذو خضرة تكاد تكون زرقاء : العشب الذي أنبتته امطار الشهرين الماضيين الغزيرة في الأرض المشبعة بالماء ، ولكن السماء لم تكن قد صفَت بعد : فقد كان ثمة غيوم سوداء كانت تبدو عاجزة عن ان تنهض بسبب ثقل المطر الذي

كانت تحمله في جوانبها ، فكانت تظل معلقة طبقات جامدة فوق هذه الخضرة التي ما تزال ربيعية . وكنت أبحث بعيني عن مكان ملائم ، فيما أنا أسوق بسرعة كبيرة ، ولكني لم أكن أجد شيئاً : فإما ان ذلك كان قريباً من الطريق أكثر مما ينبغي ، وإما انه كان براحاً مكشوفاً ، وإما انه كان غير بعيد عن مزرعة ، وإما انه كان على منحدر قوي جداً . وسرت بضعة كيلو مترات اخرى ، وانا لا أتكلم ، وانا أمتلىء في هذا الصمت بكل ما كان في شهوتي من قوة ومن سُعر . واخيراً ، استدرت عند أول طريق جانبي معترض ، فسألتْ سيسيليا :

– ولكن ، ألم يكن المفروض ان نقصد شاطىء البحر ؟

فأجبت :

– إننا الآن ذاهبان الى ركن منعزل لنقوم بفعل الحب ، وبعد ذلك نقصد البحر .

فلم تقل شيئاً ؛ ودفعت السيارة الى اقصى سرعتها ، على طريق الريف المحصبة البيضاء . وبعد كيلو متر من السير الوثاب على الحجارة المفرقعة ، أخذ المنظر يتغيّر ، كما كنت أؤمل . فليس من رواب معشبة وبلا شجر ، بل هي مرتفعات تغطيها الأحراج وتنتصب داخل مروج صغيرة كانت ترعى فيها خيولٌ وقطعان خرفان . وكان هذا ما أبحث عنه . وأوقفت السيارة قرب حاجز وقلت لسيسيليا :

– لنهبط .

فأطاعت وابتعدت لتدعني أمرّ قبلها ، فقلت ، بلا سبب :

– أفضّل أن تسبقيني .

فلم يكن لها اعتراض ، وبعد ان دفعت الحاجز الريفي سلكت ممراً صغيراً ، او بالأحرى أثراً خطته الأقدام في عشب مرتفع وكثيف ؛ واذ ذاك فهمت لماذا طلبت منها ان تسير قبلي : كنت اريد ان انظر الى حركة خاصرتيها القوية واللامبالية في وقت واحد . وكنت أعرف أن هذه الحركة لم تكن مقصودةً لي ، شأنها في ذلك شأن دعوة المرأة الجنسية ، مهما كان نوعها ، فهي لا تعني ذكراً بعينه . فلو اني كنت أمشي أمامها ، لتوهمت اني كنت اقودها . وعلى العكس،

فاني إذ أجعلها تمرّ قبلي ، كنت أوكّد لنفسي فكرة ان هذه الحركة لم يكن يخلقها حضوري بقدر ما كانت تخلقها اللذة التي تنتظرها في زاوية من الغابة ، وهي لذة صحيح أنني كنت انا اوفرها لها ، ولكني لن أكون فيها أكثر من واسطة .

وكنّا نسير في صمت ، فوق العشب الممتزج الدبق . وفوق رأسينا كانت طبقة الغيوم تبدو الآن وهي تتبدّد في غلالات ضباب لشدة انخفاضها وانتفاخها ، كبطن امرأة حامل . وكان الهواء حاراً ورطباً وممتلئاً بالطنين . وكنت انظر إلى وركَيْ سيسيليا اللذين كانا يبدوان ، بمقدار ما كنا نقترب من الغابة ، وهما يوكّدان قوة تأرجحها ورتابته ، كآلةٍ وجدت ايقاعها الطبيعي . وكنت افكر ان بين هذه الحركة التي تقوم بها وهي تمشي ، والحركة التي ستقوم بها بعد لحظة ، حين تتمدّد ، لم يكن ثمة من فرق . لقد كانت سيسيليا متهيّئة دائماً للعمل الجنسي، تماماً كالآلة التي غذّيت غذاء جيداً بالوقود ، فهي دائماً مستعدة للعمل . ولا بد انها قد شعرت بنظرتي ، لأنها التفتت وسألتني :

– ولكن ما بك ، لماذا لا تقول شيئاً ؟

– إن اشتهائي لك أشدّ من أن يدَعني أتكلم .

– انك تشتهيني دائماً .

– وهل يسؤوك ذلك ؟

– لا ، وإنما كنت أسألك ...

ومشينا فترة أخرى ، وعَقِبَ عُشبُ الحقل الكثيف نباتَ الغابة الأخفّ ، وابتدأت الأشجار الأولى تنبثق من الأرض الوعرة ، متوحّدة أول الأمر ، ثم ازدادت التصاقاً . ومضينا بعد خطىً اخرى ، ثم دلفنا إلى ممرّ صغير بين تلّتين تغمره الاشجار من كل جانب، وتغطّي الشجيرات والادغال فيه نتوءات الارض المتعرّجة وفجواتها . وكنت ابحث بعيني عن مكان ملائم يمكننا ان نتمدّد فيه ، واخيراً حسبت انني وجدته . كان خلاء مسطحاً ، مغطى بالعشب ، تحيط به سرخسيّات مرتفعة وأدغال ضخمة من الوزّال . وكنت على وشك ان أرشد اليه سيسيليا حين التفتت إليّ وقالت بإهمال :

ـ آه ! نسيت ان اقول لك انني لا استطيع اليوم ان اقوم بفعل الحب.

واحسست كما لو اني وضعت قدمي في فخ ، وسألتها :

ـ ولماذا ؟

ـ انني متوعكة .

ـ انت لا تقولين لي الحقيقة .

فلم تجب ، وتقدمت بضع خطى اخرى بين الوزال والسرخس ، وصعدت إلى أكمة صغيرة مستديرة ، ثم التفتت إلي ، وانحنت فتناولت بكلتا يديها طرف ثوبها ورفعته حتى بطنها . ولمحت الفخذين المستقيمتين المتحدتين مشدودتين بالحرير ، وعند اسفل البطن ، حيث تشف عادة قماشة « السليب » عن لطخة العانة السوداء ، لمحت بياض حزمة قطن :

ـ هل صدقتني الآن ؟

فأجبت في غضب :

ـ نعم ، صحيح ... ان الامور معك صحيحة دائماً .

فخفضت ثوبها في صمت ، ثم سألت :

ـ لماذا تقول ذلك ؟ انني في الايام الاخرى ، لم امتنع عليك قط .

وكنت أحس آنذاك بشعور جنون : لقد كانت شهوتي المكبوتة تذوب مع فكرتي المهووسة بأني عاجز عن امتلاكها ، كما لو ان عائق ذلك اليوم لم يكن إلا مستحيلاً واحداً من مستحيلات وضع متشابه دائماً . وقلت :

ـ كنت اشتهيك بقوة ، وإذ أتيت معي ، جاعلة إياي اعتقد انك كنت موافقة ، ضاعفت شهوتي . فلماذا لم تقولي لي على التو انك كنت متوعكة ؟

فأجابت ، وهي تنظر إلي بلامبالاة ، كما ينظر تاجر يبادل على حاجة نافدة ، بحاجة مختلفة تماماً وأقل قيمة :

ـ ولكننا سنبقى معاً طوال النهار .

ـ ولكني انا كنت أريد ان اقوم بفعل الحب .

ـ سنقوم به في وقت آخر ، ربما غداً ...

ـ ولكني كنت أريد ان اقوم به اليوم ، بل في هذه اللحظة .
ـ انك طفلٌ حقيقي !

وتبع ذلك صمت . وكانت سيسيليا تمشي خافضة الرأس بين الأدغال، وتبدو وكأنها تبحث عن شيء . ثم انحنت ، فانتزعت نبتة عشب وضعتها بين أسنانها . وقلت لها في غضب جامح :

ـ من أجل هذا عرضتِ علي ان أبقى معك طوال النهار. لقد كنت تعرفين، بكل بساطة ، انك لم تكوني تستطيعين القيام بفعل الحب مع لوسياني .
ـ كان لوسياني أيضاً يريد ان يقوم بفعله ، فقلت له ما قلت لك .
ـ ولكن لوسياني أخذك بالأمس . اما انا فقد مضى عليّ ثلاثة أيام لم آخذك فيها .
ـ إن لوسياني لم يأخذني أمس ، فهو ايضاً قد أخذني مثلك منذ ثلاثة ايام .

وظلّت تتقدّمني بين الادغال ، شاردة ، ونبتة عشب في فمها . وفجأة سألتها في غضب :

ـ ولكن الى اين انت ذاهبة ؟ وماذا تريدين ان تفعلي ؟
ـ ما تريده .
ـ ما أريده ، تعرفينه .
ـ ولكني قلت لك إن ذلك مستحيل !
ـ إذا لم نكن نستطيع ان نقوم بذلك الشيء ، فلا أرى حقاً ما نستطيع ان نفعل .
ـ أتريد أن نعود الى المدينة ونقصد السينما ؟
ـ لا .
ـ أتريد أن نقصد البحر ؟
ـ لا .
ـ أتريد ان نذهب من جهة « القصور » ؟
ـ لا .

– أتريد أن نبقى هنا ؟

– لا .

– أتريد أن نذهب ؟

– لا .

– إذن ماذا تريد ؟

– لقد قلت لك : اريد ان آخذك .

– وانا قد قلت لك : اليوم ، لا .

– إذن لنعُدْ الى السيارة .

– والى أين نذهب ؟

– لا ادري . هيّا ...

وهكذا عدنا الى السيارة ، وفي هذه المرة ، كنت أتقدّم سيسيليا ؛ بالرغم من أنني ، خلافاً لها هي التي كان يبدو دائماً انها تعرف ، إن لم يكن بالذهن ، فبالجسد على الأقل ، الى اين كانت تتجه ، كنت أجهل تماماً الى اين أذهب .

وما كدنا ندخل السيارة ، حتى مضيت بأقصى سرعة ، من غير ان انتظر حتى ان تغلق سيسيليا الباب كليّاً . وكنت أستشعر غضباً متزايداً لم يكن يرتوي ولم يكن ينطفىء ، كنار تجد دائماً وقوداً لها في لهيبها . وكان هذا الغضب يوحي لي بأوهام مستمرّة ، طاغية ، كما لو اني كنت ، وأنا لم استطع ان آخذ سيسيليا ، أبحث عنها في كل مكان ، ببلادة وعناد ، بمجرد ان يتيح لي ذلك شبهٌ ما ، مهما بلغ من البعد . وهكذا كانت بعض الأمكنة المسطحة ، الحليق بعضها والمعشب بعضها الآخر ، تجعلني افكر ببطنها ، وبعض الكثبان المستديرة بنهديها ، وبعض تعرّجات الأرض بمنحنيات وجهها وشعرها . وكنت احياناً ارى الطريق تنسلّ بين رابيتين طويلتين مستديرتين ، فيخيّل إليّ انهما ساقا سيسيليا المنفرجتان ، وهي متمدّدة على ظهرها ، وأنّ بين هاتين الرابيتين كان يوجد شقّ فرجها الذي كانت سيارتي تعدو نحوه . ثم فجأة ، بينما كان يخيّل إليّ اني سأغرق كليّاً ، بسيارتي ، في هذه السيسيليا الضخمة المصنوعة من الأرض ، إذا بالمنظور يتغيّر

بغتة ، فتبدو أربع روابٍ بدلاً من اثنتين ، وتزول الساقان والفرج وكل شيء ، فليس هو بعد إلا منظراً عادياً من المناظر . ومن جهة أخرى ، كان يخيّل إليّ اني ، كما سبق ان قلت ، كنت أعدو بحثاً عن شيء كانت سرعة عدْوي مع ذلك لا تتيح لي ان أبلغه . وهذا الشيء ، كان دائماً أمامي ، هناك ، في تلك الباقة من الشجر ، أو هذه الرابية ، أو ذلك الوادي ، أو هذا الجسر ، ثم لا يكون هناك شيء بعد ، ويلزمني من جديد ان أعدو حتى تتقطّع أنفاسي نحو أهداف جديدة وهمية . وفي الوقت نفسه ، وحتى في هذا الهذيان من الغضب الأعمى العاجز ، كان يبقى لي دائماً إحساسٌ واضح بأن سيسيليا كانت هنا ، إلى جانبي ، قريبة وغير قابلة للالتقاط .

ولم أعرف الوقت الذي سرتُ فيه على غير هدى ، من طريق إلى طريق مرتمياً ، لدى التقاء الطرق ، في أي اتجاه ، عائداً إلى الخلف ، ملتهماً كيلومتراً وراء كيلومتر ، تارة في محاذاة البحر وأخرى بين أشجار الغابات الصغيرة : ربما أكثر من ساعة .

وفجأة ، أوقفت السيارة على إحدى الطرق ، تجاه مساحة من الحقول يكتنفها صنفٌ من شجر الحور ، وقلت :

- يجب ان أقدّم لك اقتراحاً .

- اي اقتراح ؟

ولم أكن قد فكّرت به خلال رحلتنا . ولكني كنت قد فكرت به في الأيام السابقة وفي صباح اليوم نفسه ، قبل ان أرى سيسيليا . ولهذا بدا لي اني اقول شيئاً طبيعياً جداً :

- أريد ان تصبحي زوجتي .

فرأيتها تنظر إليّ بلا دهشة ، في خدرٍ مطمئن :

- تريد أن تتزوجني ؟

- نعم .

- ولكن لماذا تقول لي ذلك الآن ؟

– لقد انقضى عليّ زمن وأنا أفكر في الأمر ، ولكن اللحظة المناسبة جاءت الآن .

كانت تنظر إليّ ، وكنت أحسّ بما يحسّ به من دوار وشهوة ذلك الذي يتردّد تردّداً طويلاً قبل ان يلقي برأسه ، أول ما يلقي ، في الفراغ . وأخذت يديها وقلت لها بسرعة كبيرة :

– ستصبحين زوجتي ، وسنذهب فنسكن في بيت أمي . وربما كنت لا تعلمين اني غنيّ .

– أنت غنيّ ؟

– نعم ، أو على الأصح أمي هي الغنية ، وبمجرّد أن نعيش معها ، في مقصورتها الواقعة على جادة آبيا ، تصبح ثروتها هي أيضاً ثروتي ، أقصد ثروتنا .

وظلت تلتزم الصمت ، واستطردت :

– سوف نتزوج بكل مظاهر البذخ الممكنة . زواج في الكنيسة ، هدايا ، ملبّس ، زهور ، عشاء ، استقبال الخ... وبعد ذلك فوراً نقوم برحلة عسل جميلة ، فنسافر إلى اسكنديناڤيا في الشمال ، أو إلى مصر في الجنوب . وبالمقابل ، ستتغير حياتك رأساً على عقب ، فتصبحين سيدةً من سيدات المجتمع في روما ، هاتيك اللواتي نراهن في شارع فينيتو أو في ساحة اسبانيا .

فظلت لا تقول شيئاً ؛ وتابعت في سُعر متزايد ، وأنا أشدّ على يديها :

– وسنرزق أولاداً ، لأنني أريد أولاداً . إنك في هيئة إمرأة يمكنها ان ترزق أولاداً لا أدري عددهم . فسأهبك اثنين ، أربعة ، ستة ، ثمانية ، العدد الذي تريدين .

وكان صمتها المستمرّ يقلقني ، فسألتها فجأة :

– إذن ، ماذا تقولين ؟

فعزمت أخيراً على الاجابة ونطقت ببطء :

– اني لا أستطيع ان أجيبك هكذا ، على وجه فجائي . ويجب ان أفكّر في الأمر .

– فكـّري . أتريدين ان تعطيني جوابك غداً ، بعد غد ؟ كما تريدين .
وأضفت بسرعة :
– وبالانتظار ، سنقصد على الفور أمي ، حيث أقدّمك كخطيبتي .
وكان قد خطر لي ان سيسيليا ربما كانت تشكّ بتأكيداتي حول غنى أمي ، وكنت أريد ان تتثبّت من ذلك بعينها . ومن جهة أخرى ، كنت أريـد ، وأنا أقدّمها كخطيبتي ، أن أحرجها ، وان أجبرها بطريقة ما على ان تقبل اقتراحي .
وسألتني :
– لماذا نقصد أمك اليوم؟ ألا تستطيـع ان تعرّفني عليها في وقت آخر ؟
– لا ، الأفضل هو اليوم ؛ فبهذه الطريقة تعرفينها وتدركين الوضع .
– ولكنك لا تستطيـع ان تقدّمني على اني خطيبتك ، ما دمت لست بعـد خطيبتك .
– ما يهمّ ؟ إذا لم نتزوج ، في آخر المطاف ، فسأقول لأمي انك قد غيّرت رأيك .
وقالت فجأة ، بطريقة غريبة ، كما لو انها قد اتخذت القرار الذي كانت تريـد ان تبلـّغني إياه بعد بضع ساعات :
– بل سأعطيك جوابي هذا اليوم بالذات ، في هذا المساء .
– ولماذا ، هذا المساء ؟ لماذا ليس الآن ؟
– لا ، هذا المساء .

فلم أقل شيئاً ، وأرخيت الفرملة وأدرت المحرّك ثم انطلقنا . وأحسست إذ ذاك برغبة شديدة بها حتى انّ الزواج الذي عرضته عليها كان يبدو لي ثمنـاً غير كافٍ تقريباً لا لخلود الحب بالطبع ، وإنما لاعتناق واحدٍ خاطف . لقد كنت مستعداً، لـكي أمتلكها ، ولو مرة واحدة ، ولكن امتلاكاً كلياً ، لا للزواج بها فحسب ، بل حتى لعقد حلف مع الشيطان والحكم على روحي بالهلاك . وقد يقال لي إنّ هذه ليست عبارة . وهي إلى ذلك من طراز رومنطيقي . ولكنّ هلاك الروح لم يكن آنذاك مجرد عبارة بالنسبة لي ، بل كان أمراً واقعيـاً يمكن ان يتمّ لا في

العالم الآخر الذي لم أكن أؤمن به ، بل في هذا العالم الذي ينبغي لي ان أعيش فيه . والغريب ان معنى هذا الهلاك لم يكن ينفصل عن أمل بالتحرّر بعيد جداً . ذلك التحرر الذي كنت أبداً أتصور اني سأحصل عليه يوم أنجح في امتلاك سيسيليا .

ولم يكن غياب الشمس بعيداً آنذاك ؛ وانبثقت أخيراً أشجار الشربين والصنوبر في طريق آبيا ، سوداء كالحبر ، وخلفها خطّ طويل أحمر كان يبدو وسط انهيار الغيوم كأشعة حريق . وصعدت على مهل الطريق الرومانية الضيقة ، مبطئاً حيث كان البلاط القديم يلامس الاسفلت ، متوقفاً بين الفينة والفينة لأتأمل الخرائب والحواجز والسيارات المصطفة عند أرصفة الطريق . وفي هذه الأثناء كنت أفكر بالعرض الذي اقترحته على سيسيليا ، فأدرك انني إنما استعملت الزواج ، في لامبالاة ربما كانت مفرطة ، كوسيلة من وسائل كثيرة لبلوغ هدف لم يكن فقط غريباً عنه ، بل كان أيضاً ينكره . وكنت أخشى فجأة ان أكون قد كشفت حالتي النفسية ونواياي ، بحيث كان ممكناً ان أشعر سيسيليا شعوراً مستاءً بأنني لم أكن أرغب في الزواج بها إلا لأتخلص منها . وفكرت بأنه لم يكن مستحيلا في آخر المطاف ان تكون سيسيليا ممّن يحترمون في قلوبهم المثل الزوجي ، وانني ربما كنت قد جرحت هذا المثل إذ عرضت عليها بمثل تلك السرعة ان تصبح زوجتي . واستطردت بعد لحظة :

— الواقع انك تحسنين صنعاً إذ لا تجيبينني على الفور . فالزواج ليس أمراً يمكن ان يُفعل بخفّة وعلى عجل .

فلم تقل شيئاً ، وأضفت :

— إن الزواج يعني الاتحاد لمدى الحياة . هذا ما أفهمه منه ، أنا على الأقل ؛ ومن أجل هذا نريد ان نتزوج في الكنيسة .

وفجأة ، وبطريقة غير متوقّعة ، سمعتها تسأل :

— ولماذا ، في الكنيسة ؟

فأجبت في انبساط :

– لأننا حين نتزوج في الكنيسة نكون حقاً متحدّين ، من غير امكانية الانفصال إلى الأبد .

فقالت :

– ولكنك غير مؤمن

– سأكون مؤمناً من أجلك .

– ولكني أنا ايضاً غير مؤمنة .

– كيف ، لا تؤمنين ؟ لقد سبق ان قلت لي انك كنت لدى الراهبات حتى الثانية عشرة من عمرك .

– هذا لا يعني شيئاً. حتى حين كنت لدى الراهبات ، لم أكن مؤمنة .

– بمَ كنت تؤمنين ؟

فبدا عليها انها تفكر لحظة ، ثم أجابت في وسواس جافّ وواضح :

– بلا شيء . ولكن إذا كنت لا أؤمن ، فليس ذلك لأني كنت أفكر في الأمر ، وأني إذ أفكر فيه ألاحظ اني لا اؤمن . بل كنت لا أؤمن لأني لم أكن أفكر بهذا قط. والآن ايضاً، لا أفكر فيه ابداً. اني أفكر بجميع الأمور الممكنة ، ولكني لا أفكر بالدين . وحين لا يفكر انسان بشيء قط ، فهذا يعني ان الشيء لا يوجد في نظره . فليست القضية ان الدين يجتذبني او لا يجتذبني ، بل هي انه في نظري غير موجود .

فقلت وأنا أخفـّف السير حتى كدت أوقف المحرّك :

– انك الآن لا تفكرين به أبداً. ولكنك لا تستطيعين ان تستبعدي امكانية التفكير به ذات يوم .

فلزمت الصمت لحظة ، ثم قالت :

– لا أظنّ ذلك . انني لم أكن أفكر به لدى الراهبات حيث لم يكن ثمة إلا الدين ، إذا صحّ التعبير ، فلماذا تراني سأفكر به الآن ، خارج الدير ، بينما هناك أمورٌ كثيرة تستحق التفكير؟ أتعرف ما الذي كنت أفكر به وأنا أتلو الصلوات لدى الراهبات ؟

– بمَ كنت تفكرين ؟
– بالساعة .
– ولماذا ، بالساعة ؟
– لأنه كان ثمة ساعة جدار . كنت أنظر اليها ، وفيما أنا أتلو صلواتي ، كنت أعدّ الثواني والدقائق .
– أكان يُسئمك إلى هذا الحدّ ان تتلي صلواتك ؟
– نعم .
– لماذا ؟
– هناك أشياء كثيرة نعلم انها يمكن ان تكون مجدية ، حتى ولو كانت مسئمة جداً . اما الصلاة ، فهي بالنسبة لي على الأقل ، لا تجدي شيئاً .
– لا يستطيع المرء ان يعرف . فربما أجدتْك يوماً .
– لا أظن . انني لا أستطيع ان أتصوّر أن أحسّ يوماً بحاجة إلى الدين . انه نافلة .
– نافلة ؟
– نعم ، كيف أوضّح ؟ إذا كان موجوداً ، فان الأمور تكون على شكل ما ، وإذا لم يكن موجوداً ، تظلّ الأمور كما هي . لم يتغيّر شيء: فهو إذن نافلة.
– نستطيع ان نقول ذلك عن أمورٍ كثيرة في هذا العالم .
– ما هي ؟
– الفن مثلاً ! إن الامور تظلّ كما هي حين لا يوجد الفنّ .
– ولكن الفنّ يحقّق شروداً وذهولاً لمن يتعاطاه . كان باليستياري يتلهّى وانت تتلهّى . اما الدين ، فهو على العكس مضجر . وفي الدير ، كنت احسّ دائماً بان الراهبات كنّ ضجرات ، كما كان الرهبان ضجرين ، وعلى العموم ، جميع الذين يهتمون بالدين . وفي الكنائس ، كم يسأم الناس ! انظر اليهم حين يكونون في الكنيسة ، فسترى أن ليس فيهم من لا يسأم حتى الموت !

وكانت هي المرة الاولى التي تحدّثني فيها سيسيليا عن السأم ، ولم أتمالك عن

سؤالها :
– ولكنك تسأمين ؟
– نعم ، أحياناً .
– وبمَّ تشعرين حين تسأمين ؟
– أشعر بالسأم .
– ولكن ما هو السأم في نظرك ؟
– كيف لي أن أشرح لك السأم ؟ السأم ، هو السأم .

وكان بودّي ان أقول لها : « السأم هو انقطاع كل صلة ، واذا كنت اريد ان أتزوجك ، فلكي تسأميني ، لكي لا أتألم بعد ، لكي لا أحبّك بعد ، وبالاجمال ، لكي اعتبرك غير موجودة بعد ، كما أن الدين غير موجود في نظرك ، وكذلك كثير من الأمور الأخرى » ولكني لم أجرؤ على ذلك . ثم انها قد قطعت محادثتنا دون تمهيد ، فرفعت يدها لتلامس بها خدّي :

– والآن ، لنقصد بيت امك ، قبل ان يصبح الوقت متأخراً جداً.

فقلت :

– حسناً .

ولكن لم يسعني في الوقت نفسه الا أن أتساءل عن سبب هذه الرغبة المفاجئة في الذهاب الى أمي ، في حين ان سيسيليا قد أبدت ، قبل ذلك بقليل ، ما يشبه النفور من القيام بهذه الزيارة . وبعد التفكير ، حسبت انني أفهم ان سيسيليا كانت تقترح عليّ الذهاب الى أمي لتتحاشى محادثة كانت تعذّبها . وبالفعل ، فقد كنت اعرف ان سيسيليا كانت تكره ان يُتحدث عنها . وكنت انا ، على العكس ، أفعل ذلك باستمرار ، وقد خطر لذهني ان تكتّمها العنيد ربما كان صادراً عن كرهها لهذا النوع من الحديث الذي كنت أقسرها عليه . كانت سيسيليا مستعدّة دائماً لأن تهب نفسها جسدياً ، في كل لحظة ، وفي اية مناسبة ، ولكنها حين تكون موضوع الحديث ، فانها تصبح شبيهة بصدَفة مغلقة بعناد تشدّ صماماتها بمقدار ما يجهد المرء لفتحها . وكانت سيسيليا تحاول عادةً ان تقطع هذا النوع من المحادثة بأن

تعرض عليّ القيام بفعل الحب ؛ فكانت تأخذ بيدي وتحملها الى بطنها وتغمض عينيها . وبالاجمال ، كانت تهبني جسدها لتخفي وتنقذ كل شيء آخر . ولكننا لم نكن في ذلك اليوم نستطيع ان نقوم بفعل الحب ، فاذا بها ، وهي في حاجتها اليائسة لأن تكفّ عن سماع الحديث عنها ، تعرض عليّ ما كان تحت يدها : الزيارة المزعجة لأمي .

وفيما كنت افكر بهذا كله ، سُقت السيارة لحظة في صمت . ثم سألتها :

ــ ألم يكن باليستياري يحدّثك قط عن نفسك ؟

ــ لا ، على الاطلاق .

ــ وعمّ كان يتحدث ، بصورة خاصة ؟

ــ عن نفسه .

ــ وماذا كان يقول ؟

ــ كان يقول إنه كان يحبني .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ بعد ذلك ، لا شيء . كان يمضي في التحدث عن نفسه ، وعن عواطفه إزائي . إنك تعرف العبارات المألوفة التي ينطق بها الرجال حين يكونون مغرمين.

ولم أستطع الامتناع عن التفكير بأني كنت قد وجدت ، في آخر المطاف ، فرقاً بين باليستياري وبيني : انني لم أكن أفعل إلا ان أحدّث سيسيليا عن نفسها، اما باليستياري ، فقد كان على العكس يحدثها عن نفسه ، شأنه في ذلك شأن جميع المهووسين الجنسيين . وقررت ان باليستياري ، في الواقع ، لم يحب سيسيليا قط حباً حقيقياً .

وسألتها :

ــ أكان يلذك ان يحدثك عن نفسه ؟

ــ حين كان يقول لي انه كان يحبني ، لذّني ذلك فترة من الزمن ، ولكنه إذ جعل يردد ذلك دون ما انقطاع ، كففت آخر الأمر عن الاستماع اليه .

ــ أكنت تفضلين ان يحدثك عن نفسك ؟

– لا .
– ألا تحبين ان تحدّثي عن نفسك ؟
– لا .
– لماذا ؟
– لا أدري .
– لا بد إذن من أن أسبّب لك السأم ، أنا الذي أطرح عليك دائماً أسئلة عن نفسك .
– نعم .
وأمام هذه اللغة الموجزة الحاسمة ، ظللت مكتوم الأنفاس :
– وربما يبلغ بك الأمر ان تحتقريني إذ أحدثك عن نفسك ؟
– لا ، لست أحتقرك ، ولكن يثقل عليّ الوقت فأتمنى ان تنتهي بأسرع وقت .
– وبمَ تشعرين ، حين أسألك عن نفسك ؟
ففكرت لحظة ثم أجابت :
– أشعر بالرغبة في ألا أرد عليك .
– أي ان تظلي صامتة ؟
– نعم ، أو ان أقول لك أشياء غير صحيحة ، لمجرد أن أسرّك .
وصمتت لحظة ، ثم استطردت في ثرثرة مفاجئة :
– تصور اني حين كنت في الدير وكان عليّ أن أعترف ، كنت أخترع ، لأتحاشى التكلم عن نفسي ، ذنوباً لم أكن قد ارتكبتها . وبهذا ، كان الكاهن مسروراً ؛ وكان يقول لي إنه كان عليّ أن أتوب ، وكان يعطيني صلوات لا أذكر عددها لكي أتلوها للعذراء وللقديس يوسف . وكنت أجيبه نعم ، دائماً نعم ، ولكني لم أكن أقوم بشيء مما كان يطلب مني القيام به ، إذ لا أكون قد فعلت شيئاً رديئاً ، ولم يكن عليّ أن أتوب .

وخطرت لي فكرة : هي ان هذا الكاهن كان يريد ان يقوم في الحقيقة بما حاولت غالباً أن أقوم به : ان يستولي على سيسيليا ، ويحبسها في إثمها ويسمّرها

بحكم . وسألت مذعوراً :

ـ أتكونين معي ايضاً قد اخترعت أشياء لم تفعليها قط ؟

فأجابت بإبهام :

ـ نعم ، ربما اخترعت احياناً .

ـ ولكن ماذا تقصدين ؟ انك كذبت عليّ ؟ متى ؟

ـ لقد قلت ربما : ولكني الآن لا أذكر .

ـ حاولي ان تتذكّري .

ـ انني لا أتذكّر .

ـ هل كذبت عليّ مثلاً فيما يخصّ علاقاتك بباليستياري ؟

ـ أقسم لك اني لا أذكر .

ـ وهكذا ، كل ما قلته لي عن ماضيك يمكن ألا يكون صحيحاً ؟

ـ لا ، اطمئن . لقد قلت لك الأكاذيب حين كان ذلك ضرورياً فقط .

ـ متى مثلاً ؟

ـ لا أذكر الآن : حين كان ضرورياً .

ـ ومتى يكون ضرورياً ، في نظرك ، أن تكذبي ؟

ـ كيف أجيبك ؟ يكون ضرورياً حين يكون ضرورياً .

ـ حسناً ... لنذهب الآن إلى بيت أمي . سوف أقدمك كخطيبتي ، وبعد شهر على الأكثر نتزوج .

واستأنفنا سيرنا في بطء ، وما لبثنا أن وصلنا إلى الحاجز العائلي ، بين ذينك الركنين المزدانين بالتحف الرومانية . ولم يكن الباب مغلقاً على عادته ، بل كان مفتوحاً على سعته ؛ وكان الفانوسان القائمان على أعلى الركنين مضاءين . وفي تلك اللحظة بالذات ، كانت ثلاث سيارات او أربع تتأهب لاجتياز العتبة . وقلت خائباً :

ـ أخشى ان يكون اليوم استقبال أمي ، أقصد أن يكون ثمة حفلة كوكتيل . فماذا نفعل ؟

ـ ما تشاء .

وفكرت بأن هذا الاستقبال ، بعد كل حساب ، يمكن ان يكون مفيداً للهدف الذي كنت أرمي اليه : إن سيسيليا ستتمكن بذلك من أخذ فكرة عن العالم الذي سأدخلها اليه حين أتزوجها . فإذا كانت طموحة ، كما كنت أؤمل ، فلا يمكن لهذه الفكرة إلا ان تكون مؤاتية . وقلت في سرور :

– لندخل ، فأقدّمك إلى أمي ، وتشربين شيئاً ما ، وترين البيت ثم نخرج . موافقة ؟

– موافقة .

وصعدت الجادة خلف السيارات ، وأوقفت سيارتي بصعوبة أمام ساحة البيت التي كانت قد امتلأت تقريباً . وهبطت سيسيليا فتبعتها . واتجهت إلى باب البيت وهي ترفع بيديها شعرها المنسدل على عنقها ، لترتّبه على كتفيها،وهي حركة كنت أعرف انها تنمّ عن الخجل ، وعن ارادة التفوّق عليه . ولحقت بها فأخذت بذراعها وأنا أهمس :

– هو ذا البيت الذي سنسكنه حين نتزوج ؛ أيروق لك ؟

– نعم ، انه بيت جميل .

وولجنا المدخل ، ثم انتقلنا إلى الصالون الأول من الصالونات الأربعة او الخمسة التي كانت تشغل الطابق الأرضي . وكان عددٌ من المدعوين واقفين فيه، متقاربين، والكؤوس في أيديهم ، يتحدثون عن كثب ويتبادلون نظرات جانبية ، كما يحدث عادة في حفلات الكوكتيل . وإذ كنت أدفع سيسيليا من ذراعها لتشقّ هذا الجمع المزدهي الذي كان يتبختر، وتنظر إلى جميع هؤلاء الرجال الأغنياء اللامعين، وهاتيك النساء المصبوغات اللابسات ثيابهنّ على أحدث طراز ؛ ولتمتزج سيسيليا بتلك الكثرة الكريهة ، حتى لتبدو كأنها جزء منها – وإذ فكرت بأنه إذا حدث هذا حقاً ، وربما أمكن بالفعل ان يحدث بعد زواجنا، فانني لن أتحرّر من سيسيليا ومن حبي لها فحسب ، بل سأكرهها ايضاً كما كنت أكره مدعوّي أمي – إذ كنت أفعل وأفكر بهذا كله ، انتابني بعض الندم على اني رجوت ان أفقدها في هذا الجمع الفظيع ، وانتابني ما يشبه الأمل بأنها ربما رفضت ان تتزوجني .

أجل ، كنت أريد ان تُسئمني سيسيليا ، ولكني لم أكن أريد ان أكرهها. وعلى أي حال كان حبي لها أكبر من ان أتمنّى ان أتحرّر منها بثمن تحوّلها من مراهقة فقيرة تمتلىء لطافة وطلاوة إلى شرّيرة غنية .

وفيما كنت أجترّ هذه الأفكار ، ظللت أدفع سيسيليا عبر الجمع ، من فريق إلى فريق ، ومن دائرة وجوه إلى دائرة أخرى ، في دخان السكاير ، وضجيج المحادثات، وانا الامس في تنقلي صحون الزجاج المختلفة الالوان والاحجام التي كان الخدم يطوفون بها . لقد كان استقبالاً حافلا ، وكان واضحاً ان أمي قد اعتمدت البحبوحة والبذخ ، من غير ان تهتم بالنفقات . ولكن المال الذي صرفته امي لتستقبل ضيوفها استقبالاً لائقاً كان شيئاً زهيداً بالمقارنة الى الغنى الذي لا يحصى لكل من هؤلاء المدعوين . ولا ادري لماذا تذكرت استقبالاً مماثلا تمّ منذ سنوات ، وسأل فيه عجوز سمين مرح كامل الصحة ، عجوزاً آخر هزيلا ممتقعاً وحزيناً ، بلهجة مسايرة وتشكك علمي في الوقت نفسه : « ما هو في رأيك رأس المال المتمثّل ، بين هذه الجدران الاربعة ، قلْ رقماً ... » فأجابه الآخر بلهجة مظلمة : « ماذا يدريني انا ؟ انني لست موظف جباية . »

وكنت قد تساءلت كثيراً لماذا كنت أحس بمثل هذه الكراهية لعالم أمي ؛ ولكني في ذلك اليوم فقط ، حين تذكرت العبارة وحين قارنتها بتلك الوجوه التي كنت أراها حولي ، فهمت فهماً نهائياً . وبالفعل فاني إذ كنت أترصّد سحن المدعوين ، أحسست إحساساً واضحاً أنه لم يكن ثمة تجعّدة ولا ثنية صوت ولا تدحرج ضحكة ، ولا ملمحٌ واحد بالاجمال ، إلاّ وهو محدّدٌ مباشرة بهذا المال الذي كان المدعوون يمثّلونه هنا ، على حدّ قول العجوز السمين ، في مبالغ متباينة. وفكرت : اجل إن المال في هذا الجمع قد تجسّد لحماً ودماً ؛ وسواء أكان قد رُبح في عمل شريف وسعيد ، او قد سُرق بحيلة ووقاحة ، فانه كان ينتج النتيجة نفسها، ابتذالاً لا إنسانياً يُرى في السُمنة المزدهرة كما يُرى في الهزال الجافّ . ولئن كان صحيحاً (وهو صحيح) ان المال لا يسمح بالطلاق مع المال ، لأن من هو غنيّ لا يستطيع ان يتظاهر بأنه ليس كذلك ، فقد كنت أدرك مرة أخرى انني انا أيضاً

كنت جزءاً ، بالرغم مني ، من مجتمع الأغنياء هذا ، وأن المال الذي كنت قد تخلّيت عنه ، من غير أن أنجح في التخلّص منه ، هو الذي كان مصدر أزمة فني ، وعلى العموم ، ازمة حياتي . انني إذن لم أكن إلا رجلاً غنياً كان يود لو لم يكن كذلك . وكان بوسعي ان أرتدي الخرق وآكل فتات الخبز ، وأعيش في كوخ: فان المال الذي كان تحت تصرفي كان يغير خرقي الى ثياب أنيقة ، وفتات خبزي الى مآكل شهية ، وكوخي الى قصر . وحتى سيارتي المتهرئة القديمة ، كانت أوفر بذخاً من كثير من السيارات الفارهة لأنها كانت تخص رجلاً كان يستطيع لو أراد ان يملك سيارة أخرى من أحدث طراز .

وارتعشت لصوت أمي الذي كان يقول :

– اوه ! دينو ، ما أجملها من مفاجأة !

كانت أمامي ، ولكني لم أكن قد رأيتها ، او اذا كنت قد رأيتها فاني لم أعرف ان أميزها في جمع مدعويها ، لفرط ما كانت تبدو في تلك اللحظة واحدة منهم ، شبيهة بهم في كل شيء ، بلا ادنى صلة معي ، حتى ولا صلة الدم . كانت امي ، اذا أخذت وحدها، تظل أمي في الجمع الذي كان يملأ صالوناتها، فانها لم تكن أيسر على التمييز من عصفور في رف او سمكة في بحر . ولهذا فان التحديد الاقتصادي الذي يمكن ان يظهر كملمح فردي ، حين تكون امي وحدها ، كان يتكشف وهي في جمع مدعويها كطابع جماعي ولاشخصي . وقد كان بالامكان التأكيد ، بالنسبة لجميع الاشخاص الذين كانوا يملأون غرف الاستقبال ، وبالنسبة لأمي أيضاً ، أن ما كان يختفي وراء التماع زجاج عينيها الزرقاوين ، وتباهي بجوهراتها الكثيفة ، وعصبية هزالها ، وتصنيع ماكياجها المفرط ، ولهجة صوتها المزعجة ، انما هو انقيادية المال التي هي خصيصة من خصائص المجتمع الذي تنتمي اليه ، اكثر مما هو جدّة تجربة توحّدية .

وامي التي كانت شبيهة بمدعويها في مظرها المادي ، كانت كذلك شبيهة بهم في مسلكها خلال لقائنا القصير . انها شديدة الاهتمام والتنبه حين تكون وحدها عادة ؛ اما في حفلة الكوكتيل هذه التي كان من قوانينها

عـــدم الاهتمام المطلق ، المصنوع من اللامبـــالاة ، ومن العجـــلة والطيش ، فان أمي كانت تتصرف كالآخرين ، ناظرة من غير ان ترى ، ومتحدثة من غير أن تسمع . وبالفعل ، فانها بعد عبارة الترحيب الفرحة ، نطقت بما لا ادريه من كلام غير منسجم حول الواجبات الكبيرة التي لم تكن تتيح لها ، في ذلك اليوم ، ان تهتم بي . ثم أضافت في انعدام للفضول كلّي ، وهي تنظر فيما حولها ، بسرعة، وانقياداً للشكل ، قولها :

– انني أنبهك إلى انك لم تقدم لي الآنسة بعد .

فقلت في لهجة زهو وأنا آخذ ذراع سيسيليا :

– هذه سيسيليا خطيبتي .

وحدث إذ ذاك شيء غير متوقع . فسواء أكانت أمي لم تسمع عبـارتي ، ام انها سمعتها ولكنها لم تفهمها ، أقصد انها سمعت جرسها دون أن تدرك معنـاها ، فان ما حدث هو انها صرخت فجأة بعد ان وضعت نظرها اللامع على سيسيليا :

– اعذراني ، فسوف نلتقي فيما بعد ، أما الآن ، فاني مشغولة بأمر ...

ومن غير ان تنتظر جوابـــاً ، انخرطت في الجمع بعزم القِرش الذي يقذف بنفسه نحو طريدته في اعمـــاق البحر . وخيّل إليّ ان احداً قد وصل ، لا بد انه شخص هام ، ولم تسمعني أمي لأنها في اللحظة التي كنت أقدّم لها فيها سيسيليا ، لمحت عيناها هناك ، بالقرب من الباب ، الحركة المدوخة التي يحدثها وصول ضيوف جدد في جمع حفلة استقبال .

وأخذت قدحين من على صينية خادم وقدّمت احداهما لسيسيليا ، ثم دفعتها إلى فتحة إحدى النوافذ وسألتها :

– إذن ماذا تقولين ؟

– عن أي شيء ؟

وبقيت لحظة ، صامتاً . ما الذي كنت أريد أن أعرفه من سيسيليا ؟ كنت أجهل ذلك ، أجهل كل شيء ما دمت لا أعرف شيئاً . وهكذا قلت اتفاقاً :

– عن حفلة الاستقبال هذه ؟

ـ انها حفلة استقبال .

ـ هل تحبين حفلات الاستقبال ؟

فأجابت بعد لحظة ، بلهجة قلقة بعض الشيء :

ـ لا أحبها كثيراً . ان الدخان والضجة يزعجانني .

ـ وما رأيك بهؤلاء الناس جميعاً ؟

ـ لا رأي لي فيهم . فأنا لا أعرف احداً .

ـ ان بعض الاشخاص هنا يمكن ان يُفيدوك ، فهل تريدين ان اقدمك ؟

ـ يفيدونني بأية طريقة ؟

ـ اجتماعياً .

ـ وماذا يعني هذا ؟

ـ بوسعهم ان يعقدوا معك صداقة ويُسايروك ، فيدعوك إلى حفلات كهذه ، وإذا كانوا رجالاً يغازلوك . فجميع هذه الأمور يمكن ان يكون لها فائدتها . وهذا هو السبب الذي من أجله يذهب كثيرون إلى حفلات الاستقبال . فهل تريدين ان أقدمك ؟

ـ ان هذا لا يهمني ، ثم انني لن أراهم بعد أبداً .

ـ بل سترينهم حتماً ما دمنا سنتزوج .

ـ في هذه الحالة ستقدمهم لي .

وكنت أريد ان أتصدى لموضوع الغنى ، ولكنني لم اكن أعرف كيف أتأتى لذلك . وقلت أخيراً :

ـ الاشخاص الذين ترينهم هنا هم جميعاً أغنياء .

ـ هذا واضح .

ـ وكيف اتضح لك ذلك ؟

ـ من زينة السيدات وجواهرهن .

ـ أتحبين أن تكوني مثلهن ؟

ـ لا أدري .

ـ لماذا لا تدرين ؟

ـ انني لست غنية ، ولكي أعرف إذا كنت أحب أن أكون غنية ، فيجب ان اكون قد اصبحت كذلك . فانما بعد ان اكون قد جربت استطيع ان اقول ان كان ذلك يروقني ام لا .

ـ ولكن ألا تستطيعين تصور ذلك ؟

ـ كيف السبيل إلى تصور شيء لا نعرفه ؟

ـ ومع ذلك ، فانت تحبين المال ؟

ـ نعم حين اكون بحاجة اليه .

ـ ولن تكوني بحاجة إلى المال ؟

ـ الآن لا ، فان ما تعطيني إياه يكفيني .

ـ بالاختصار : اذا تزوجتني كان لك مال كثير ، أصبحت كالسيدات اللواتي ترين هنا ، فما رأيك في ذلك ؟

ورأيت عينيها الكبيرتين المعتمتين تجولان في جمع المدعوين ، فتساءلت مرة اخرى عمّا كانت ترى، واذا كان ما تراه يشبه على نحو ما ما كنت أراه أنا نفسي . ثم قالت على مهل :

ـ ليس هناك فتيات وإنما نساء في سن أمك .

ـ ان أمي تستقبل صديقاتها ، فمن الطبيعي اذن ان تكون السيدات اللواتي ترينهن قريبات السن منها . ولكنك لم تجيبيني بعد . ما رأيك في أن تتزوجيني وتصبحي كجميع هاتيك السيدات ؟

ـ لا أستطيع ان اقول لك رأيي ، فأنا لم أفكر قط في الأمر .

ـ هذه لحظة مناسبة للتفكير فيه .

ورأيتها تنظر من جديد إلى القاعة ثم تحمل القدح إلى شفتيها ، فتشرب جرعة وتبقى صامتة . كان الصمت ما يزال احدى طرقها للافلات مني . وألححت :

ـ هل استطيع أن أعرف بمَ تفكرين ؟

فأجابت ببعض الفجاءة :

– كنت أفكر بأن من الأفضل ان نذهب إلى مكان أهدأ لأستطيع أن أعطيك الجواب الذي طلبته مني .

– أي جواب ؟

– الجواب المتعلق بقضية زواجنا .

– وأين تريدين ان نذهب .

– الأمر لديّ سواء .

– لنذهب إلى الطابق الثاني . فهناك نستطيع ان نكون مطمئنين . ثم انك بهذه الطريقة ترين البيت .

ووضعنا قدحينا على حافة نافذة ، ثم أخذت سيسيليا من ذراعهـا وقدتها عبر الجمع نحو باب في آخر الصالون . وفتحت هذا الباب ودفعت سيسيليـا إلى الممر . وسرعان ما حلّ محلّ الدخان والضجة والجمع جو البيت الصافي والخالي والصموت . وقدت سيسيليا نحو الدرج وبدأت أصعد معها وإحدى يديّ على الدرابزين النحاسي والأخرى على كتفها . وسألت :

– أتحبين أن تعيشي هنا ؟

– هنا او في مكان آخر ، الأمر عندي سيّان .

– ولكن هنا توجد أمي .

– ان أمك قريبة من القلب .

فصحت مذعوراً :

– ولكن يا إلهي ! أي شيء فيها ترينه قريباً من القلب ؟

– لا أدري . انها قريبة من القلب .

وفي هذه الاثناء كنا قد بلغنا الطابق الثاني . فسألتها :

– أتريدين ان تري غرفتي ؟

– نعم .

وفتحت الباب فأريتها إياها ، وكانت قد بقيت كما كانت يوم فررت ، تاركاً بنطلوني بين يدي ريتا : المصاريع مغلقة والفرشة مطوية على السرير . ولم تكن

تنظر اليها ، لما هي عليه من انعدام للفضول مطلق ، ثم سألت :

– ألا يسكن فيها أحد الآن ؟

– ان هنا عدة غرف فارغة . وبوسعنا أن نأخذها إذا تزوجنا . ألا تظنين انك ستكونين في وضع أفضل في مثل هذه الغرفة مما أنت في الغرفة التي تسكنينها الآن ؟

فأجابت مؤكدة اعتقادي بأنها لم تكن ترى شيئاً ، وانه لم يكن ثمة في نظرها أي فرق بين أثاث أمي الرائع من طراز (امبير) وبين دكان بيتها الرخيص :

– لماذا ؟ انهما غرفتان متشابهتان ، فهنا سرير كهناك ، وهنا خزانة كهناك ، وهنا كراسي كهناك .

– انت تقرّين على الأقل ان هنا أوسع ؟

– هذا صحيح .

وأغلقت الباب وأنا أقول :

– لنذهب إلى غرفة أمي فهي مشغولة بكوكتيلها . فبوسعنا ان نتحدث ما حلا لنا ذلك .

وقدتها إلى الغرفة ، ففتحت الباب ودفعتها في الظلام ، كما لو اني كنت ادفعها إلى سجن أريد ان أحبسها فيه إلى الأبد ، ثم أضأت النور . وبدت لي الغرفة الواسعة الباذخة خانقة إذ لم تكن فيها زاوية من جدار عارية ، ولا أدنى حيّز من البلاط مكشوف ، فكل شيء كان يختفي تحت السجاجيد والطنافس والستائر . وقصدت إحدى النوافذ ، ففتحتها على سعتها ونظرت لحظة إلى الخارج . وكانت النافذة تطلّ على الحديقة ذات الطراز الايطالي ، ومن أعلى كانت ترى الجنينة بممرّاتها وأشجارها وأحواضها وظلّتها . وكان الليل هابطاً ، وكانت السماء السوداء التي لا نجوم فيها تضيئها أحياناً بروق عاصفة بعيدة ، وكان الهواء في مثل حرارة الغرفة الخانقة . وكانت المصابيح المخبأة في الأرض ، بين الأدغال ، تنشر ضوءاً مزيفاً راعشاً على أقدام المدعوين العديدين الذين كانوا يخرجون من صالونات الطابق الأرضي وينتثرون في الحديقة . وهكذا يظهرون وكأنهم أشباح ، في الضوء الذي

ينيرهم حتى رُكبهم . ولكن القسم الأعلى من أجسامهم كان يضيع في الظلام ، حتى لكأن الحديقة كانت عامرةً بالسيقان النسوية والرجالية المحرومة من الاجسام. وفيما كنت أتأمل هذا المشهد ، انبعث صوت سيسيليا يُرعشني :

– أين غرفة الحمّام ؟

– هناك . ذلك الباب .

فاتجهت اليه من غير ان تقول كلمة . وابتعدت عن النافذة ، وذهبت أجلس على أريكة عند أسفل السرير ، وأشعلت سيكارة .

وتوقفت عيناي عند لوحة قديمة كبيرة معلقة إلى يسار السرير ، لا ريب في ان أمي قد حصلت عليها حديثاً ، وكنت أعرف أنها كانت تخصص احياناً بعض مالها لشراء الآثار الفنية ، ولكني لم أتذكر اني قد رأيتها قبل ذلك قط . وكانت اللوحة تمثل « دانايه » والمطر الذهبي . وكانت « دانايه » متمددة على سرير شديد الشبه بسرير أمي ، منخفض وعريض ، ذي عوارض مزيّنة بالبرونز . وكانت مسندة ظهرها إلى عدد من الوسائد ، صدرها منكمش ، وبطنها بارز إلى أمام ، وإحدى ساقيها متمددة على الفراش والأخرى مثنية ومتدلية في الفراغ . وكانت « دانايه » تتأمل في انبساط حضنها الذي كان عليه مطر القطع الذهبية ، في ظل ستائر ثقيلة ، وهو ذهبٌ في مثل التماع شعر الآمة المنثور على كتفيها البيضاوين ونهدها المورد . لقد كانت لوحة عادية ، ذات موضوع ميثولوجي ، وفي ظروف أخرى ، ما كنت لأعيره أية أهمية . ولكنه في تلك اللحظة أثار اهتمامي ، كما لو انه كان يعنيني ، ولو بطريقة غير مباشرة وغامضة . وإذن فقد أخذت أتأمل هذه اللوحة متسائلاً لماذا كانت تثير اهتمامي ، وما عساه يكون معنى فضولي . وفجأه ، فتح باب غرفة الحمام ، وعادت سيسيليا إلى الغرفة .

كانت قد نزعت ثيابها وأحاطت جسدها بنشفة قصيرة تكاد لا تغطي خاصرتيها وصدرها ، على غرار ما تفعله النساء في القطب الاستوائي ، مكتفيات برقعة قماش موجزة . واقتربت بأطراف أصابعها وقالت لي :

– أتعلم ان توعكي قد انتهى ؟ اذا شئت ، فاننا نستطيع ان نقوم بفعل

الحب .

– هنا ؟

– ولِمَ لا ؟ إنه لمكان مريح جداً !

وأحسست إحساساً مفاجئاً بنوعٍ من الكرم الماكر المغرض ، كما لو ان سيسيليا اذ تهب نفسها بهذه الطريقة غير المتوقعة ، بينما كنت قد عدلت عن أخذها، إنما كانت تريد ان تعوّض عليّ مقدّماً من تضحية سوف تفرضها عليّ ، وكنت ما أزال أجهلها فقلت بغتةً :

– ممتاز ، ولكن قبل ذلك يجب ان تعطيني الجواب .

– أي جواب ؟

– إذا كنت تقبلين ان تصبحي زوجتي .

فلم تجب ، فطافت قليلاً في الغرفة ، ثم أقبلت تجلس فجأة على ركبتي ، وفيما بدأت تحل عقدة عنقي وتفك زر ياقتي ، نطقت على مهل :

– أنت يا دينو الرجل الوحيد الذي استطيع أن أتزوجه ، لأني أستطيع معك ان اكون طبيعية وصادقة ولا أخفي عنك شيئاً .

فدهشت لهذه المقدمة وصحت :

– حقاً ؟ أما أنا ، فأشعر دائماً انك تخفين عني كل شيء ، او كل شيء تقريباً. وهكذا أتساءل عما يجري مع الآخرين !

وكما لو انها لم تسمع ، استمرت وهي خافضة الرأس في نزع ربطة عنقي ، ثم في فك أزرار قميصي واحداً بعد الآخر :

– ثم ان هذا البيت جميل جداً ، وأحب أن أعيش فيه معك .

– وإذن ؟

فأضافت وهي تصرّ على إخراج ذراعي من كم سترتي :

– ثم انك وعدتني بأشياء كثيرة جميلة : رحلات ، أعياد ، زينات ...

– وإذن ؟

– ولكن يجب أن أقول لك إنني لا أستطيع أن أتزوجك . وقد كان علي

أن أعلمك بذلك على الفور ، منذ أن كلمتني في الأمر ، ولكني إذ رأيت انك كنت حريصاً على ذلك كل الحرص فاني لم أملك الجرأة ...

وكانت قــد توصلت إلى نزع سترتي وحتى قميصي ، فطوتها وألقتها في أسفل السرير .

وكنت أشعر آنذاك بإحساس خدر هائل ، كما لو اني اعتقدت حقاً بأن سيسيليا قد سُحرت بفكرة ان تصبح زوجتي . وفكرت بأنني ، كما أملت في الماضي أن أمتلك سيسيليا بواسطة المال ، ظننت هــذه المرة اني سأبلغ الهدف نفسه بأن أعرض عليها شيئاً كانت النساء يفضّلنه على المال : الزواج . وسألتها في غضب :

– لماذا لا تريدين ؟

– لا أريد لأنني لا أستطيع .

– ولكن لماذا ؟

فقالت بجفاء :

– بسبب لوسياني ، فأنا لا أريد أن أنفصل عنه .

– أهو الذي تريدين أن تتزوجيه ؟

– اوه ! لا ، بل لا أفكر بهذا قط . ثم إنه متزوج .

– لوسياني متزوج ؟

– نعم ، وزوجته على عهدته .

فصحت مغتاظاً :

– ماذا يهمني لوسياني ؟ سأدعك ترينه ما شئت .

– لا . لقد قلت لا والجواب لا .

– ولكن لماذا ؟

فأجابت باللهجة نفسها التي استعملتها حين عرضت عليها ان أدفع لها كل شهر مبلغاً معيناً ، كأنما كانت شديدة التعلـّق بعادة عزيزة مناسبة :

– ولكن ، لا يا دينو . لماذا ينبغي لنا ان نتزوج ؟ فلنبقَ كما نحن ، فان

الامور هكذا على ما يرام .

وتشبثت الآن بفكرة الزواج في عنادٍ لا يصدّق ، ربما لأنها لم تكن تريد ان تقرّها :

– ولكن اذا سمحت لك ان تريْ لوسياني ، او اي شخص آخر ، واذا كان لا يتغير شيء ، إلاّ الى أحسن ، واذا جئت تسكنين هذه المقصورة معي ، بدلاً من ان تسكني مع والديك في بيت بائس ، فلماذا تُراك ترفضين ؟ مـــا هو سبب رفضك ؟

فأجابت بطريقة حاسمة :

– كل ما هنالك ان الزواج لا يعني بنظري شيئاً ...

ثم هبطت على ركبتيّ وشدّتني من يدي وهي تقول :

– هيّا تعال ، لنقم بفعل الحب .

فنهضت آلياً ، بالرغم مني تقريباً . وحدث اذ ذاك امرٌ غريب : فان بنطلوني الذي كانت سيسيليا قد فكّت نطاقه ، سقط على قدميّ وجعلني أتعثّر ، فاذا بي أهدر ، وقد بلغ بي الغضب غايته :

– كلا ، لا رغبة لي في ذلـــك . كل ما أريد ان أعرفه لماذا لا تريدين ان تصبحي زوجتي .

كانت واقفةً تنظر إليّ ، ثم قالت بلهجة غامضة .

– كما تريد ... ولكني أخبرك اننـا اذا لم نقم بـه اليوم ، فلن نقوم به إلاّ بعد فترة من الزمن .

– لماذا ؟

– كنت صمّمت على ألاّ أخبرك ، حتى لا تغضب . وكنت أفضّل ان اكتب لك بطاقة لأبلغك ذلك . ولكن الافضل ، بعد كل حساب ان تكون على علم . إنني مسافرةٌ صباح الغـد مع لوسياني ، الى « بونزا » وسنمكث هناك زهاء خمسة عشر يوماً .

كنت قبل ذلك غاضباً ، فضاعف هـــذا التصريح غضبي اذ شرح لي مسلك

سيسيليا خلال النهار . فانها كانت قد قررت ان تقضي اسبوعين مـــع لوسياني في بونزا ؛ ولهذا السبب ، وله وحده ، اي لتعزّيني على نحو ما ، اقترحت عليّ ان تقضي النهار معي ؛ ولهذا السبب ، رفضت ان تتزوجني ، مهما بدا ذلك غريبـــاً . وكنت أعرف سيسيليا معرفة كافية ، وكنت قد جرّبت انعدام خيالها وتجرّدها اللامبالي الجامد . وكنت اعلم أنهـا لم تكن جديرة" بأن تفكـّر بأكثر من امر واحد في وقت معاً ، على ان يكون ايضاً أقرب الامور واكثرها مباشرة وأعودها بالمتعة. وفي هذه الحالة ، كان السفر الى بونزا مع الممثل هو أقرب الاشياء واكثرها مباشرة واوفرها جذباً ؛ ومن أجل هذه الرحلة ، اذن ، لم تتردد في رفض الزواج، الذي كان يمكن أن تقبله في ظروف اخرى .

ولاحظت فجأة أنني كنت أتألم ، واني بينما كنت منـذ لحظة خلت اريد بأي ثمن ان تصبح زوجتي ، كنت أحسّ الآن بأني سأكتفي بألاّ تذهب الى بونزا . وقلت لها ذلك بصوت قلق :

– لا تسافري الى بونزا .

فلم تجب بشيء ، ولكنها توجهت نحو السرير ، فصعدت عليه وتمدّدت في تمهّل هادىء منبسط ، وظهرها مستندٌ إلى الوسائـــد ، وساقٌ متمدّدة على الفراش ، والأخرى مطوية وقدمها متدلية في الهواء : تماماً كما تبدو « دانايه » في اللوحة . ثم قالت وهي ترفع المنشفة التي كانت قد التفّت بها :

– لماذا نفكـّر في الغد ؟ تعال إلى هنا ، بالقرب مني .

– ولكني لا أريد ان تذهبي إلى هناك .

– لقد سبق ان حجزنا غرفة لنا .

– قولي للوسياني انك متوعّكة ولا تذهبي .

– مستحيل .

– ولكن لماذا ؟

– لأنه يلذّني ان أذهب إلى بونزا ، ولست أرى لماذا لا أذهب اليها .

– إذا لم تذهبي ، قدّمت لك هدية .

وكانت الآن عارية ، في وضع مستسلم ، ونهداها حرّان ، وخاصرتاها مرتاحتان على الفراش ؛ وكانت تتطلع في الهواء ، بفضول طفولي ، إلى مظلّة السرير . ومن غير ان تخفض عينيها ، سألت بصوت شارد :

– ما هي الهدية ؟

– ما تريدين .

– مثلاً ؟

– مبلغ من المال مثلاً .

فحطّت عيناها الكبيرتان المعتمتان عليّ بطريقة لامعبّرة ، مترددة وشبه مندهشة :

– وكم تعطيني ؟

وكنت أنظر اليها فجاءتني فكرة انبثقت من تشابه وضعها مع وضع «دانايه» في اللوحة :

– أعطيك من المال ما يكفي لتغطيتك .

– ماذا تقصد ؟

– أقصد انك ستظلّين ممدّدة على السرير ، جامدة ، فأغطّيك بالأوراق المالية من القدمين إلى الرأس . فإذا عدلت عن الذهاب إلى بونزا ، أعطيتك كل هذا المال الذي يكون قد غطّاك من الرأس حتى القدمين .

فأخذت تضحك ، وكأنّ جدّة اللعبة ، لا موضوعها ، هي التي زادتها سحراً وانجذاباً :

– أية أفكار غريبة عندك !

فقلت بنية سيئة :

– أفكار رسّام ...

– ثم أين مالك هذا ؟

– انتظري .

ونهضت فعدوت إلى غرفة الحمام ، وفعلت بسرعة ما كنت قد تنبأت منذ

بضعة أيام أني سأقوم به في نهاية الأمر : فقد أزحتُ المربّعات ، وكشفت باب الخزنة الفولاذي ، وأدرت الأزرار وفقاً للسرّ الذي كنت أعرفه عن ظهر قلب . وفي هذه الأثناء كنت أصعّد الدعوات لكي أجد مالاً . وفكرت انه ، في حالة عدم وجود المال ، فسوف أغطّي سيسيليا بالأسهم الصناعية التي لها ثمن معادل ، كما أفهمتني أمي أكثر من مرة .

ولكن كان ثمة مال . فقد كان الظرف الأصفر المعهود ، موضوعاً فوق ملفات الأسهم العادية ، وكان منتفخاً حتى ليكاد ينفجر . فتناولته وأخرجت الأوراق التي كان يحتويها وعدت إلى الغرفـــة . وإذ رأتني سيسيليا أقترب رمتني بنظرة لم أستطع أن أمتنع عن وصفها بأنها ميثولوجية لفرط ما كانت تشبه النظرة التي كان لا بدّ « لدانايه » أن تكون قد نظرتها حين سقطت عليها أول قطعة من ذهب . وأمرتها قائلاً :

– والآن ، تمدّدي .

فتمدّدت وهي تنظر إليّ مستغربة ومرحة ، ولكنها كانت كذلك مضطربة بعض الشيء ، على ما خيّل إليّ . وكانت رزمة الأوراق التي اخرجتها من الظرف ضخمة ، وحسبت انها لا بدّ من ان تكون مؤلفة من خمسين ورقة من فئة العشرة آلاف . وقد بدأت ، رمزياً ، من تحت ، فبسطت على العانة المعتمة المجعّدة ورقة واحدة مطوية جيداً ، ثم غطيت صعوداً البطن الأبيض الطفولي ، والقامة الدقيقة فالصدر الاسمر ، واضعاً ورقة على كل نهد . وأحطت عنقها بورقة اخرى ، ووضعت أربعاً على كتفيها ، وأربعاً على ذراعيهـــا . ثم هبطت ثانيةً إلى ما تحت البطن ، فغطّيت ساقيها حتى قدميها الصغيرتين .

وكانت سيسيليا في بادىء الأمر قد تابعت هذه العملية في فضول طفولي شديد التنبّه ، كما لو انها كانت لعبة ؛ ثم أخذت فجأة تضحك ، ضحكة عصبيـــة لا تـُقاوم ، ولم أستطع الامتناع عن التفكير في أمل بأن هذه الضحكة كانت ضحكة امرأة تستسلم لعاشق صدّته طويلاً . ولا بدّ ان « دانايه » قد ضحكت على هـذا النحو وهي تحسّ مطر الذهب الإلهي يغمرها تحت الشهوة الغرامية؛وظلت سيسيليا

تشارك في اللعبة ، وهي ما تني تضحك ، مشيرة إلى الأمكنة التي لم تُغطّ بعد :
ـ هناك ، ما يزال مكان خالٍ . ضع ورقة هنا وورقة هناك ...
وأخيراً ظلّت ممدّدة في جمود تام ، ووجهها ملتفتٌ إليّ ، وعيناها مفتوحتان على سعتهما .
وقلت باختصار :
ـ هنا أربع وعشرون ورقة من فئة العشرة آلاف لير . فإذا لم تذهبي إلى بونزا ، أعطيتك إياها .
فضحكت من جديد وصرخت :
ـ كنت أحسب أنها أكثر من ذلك !
وظننت انها كانت تجد هذا العدد غير كافٍ ، فألححت :
ـ إنني سأعطيك ضعف هذا ، أي ما يكفي لتغيطيّك ظهراً وبطناً . وهذا عدل ما دام لك جهة بطن وجهة ظهر .
وفيما كانت باقية تحت الأوراق ، جامدة كما لو انها كانت تخشى ان تحركها وان تُفسد اللعبة ، كانت تنظر إليّ في تململ مليء بالأسف وقالت أخيراً :
ـ آسف يا دينو ، ان هذا غير ممكن .
وصمتت لحظة، ثم أضافت في عذوبة كبيرة لم يكن ممكناً ان تكون مصطنعة:
ـ لنقم الآن بفعل الحب . ثم حين أعود من بونزا أعدك بأن نقوم به أكثر من الماضي وان نلتقي أكثر .
وفهمت ان عذوبة صوتها كانت صادرة عن الهياج الذي أحدثته لعبة الأوراق المالية . وهو هياج كان من شأنه ، وفقاً لتنبؤاتي ، ان يتيح لي امتلاكها بفضل المال والذي كان يجعلها بعد رفضها إياه أشد هروباً وعدم قابلية للالتقاط. وسألتها:
ـ ألا تريدين حقاً ؟
ـ لا . فليس هذا ممكناً .
كانت متمددة ، حريصة على ألا تتحرك تحت ثوبها المصنوع من الأوراق المالية كما لو ان اللعبة قد استمرت ، وانها كانت تنتظر مرحلتها النهائيـــة . وأحسستني

إذ ذاك فجأة مرهقاً بتلك الشهوة المألوفة العمياء ، شهوة الذكر التي كانت تدفعني إلى أخذها ، لأن لم أكن أنجح في امتلاكها كما لو أني إذ آخذها ، فاني أمتلكها . وارتميت عليها وغطى جسمي جسمها المغطى بالأوراق . وسرعان ما أظهرت سيسيليا انها كانت تنتظر ان تنتهي اللعبة على هذا النحو ، فاعتنقتني بذراعيها وساقيها ، بينما كانت الأوراق بين جسدينا اللاهبين والمرطبين بالعرق تطقطق وتندعك . وكان عدد منها قد تناثر حولنا على الغطاء وعدد آخر بين شعر سيسيليا وحول رأسها .

وبعد الحب ، ظلت سيسيليا متمددة ، منفرجة الساقين ، ومرتوية كأفعى كبيرة التهمت حيواناً اكبر منها . وكنت نائماً عليها وانا لا أقل جموداً ؛ واذ فكرت في جمودنا ادركت ان جمودي كان هو الذي يمكن ان يعقب جهداً لاجدياً يستنفد القوى، بينما كان جمودها يحمل طابع امتلاء سرور سعيد . وفجأة تذكرت العهد الذي كنت ارسم فيه ، اذ كنت بعد نهار طويل من العمل احسني متعباً، لا تعب ارهاق كالذي كنت أحسه في هذه اللحظة ، بل تعب رضى وسرور كذلك الذي تحسه سيسيليا . وقلت في نفسي انها في علاقتنا ، انما كانت هي التي تمتلكني وانا الذي كنت أمتلك بالرغم من ان الطبيعة قد أعطتنا كلينا ، بغاياتها ، وهمّ العكس . وفكرت باني هكذا قد كنت رجلاً منتهياً ؛ فليست القضية فقط انني لن ارسم بعد أبداً ، بل سأبلغ ان اهدم نفسي في ملاحقة هذا السراب الذي كان يبدو انه ينبع من خاصرتي سيسيليا كما لو انه ينبع من رمل صحراء؛ وسينتهي بي الأمر الى ان اسقط كباليستياري في ظلمات الجنون .

وأخرجني من هذه الافكار صوت سيسيليا الذي كان يقول :

– اظن انك تقر على الأقل بأني لست امرأةً مصلحة .

فسألت مندهشاً :

– لماذا تقولين ذلك ؟

– ان إمرأة غيري كانت تأخذ المال ثم تذهب مع ذلك .

– وإذن ؟

– اذن يجب ان تقر بأنك على نحو ما ، قد وفرت مالاً .

فداخلني أمل بان تكون سيسيليا قد فكرت بانها توشك أن تقبل عرضي ، فقلت لها :

– لست انا الذي وفرت ، بل انت التي فقدته .

– إذا شئت . واود الآن ان اطلب منك معروفاً .

– اي معروف ؟

– كنتَ مستعداً لأعطائي نصف مليون اذا لم أذهب . فأعرني بالعكس جزءاً يسيراً من هذا المبلغ : اربعين الف لير .

وسألت ببلادة :

– ماذا تريدين ان تفعلي بها ؟

– انت تعرف ان لوسياني في هذه الفترة هو بلا عمل ، والمال الذي نملكه قليل جداً . فهذا يخدمنا في رحلتنا الى بونزا .

وقبل ان يتاح لي الوقت لأن ألاحظ ما كان يحدث، كنت قد وثبت، وكانت يداي قد شدّتا على عنق سيسيليا بينما كنت اقذف في وجهها بجميع الشتائم التي كانت ترد على خاطري . يُقال ان بوسع الانسان في بعض فترات كثيفة جداً ان يفكر ويعيش عدة امور في وقت واحد . وفي تلك اللحظة التي كنت أضغط فيها على عنقها كنت أفكر ان الطريقة الوحيدة لامتلاك سيسيليا ربما كانت في ان اقتلها . فاني اذ أقتلها ، أنتزعها من كل ما يجعلها غير قابلة للألتقاط واحبسها في سجن الموت النهائي . وهكذا فكرت ذات لحظة في خنقها فوق سرير أمي ، في وسط هذه الأوراق المالية التي رفضتها ، في هذا البيت نفسه الذي كنا سنسكنه معاً لو كنا قد تزوجنا . ولا ريب في اني كنت سأفعل ذلك لو لم تأتني في تلك اللحظة بالذات الفكرة الصافية السريعة كالبرق بأن هذه الجريمة ستكون ، على الأقل بالنسبة للغاية التي كنت أهدف اليها ، غير مجدية . فالواقع انني بدلاً من ان أمتلك سيسيليا وان أتحرّر منها فلن أنجح إلا بأن أضمن لها استقلالاً ذاتياً نهائياً . فهي إذ تكون محاطة بسر يقيّده الموت بعد الآن ، فانها ستفلت مني إلى الأبد في

غير ما فائدة . وحلت كلابة يدي وقلت بصوت منخفض :

– سامحيني . لقد أضعتِ لي رشدي لمدة لحظة .

قالت :

– لقد اوجعتني ، فما الذي دهاك لكي تغضب هكذا ؟

– لا أدري ، اعذريني مرة أخرى .

– لا أهمية لذلك . ان هذا غير مهم .

وتحاملت قليلاً على مرفقي فجمعت سريعاً بعض الاوراق المالية ومددتها لها وأنا أقول :

– هذه ستون الف لير . فهل هي تكفيك ؟

– انها اكثر مما ينبغي ... أربعون الفاً تكفي .

– خذيها . فربما احتجت اليها .

– شكراً .

فقبّلتني في عرفان ساذج ومحرج ، وأخذتني الشهوة من جديد ، بدافع من هذا العامل نفسه بأنها كانت في وقت واحد بين ذراعيّ وكانت غائبة ، واني اذا أخذتها مرة اخرى ، فربما ، ربما ستكون حاضرة وستكون قد بقيت . ولهذا ، ومن غير غضب ، هذه المرة ، وبرقّة ، وعذوبة ويأس ، أمررت ذراعي تحت ظهرها وأنا أحاذر أن أوجعها بساعة يدي ، وحين ملكتها بقامتها الدقيقة ، والتفّت يدي ثانية بذراعي ، أدخلت ساقيّ بين ساقيها ، ومرّرت ذراعي الأخرى حول عنقها ، وحين ملكتها وهي مغمورة ومحبوسة برمتها ، دخلت على مهل كما لو اني كنت اؤمل ان أبلغ ، بهذا التمهل ، الامتلاك الذي أفلت مني في المرّات السابقة .

وأخيراً سألتها :

– كان لذيذاً ، أليس كذلك ؟

– نعم . كان لذيذاً .

– كثيراً أو وسطاً ؟

– كثيراً .

– اكثر من العادة ؟

– نعم . ربما اكثر من العادة .

– هل أنت مسرورة ؟

– نعم . أنا مسرورة !

– أتحبينني ؟

– نعم . تعلم جيداً اني أحبّك .

وكانت تلك عبارات سبق لي مراراً ان نطقت بها ، ولكنني لم أنطق بها قط بمثل هذا الشعور اليائس إلى أبعد حدود اليأس . وكنت أقول لنفسي وأنا ألفظها ، ان سيسيليا ستذهب إلى بونزا، وان هـذا الرحيل ، الذي هو رمز محسوس لعدم قابليتها للالتقاط ، سيعزز بالتأكيد حبي وبالتالي رغبتي في ان انحرر منها وأنا أمتلكها . هكذا ، فهي حين ستعود سيعود كل شيء من جديد ، كما كانت قبل ذهابها ، بل حتى أسوأ من ذي قبل . وفجأة أخذتني الرغبة في ان لا اكون معها بعد ، بأن ابتعد عنها . وقلت بأرقّ ما استطيع ان أتكلم :

– لقد آن الأوان لنذهب . وإلا فإن أمي يمكن ان تجدنا هنا ، وسيكون هذا مزعجاً جداً .

– انني سأرتدي ثيابي على الفور .

– لا تعجلي اكثر مما ينبغي . لقد قلت ان ذلك سيكون مزعجاً ، ولكنه لن يكون اكثر من مزعج . والحق انه لن يكون لهذا أية أهمية . كل ما هنالك ان أمي ستحتج ولكن احتجاجها سيكون أقل للشيء نفسه مما يكون للشكل .

– ماذا يعني هذا ؟

– ان أمي حريصة جداً على ما تسميه الشكل . فاذا قمنا بفعل الحب في غرفتها لا في مرسمي ، فاننا سنسيء إلى الشكل .

– الشكل ؟ ما هذا ؟

– لست أدري . هو على الأرجح ما يبقى حين نفكر كثيراً في المال .

وانتهينا من ارتداء ثيابنا في صمت . ثم لممت الأوراق المـالية المتناثرة على

السرير ، وعدت إلى غرفة الحمّام فكتبت بقلم رصاص على الظرف : « مسحوب ستون الف لير . شكراً . دينو » وأعدت الظرف إلى الخزنة . وكانت سيسيليا ترتب غطاء السرير . ثم سألتني :

– أين نذهب الآن ؟

فهاجمني شعور غضب مفاجىء وقلت :

– لن نذهب إلى أي مكان بعد. والواقع ان هذا سيكون بعد الآن لامجدياً. انني ارافقك إلى بيتك .

وكنت ارجو تجاه هذا التغيير المفاجيء لمنهاجنا ان تظهر استيـــاء او أسفاً . ولكنها على العكس أجابت في عدم اكتراث :

– كما تريد .

وألححت :

– كما أريد ؟ كلا . بل كما تريدين ، مـــا دمت أنت التي ستذهبين غداً . فعليك ان تقولي إذا كنت تريدين ان نبقى معاً حتى منتصف الليل ام لا .

– ان الأمر لدي سواء .

– ولماذا هو سواء ؟

– لأنني سأراك بعد خمسة عشر يوماً .

– هل انت متأكدة من ذلك ؟

– نعم .

– حسناً . انني ارافقك إلى بيتك .

وخلال هذه المناقشة الصغيرة ، كنا قد خرجنا من الغرفة وهبطنا إلى الطابق الأول . واجتزنا الممرّ ، وكان مـــا يزال يُسمع خلف الأبواب المغلقة ضجيج كثيف ، شبيه بضجيج خليّة في أبّان انقلابها : كانت حفلة الاستقبال مستمرة ، وقطعنا الممر حتى المدخل ، ثم خرجنا من البيت .

وحملتني رطوبة الليل الصيفية على ان ارفع عيني غريزياً نحو السماء ، بينما كنت افتح باب السيارة . إن العاصفة التي كانت قد ثقلت طوال النهـــار على المدينة ،

ذهبت لتنفجر في مكان آخر ، وكانت السماء الآن بلا غيوم ، صـــافية متلألئة ، وكانت هنا وهناك بعض السحب الخفيفة البيضاء التي كانت تمتزج مع بياض المجرة المضيء . وفكرت بأن سيسيليا ستنعم بجو جميل في رحلتها إلى بونزا ، ومن جديد أحسست في قلبي بعضّة الغيرة . نعم ، سأنتظر عودتها وأنا أعدّ الأيام والساعات والدقائق واللحظات ، عارفاً انها خلال هذه الأيام والساعات والدقائق واللحظات ستضحك وتمزح وتتنزه وتركب القارب في البحر ، وتقوم بفعل الحب مع لوسياني ، اي انها ستفلت مني . وفور عودتها لن يسعني إلا ان أعود من جديد فأعدو خلفها ، كباليستياري الذي حُكم عليّ ، كما يخيّل إليّ ، ان أجدّد تجربته .

ولا أظن أني تكلمت اكثر من مرتين او ثلاث ، وبشكل موجز جداً ، في أثناء الطريق من بيت أمي إلى بيت سيسيليا . وقد طلبت اليها مرة ، ببلادة ، ان تكتب لي ، فيما كنت أدرك تماماً انها ، هي المتكتمة في كلماتها ، ستكون ولا ريب خرساء في رسائلها،وانها لن تكتب لي شيئاً ، حتى ولا بطاقة بريدية مصورة. ووصلنا إلى شارعها ، فأوقفت السيارة ، فهبطت سيسيليا ، فقلت لها إلى اللقاء وأنا ألامس شفتيها بقبلة خفيفة . وفيما كنت أعبر الشارع ، نظرت اليها وانا أفكر « لنأمل ان تلتفت وهي على العتبة ، لتبتسم لي وتودعني . » ولكن أملي خاب في انتظاري ، فقد جازت سيسيليا العتبة واختفت دون ان تلوي .

وما كادت تختفي حتى كنت أحسّ بأني لم تكن لديّ أي رغبة في العودة إلى المرسم او الذهاب إلى مكان آخر . والمكان الوحيد الذي كان يغريني هو بيت سيسيليا ، وكان يخيّل إليّ انني لم انته معهـــا بعد ، كنت أرغب في الصعود إلى بيتها ، فتفتح لي ، واصحبها إلى غرفتها فآخذها للمرة الثالثة في ذلك النهار . وكنت اعلم ان هذا جنون ، وانني حين آخذها لن امتلكها اكثر مما امتلكتها حتى ذلك الحين ، اي لن امتلكها على الاطلاق ، لأن ما كان يفوتني ، ليس هو جسدهـــا المساير إلى أبعد حدّ ، بل شيء لا علاقة لها البتة بجسدهـــا ... ومع ذلك ، فقد كانت هذه هي الرغبة الوحيدة التي بقيت لي .

ولا أعلم الوقت الذي قضيته في مناقشة هذه المشكلة ، وأنا جالس في سيارتي ،

في الشارع الفارغ ، قبالة الباب الخارجي لمنزل سيسيليا . وانتهيت إلى ان أقول لنفسي إن سيسيليا كانت قد ألحت حقاً ان نبقى معاً حتى منتصف الليل . فلن يكون أمراً غريباً إذن أن أتلفن لها ، وأنا آسف على اني تركتها سريعاً ، فأعرض عليها ان اصطحبها لتناول العشاء في مكان ما . وكنت أعرف ان سيسيليا كانت على صبر يكاد لا يُحدّ ، وحين كانت ترفض ، فان ذلك لا يكون ابداً لأنها لم تكن لديها الرغبة ، وإنما لأنها لم تكن تستطيع ان تفعل شيئاً آخر .

وعزمت فجأة ، فتراجعت بالسيارة حتى زاوية الشارع ، وهبطت ثم دخلت الحانة .

ولكن التلفون كان مشغولاً بفتاة لا يوحي ظاهرها بأنها ستنتهي منه بسرعة : انها فتاة ذات مظهر متواضع ، ربما كانت فرّاشة ، وكانت تتكلم وتجيب بصوت منخفض جداً ، وتصمت صمت من يتحدث حديثاً عاطفياً . فلم أتردد لحظة ، وتوجهت بتصميم نحو بيت سيسيليا . لماذا أتلفن لها ؟ لم يكن لي إلا ان أصعد إلى بيتها ، حيث أجدها فأدفعها إلى غرفتها .

ورقيت الدرج قفزاً ، فشددت على الجرس ، وظللت ألهث على السطيحة ، في انتظار ان يفتح الباب لأدلف إلى البيت . ولكن لم تكن سيسيليا هي التي أقبلت تفتح لي ، بل أمها ، وسرعان ما لاحظت بعض الاضطراب على وجهها المتعب المزيّن . وسألتها :

ــ أين سيسيليا ؟

فأجابت بلهجة آسفة :

ــ سيسيليا ليست هنا ، يا بروفسور .

ــ كيف ؟ ليست هنا ؟

ــ لقد خرجت منذ دقيقتين على الاكثر .

ــ ولكن إلى أين ذهبت ؟

ــ لقد ذهبت تتناول العشاء خارجاً .

ــ ومتى تعود ؟

ـ انها لن تعود ، يا بروفسور ، فقد أخذت حقيبتها ، وهي مسافرة إلى بونزا مع احدى صديقاتها . وسوف تنام الليلة في بيت صديقتها ، وستعود بعد خمسة عشر يوماً .

وهكذا بينما كنت أناقش موضوع ما اذا كان مناسباً ان أتلفن لها ، هرعت إلى البيت ، فأخذت حقيبتها التي كانت جاهزة ، وخرجت من الباب المفضي إلى الشارع الآخر ، وذهبت للقاء لوسياني . ورفعت عيني إلى أمها ، فرأيتها تعضّ على منديلها وعيناها تترقرقان بالدمع ، فلم أتمالك ان اسألها :

ـ ماذا حدث ؟

ـ لقد ذهبت سيسيليا بينما أبوها يموت . إنها تتركني وحيدة في هذا البيت الفارغ . فلقد نُقِل زوجي أمس إلى المستشفى ، وحالياً ليس من أمل بعد .

ـ ليس من أمل بعد ؟

ـ إن الأطباء يقدّرون له يومين او ثلاثة على الاكثر .

ـ ولكن ألا تحب سيسيليا أباها ؟

ـ آه ! إن سيسيليا لا تحب أحداً يا بروفسور .

ولا أدري لماذا تذكرت فجأة الطريقة التي جاءت بها سيسيليا تبحث عني يوم موت باليستياري بالذات . وقلت بغتة :

ـ انني آسف .. آسف بصدق ...

وبعد ان استمعت لحظة ، وأنا مغلق الوجه ، نافد الصبر ، إلى نحيب هذه المرأة ، مضيت في سبيلي .

وفيما كنت عائداً إلى سيارتي ، لاحظت أني لم أكن أستطيع احتمال التفكير بأن سيسيليا كانت في تلك اللحظة ، في بيت الممثل . وكانت تلك هي الاستحالة المألوفة بفعل شيء ، إلا الذي كنت موقناً ان عليّ ألا أفعله ، ولكنها استحالة قد تعزّزت بزوال الوهم فأصبحتْ أشد امتناعاً . وصعدت إلى سيارتي ، فلاحظت بسرعة اني كنت آخذ وجهة شارع ارخميدس ، حيث كان يقوم بيت لوسياني . وأقول «لاحظت» لأني كنت أتصرف بطريقة آلية ، هذه الآلية المختصة بالغضب .

وحين بلغت شارع ارخميدس ، هبطت بأقصى السرعة الشارع الضيق المتعرج حتى الحانة ، وتوقفت انظر إلى نوافذ لوسياني ، فلم تكن مضاءة ، وأيقنت على الفور ان العاشقين كانا غائبين . ومع ذلك ، فقد ترجّلت وتوجهت إلى الطابق الأول أدقّ باب الممثل . ولا أدري ما حدث في رأسي بينما كنت استمع إلى الجرس يرنّ طويلاً في الشقة الخالية ، وكل ما أدريه ، اني بعد دقيقتين كنت في الحانة اطلب رقم تلفون قوّادة كنت قد توجّهت اليها أحياناً في الماضي طلباً لفتيات . وقالت لي المرأة ، على الطرف الآخر من الخط ، أنّ لديها فتاة يمكن ان تكون تحت تصرّفي في بيتها المعتاد ، شارع كاسيا .

وحين صعدت السيارة ، فكرت بأن الفتاة التي كنت ذاهباً للقائها كانت عكس سيسيليا تماماً : فسوف تكون تحت تصرّفي الكامل لقاء مبلغ من المال ، وبوسعي ان امتلكها كلياً ، من غير أدنى هامش من الاستقلال والسرّ ، وذلك إنما يتم بفضل المال بالذات . وهكذا ، فان ما رُفض لي في مقصورة جادة آبيا ، بالرغم من عرض للزواج يرافقه نصف مليون لير ، كان بوسعي ان أحصل عليه الآن ، بنفقات قليلة ، في بيت مواعيد يقع بشارع كاسيا . ولكن تلك الفتاة لم تكن سيسيليا ، فلماذا إذن أقصدها ؟

وأمام هذا السؤال لاحظت في ذهول ان مصدر مخابرتي التلفونية للقوّادة إنما كان أملاً لا يصدّق . كنت في غضبي أؤمّل ، كنت اؤمل حقاً ان أجد في بيت شارع كاسيا سيسيليا نفسها ، وهي تنتظرني ، مستعدة لأن تستسلم وان تدعني أخيراً امتلكها . ولم أكن ادري حقاً من اين كان يأتيني هذا الأمل ، ربما كان يأتي جزئياً ، من كلمات القوّادات الخادعة اللواتي يَعِدْنك دائماً ، وعداً رائعاً عجيباً ، بما لا يستطعن قطّ أن يحصلن عليه ، أي الحب ، ويأتيني جزئياً ايضاً من ان الوسائل العقلانية لامتلاك سيسيليا قد تبدّت لاجدية ، ولذلك فلم يكن لي من أمل بعدُ إلا في معجزة .

وكنت غارقاً في هذه الأفكار ، او في هذه الحالة النفسية الغاضبة ، شبه الصوفية ، حين خرجت من المدينة وأخذت أسير على الطريق المؤدي إلى شارع

كاسيا . كان البيت من صميم الضاحية ، وبعد عشرين دقيقة وجدتني أمام الحاجز الريفي ، وكان مفتوحاً على سعته . وفي الجهة الاخرى من الحاجز كان درب رملي رديء يصعد حتى قمة تلـّة يقوم عليها بناء ابيض. واجتزت الحاجز وصعدت الدرب بين اشجار صغيرة هزيلة تبدو وكأنها مزروعة حديثاً . وأتيح لي أن أرى ، وأنا منحنٍ على مقودي ، ان نوافذ البيت كانت كلها مظلمة ، ثم أضيئت إحداها . وانتهت السيارة إلى الساحة التي يغطـّيها الحصى فتوقـّفت وترجّلت .

وكان البيت ذا بناء بسيط جداً : طابقان لكل منها ثـــلاث نوافذ ، وسلـّم خارجي ذو طراز جبلي ، كان يفضي إلى الطابق الثاني الذي كانت نوافـذه تطل على نوع من الرواق ، فبدا طيفٌ صغيرٌ أسود تحت ضوء الفانوس الشاحب ، طيف فتاة ذات شعر كثيف ، وصدرٍ بارز ، وقامة دقيقة ، فأيقنت انها كانت سيسيليا .

وفكرت : « انها هي ! » وقذفت بنفسي إلى السلـّم بينما كان الطيف الصغير المرتفق الدربزين ينظر إليّ قادماً بهدوء . وحـــين بلغت أعلى السلم ، انتصبتْ وأقبلت للقائي وهي تقول :

– مساء الخير .

وإذ كانت في عكس النور ، لم أستطع أن أميّز وجهها ، ولكنّ صوتها بدا لي وكأنه صوت سيسيليا ، فأخذتها بين ذراعي . ورأيت إذ ذاك وجهاً لطيفاً ممتلئاً لفتاةٍ صبيّة جداً يغطـّيه مسحوق الرز الأبيض ، الذي كان شائعاً آنذاك ، ورأيت شفتين مصبوغتين باللون البنفسجي ، وعينين يحيط بهما السواد وشعراً في لون شقرة القش . وكان لها نهدان مشرئبّان كنهدي سيسيليا ، وكانت قامتها التي تشدّهـا ذراعاي دقيقةً كقامة سيسيليا . ولكنها لم تكن سيسيليا .

ومع ذلك ، فقد قلت ، مأخوذاً بالذهول : – سيسيليا !

فابتسمت الفتاة وأجابت :

– ليس اسمي سيسيليا ، بل جيانا .

– ولكني أنا ، كنت أريد سيسيليا ...

– لا أدري من هي سيسيليا . وليس هنا مَنْ اسمها سيسيليا ... أتريد ان

تدخل ؟

فقلت :

- سيسيليا ... لقد جئت من أجل سيسيليا .

وتخلصت من الفتاة بانتفاضة ، وهبطت الدرج وأنا أعدو ، فعبرت الساحة وعدت أصعد إلى سيارتي . وبعد دقيقة ، كنت أسير على طريق كاسيا ، ولكن مولياً ظهري إلى روما ، باتجاه الريف .

وكنت قد لاحظت ، منذ حين من الزمن ، اني كنت أشعر غالباً وأنا أقود سيارتي بما يغريني بأن أترك الطريق وأرتمي بكل سرعة على أول عقبة تنتصب أمامي . وكان هذا اغراءً لا سبيل إلى مقاومته ، اغراءً جذاباً ، وفي الوقت نفسه مطمئناً ، شبيهاً بما يحس به الطفل حين يلعب بمسدس أبيه ، فيوجهه بين الفينة والفينة إلى صدغه . ومع ذلك ، فلم أكن أفكر بأن أنتحر ، بل إن فكرة الانتحار لم تكن قد خطرت قط على بالي . ورغبة الموت هذه كانت على العكس في جسدي المرهق بالضيق والقلق ، وكنت قد شعرت مرات كثيرة بأن ذراعي ستعطي المقود بسهولة نصف الدورة تلك التي تكفي لأن تمضي سيارتي فتنسحق بجدار سياج أو شجرة دلب مطلية بالأبيض . وكما قلت ، كان الإغراء لا يُقاوم ، وكان رقيقاً ومطمئناً ؛ وكان يذكّرني باغراء النوم الذي يغلبنا أحياناً بالرغم منا، فيما هو يجعلنا نحلم بأننا نقاومه ونبقى مستيقظين ، بينما نكون في الواقع قد استسلمنا فعلاً للنوم : وهكذا كنت أعرف مقدماً انني إذا قُتلت بحادث سيارة ، فاني أكون قد فعلت ذلك من غير ان أشعر ، ومن غير ان أريد كما لو اني كنت أسلك حقاً طريقاً خيالية ، غير أني كنت أسير عليها، طريقاً لم تكن تحسب حساباً للجدران ولا للأشجار ولا للبيوت ، وكان الموت ينتظرني فيها .

وحدث في ذلك المساء ، بينما كنت أقود سيارتي على طريق « كاسيا » متجهاً بلا هدف إلى الريف ، أنْ عاودت ذهني عبارة كنت قد سمعتها لا أدري متى ولا أين: « إن البشرية تنقسم إلى فئتين : أولئك الذين يشعرون، تجاه صعوبة لا تقهر، بالرغبة في القتل ، وأولئك الذين يشعرون على العكس ، بالرغبة في قتل أنفسهم . »

وقلت في نفسي اني قمت بتجربة إحدى النظريتين ، وأن الامتحان قد أخفق : فانني لم أكن قادراً على قتل سيسيليا ، قبل ذلك بساعات ، فوق سرير . فلم يكن باقياً لي إذن الآن إلا ان أقتل نفسي . وفكرت بأنني إذ أقتل نفسي،فإنما أتصرف تماماً كما يتصرف أي عاشق ، منذ ان كان العالم عالماً : لقد ذهبت سيسيليا إلى بونزا مع لوسياني ، وكنت أنا أقتل نفسي . ولكن هذا التفكير بتفاهة وضعي الذي هو طبيعي تماماً ، أوحى لي غضباً مدمراً أقوى من أي وقت آخر .

وفي تلك اللحظة كان ينبسط أمامي صف مستقيم تكتنف جانبيه الأشجار ، وكانت شاحنة تتقدمني ، وهي تسير ببطء . وغيّرت السرعة لأتجاوزها ، وربما كان تغيير السرعة هذا ، مع البطء التالي ، هما اللذان انقذا حياتي . لأني بعد ان غيّرت السرعة مباشرة ، خيّل إليّ ان طريقاً أخرى إلى يساري تنفتح أمامي ، وأردت أن أسلكها ، فوجّهت سيارتي نحو شجرة دُلب .

خـــاتمة

في المستشفى الذي نُقلت اليه بعد الحادث ، كانت تنتصب قبالة نافذة غرفتي المطلّة على الحديقة ، شجرة كبيرة ، أرزة من أرز لبنان ، ذات غصون طويلة باكية ، وخضرة تكاد تكون زرقاء . وقد أخذت أنظر اليها ساعات طويلة ، وأنا متمدّد على ظهري في سريري ، ورأسي مائل إلى الوسادة . كنت أنظر اليها طوال الساعات التي لم أكن أكرّسها للنوم أو للطعام ، لأني كنت وحدي دائماً تقريباً ، بعد أن أعلمتُ أمي وأصدقائي النادرين اني لم اكن راغبـاً في تقبّل الزيارات .
كنت أنظر إلى الشجرة فأحسّ شعوراً من يأس كلّي ، ولكنه هـادىء وقد ترسّخ واستقرّ ، كذلك الشعور الذي يمكن ان نُحسّ به بعد ان نكون قد اجتزنا ازمة اذا لم تكن قد حملت أيّ حلّ ، فهي تجعلنا نفترض انها قدّمت أقصى ما يمكن ان نتحمّله .

إن ما اسميه انتحاري ، وأنا أسمّيه كذلك لأني لا أجد وصفاً اكثر انطباقاً ، لم يحلّ شيئاً قطّ ، ولكنّ كوني قد حاولته على الأقل يجعلني أفكـّر بأني كنت قد قمت بكل ما كان في استطاعتي : ومـا كنت لأستطيع أن أفعل اكثر من ذلك . وبعبارات اخرى ، فان كوني قد حاولت أن أنتحر كان يؤكد خطورة التزامي اني لم أمت ، ولكني دلّلت لنفسي على الأقل اني ، بدل ان استمرّ في العيش كما عشت حتى ذلك الحين ، انما فضّلت الموت ، وفضلته حقاً . وهذا كله لم يكن يخفّف شعور اليأس الذي كان يملأ روحي ، ولكنه كان يضفي عليها نوعاً

من الصفاء الحزين المتطامن . كنت قد مضيت حتى تخوم الموت المظلمة ، وقد عُدت منها ، وبعد الآن ، لم يكن باقياً لي إلا أن أعيش ، بالرغم من انعدام الأمل .

وكما سبق ان ذكرت ، كنت أقضي ساعات وأنا أنظر إلى الشجرة ، مما كان يثير دهشة الراهبات والممرضات اللواتي كن يقلن إنهن لم يرين مريضاً في مثل هدوئي ، وسكوني . والواقع اني لم اكن هادئاً ، وانما كنت منشغلاً جداً بالأمر الوحيد الذي كان له في نظري أهمية ، آنذاك : تأمل الشجرة . لم اكن أفكر في شيء ، وانما كنت اتساءل متى وكيف تعرّفت من جديد إلى واقع هذه الشجرة ، اي اعترفت بوجودها على انها حاجة مختلفة عني ، لا علاقة لها بي ، وهي مع ذلك موجودة ، ولا يمكن ان تُجهل . وبالطبع ، كان شيءٌ ما قد حدث حين انقذفتُ بالسيارة خارج الطريق ، شيء إذا لم نستطيع أن نشرحه ، فيمكن ان نعرّفه بأنه يشبه انهيار مطمع غير معقول . أما الآن ، فقد كنت أتأمل الشجرة في انبساط لا ينفد ، كما لو ان الاحساس بأنها مختلفة ومستقلة عن شخصي كان يعود عليّ بأكبر لذة ممكنة . ولكني كنت أدرك ان المصادفة وحدها أرادت بعد ان نُقلتُ إلى المستشفى ان يجبرني الجص الذي كان يقسرني على التمدد بلا حراك ، ان انظر إلى الشجرة عبر زجاج النافذة . وقد كنت اعلم ان أية حاجة أخرى كانت ستصيب من تأملي الشعور نفسه من الانبساط الذي لا ينفد .

وفي الواقع ، ما ان بدأت أفكر من جديد بسيسيليا ، حتى لاحظت ان ذلك في نظري كان شبيهاً بأن انظر إلى الشجرة من النافذة . وكانت عشرة ايام قد انقضت على الحادثة ، وكانت سيسيليا ما تزال بالتأكيد في بونزا مع لوسياني ، وإذن ، فقد عدت إلى التفكير بها ، أولاً بصورة نادرة وحذرة ، وبعد ذلك كثيراً وبثقة أوفر . وأدركت إذ ذاك اني كنت أتمثل بسهولة ، كما لو اني كنت حاضراً ، كل ما كانت تفعله بينما كنت انا متمدداً في سريري بالمستشفى . وكلمة « أتصور » لا تفي بالمرام ، انما كنت أراها . كنت أرى ، كما من خلال منظار ،

طيفيْ سيسيليا والممثل الصغيرين البعيدين يتحركان ويركضان ويتعانقان ويتنزهان ويتمدّد أحدهما بجانب الآخر ، ويختفيان ثم يظهران في مئة وضع ، على قماشة خلفية البحر الازرق والسماء المشرقة الصافية . وكنت أعرف بالتجربة أية سعادة يمكن ان تكون بأن تجد نفسك مع الشخص الذي تحبّه ويحبّك ، في مكان جميل هادىء ، وكنت متأكداً ان سيسيليا على صعيدها بالذات ، ذلك الصعيد الضيّق اللامعبّر ، كانت سعيدة ، وكنت أدهش إذ أشعر بأن ذلك كان يعود عليّ بالسرور . أجل كنت مسروراً ان تكون سعيدة ، ولكني كنت مسروراً خاصة ان توجد هناك ، في جزيرة بونزا ، بطريقة كانت طريقتها ، المختلفة عن طريقتي والمناقضة لها ، بعيداً عني ، ومع رجل لم يكن أنا .

أما أنا ، فقد كنت في المستشفى ، وهذا ما كنت أردّده بين الفينة والفينة ، وكانت هي في بونزا مع الممثل ، كنّا اثنين ، ولم يكن لي شأن معها ، كما لم يكن لها شأن معي ، وقد كانت خارجاً عني ، كما كنت خارجاً عنها . وبالاجمال ، لم اكن اشتهي بعدُ ان امتلكها ، وإنما ان انظر اليها تعيش ، كما كانت ، وأن أتأمّلها ، على النحو الذي كنت أتأمل به الشجرة عبر زجاج النافذة . وما كان لهذا التأمّل ان تكون له نهاية ، لأني لم اكن ارغب ان تنتهي ، أقصد إلى القول إني كنت أرغب ان تستمني الشجرة او سيسيليا او أي شيء آخر ، خارجاً عني ، وبالتالي ان تكفّ عن ان توجد بالنسبة لي . والواقع اني تحقّقت فجأة ، في شعور من عدم التصديق ، انني كنت نهائياً قد تخلّيت عن سيسيليا ، والغريب ان سيسيليا انما بدأت توجد بالنسبة لي ابتداءً من هذا التخلي .

وتساءلت عما إذا كنت ، بعد ان تخلّيت عن سيسيليا ، قد كففت في الوقت نفسه عن حبّها ، وعن أن أحسّ لها هذا الشعور الوهمي دائماً والخائب دائماً الذي كنت أحسّه لها حتى ذلك الحين والذي كان لا بدّ من أن أدعوه الحب ، لانعدام صفات أدقّ منه . فلاحظت ان هذا النوع من الحب ، كان قد مات ؛ ومع ذلك فقد كنت أحبّها بالمقدار نفسه ، وإنما بنوع من الحب جديد ومختلف . وقد كان يمكن لهذا الحب ان يرافقه العمل الجنسي أو

لا يرافقه ، ولكنه لم يكن متوقفاً عليه ، ولم يكن على نحو ما بحاجة اليه . وحين تعود سيسيليا سنستأنف علاقاتنا السابقة ، أو لا نستأنفها ، ولكنني في مطلق الأحوال لن أكف عن حبها .

ويجب ان أعترف ، وقد بلغت هذه النقطة ، بأن أفكاري كانت تختلط وتعتكر . وقد كنت أذكر انني منذ البدء ، خيّل إليّ ان علاقاتي مع سيسيليا لم تكن تختلف في شيء عن علاقتي بالحقيقة الواقعة . أقصد إلى القول اني كنت قد كففت عن الرسم للأسباب نفسها التي دفعتني إلى الانتحار . ولكن ما عساي أفعل الآن ؟ اني أقول لنفسي في آخر المطاف ان عليّ الآن ان أبقى في سريري أكثر من شهر وأنه لم يئن الأوان لأقرر أيّ شيء بعد . فحين أشفى ، سأرجع إلى المرسم ، وسأحاول ان أعود إلى الرسم . أقول « سأحاول » ، لأنني لم أكن قد أيقنت بأن هذه الصلة التي رأيتها طويلاً بين سيسيليا ورسمي موجودة في الواقع ، وبأن حبّ سيسيليا بطريقة مختلفة يعني قدرتي على أن أستأنف الرسم . وعلى هذه النقطة ايضاً ، سيكون بوسع التجربة وحدها ان تعطيني جواباً .

وهكذا فان النتيجة الوحيدة الأكيدة حقاً هي أني كنت قد تعلمت على أن أحب سيسيليا، أو بالأصح أني أحببتها ، دون ما زيادة. والواقع اني كنت أؤمل ان أكون قد تعلّمت . لأن الشكّ ، حتى بما كان يخصّ هذا المظهر من حياتي، لم يكن أمراً مستبعداً . وكان عليّ ان أنتظر ، لأكون متيقناً كلّ اليقين ، أن تعود سيسيليا من رحلتها إلى شاطىء البحر .

انتهت

صرح البرتو مورافيا، اكبر كتّاب ايطاليا اليوم ، بأن « السأم » خير رواياته . وهي قصة رسّام ملّ فنّه وملّ الحياة ، فحاول بجنون وسُعر ، من خلال علاقة غرامية بفتاة صبية ، ان يعقد من جديد صلة قوية مع الواقع ؛ فهل استطاع مع هذه الفتاة ، وتدعى سيسيليا ، ان يحقق غايته؟ هل يمكن للحبّ ان يُزيل «السأم» الذي يعانيه الانسان المعاصر بكل ابعاده ؟
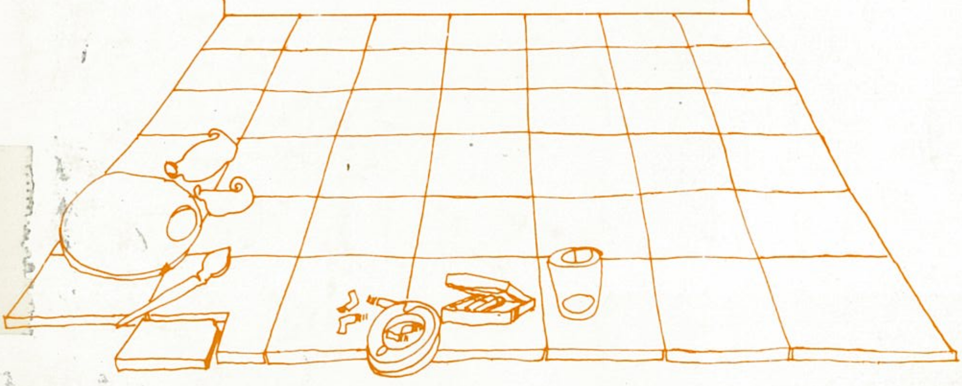
ان « السأم » قصة حب بلا شك ، ولكنّ القارىء يجد فيها طرحاً لعدد من المشكلات الهامة في حياتنا العصرية ، وهي قبل كل شيء قصة ارادة معرفة وامتلاك مكبوتة ومحرومة ، ارادة للتحرّر تكاد تخنقها مواضعات الحياة وتقاليدها . وسوف يتمكن القارىء بيسر من أن يرى ان المقصورة التي تسكنها امّ البطل هي من اقدر الأمكنة على اشاعة روح «السأم» في العالم كله ، لا في نفس الابن وحده !